

أ. سنكلير - ج. لختهايم - ر. ويليامز

صدر في سلسة أعلام الفكر العالمي

غيفارا : الطبعة السادسة / تأليف اندرو سنكلير

Guevara : By Andrew Sinclair

اورويل : الطبعة الثانية / تأليف ريموند ويليامز

Orewell : By Raymond Williams

لوكاش : الطبعة الثانية / تأليف جورج لختهايم

Lucas : By George Lichtheim

ثلاثة وجوه للثورة

ترجمة : ماهر الكيالي

مراجعة وتدقيق : سعدي يوسف وحيدر المومني

تصميم الغلاف : زهير أبو شايب

الطبعة الأولى : بيروت ١٩٩٤

الاسكتشات الداخلية مهداة من
الفنان شاكر حسن آل سعيد
إلى الناشر ماهر الكيالي في مطلع العام ١٩٩٤
وهي تحمل العناوين : سمكة العلامات ص ٦
يوم زكريا ص ١٠٢
النخلة وشجرة الطيور والورود ص ١٩٦



ثلاثة وجوه للثورة
غيفارا • لوكاش • أورويل

• ترجمة : ماهر الكيالي •

أ. سنكلير - ج. لختهايم - ر. ويليامز



تصـــدير :

بقلم الدكتور أسعد رزّوق

ولد جورج لوكاش عام ١٨٨٥ في مدينة بودابست، ونال شهادة الدكتوراه في الفلسفة عام ١٩٠٩. ثم قام برحلات زار خلالها المانيا وايطاليا. وبعد أن أمضى فترة دراسية طويلة في برلين انتقل من هناك الى هايدلبرغ عام ١٩١٣، حيث تردد على حلقات عالم الاجتماع الالماني ماكس فيبر وأقام صداقات مع مفكرين من طراز باول ارنست والفيلسوف الماركسي ارنست بلوخ. انضم لوكاش الى الحزب الشيوعي الهنغاري عام ١٩١٨، وشغل منصب مفوض الشعب لشؤون الثقافة في الحكومة الثورية التي يرأسها بيللاً كون عام ١٩١٩. وبعد إطاحة هذه الحكومة هاجر الى مدينة فيينا. فقام من هناك بزيارات غير مشروعة الى هنغاريا، وأسهم بالعمل في معهد ماركس – انجلز – لينين بموسكو، ثم انتقل الى الاقامة في برلين لفترة طويلة. ومن خلال الفترة الممتدة من ١٩٣٣ الى ١٩٤٤ اشتغل لوكاش في أكاديمية العلوم بموسكو. ولدى عودته الى هنغاريا أصبح عضواً في البرلمان وفي المجلس الرئاسي لاكاديمية العلوم المجرية، مثلما انه نال كرسي الاستاذية لعلم الجمال وفلسفة الحضارة في جامعة بودابست.

اشترك في ثورة المجر عام ١٩٥٦ وشغل منصب وزير الثقافة في حكومة ايمري ناجي. واثر انهيار نظام الحكم الجديد تم ترحيله الى رومانيا، لكنه استطاع بعد زمن قصير العودة الى مسقط رأسه في بودابست، حيث كرّس نفسه منذ ذلك الحين لاعماله العلمية ولقد توفي لوكاش في صيف العام ١٩٧١.

بقي طيلة حياته ماركسياً، رغم محاولاته المتكررة لكسر طوق الارثوذكسية الماركسية التي دافعت عنها موسكو. مثلما انه ظل في كتاباته حول نظرية الأدب ذلك المفكر الذي استلهم ماركس وهيغل.

ومما لا ريب فيه ان حياته وأعماله كانتا على ارتباط وثيق العرى. حتى ان الفترة الممتدة من ١٩٠٢ الى ١٩١٧ كانت مكرسة كلياً للأدب والجماليات، بينما امتد انخراطه في النضال السياسي واهتمامه بالموضوعات السياسية من ١٩١٨ الى ١٩٢٥. واستأثرت النشاطات التنظيمية بوقته كله من ١٩٢٩ الى ١٩٣١. لكنه عاد الى الموضوعات الادبية والجمالية عام ١٩٣١، دون ان يفقد اهتمامه بالسياسة وعلم الاجتماع.

والكتاب الذي بين يدي القارىء العربي يتناول جورج لوكاش من خلال مؤلفاته التي جمعتها احدى دور النشر الالمانية الغربية في اثني عشر مجلداً، على ان المكتبة العربية ما زالت تفتقر الى كتاب يعرّف القارىء بأفكار جورج لوكاش ومواقفه الماركسية. هناك ترجمة عربية لكتاب هنري ارفون عن لوكاش (ترجمة د. عادل العوا، دمشق ١٩٧٠) بالاضافة الى ترجمة لكتابين من كتب لوكاش : «ماركسية ام وجودية؟» ترجمة جورج طرابيشي في منشورات دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، دمشق) و «دراسات في الواقعية الأوروبية» (ترجمة أمير اسكندر، الهيئة المصرية العامة، ١٩٧٢)، وكذلك فإن المقالات التي اصدرتها دار الطليعة بعنوان «في التنظيم الثوري» تضم مقالة لوكاش التي عنوانها «غاليله الاشتراكي». عسى أن يكون هذا الكتيب عن حياة لوكاش وأعماله فاتحة لدراسة مؤلفات المفكر الماركسي الذي لم يبارحه الامل حتى أواخر أيامه في حدوث «نهضة للماركسية» واحياء للافكار النى نادى بها صاحب كتاب «التاريخ والوعي الطبقي : دراسات في الجدليات الماركسية» (١٩٢٣).

ولا بدّ من تنبيه القارىء الى تجذّر لوكاش في التقليد الفلسفي الالماني بنوع خاص وفي التربية الفكرية الالمانية عموماً. وهذا ما يبينه الكثير من كتاباته ومؤلفاته التي يتناولها هذا الكتاب بالشرح والتحليل النقدي.

اما بالنسبة الى جورج اورويل فترجع معرفة القارىء العربي - والطالب الجامعي بنوع خاص - ببعض آثار موضوع هذه الدراسة الى ثلاثة عقود تقريباً. فقد صدرت رواية اورويل التي ذاعت شهرتها في الغرب - وعنوانها «١٩٨٤» - عام ١٩٤٩، بينما توفي مؤلفها في ٢٣ كانون الثاني ١٩٥٠. وراحت اجهزة الدعاية الغربية تسلط الاضواء على الموضوع الذي تناولته الرواية بكثير من المرارة والحدة والسخرية اللاذعة، بعد أن كانت رواية «مزرعة الحيوانات» قد سبقت الى معالجة الموضوع اياه، وصدرت في العام ١٩٤٤ في ذروة الحرب الباردة - وربما اسهم اورويل من حيث يدري او لا يدري في بلورة مفهوم هذه الحرب واستخراج مصطلحها. وكانت المعاهد الاجنبية للتعليم العالي في بلادنا تقوم بتدريس درواية «١٩٨٤» في محاولة بارعة جداً لتلقين الطلاب بعض الافكار المسبقة والمتحيزة عن المعسكر الذي اعتبرته بإنه يؤلف الموضوع الرئيسي لكتابات اورويل.

ولا بد لنا في هذه العجالة من التنبيه الى ان جورج اورويل الذي حارب الى جانب الجمهوريين وقوى التقدم في الحرب الاهلية الاسبانية، لا يقصد حصر الادانة بالممارسات المنسوبة الى الشيوعية وحدها - والى الممارسة الستالينية بشكل خاص - بل يضع الرأسمالية والفاشية والرجعية في مصاف واحد. نعم، لقد اصيب اورويل اثناء مشاركته في الحرب الاهلية الاسبانية بخيبة امل مريرة من جراء التصرفات الشيوعية ضد تلك المنظمة التي انخرط في سلك المليشيا التابعة لها - وهي الحزب العمالي للاتحاد الماركسي POUM ، لكنه لم يتخل عن اشتراكيته وعن يساريته، ولم يتراجع عن ادانته الشديدة للفاشية والرأسمالية والمواقف الرجعية.

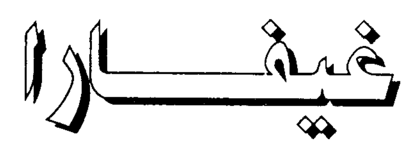
ان جورج اورويل يدين اكاذيب المدنية الحديثة وآفات السياسة والصناعة في العصر الحديث. ويتركز اهتمامه الرئيسي في نهاية المطاف على العلاقات الانسانية.

ويأبى موقف جورج اورويل احداث اي فصل بين المسؤولية السياسية والاخلاقية من جهة وبين الاستقامة الفكرية من جهة ثانية. وتبقى اهمية اورويل ان اهتمامه الرئيسي لا ينصب على السياسة او على الشخصيات بقدر ما يتركز على اللغة في حد ذاتها. فقد كتب يقول في افضل مؤلفاته التي تعتبر بمثابة محاولة لاعادة المعنى الى الكلمات والبرهان على ان النثر الجيد هو مثل زجاج النافذة في صفائه وشفافيته :

«يجب على المرء ان يدرك بأن الفوضى السياسية الحاضرة تتعلق بفساد اللغة، وانه من المحتمل أن يستطيع المرء احداث بعض التحسينات بواسطة البدئ عند طرف الفعل اللغوي».

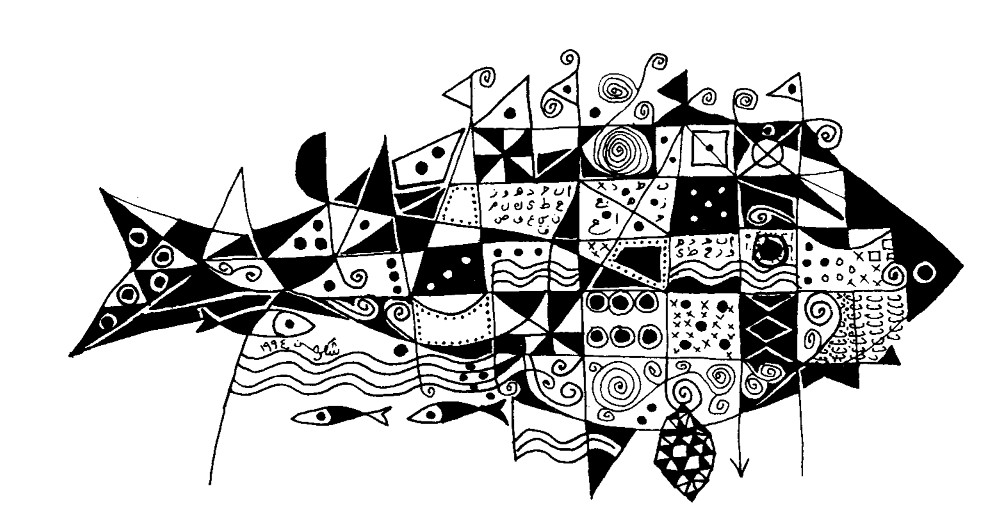
صدر هذا الكتاب عن جورج اورويل في طبعته العربية الاولى في غمرة الاحداث الدامية التي عاشها لبنان. وفي «مزرعة الحيوانات» كانت الوصايا السبع في الجمهورية الحيوانية تبدأ بالقول : «كل من يمشي على رجلينْ هو عدو» لكي تنص الوصية السابعة على ان «جميع الحيوانات متساوية». لكن الامر انتهى اخيراً الى رفع شعار واحد ينطوي على كثير من العبر ويتضمن المغزى الاهم، تقرأه في الوصية التالية : «كل الحيوانات متساوية، لكن بعض الحيوانات اكثر مساواة من البعض الآخر».

د. اسعد رزّوق



تـأليف : انـدرو سنكلير





سمكة العلامات

الفصل الأول

خلفيـــة ثائـــر

«ولـدت في الأرجـنتين، وقـاتلت في كـوبا، وبدأت حـيـاتي ثائراً في غـواتيمالا». هكذا أوجـز تشي غـيـفارا سيرة حياته. وهي أيضاً سيرة قارة وقـعت في تناقض بين حكومـات رجـعـية وثورات طوباوية. كان غيفارا أول رجل منذ أيام بوليـفار(*) يحمل خطة جـدية لتـوحيد مجموعة بلدان مـقـتـتلة تدعى أميركـا اللاتينيـة، وقـد شهد في حياته من التطورات ما يثبت صحة نظرياته ونقيضها في آن.

قـاوم غيفارا المولود عام ١٩٢٨ بـشـدة، تاريخه الماضي، بوصـفـه سليـلاً لعـائلة إسبانية إيرلندية كانت لها امتيازاتها ومكانتها. ومع ذلك، فـبالرغم مما يبدو على العائلة التي عاشت في المدينة الصغيرة آلتا غراسيا (Alta Gracia) من تمسك ظاهري بالعـادات والتـقـاليـد فـقد تميزت العـائلة في الحـقـيـقة بالتقدمية والنشاط والانفتاح الذهني. لم يثر آرنستو غـيـفـارا الذي تكنّى فيها بعد «تشي» على الحرية الفكرية في منزله بل ثار على الاضطهـاد الذي تتـعـرض له قـارته. وكما يشـهد ريكاردو روخو، وهو صـديق للعـائلة، فـقـد كـانت ثمة أشياء معينة مسلّم بها في أسرة غـيـفـارا ـ «حب للعـدالة، ورفض للفـاشـية، ولا مبالاة دينية، واهتمام بالأدب وحب للمـوسـيـقى وكـراهيـة للمال ووسـائل جمعه». لقد أدت هذه الظروف العـائليـة بصورة طبيعية إلى شعور التمرد مما دفع تشي إلى أن يـصـبـح ثائراً حـالماً يسـتطيع فـهم المشكلات الاجـتماعـيـة لأمـريكا الجنوبية.

تصرف «تشي» كـشـاب عندمـا كـان طفـلاً، وتصرف كـرجل عندما أصـبح شـاباً، ووصـفـه أحـد رفـاقـه في الدراسـة بأنه إنسان «واثق من نفـسـه إلى حـد لا يصـدق ومـسـتـقل في آرائه استقلالاً تاماً. . . ممتلىء

(*) القائد الإيطالي الشهير الذي حرّر بلاده.

شديد النشاط لا يعرف الكلل، فضلاً عن تحرره من التقاليد والأعراف». أما بالنسبة لأحد أساتذته فقد كان تشي «في مظهره وتصرفه إنساناً يفوق عمره كثيراً وبدا واضحاً أنه ينمو بشخصية واضحة المعالم ومزاج متقلب، وسلوك غير منضبط، ومع هذا فقد كان تام النضوج». وحين كان في المدرسة الثانوية كان أصدقاؤه من طلاب الجامعات يعدّونه واحدً منهم مساوياً لهم. كانت واقعيته تطغى على رغبتهم في الاحتجاج الوهمي. ففي إحدى المناسبات، عندما طلب منه النزول إلى الشارع في تظاهرة احتجاج سياسي، رفض وقال بعبارات رزينة «نخرج إلى الشوارع لنمكن رجال الشرطة من ضربنا بهراواتهم، دون أن نفعل شيئاً. أجل، أتظاهر، ولكن عندما تكون في يدي بندقية». مثل هذا التقويم الصعب للوضع وهو لما يزل يافعاً يجعل تأكيدات تشي الأخيرة جديرة بالتصديق، وهي أن شاباً في الخامسة عشرة من عمره يعرف سلفاً من أجل ماذا يريد أن يموت وهو لا يخشى أن يهب حياته إذا ما وجد هدفاً يجعل الفداء سهلاً.

كان «تشي» بطبعه ينظر إلى المصاعب على أنها تحديات، وإذن فلابد من الانتصار على العقبات وتحطيم الحواجز. وطغت على شخصية «تشي» ميزة رافقته طوال حياته في كفاحه المبكر مع داء الربو، فقد أصبح رياضياً بالرغم من نوبات الربو الرهيبة التي كانت تجبره على ترك ملعب كرة القدم كي يتناول الدواء. أصبح جوالاً عنيداً ورحالة لم يتوقف، إلا عندما كان لا يقوى على التنفس، حتى إذا استرد أنفاسه تابع سيره وتجواله. ولقد أنهى دراسة ست سنوات دراسية في الجامعة خلال ٣ سنوات، مجتازاً ١٦ امتحاناً في ٦ شهور، بالرغم من إصابته بـ٤٥ نوبة ربو. وصفت عمته هذه الفترة بقولها: «كنا نسمعه يلفظ الكلمات لاهثاً، ويدرس وهو متمدد على الأرض كي يسهل تنفسه دون أن يتذمر أبداً. فقد كان الأمر بالنسبة إليه بمثابة التحدي». غير أن سخرية القدر العظمى حدثت عندما قرر مجلس أطباء الجيش أنه لا يصلح لأي نوع من الخدمة العسكرية وكان ذلك

عندما بلغ من العمر ١٨ سنة. وكـان لابد من تأخير تدريبه العسكري فـترة من الزمن.

كـان لوفـاة جـدته بمرض السرطان ومكابدة والدته المرض نفسه أثر في توجـهـه نحـو دراسـة الطب. فـقـد أراد أن يحاول إيجاد عـلاج لهذا المرض ، إذ لم يكن ليـقـبل بوقـوع مأسـاة حـتى في عائلته. لم يقو على رؤية الألم والموت دون أن يحاول النفـاذ إلى جـذور المرض كله. وعندما رأى في النهـاية أن هذا الألم والبـؤس قـابلان للشفاء، حاول مرة أخرى أن ينفـذ إلى الجـذور المسببة لهذا كله. لم يكن في نفسه شيء من اليأس أو الاسـتـسلام ،ولذا لم يستطع أن يتخذ موقفاً سلبياً من المعاناة المؤلمة، فقد كان في طبيعته متحدياً حتى للمستحيل.

في عام ١٩٤٦ انـتـقلت عـائلة غـيفارا إلى بيونس إيريس حيث شرع «تشي» في دراسـتـه الطبـيـة. لم يكن طالبـاً منكبـاً على الدرس بل كـان يفـضل بذل جـهد مضاعف في اللحظة الأخيرة، إذ كان يقضي ما تبقى من وقـتـه في السـفـر. ولاحظ البرتو غـرانادوس وهو صديقه ورفيقه في سـفره أن «تشي» لم يكن مهتماً بإحراز علامات جيدة وإنما اهتم بدراسة مـا يعنيه فـقط. وانصب اهتمامـه بصـورة رئيسـيـة على تحسس مواطن الجمال في المـناظـر الريفـيـة في أمـريكا الجنوبيـة، وعلى تحـسس مـآسي شـعـوبها. وبعـد أن تجـول في الأرجنتين على دراجـة وقع عـقـداً للعمل كـبحـار في رحـلـة إلى البـحـر الكاريبي، وبعـدها انطلق «تشي» مع غـرانادوس في رحلة يجوب فـيـهـا القـارة بأكملها. لقد مارس كل منهما أعمالاً مخـتـلـفـة، مـن سـائق شـاحـنـة إلى حمـال إلى طـبـيب ومنظف للصـحـون. وعـمل «تشي» في وقت من الأوقـات حـارساً لشركة تعدين أمـريكيـة في تشيلي. وكان أكثر الأعمال أثراً في نفسيهما عملهما في ملجأ للمـصـابين بالجذام في سان باولو على الأمازون ،فهناك اكتشف «تشي» أن أعلى أنواع التـضـامن الإنسـاني والإخلاص كانت تنمو لدى الرجال المـنـعـزلـين اليـائسين. وأنهى تشي زيارته لميـامي وقـد أوشك أن يمـوت جـوعـاً، ولكنه عـاد بطريقـة مـا إلى بيـونس إيريس كي يكمل دراسـته

وينال شهادته الطبية.

كانت هذه الرحلة الشاملة التي أمضاها، وخبزه كفافه، الدليل بل القاعدة التي بنى عليها تشي شعوره بأنه يعرف الأمريكيين ومشكلاتهم، فقد قال فيما بعد انه لم يشعر قط بأنه غريب في أي مكان. «شعرت بأنني غواتيمالي في غواتيمالا، ومكسيكي في المكسيك، وبيروني في بيرو». وفي غضون ذلك بدأ مفعول الرحلة يحوله من طبيب إلى ثوري متطرف. وفي حديث له عام ١٩٦٠ تذكر أوائل هذا التحول فقال: «بسبب الظروف التي أحاطت برحلتي أصبحت على صلة وثيقة بالفقر والجوع والمرض. واكتشفت أنه ليس بوسعي أن أشفي الأطفال المرضى إذا لم تتوافر لدي الوسائل، وشاهدت الانحطاط في سوء التغذية والكبت المستمر. وهكذا ابتدأت أدرك أن هناك شيئاً آخر له من الأهمية ما يوازي أهمية أن يصبح المرء باحثاً شهيراً أو مساهماً في تقديم العلوم الطبية، عنيت به مساعدة هؤلاء الناس».

وكان لظروف السفر القاسية أثر آخر، فقد أثبتت له أنه يستطيع معاناة الشدة والحرمان ـ وأن العيش على حافة البقاء ضرورة لأي مقاتل في حرب العصابات. وقد لاحظ أصدقاؤه أنه يستطيع العيش في أكثر الأماكن دون أن يفقد روح الدعابة. وكان يتساهل مع صديق السفر إن هو أهمل أمر ملابسه ونقوده، أما بالنسبة لمشي المسافات الطويلة فهذا ما لم يكن يتسامح به. وكان من العزيمة بحيث يستمر في السير مدة ثلاثة أيام دون أن يذوق طعاماً. ثم أن يعيش فقيراً بين الفقراء جعل تشي يحس بنقمتهم على مستقبلهم، وبانتشار روح الأخوة بينهم، فضلاً عن تعلمه الانضباط الذاتي الذي يحتاج إليه كي يصبح قائدهم.

وبعد مضي شهرين من تخرجه طبيباً في عام ١٩٥٣ ـ وكان موضوع أطروحته حول الحساسيات الجسدية ـ ألقى «تشي» مهنته جانباً، بالرغم من معارضة أبيه لذلك. وترك الأرجنتين قاصداً بوليفيا التي

كانت شهدت أول حكومة إصلاحية فعالة في تاريخها. فقد قام النظام الجديد بتأميم مناجم القصدير التي ربما كانت أكبر المناجم وأسوأها إدارة في العالم، وكذلك وزع الأراضي البور بين الهنود الذين لم يملكوا حتى حق المطالبة بها منذ الغزو الاسباني في القرن السادس عشر. ولم يكن تشي ماركسياً ولا ثورياً بعد، وبشهادة صديقه روخو كان جل اهتمامه منصباً على الطب وعلم الآثار وليس على علم السياسة. ومع ذلك فإن احتكاكه الأول والمباشر ببرنامج واسع للتغيير الاجتماعي، كان بعد ذلك، صرف «تشي» إلى أفكار تقدمية ثورية. لقد كانت بوليفيا، وهنا تكمن المفارقة ،البلد الذي ألهم تشي في مهمته السياسية وهي التي قتلته في الوقت نفسه .

كان تشي على علم مسبق بأنه من المحتمل أن يكون قد حكم على الثورة البوليفية التي حدثت عام ١٩٥٣ بالإخفاق الجزئي. وبالاشتراك مع صديقه روخو قابل وزير شؤون الفلاحين، فخاب أملهما فيه وحدث فيما بعد أن وقف تشي مرة في الشارع أمام تمثال لبوليفار. وقال: «إن المسألة هي في محاربة الأسباب، وليس في الرضا عن التخلص من الآثار. إن الثورة محكوم عليها بالفشل إذا لم تعمل على كسر الانعزال الروحي للهنود. وإذا لم تنجح في النفاذ إلى أعماقهم، وتزلزل كيانهم وتتغلغل في عظامهم، وتعيد لهم مكانتهم كبشر، فما الفائدة إذن؟».

وزار الصديقان أيضاً المناجم العظيمة في سيغلو (Sigglo) وكذلك في كتافي (Catavi) ،وادعى وزير المناجم خوان ليشين أن الثورة متأصلة في بوليفيا أكثر منها في الصين. ولكن «تشي» بقي غير مقتنع. وعندما رفعت الحكومة من أجور عمال المناجم التي أممها تشاءم «تشي» وأصبح سوداوي المزاج، فقد رأى أن احتياجات شعب متأهب للثورة يمكن أن تحرف من خلال إعطاء العمال الرشاوى بتغير الأيدي المتحكمة في الأعمال، واعتبر ذلك من الأخطاء المميتة. ومما يدعو للأسى أن العمال خفضوا من الاحتياطي المادي والخلقي لثورة كانت

تحتـاج إلى كل ذلك حتى النهاية. ولم يستطع أحد من رفاق «تشي» في بوليـفيا تغيير تفكيره.

وترك «تشي» وروخـو بوليـفـيـا في شاحنة مع نفر من الهنود قاصدين بـيرو. وكـان وصـف روخـو لـردود فـعـل الهـنـود نحـوه ونحـو «تشي» بمـثـابة نبـوءة لردود الفـعل التي سـتـواجـه «تشي» كرجل عصابات في بوليفيا بعد ١٥ عاماً.

«لقـد كـانت رحلة لا مـفـر منهـا للتـعرف على أميركا الهنود. دخلنا عـالماً مـعـادياً ووقـعنا في شرك عـدم التـمـييز بين الحزم وبين أناس هم أشباه حازمين.

وكــان الهـدوء مخـيماً، رجّات ورضّات وهـدوء. ووجــدنـا أنـه مـن المسـتـحـيل أن نحـاول إظهـار تعاطفنا أمام تلك العيون المتحجرة التي تحـملق فـينا وأمام تلك الشفاه المطبقة الكالحة كالرذيلة والتي ترفض أن تجيب عن أسئلتنا. لم نستطع التفاهم بأية طريقة بشرية مع الهنود، ومع ذلك فإن الحـراس على الحدود مع بيرو كانوا على قناعة تامة بأننا شحنا رؤوس أولئك الهنود بأفكار حـول الثـورة الزراعـية».

وسـافـر «تشي» وروخـو مع طلاب أرجنتـينيين إلى مـدينة غوايكويل (Guayaquil) الاسـتـوائيـة، وهـنـاك اتخذ «تشي» قـراراً لم ينقـضـه في حـياته أبداً. فقد أقسم على الالتحاق بصديقه غرانادوس في ملجأ سان بابلو للمـجـذومين. ولكنه احـتـاج إلى قليل من الحث، من التـلامـذة الأرجنتـينيين، كي يواصل السـفـر مـعهم إلى غواتيمالا حيث كانت ثورة أخـرى في طور التـخـمر والتي قد تقدم نموذجاً للتغيير في القارة. وكما قـال روخـو لم يكن تشي مـاركسياً بعد، ولم يكن مهتماً أيضاً بالسياسة، ولكن صـديقاً آخر لاحظ أن تشي بدأ يشعر بأنه مسؤول عن كل المظالم في العـالم. لقـد كـان يتلمس طريقـه نحـو جـذور كل مسببات البؤس الذي شـاهده، والذي شـارك فـيـه الفـقراء أحياناً في أمريكا اللاتينية. ولكنه ظلّ جـاهلاً الفلسـفـة السـيـاسـيـة، فهي شاهد دليل الاستغلال ولكنها ليست طريقة تغيير النظام.

وفي غضون ذلك قام جوان بوش، الذي أصبح فيما بعد رئيساً إصلاحياً للجمهورية لوقت قصير بمقابلة «تشي»، ووجده «منهمكاً بشكل كبير بما شاهد. وبدا كأنه غير راضٍ عن الحلول التي افترضت حتى ذلك الوقت، وعندما كان يواجه بأسئلة محددة كان ينتقد كل الأحزاب، ولكنه لم يحدد موقفه الشخصي أبداً». ومع ذلك فقد كان بوش مقتنعاً من خلال الطريقة التي أجاب بها «تشي» عن الأسئلة بأنه لم يصبح شيوعياً بعد، وكان قلبه يسبق عقله، وكان إحساسه بالحرية لا يزال في صراع مع شعوره من احتمال قيام البيروقراطية بإدارة الدولة الاشتراكية. لقد كان بحاجة إلى رؤية قيام ثورة أخرى ودراسة الفكر الثوري من أجل إيجاد نظام للتغيير.

وكان جاكوب أربنز، الذي قاد الحكومة الثورية الجديدة بدعم من الضباط الشباب والمثقفين، قد أجرى أخطر إصلاح عرفته البلاد. وعندما وصل تشي في عام ١٩٥٣ كان أربنز يعيد توزيع مساحات واسعة من الأراضي على الهنود والفلاحين، وهي الأراضي التي صادرها من شركة الفواكه المتحدة. كان الخطر على الإصلاح يكمن في التحفز لهجوم معاكس تقوم به الشركات التي تمثل مصالح الولايات المتحدة، ذلك أن شركة الفواكه المتحدة كانت معتادة منذ وقت طويل على حكم ما يسمى «بجمهوريات الموز» لصالح حملة الأسهم الأمريكيين. لم يكتفِ أربنز بلفت نظر «تشي» للقوة الاقتصادية لأمريكا الشمالية فحسب، بل عرفه أيضاً بخصائص نظامها السياسي عندما قال بعبارات ليست مادية «الرجل ليس معدة فحسب». وأعلن أربنز «في نهاية المطاف، نحن نؤمن بأنه ـ الإنسان ـ يتوق للكرامة». وبرز هذا الموقف كشيء أساسي في تفكير تشي فيما بعد، فقد طور تشي المفهوم الاشتراكي نفسه بحيث جعل ضمن محتواه أن الإنسان لم يكن ولن يكون مادياً في تطلعاته، لأن الاشتراكية الحقيقية نقيض للمادية. وبقي تشي يكن إعجاباً لأربنز وبرنامجه طيلة حياته.

علاوة على ذلك، لم يكن إعجاب تشي كافياً، بل رغب في العمل

لخدمة الثورة كطبيب في أدغال بيتن (Peten)، لكن رغبته لم تلق نجاحاً بسبب بعض الاعتبارات البيروقراطية. فقد حدث أن زار وزير الصحة العامة، وبدا له آنذاك وكأنه قد ووفق عليه، إلى أن سئل عن بطاقته. «أية بطاقة؟» سأل غيفارا، فأخبره الوزير بأن عليه أن يكون عضواً في حزب العمل الغواتيمالي، وهو اسم آخر للحزب الشيوعي المحلي. ورد «تشي» بأنه يعتبر نفسه ثورياً وهو لا يعتقد بأن انتسابات من هذا النوع تعني شيئاً على أية حال، إذ إنه لم يكن ليرضى بالالتحاق بالحزب عن طريق الإكراه، بل بشعور من القناعة التامة. وهكذا لم يستطع الحصول على الوظيفة.

كان سقوط نظام حكم أربنز عام ١٩٥٤ بمثابة أول اختبار يواجهه تشي في التكتيكات العملية للثورة والثورة المضادة. وكان الرد الانتقامي لحكومة إيزنهاور على إيقاف مصانع شركة الفواكه المتحدة أن سمحت لوكالة المخابرات المركزية (CIA) بالبدء في تنظيم وتمويل انقلاب عسكري في غواتيمالا. وعملت ثلاثة عوامل في صالح وكالة المخابرات المركزية (CIA) أولها أن ضباط الجيش الغواتيمالي المناصرين لأربنز خاب أملهم بالنظر إلى بطء خطى الثورة التي لم يكن لديها الوقت الكافي آنذاك لنيل الدعم والثقة من جماهير الهنود في غواتيمالا. وكان انقسام النظام نفسه بسبب المطامع الشخصية والخلافات الآيديولوجية عاملاً ثانياً لصالح المخابرات المركزية، أما العامل الثالث فهو ذعر الطبقات الوسطى من تحدي الحكومة العلني للولايات المتحدة.

وفي نهاية يناير عام ١٩٥٤ كان أربنز يتهم إدارة إيزنهاور بتنظيم غزو لغواتيمالا يعده المبعدون. غير أن هذه التهمة لم توحد البلد ليسير وراءه، بل أظهرت الانقسامات داخل حزبه الخاص وأشاعت الرعب بين الغواتيماليين.

وفي الثامن عشر من حزيران تعرضت غواتيمالا لغزو قامت به قوات كاستيلو أرماس المدربة بواسطة وكالة المخابرات المركزية

والمجهزة تجهيزاً جيداً. ورفض الجيش الغواتيمالي تسليح الشعب خوفاً منه.

وحفز هذا الانهيار روح النضال لدى تشي، فالتحق لأول مرة بالمقاومة، وتنقل بين مجموعات صغيرة من الشباب الثوريين، محاولاً أن يوحدهم ويستولي على مدينة غواتيمالا. كان لدى تشي استراتيجية وخطة للدفاع، ولكنه لم يستطع إيجاد مجموعة تتبناهما. لقد بذل جهوداً كبيرة في تشجيع الغواتيماليين وحثهم على القتال من أجل ثورتهم حتى أنه نقل السلاح بنفسه من مكان إلى آخر. ولكن لم يكن بوسعه أن يفعل وحده ما لا ترغب الحكومة في القيام به. وعندما استقال أربنز مبدياً ضعفاً ذاتياً، وحلّ أرماس مكانه، اضطر تشي إلى أن يطلب حق اللجوء السياسي من السفارة الأرجنتينية، وذلك خشية المجموعات اليمينية التي كانت تلاحقه مزمعة قتله. وبقي هناك كالسجين مدة عامين تقريباً حلّل فيهما أسباب فشل الثورة.

وكتب ريجي دوبريه فيما بعد: «الفشل بالنسبة للثوري هو نقطة الانطلاق، وهو مصدر إلهام له أكثر من الانتصار لأنه يجمع بين التجربة والمعرفة». ولربما كانت محاولات «تشي» على أرض المعركة غير مجدية ولكنه حاول أن يفعل شيئاً ما. اعترف «تشي» نفسه بأنه لقي الهزيمة في تلك الفترة، ومع ذلك فقد انصهر في آلامه مع جميع الغواتيماليين، بينما كان يتلمس طريقه لبعث مستقبل تلك المنطقة التي تدمي القلوب. وكذلك فإن السقوط قد قاد «تشي» للنهوض مرة ثانية وبشكل أقوى من السابق، لأن الهزيمة لم تعن له إلا مزيداً من الاستعداد للنصر في المرة التالية. وفوق كل ذلك كانت تعني إيماناً أكبر بتلك الجماهير التي لم يثق بها أربنز إلى حد تسليحها ودمجها في البنيان السياسي للبلد.

ولئن كانت وكالة المخابرات المركزية قد حققت نصراً مؤقتاً للمصالح المالية الأميركية في غواتيمالا، فإنها في الوقت نفسه أوجدت لها عدواً لدوداً. فالهزيمة المنكرة التي لحقت بأحد البلدان الاشتراكية،

والتي دبرها المتآمرون الرأسماليون قد دفعت «تشي» إلى دراسة ماركس ولينين.

ووجد «تشي» أن كل البغض الشخصي الذي كان يكنه لأعداء أربنز ممن أفسدوا الحكومة والإصلاح الزراعي قد بدا متمثلاً في شروحات تاريخ العالم الماضي والحاضر الموجود في التفسيرات الماركسية لأساليب الامبريالية. فقد تعرض بلد صغير يعاني الاستغلال، تقوده حكومة تحاول تحسين أحوال الناس، إلى هجوم متعمد من قوة رأسمالية غنية تحقق أرباحها عن طريق استغلال هذا البلد الفقير. إن هذا مثال لأسوأ أشكال الامبريالية في التطبيق. وبذلك أصبحت الولايات المتحدة بالنسبة لغيفارا، وغدا يتمثله في تجربته وأيديولوجيته الجديدتين. وكتبت هيلدا جاديا زوجة تشي الأولى تقول: «كانت غواتيمالا البلد الذي دفع تشي للاقتناع نهائياً بضرورة خوض الكفاح المسلح وأخذ زمام المبادرة ضد الامبريالية. وقد كان على يقين من صحة ذلك عندما كان يهم بترك ذلك البلد».

غادر «تشي» غواتيمالا إلى المكسيك لدراسة نظريات الثورة. وفي مدينة المكسيك، حيث عاش عيشة الكفاف، كما يعيش العصفور في الشتاء، أقبل على قراءة الأعمال الكاملة لماركس ولينين ومجموعة أعمال أخرى لعظماء المفكرين الماركسيين. ثم انكبّ على دراسة ما كتب عن الاستراتيجية العسكرية في الحرب الأهلية في اسبانيا. فقد لجأ العديد من اللاجئين الفارين من الحرب إلى مدينة المكسيك التي تستقبل المهزومين في المعارك الأجنبية بالترحيب ولكنها تشح عليهم بالطعام. وتحت وطأة الجوع والدراسة والتجربة، أصبح «تشي» راديكالياً ملتزماً. لم يفاجأ «تشي» بالتقدم البطيء في الإصلاح الاجتماعي الذي كان يجري في المكسيك، لأنه كان إصلاحاً مترهلاً بالرغم من مرور عهود طويلة من الحكم الثوري. وأعلن أن «الثورة المكسيكية ميتة، لقد ماتت منذ زمن طويل وقد غاب عنها إدراك ذلك».

مهدت هذه الراديكالية الجديدة المتطرفة التي اعتنقها «تشي» للقائه

مع فيدل كاسترو في صيف عام ١٩٥٥ . كـان كـاسترو قد سجن ثم نفي من كـوبا لتـزعـمـه انقـلاباً فـاشـلاً ضد الدكتاتور فولجنثيو باتيستا (Fulgencio Batista)، وكـان كـاسـترو يـبـحـث عـن جماعـة من الثـوريين المتـفـرغين كي يقـوم بمـحـاولة أخـرى لغزو بلاده والإطاحة بباتيـستا. والتحق «تشي» بالحملة الكوبية في أول ليلة التقى فيها فيدل كـاسـترو. كـان «تـشي» ثـاني رجل يلتـحق بالحـملة ،أمـا الأول فكان راوول شـقـيق فيدل. وكتب تشي فيما بعد: «إن اقتناعي بالالتحاق بأي ثورة ضـد الطغـيـان لا يسـتـغـرق من الوقت إلا القليل» . وكان زواجه الأول ثمن ذلك القـرار. وقـالت زوجته «لقد ضحيت بزوجي من أجل الثورة الكوبية».

وعندمـا أبّـنَ كـاسترو تشي أشـار إلى أول لقـاء بينهما، ذلك اللقـاء الذي مهد للنتائج النهائية التي حصداها معاً فيما بعد. ذلك أنه في عام ١٩٥٥ كـان كـلا الرجلين في طور الرومانسية ولم تنضجهما الثورة بعد، ولم يكونا من أصـحـاب السلطة أو الخبرة، ثم كـتب فـيـدل عن «تشي» يقول:

«كـان قلبـه يغلي بالحـقـد على الامبرياليـة والاشـمئزاز منها، لا لأن إدراكـه السـيـاسي قد تطور إلى حد بعيد فحسب، بل لأنه أتيح له قبل ذلك بوقت قـصير أن يشاهد جرائم التدخل الامبريالية في غواتيمالا من خـلال المرتزقـة الذين أجـهـضـوا الثـورة في ذلك البلد. إن رجـلاً مـثل «تشي» كـان في غنى عن براهين مدروسة. كان يكفيه أن يعلم أن هناك رجـالاً مـصـممين على النضال ضد ذلك الواقع وحمل السلاح بأيديهم. كـان يكفـيـه أن يعلم أن أولئك الرجـال تلهـمـهـم المثل الوطنية الثورية الأصـيلة، وهذا وحده يكفيه».

تلك كـانت خلفـية رجل ثوري، رجل يتحدر من عائلة كانت تشعر بأنها منقطعـة عن باقي العـائلات التي تنعم بالامـتـيـازات، لأنها كانت واعـيـة للمظالم الاجـتماعـية، رجل كان يتحلى بطباع فريدة تميزه بالذكاء والنضج والتـمـرد والعناد، فـراح يجوب القـارة التي تعـاقب عليـها من

الحكومـات ما لم يجلب لها سوى الفقر المنتشر بين السكان. وصار ذلك الرجل طبيـبـاً همه مـداواة الملايين ممن لم يجدوا الدواء، من أمـراض لم تكن سـوى أعـراض لحـقيقة ما كانوا يعانون، والسبب الكامن في ذلك كله كـان الظلم الاجتماعي. ثم تأتي الخبرة الشـخـصـيـة المكتسبة من ثلاث ثورات فـاشلة ـ الثـورة البـوليـفـيـة التي قـضى عليـهـا الجيش، والثـورة الغـواتيمالـية التي تحطمت أمـام التـدخل الامبريالي، ثم الثـورة المـكسـيكيـة التي تعـفنت من الداخل. إن هذه الخبرة حـولت الطبـيب الشـاب، الراديكالي بطبعه، إلى ثوري رائع واعٍ. لقد انتقل من الانتقام السلبي إلى المقـاومـة الإيجابيـة، ومن الملاحظة إلى التـخطيط. وأصـبح تعـاطفه مع البشرية البائسة استراتيجية لإيجاد علاج لذلك البؤس: كان كل مـا يحتاجه «تشي» ليصبح ثورياً كاملاً هو ولادة ثورة أخرى.

الفصل الثاني

الحرب الثورية الكوبية

كانت الحملة التي أعدّها كاسترو لإلحاق الهزيمة بباتيستا في كوبا على وشك الفشل الأكيد؛ فالرجال الاثنان والثمانون الذين كانوا على ظهر المركب (Grama) لم يكونوا رجال حرب مدربين، وكذلك الأمر بالنسبة لتجهيزهم، الذي كان سيئاً بمقدار ما كانوا بحارة سيئين. لم يستطع واحد منهم أن يسيّر المركب بشكل سليم، كما عانى الجميع من دوار البحر وتلاطُم أمواجه، وما كادت تهبّ عليهم أولى العواصف حتى رموا في البحر كل ما يحملون من غذاء، ثم توجّهت الحملة لتنزل خطأ في مرفأ بليك (Belic) قرب سلسلة جبال سيرا مايسترا في جنوب شرقي كوبا. وكان فقدان الخبرة لدى فيدل و«تشي» وباقي المجموعة خلال الأسابيع الأولى من المغامرة الفدائية بمثابة دليل يرشد إلى ما ينبغي تجنبه، تماماً كما أصبح كتاب «تشي» «حرب العصابات» فيما بعد يخدم كدليل يرشد لما يتوجب عمله. ومع ذلك فإن الأخطاء التي يرتكبها رجال العصابات في بدء عملياتهم، غالباً ما تكون طريقهم للنجاح فيما بعد. وتؤكد جميع الاستراتيجيات التي تتناول حرب العصابات، بما فيها استراتيجية «تشي»، خطورة الفترة الأولى؛ إذ يكفي أن تقع بضع هفوات مصحوبة بشيء من سوء الطالع حتى تمحق المجموعة بأكملها عند البداية.

كان من المحتم أن تتحطم قوة فيدل كاسترو في المعركة الأولى في ألغريا دي بيو (Algeria de Pio) في الخامس من كانون الأول عام ١٩٥٦ . فقد قادتهم سلسلة من الأخطاء الفادحة إلى النكبة! ويروي يونيفرسو سانشيز، وهو واحد من قلة نجت ،سلسلة أخرى من الحوادث، مثل: كيف تقرحت قدماه بسبب حذائه الجديد وتعرض مكان استراحتهم في الغريا دي بيو للهجوم، والسماح لدليلهم بأن

يتركهم ويشي بهم لقوات باتيستا القريبة. ثم يروي قصة الطائرات العشر التي حلقت فوق رؤوس الثوار، دون أن يفكروا. ويروي بعد ذلك كيف كانوا يفترشون الأرض وأسلحتهم ملقاة هنا وهناك وقد نزعوا أحذيتهم من أرجلهم، وفيما هم كذلك قامت قوات باتيستا وهي قوات محترفة أين منها أولئك المقاتلون الأغرار، بتطويقهم وإبادتهم حتى لم ينج من المجموعة الأصلية إلا نحو اثني عشر رجلاً.

وفي كتابه «ذكريات عن الحرب الثورية الكوبية» الذي اعتمد في كتابته على ملاحظاته التي دونها أثناء الحملة، يتحدث «تشي» عن خبراته بقدر كبير من السخرية والتواضع والنقد الذاتي. فقد اكتشف أن أخطاء رجال العصابات الأولى «وخيمة ومؤلمة». ويذكر كيف جرح نفسه في ألغريا دي بيو ،ويصف رد فعله غير المنسجم والأصول الحربية. كان بحق يظن أنه مات مع أن الجرح لم يكن خطيراً ولم يكن همه النجاة بجلده ـ كما يمليه الواجب على رجل العصابات ـ وإنما كان همه أن يموت بشرف:

«بدأت أتساءل في الحال، ماذا عسى أن تكون أفضل طريقة للموت؟ لكن يبدو أن الجواب حينذاك قد ضاع. ثم تذكرت قصة قديمة لجاك لندن: فبعد أن يعرف البطل أنه محكوم عليه أن يتجمد حتى الموت في أصقاع الاسكا، ينحني على شجرة، ويقرر أن ينهي حياته بشرف. تلك كانت الصورة الوحيدة التي تذكرتها».

ويصحو «تشي» من تأملاته تلك على لعنات صديقه جوان ألميدا الذي أجبره على الفرار والنجاة ،إلى أن أسر «تشي» بعد ذلك وهو منحن على شجرة وكان مصاباً بجرح في ساقه، ولا يقوى على الحركة، ومع هذا ظل يطلق النار حتى سقطت البندقية من بين يديه.

راح تشي، عندما فر مع أربعة من رفاقه الناجين، يقارن ويفاضل بين واجبه كطبيب وكثوري. «قد تكون هذه هي المرة الأولى التي يتحتم عليّ فيها الاختيار بين تكريس حياتي للطب وبين واجبي كجندي ثوري. فأمام قدميّ صرة مليئة بالأدوية، وعلبة مليئة

بالرصاص، وكان من الصعب عليّ أن أحملها معاً لثقل وزنها. اخترت علبة الرصاص وأدرت ظهري لصرة الأدوية». هنا تعلم «تشي» درسه الأول كرجل عصابات. فالطلقات النارية بالنسبة لحياة المقاتل أكثر نفعاً حتى من أدوية المعالجة.

بيد أنه ارتكب مزيداً من الأخطاء؛ فقد وجد نفسه مع أربعة من رفاقه الآخرين يشقون طريقهم نحو السيرا مايسترا للاجتماع في مكان ما مع من نجوا من رفاق لهم. فقد قاد المجموعة مهتدياً بالنجم القطبي ومعتمداً على ما حفظه من علم الفلك، وبعد مضي عدة شهور اكتشف أنه خلط بين النجم القطبي ونجم آخر، وأن وصولهم إلى المكان الصحيح كان مجرد قضية حظ وحسب. بعد ذلك لم ينس تشي أن يضع بوصلة في حقيبة على ظهره. بعد أن وجد الرجال الخمسة أنفسهم محاطين بدوريات العدو ينهشهم الجوع ويكاد يقتلهم العطش عمدوا إلى طلب مساعدة الفلاحين في السيرامايسترا. ولم تخب آمالهم، فقد أقيمت لهم في أحد الأكواخ وليمة ملوكية ،وتدفق الجيران من كل صوب يحملون لهم الهدايا ويحيونهم بعبارات التعاطف، وكان هذا الترحيب المبكر بمثابة عون فاتر بالنسبة لتشي في حملته في بوليفيا. فبعد ٨ شهور ونصف من الأعمال الفدائية قدر له أن يكتب عن الفلاحين هناك قائلاً: «لابد من اتباع أسلوب ما لحثهم على الكلام، فهم أشبه ما يكونون بالحيوانات الصغيرة». وبالتأكيد لولا العون الذي قدمه المزارعون الكوبيون للاقت مجموعة «تشي» الصغيرة الفناء والإبادة.

ومع ذلك فإن مسلسل الأخطاء لم يكن قد انتهى بعد ،إذ قررت مجموعة «تشي» أن تترك بنادقها الثماني وكل الذخيرة والملابس في كوخ الفلاح الصديق، ومن باب «الحذر» عهدوا بحراستها إلى رفيق لهم مريض، لقد ظنّوا أن تخفيهم بلباس أبناء الريف يسهل لهم أكثر معاودة الالتحاق بكاسترو ولكن مضيفهم من دون قصد، أخرهم بثرثرته شأنه شأن الفلاح في حبه للقيل والقال. وهكذا أغار رجال باتيستا على الكوخ، وأسروا الرجل المريض، واستولوا على كل

الأسلحة والمؤونة. وعندما سارت مجموعة «تشي» خلف الفلاحين قاصدة كاسترو راح زعيمهم ينتقدهم انتقاداً مراً لتصرفاتهم الصبيانية الطائشة، فكتب «تشي» في مذكراته:

«منذ ابتداء الحملة حتى هذا اليوم لم تفارق كلماته ذهني: لم تدفعوا ثمناً للخطأ الذي ارتكبتموه، فالثمن الذي يجب أن تدفعوه لترك سلاحكم في مثل هذه الظروف هو حياتكم. فبنادقكم هي أملكم الوحيد للنجاة إذا ما حدث أن واجهتم الجيش واصطدمتم به، فالتخلي عنها حماقة بل جريمة».

وحدث أن مرض تشي حال دون متابعته السير مع المجموعة فترك أيضاً في رعاية مزارع صديق. ولكن في هذه المرة ترك على مقربة من منزل المزارع وحتى دون أن تعلم زوجة الأخير. لقد أصبح تشي أكثر حذراً.

وبالنسبة للقلة من الذين نجوا في «الغريا دي بيو» كان البقاء هو كل شيء. ففي الشهر التالي التحق بهم خمسة من المزارعين، وفي بداية عام ١٩٥٧ شنوا هجوماً ناجحاً على ثكنات لابلاتا. لكن معظم سكان الأرياف لم يحركوا ساكناً، وأما الاتصالات مع من كان يظن لديهم الطاقات الثورية في المدن فلم تكن قد تمت بعد، ولكن البداية، في الأقل، قد أنجزت. وكما قال فيدل، إن لديهم الآن ١٢ بندقية ونصراً واحداً بدلاً من سبع بنادق، ومع هذا فإنهم لم يحققوا أي انتصار قط. أما تشي فلم يتوقف عن اقتراف أخطاء، فقد راح يزهو بارتداء قبعة عريف كان أخذها تذكاراً لأحد الانتصارات. وفي أحد الأيام كادت قبعته تلك أن تكون سبباً في قتله أثناء نوبته في الحراسة، فقد ظنه رفاقه عدواً فأطلقوا النار عليه، ومن حسن حظه أنهم أصابوا قبعته دون رأسه.

خلال الأشهر التالية بدأت نواة رجل العصابات تتأقلم مع الحياة في السيرا مايسترا. وعلى الرغم من قلة الملتحقين هناك واكتشاف جاسوس بينهم فإن السكان المحليين حموهم ورعوهم. وكان أصعب

الأشيـاء، وهذا مـا قـدر لتشي أن يلمـسـه فيما بعد، هو الحصول على متـطـوعـين جـدد. فـفـي تـلـك الفترة كـان من الصـعـب جـداً زيادة المجـمـوعة؛ إذ ما كان أحدهم يلتحق بالثوار حتى يترك. كانت ظروف النضـال الطبيـعية قاسية جداً ولكن هبوط المعنويات كان الأسوأ. وقد قـادت هذه التـجربة تشي إلى أن يؤكد في كتابه «حرب العصابات» على مـدى أهميـة تـفـادي المـخـاطـرة أو فـقـدان الأرواح في المراحل الأولى للثـورة، ذلك لأنها أشياء لا تعوض أبداً.

لقـد تعلم رجـال العـصـابات دروسـاً من الثـوار خلال الشهور التي قـضـوهـا في السيرا مـايسترا. وكـان لانضمام عـدد صـغير من المزارعين للثـورة أهميـة حـيـوية. كان باستطاعتهم دوماً الحصول على الطعام من أصـدقـائهم الفـلاحين فـضـلاً عن التقاطهم الأخبار أو الإشاعات عن تحـركـات العـدو، وكـان بوسـعـهـم أيضـاً أن يدربوا المتطوعين من أبناء المدن على حـيـاة الريف. لقـد كـانوا الجـواسيس والعملاء لمجموعتهم. وسـاعـدوا في تـشكيل شـبكة من المؤيدين في المنطقـة ممن يسـتطيـعـون إحـضـار مجندين جـدد للالتـحـاق بفـرقـة رجال العصابات. وكان من توالي نجـاح «ذوي اللّحى» والأسـاطير المحاكة حولهم أن نما عدد الثوار وزاد دعـمـهـم. وشرع كـاسترو في تأسـيس شبه دولة ثورية في عدد من القـرى كـان من ضمن مهماتها إرسال التحذير من هجوم مضاد قد يقوم به الجيش.

كـان الأسـاس الذي بني عليـه دعم الفلاحين يقوم على الحذر بقدر مـا يقـوم على المثـاليـة. فـذاكـرة تشي عن الحـرب الكوبية مليئة بصور إعـدام المخبرين من الفـلاحين الذين وشى بهم فـلاحـون آخرون. كان الثـوار يحمـون أصـدقـاءهم والمحايدين ويعاملونهم بالحسنى، ولكنهم لم يرحموا قط أي شـخص من الذين سـاعـدوا باتيـسـتـا. وكانت مساعدة الحكومـة في العـديد من المناطق في السيرا مـايسترا في نهاية الأمـر أكـثـر خطورة من مـسـاعـدة الثـوار، خـلاف مـا جرى في الحرب اللاحقة في بـولـيـفـيـا، حـيث لاقى تشي الأمـرين من فـلاحين لم يستطع ضبط

تصرفاتهم أو إسكات ألسنتهم. وخلال الحرب الكوبية كتب تشي عن الفلاحين: «كان التبليغ عنا يسبب لهم عذاباً في ضمائرهم وكان مصدر خطر دائم عليهم نظراً لسرعة اقتصاص العدالة الثورية».

كان دور الفلاحين في الانتفاضة أساسياً لنجاح مجموعة كاسترو ولفهمها فلسفة الثورة. ووصف تشي تزايد إدراك رجل العصابات لأهمية الفلاحين فقال:

«بتنا نعي أكثر فأكثر ضرورة إحداث تحول في حياة الشعب. وبدأت فكرة الإصلاح الزراعي تنضج. ولم يعد الاتحاد مع الشعب أمراً نظرياً وإنما صار عنصراً أساسياً من عناصر وجودنا. وعندما حدث هذا أو عندما انقلبت الكلمات إلى حقيقة انصهرت مجموعة رجال العصابات والفلاحين في كتلة واحدة دون ان يعرف أحد متى تم ذلك. وهكذا أصبحنا جزءا من الفلاحين. أما بالنسبة لي فان محاولاتي في معالجة مرضهم في السيرا مايسترا قد حولت شعوري العفوي أو بالأحرى الحماسي الى قوة أكبر قيمة وأعمق جذوراً. ان اولئك المواطنين البؤساء الشرفاء لهم دور كبير في صقل الأيديولوجية الثورية».

وكان لهذا الاحتكاك بالفلاحين أعمق الأثر في نظرية تشي الشاملة، ولاحظ تشي ان «هناك تغيراً نوعياً؛ اذ توجد الآن منطقة كاملة يتجنبها العدو خوف ملاقاتنا وان كنا لم نسع الى الاصطدام معه».

لقد كانت «مرحلة القواعد المتحركة» بالنسبة لرجال العصابات في السيرا مايسترا مرحلة حاسمة، فاما أن تشق الثورة طريقها نحو النصر، واما أن تواجه الهزيمة فالتصفية. لقد أصبح الناجون القليلون من معركة اليغريا دي بيو مقاتلين أشدّاء بعد ان كانت كفاءتهم القتالية في البداية لا تذكر. ولم يتوقف تشي مطلقاً عن تحليلاته لأخطائه الشخصية وأخطاء المجموعة، بالرغم من بعض عجز أصابه خلال مرضه.

وكان معظم نظريته اللاحقة عن حرب العصابات ـ إقامة نواة

لرجال حرب العصابات، واستمرار الوجود الثوري بأي ثمن في الأيام الأولى، والحفاظ على الروح المعنوية - النتائج المباشرة لهذه الملاحظات. وفوق كل شيء تعلم أن ينظر بعين التقدير الى مساعدة الفلاحين المتطوعين الذين كانوا يزودون رجال العصابات بالمؤن. وبالرغم من أهمية وجود المتطوعين الجدد والأسلحة المرسلة من المدن، فإن تشي أخذ يقلل فيما بعد من قيمة مساعدتهم في تطوير قوات رجال العصابات، وذلك لأسباب سياسية.

ويعتبر انتصار الثوار في الأوفيرو، عندما اكتسحوا ثكنات صغيرة في وضح النهار خلال هجوم مباشر، نقطة تحول في الحرب، فقد انسحب جيش باتيستا بعدها من مراكزه في السيرا مايسترا تاركاً خلفه منطقة واسعة للثوار. ومنذ ذلك الوقت، كما يذكر تشي «يقوم العدو بغارات متقطعة على السيرا مايسترا . لا شك أنه كانت هناك منطقة محررة. والاجراءات الاحترازية لم تعد ضرورية، فكنا نستطيع، الى حد ما، التحدث في الليل والتحرك في مآوينا. كما رحنا ننتقل في قرى جبال السيرا ونوثق علاقاتنا مع السكان». ولكن النجاح قد يخلق من المشكلات بقدر ما يخلق الفشل. فقد بدأت قوة رجال العصابات فترة من النمو المستمر التي ولدت مشكلات جديدة تتعلق بالطعام والمؤن. وبدأ الطور الثاني من حرب العصابات بلجوء الثوار الى مجتمعات شبه دائمة، حيث أقاموا مراكز للخدمات والمؤن، وأصبحوا حكومة «مصغرة». كما أسست الصناعات الصغيرة، ومحطات الراديو والمستشفيات وصدرت مراسيم بسن القوانين وشكلت المحاكم ليأخذ العدل مجراه، وبدأت حملة مركزة من التثقيف، وأصبح الثوار يبتاعون من المزارعين والبقالين في القرى محاصيل ومؤنا معينة. وتبدلت اوضاع قوات الثوار من عدة وجوه الى ما يكاد يشبه أوضاع جيش نظامي يعسكر في أرض صديقة.

ويعود الفضل الأكبر في هذا التنظيم الى تشي. فمهارته في التخطيط التي تكشفت فيما بعد تبدأ من هذه الفترة. فبعد معركة الـ أوفيرو رفع

الى رتبة ميجور أو قائد قطاع (Command) وهي أعلى رتبة في قوات الثوار بوصفه مسؤولاً عن « الصف الثاني» ، وبذلك فإن مركزه من حيث المرتبة يلي مركز كاسترو مباشرة. وبدأت الإذاعات الخاصة لباتيستا تحمل على «تشي» شخصياً كحملتها على كاسترو وشقيقه.

وكان انريكو مينسيس (Enrique Menses))، وهو صحافي امضى شهورا في السيرا مايسترا في كانون الأول عام١٩٥٨، قد شهد لتشي بنجاح خطته في إقامة قاعدة امدادات للثوار. فقد دفعته تجربته التي عاشها في السيرا مايسترا للبدء في كتابه « حرب العصابات » بثلاثة منطلقات رئيسية، من بينها أن « المناطق الريفية في البلدان النامية في أمريكا اللاتينية تعتبر أفضل مواقع العصابات، واتخذ الاصلاح الزراعي شعاراً له ». وقد أكد تشي وأتباعه من الثوريين الكوبيين فيما بعد أنهم لم يقرأوا ما كتب الآخرون في هذا الموضوع. كانت خبرة تشي الشخصية المكتسبة أفضل معلم له.

وثمة درس آخر كان أكثر فائدة منه في الأيام المبكرة من الحرب. فقد أصر كاسترو على قواته أن يتصرفوا بانسانية، قدر الإمكان مع جرحى العدو والأسرى المدنيين والفلاحين الذين لم يتعاونوا مع العدو. فكانت النتيجة أن سمعة رجال العصابات الطيبة امتازت عن سمعة رجال باتيستا السلبية، الذين اقترفوا مختلف الأعمال الوحشية. وكانت لذلك فائدة عملية لتشي نفسه الذي عانى من نوبة حادة. وحدث في إحدى المرات ان أبيدت مجموعة كاسترو بأكملها تقريباً بسبب ضعف تشي البدني. وفي النهاية كان لا بد من تركه ليعتني به أحد المزارعين الذين أيدوا رجال العصابات لمعاملتهم الانسانية وعندما حاول تشي الالتحاق بالمجموعة كان مريضاً لدرجة اضطر معها الى استعمال بندقيته كعكازة، واستمر يمشي عشرة أيام لقطع مسافة كان يجتازها في يوم واحد.

كانت الوحشية التي مارسها باتيستا في احباط مؤامرة طلابية في هافانا عوناً أساسياً وجديداً للرجال الثلاثين الذين كانوا يشكلون قوة

رجـال العـصابات. وبدأت حملة الارهاب التي قام بها الجيش في جبال السيرا مـايسترا في زعـزعـة تعـاطف الفـلاحين مع كـاسترو، ومع ذلك فإن ٥٠ مـتطوعاً جديداً من أبناء المدن التحقوا برجال العصابات. كان ثلاثون منهم مـسلحين. وفي أيار من عام ١٩٥٧ سلمت شحنة أسلحة الى قـوات كـاسترو تضم رشـاشـات وبنادق أوتومـاتيكية وكاربينات و ٦٠٠٠ طلقـة. وكـان تشي والثـوار المتـمرسون منتشين بهذا التعاظم في القـوة بالرغم من سـوء نوعية المتطوعين الجدد وضعفهم.

«بعـد عـدة أشـهـر قـضـيناها في السيرا أصـبحنا متمرسين ورأينا أن القوات الجديدة في جراما (Grama) كـانت تفتقر الى النظام والقدرة على التكيف مع النكسـات والحـياة الجديدة والحزم. . . كان من السهل مـلاحظة الفـارق الكبير بين المجـمـوعـتين. مجموعتنا انضباطية محكمة اعـتـادت على الحـرب وشظف العـيش. أما مجموعة القادمين الجدد فما زالـت تعـاني من وحـشـة الأيام الأولى : فـهم لم يعـتـادوا تناول وجـبـة واحـدة في الـيـوم. واذا لم يعـجـبـهم الطعـام الذي كـان يوزع عليـهم أضربوا عن تناوله. كـانت صررهم تحـتـوي على أشـيـاء لا نفع منهـا، واذا حـدث ان كـانت الصرر ثقـيلة بحيث لا يستطيعون حملها ،فإنهم كـانـوا يـفـضـلون التـخلص من علبـة حليب مكثف على التـخلي عن منشـفة، وهذا عمل يعتبر جريمة بحق الذات الفدائية. اما نحن فكنا نجمع تلك العلب لنفيد منها فيما بعد » .

مع ذلك أبلى المتطوعـون الجـدد بلاء حـسناً في مـعـركـة أوفيرو التي لعب فـيـهـا تشي نفسـه دوراً رئيسياً. إن مرحلة « القواعد المتحركة » التي ناقـشـهـا تشي في كـتابه « حرب العصابات » كادت تختفي؛ فقد أجبرت القـوة المتنامـيـة لرجـال العـصـابات جيش باتيستا على إحداث تغـيير في مـوقـفه، كما احدثت هي تغييراً في معنويات رجال العصابات أنفسـهم. كـان التبـاين بين فيدل كاسترو وتشي واضحاً . كان فيدل الحـاكم الطوباوي المفـوه الدائم التنقل والتـخطيط. وكـان تشي منصـتاً هادئاً سـعى الى اقـامـة قـاعـدة للعمل آمنة . كان الانسان العملي الذي

يستطيع تحقيق أحلام فيدل. كان فيدل وتشي يعتمد احدهما على الاخر في العمل، وكان هناك فعلاً من يضمرون الإخلاص والاعجاب نحو تشي بمقدار ما كانوا يضمرونها لرئيسهم الكوبي.

ومع ذلك فإن هذه الفترة من حياة تشي لم تكرس كلياً لعمليات آنية؛ إذ لم يكن تشي منهمكا في احراز النصر في الحرب وحسب، بل بالقواعد العامة لجميع حروب التحرير، وبالمجتمع الجديد الذي سينشأ في كوبا غداة إحراز النصر. ويروي أحد الرفاق، وهو روفائيل تشاو في شهادته عن تشي في ذلك الوقت: «كان يمكن أن تراه في وقت متأخر جداً من الليل يجلس في خيمته ويدون ملاحظاته، وكان مولعاً بالنقاش أيضاً. وعندما كان الجميع على وشك أن يناموا، كان يتمشى خلال المعسكر باحثاً عن أحد يشعر برغبة في الحديث. وكان يتبادل الرسائل مع راوول كاسترو الذي كان يومها يخالفه الرأي في عديد من المعتقدات الماركسية التي يتمسك بها تشي». واكتشف تشي أن التنامي في وضوح الرؤية رفع من معنوياته ومعنويات جميع رجال العصابات وكان له أثر عليهم. «أيها القادة والمقاتلون ،إن الوعي يتنامى. وإن الأفاضل بيننا شعروا بمسيس الحاجة إلى الإصلاح الزراعي وقلب النظام الاجتماعي الذي بدونه لا يمكن للبلاد أبداً أن تحقق الرخاء».

والحقيقة أن كل صفحة من ذكريات الحرب الثورية الكوبية يمكن للمتأمل فيها أن يرى أثراً من عقل تشي المحلل والمتبصر بالأمور. ومعظم الأفكار التي تضمنتها كتاباته الأيديولوجية فيما بعد كانت في ذلك الحين لا تزال في طور النشوء .وما من شك في أن أفكاره الاستراتيجية قد ولدت خلال النضال في السيرا، وهي تتلخص في حكاية له عن خبرته القتالية. مثال ذلك ما يشرحه عن توقيت الكمين في آل هومبريتو فيقول:

«لقد أظهرت لنا هذه المعركة كم كان سهلاً ،ضمن ظروف معينة، مهاجمة الطوابير أثناء مسيرتها، ومرة أخرى تأكدت لنا صحة ذلك التكتيك الذي يقضي بالتسديد دوماً إلى رأس القوات الزاحفة، في

محاولة لقتل أول رجل أو أول مجموعة من الرجال، وبالتالي إحباط حركة قوات العدو بأكملها. وشيئاً فشيئاً قمنا بتحسين هذا التكتيك، وفي النهاية بلغنا فيه حداً جعلنا به العدو يحجم عن الدخول إلى السيرا مايسترا. كما رفض جنوده مرات السير في صفوف الجيش الأمامية».

ويخبرنا تشي عن تقويم أجراه في أعقاب إحدى المعارك أظهر مواطن ضعف قاتلة كان سببها الفشل في استغلال عنصر المباغتة. ولم يكن تشي يكتفي بشرح المعركة، بل كان يعمد إلى استخلاص الدروس منها. وفي الحقيقة أصبح كلا العاملين المذكورين أعلاه، ونعني بهما الكمين والهجوم المفاجىء، العنصر الأساسي عند العسكري في «حرب العصابات» وفي استراتيجيته الحقيقية في الحملة البوليفية.

أقام فيدل كاسترو صلات وثيقة مع جميع أحزاب المعارضة في كوبا واعداً إياهم بالكثير من أجل حصوله على دعمهم ضد باتيستا. وبنى آمالاً عظيمة على إضراب عام كان قد دعي إليه في المدن في نيسان عام ١٩٥٨. غير أن فشل ذلك الاضراب قد برهن على أنه كان أكثر من مجرد انتكاسة نظرية. لقد أطاح بمعنويات أعداء باتيستا وقطع خطوط الإمدادات والاتصال بين المدن والسيرا مايسترا، وأدى إلى هجوم شنه جيش باتيستا بهدف إلحاق هزيمة ماحقة بالثوار خلال الصيف. ويمكن القول إن ذلك الفشل قد زرع الشك في نفس تشي من حيث جدوى العمل المدني في دعم حرب العصابات في الحملة الكوبية. لم يكن يؤمن كثيراً بقوة الثوار المدنيين، الذين كانوا في نظره «ليِّني العريكة» وغير واقعيين. غير أن «زحفه الطويل» عبر الجزيرة في نهاية حملة كاسترو المظفرة في خريف عام ١٩٥٨ والتي شطرت الجزيرة إلى نصفين، أكّد تحامله على قيمة العمل المدني، ذلك أن هذا الزحف حرر المدن من الجبال. فقام بقطع المواصلات بين المدن، وبهذا عزل سانتا كلارا واستولى عليها نهائياً. وكانت تجربته الخاصة تتمثل في إقامة قاعدة ريفية، ثم التوسع إلى أن تقع القرى في يديه ويعزل المدن حتى تسقط أيضاً. ويرى تشي أن واجب الريف تحرير المدينة، ولابد من

غـزو المـراكـز المـدنيـة من الخـارج وليس من الداخل. وقـد أدت حملة الـسـيرا والمـوقف المحـافظ للحـزب الشيـوعي الكوبي إلى مـعـاداة تشي للمبـدأ الماركسي ـ اللينيني بالنسـبـة للثـورة التي يقـودها البروليـتاريون المدنيـون عبر سلسلة من الاضطرابات ومن خـلال تدمير آلات المصانع ثم عبر الثـورة النهـائية. «سوف ينتصر الفلاحون المسلحون على الريف إلى أن تسـقط المدن على ركـبـتـيـهـا كما يسـقط الموز العفن». هذه هي التـجربة التي قادت تشي فيما بعد إلى العزلة الجغرافية في بوليفيا.

وإذا أردنا التـعـرف على أخطاء تشي المبكرة والمرّات التي نجح فـيها كـرجـل عـصـابات في السيرا مـايسترا، فـذلك يتطلب صرف وقت غير قصير. فالشهور الـ٢٥ التي قـضـاها من حياته هناك خلقت منه منظماً ومـفكراً وخبيراً تكتيكياً شبيهاً بالبطل، مع أنه لم يكن سوى مجرد شاب مـريض بالربو، خـيالي ذي ثقافة مدنية، اعتبر نفسه ثورياً بسبب تجواله بين الفـقـراء في أمريكا اللاتينية ودراسته ماركس ولينين. لم يكن يختلف بأي شكل من الأشكال عن آلاف التـقـدمـيين من أبناء الطبقة الوسطى في المـهـن الحـرة. ولـكن في الوقت الذي تولت فـيـه حكومـة كـاسترو الانتقالية السلطة بعد انتزاعها من باتيستا في يناير ١٩٥٩ برهن تشي على أنه مـقـاتل مـغـوار، ذو شـجـاعة وقوة وقدرة عظيمة. لقد غدا من أهم الرجـال في كوبا، ثم سرعان ما أصبح ينظر إليه كشخص من أهم المنظرين للثـورة. كـانت مـهمته أن يؤلف «وبطريقة منتظمة ومتماسكة» أيديولوجـيـة من مجمـوعـة نظريات مـتناقـضـة تتوالد في كوبا إثر النصر الذي أحـرزه كاسترو.

عـملت الثـورة الكوبيـة على صقل تشي سياسياً وأيديولوجياً. وحولته صلتـه بالثـوار إلى «مناد بإصلاح زراعي يقوم على أسس ثورية». ودفعه الإجماع الوثيق على مـعـارضـة طغيان باتيستا في المراحل اللاحقة إلى أن يفكر بمـفـهـوم «حـرب الشعب»، وأكد الدور الذي قامت به الولايات المتحـدة في مـسـاعـدة ودعم باتيـسـتـا خلال معظم أيام الحرب بغضه لـ«امبرياليـة اليـانكي»! وكـان سلوك السيـاسيين الانتهازيين المعارضين

لباتيستا، والذين ارتبطوا بكاسترو لمنفعة شخصية فقط، قد أثار اشمئزاز تشي من الطريقة الديمقراطية التي أبرزت أمثال هؤلاء المتواطئين الجبناء. وفوق ذلك كله فقد اكتسب تشي من الخبرة الحقيقية في بدء حرب تحرير بمجموعة صغيرة تكبر لتصبح بحجم فرقة في الجيش، مجموعة من الأفكار المرنة وغير الماركسية عن مجموعات رجال العصابات بوصفهم «حملة لواء» الثورة. وكان النجاح يتوقف أيضاً، بنظر تشي، على قيادة الزعيم الموثوقة التي كانت أكثر أهمية من تنظيم حزب بأكمله بكوادره المجهولة. وكان اكتساب مجموعة الثوار الصغيرة قواعد شعبية شرطاً للنجاح.

وقد طبق تشي، منطلقاً من خبرته الخاصة في حرب العصابات في كوبا، مبادىء أساسية تتناول معظم الاستراتيجية العسكرية اللازمة لقيام ثورة عالمية. وثمة ثلاث أفكار في كتابه «ذكريات عن الحرب الثورية الكوبية» تتكرر دوماً، وهي تشكل المبادىء الأساسية لتصوره الشامل في المستقبل.

١ـ الصراع الفعلي هو أفضل طريق لتعلم القتال وخلق رجل ثوري. فالنظرية، مهما بلغ شأوها، لاتستطيع أن تصنع مقاتلاً قديراً. إن خوض التجربة في حرب ثورية هو الذي يصنع رجل العصابات الحقيقي ويميزه عن الحالم أو المتآمر في الخفاء.

٢ـ الصراع الحقيقي يصنع المنظِّر كما يصنع المقاتل أيضاً. فقد يستطيع الرجل أن يلتحق بمجموعة الثوار وهو جاهل كلياً بالأيديولوجية، ولكنه لابدَّ له في النهاية من أن يتعلم شيئاً من الأيديولوجية. فيجب أن يطور إذن وعيه الاجتماعي كرجل ثوري جنباً إلى جنب مع مهارته العسكرية، فمهارته العسكرية وحدها لن تساعده على مواصلة الحرب الفدائية. وهكذا يستخلص أن أفضل المقاتلين هو المقاتل الذي يتمتع بمعرفة الشؤون السياسية، وهو مرشح، أكثر من أي شخص آخر، لأن يصبح قائداً بعد تحقيق النصر، لأنه أكثر واقعية من أي شخص لم يقاتل.

٣ـ إن لمجموعة رجال العصابات صفات باطنية خاصة. وإن احتكاك تشي بمجموعة من الرجال الأشداء الشجعان والمثاليين في السيرا مايسترا علّمه مفهوماً بطولياً عن رجل الفداء. فهناك صفحات من كتابه «ذكريات» مليئة بعبارات الشكر والامتنان للرفاق الذين ماتوا في الحرب. وقد ساعد تشي في خلق أسطورة عن رجل العصابات البطل، بالرغم من أن هذا جرى بعكس فكرته عن المساواة. وعندما جاد هو بروحه كان قد حقق أسطورته الخاصة.

الفصل الثالث

نظريات حرب العصابات

قد لا يوافق الخبراء العسكريون أمثال الكابتن ليدل هارت على المقدمات المنطقية السياسية التي حفزت تشي غيفارا، ولكنهم متفقون على أن نظريته عن حرب العصابات هي بمثابة دراسات استراتيجية لامعة. فكتابات تشي حول الموضوع كانت ثورية حقاً، فهي تضع مخططاً توضيحياً عن كيفية انتصار انتفاضة تقوم بها مجموعة رجال ضد قوى الجيوش الحديثة والتكنولوجيا. فوجود حد أدنى من الموارد، وقليل من الدعم الشعبي، والمواصلات المتواضعة، لا تحول دون البدء بانتفاضة يمكنها أن تطيح بجيش نظامي ما دامت تضم إلى صفوفها كل يوم أفواجاً جديدة من المتطوعين. فليس للقنابل الذرية سوى نفع محدود في قمع رجال العصابات في الأدغال، ولا تستطيع الدبابات القيام بمهماتها في الغابات والجبال. كان نجاح الثورة الكوبية حافزاً للقيام بثورات عديدة أخرى، لقد كان أثر الثورة الكوبية عالمياً. فمن فيتنام إلى الكونغو ومن شيكاغو إلى البرازيل سيطرت نظريات تشي على المخيلة الشعبية، وقد صدت وهزمت الجيوش الحديثة المعدة لتحطيم كل شيء إلا هذا النوع من القتال. ونظراً لوجود اختلاف في عوامل سياسية واجتماعية إلى جانب الاستراتيجية العسكرية فقد نجح رجال العصابات في أماكن مثل الجزائر وفيتنام، وفشلوا في الملايو وبيرو وبوليفيا، وتورطوا في قتالهم في غواتيمالا وكولومبيا وفنزويلا والفلبين. ومع ذلك فليس من بين هذه الحروب حرب كان يمكن لها أن تكون مشابهة للأخرى بدون تأثير تشي غيفارا.

يبدأ تشي كتابه «حرب العصابات» الصادر عام ١٩٦٠، بعبارة شهيرة، وهي أن الثورة الكوبية «أثبتت قدرة الشعب على تحرير نفسه من حكومة ظالمة باللجوء إلى حرب العصابات»، ويواصل كلامه

فيقول:

١ـ القوى الشعبية يمكنها أن تفوز بحرب ضد الجيش.

٢ـ ليس من الضروري دائماً الانتظار إلى أن تنشأ حالة ثورية؛ فهذه يمكن خلقها بنواة ثورية.

٣ـ تعتبر المناطق الريفية في البلدان المتخلفة في الأمريكيتين أفضل ساحات قتال للكفاح المسلح.

هذه المعتقدات سمحت لتشي بأن يخلص إلى استنتاجات معينة تدحض سياسات الأحزاب الشيوعية الرسمية في أمريكا اللاتينية. فإذا كان بمقدور القوى الشعبية أن تحرز نصراً ضد الجيش، فليس هناك إذن ما يبرر «موقف المتفرج الذي يقفه الثوريون الزائفون»، الذين يقولون بأنه لا يمكن إلحاق الهزيمة بجيش من خارجه. وإذاكان بالإمكان خلق وضع ثوري فلا حاجة للانتظار إذن حتى تتهيأ «كل» الظروف المطلوبة لثورة نظرية ماركسية. وإذا كان في مقدور رجال العصابات أن ينجحوا في الريف ، فلا حاجة للانتظار إلى أن يستولي المدنيون والمجموعات الصناعية على المدن، وهؤلاء عرضة لهجوم مضاد ناجح يشنه الجيش عليهم.

ومع ذلك فإن تشي لا ينكر أن قوة المجموعة الريفية الصغيرة لا يمكنها أن تعمل إلا ضمن شرط واحد فقط. فإن عليها أن تعمل كطليعة مسلحة للجماهير، ولذا فهي لا تستغني عن دعم الجماهير. وهذا شرط مطلق. فبالدعم الشعبي لا تكون القوى الفدائية في وضع دون وضع الجيش من حيث العدد، وإنما تكون دونه في قوة العتاد. ويمكن لمجموعة الثوار أن تحصل على مساعدة الشعب فترة من الزمن بينما لا يحصل الجيش إلا على مساعدة المصالح الخاصة والبيروقراطيين الذين يستغلون البلاد، وهؤلاء بدورهم يتلقون المساعدة في الغالب من قوة أجنبية. وهكذا إذا ما دعم الشعب أو السكان المحليون القوة الثائرة فلابد من فوز رجال العصابات.

إذن، المقاتل في حرب العصابات هو أكثر من رجل عصابات. إنه

مصلح اجتماعي، يرفع السلاح من أجل الشعب، ويقاتل كي يغير الحكومة. ومن أجل أن يكون فعالاً، عليه أن يعرف معرفة تامة منطقة العمليات التي يكون فيها، بحيث يستطيع الانسحاب بسرعة، ويختفي بسهولة. وعليه أن لا يتورط في عمل ما، ما لم يتأكد من النجاح، مستغلاً جميع نقاط الضعف في عدوه، وملتزماً باستراتيجية «اضرب واهرب». والحرب الفدائية بطبيعتها هي مرحلة مبكرة من الحرب الكلاسيكية، ولا يمكنها، وحدها، أن تربح المعركة. ولكن التدريب هو الذي يطور نواة من الثوار إلى جيش صغير، قادر على خوض معارك نظامية ضد الجيش المتعسف. وكما أن كل فدائي «هو سيد نفسه»، فمن واجبه أن يحمي حياته الخاصة، بنفس الحرص الذي يبديه الجنرال في حماية نفسه. هنا يقوم تشي بالتمييز بين الجندي العادي والمقاتل في حرب العصابات. «كل فدائي يجب أن يكون مستعداً للموت، لا دفاعاً عن مبدأ، بل من أجل تحويل ذلك المبدأ إلى حقيقة».

ولما كان هدف الجيش النظامي تدمير كل حرب من حروب العصابات، فإن هدف رجل العصابات اكتشاف استراتيجية الجيش وإحباطها. إن إلحاق الهزيمة بالجيش هو هدف رجل العصابات على المدى الطويل، لأنه حينئذ يستولي على سلاحه ليحاربه به، ثم يسهل عليه فيما بعد الاستيلاء على ذخيرة لذلك السلاح من الجيش نفسه. ويجب أن تخطط حملة العصابات الشاملة بحيث تنفذ على ثلاث مراحل:

١ـ الصمود والتكيف مع ظروف حياة حرب العصابات.

٢ـ تشتيت قوة العدو في المناطق التي حددها رجال العصابات مناطق خاصة بهم.

٣ـ القيام بهجمات على العدو في أرضه، وذلك بتركيز الضربات على مواصلاته وقواعده.

وكانت أوامر تشي للحملة حازمة. اضرب العدو بثبات. دعه

يشعر بأنه معرض للإنهاك والتطويق. علم السكان المحليين أهداف الفرقة الفدائية، بحيث يرون مصالحهم في الانتفاضة. استخدم التخريب كي تنال من معنويات العدو وادفع به إلى الارتباك والعجز بقطع مواصلاته. تجنب الأعمال الإرهابية العديمة النفع. لا تحاول أن تحتفظ بأراض واسعة جداً. جدد مجموعات رجال العصابات بضم عدد كاف من المتطوعين. هذه المجموعات الجديدة سوف تحتفظ بمزيد من الأراضي إلى أن يصبح بالإمكان البدء بمهاجمة العدو على أرضه.

وفي كل الأحوال، لابد أن تتكيف التكتيكات المرحلية مع الظروف العامة، بحيث يتوجب على قوة رجال العصابات أن تستغل كل الأحداث وتحولها لصالحها. الحرب الكلاسيكية يمارسها العدو وحده، أما الثوار فلا يجوز أن يعرف أحد كيف يتحركون أو متى يهجمون، ثم لتكن السرعة شعارهم في جميع الهجمات. إن العناصر التي لا يستغني عنها رجال العصابات أن يكونوا «حازمين» في هجومهم وفي معاملتهم القتلة والمجرمين. لكن عليهم أن يكونوا رحماء بجنود العدو فيحرروا السجناء منهم ويعتنوا بجرحاهم. وعليهم أن يظهروا تعاطفاً كبيراً مع السكان المحليين ويحترموا العادات المحلية، وبهذه الطريقة سوف يثبتون تفوقهم الخلقي على العدو.

ويواصل تشي في كتابه «حرب العصابات» تحليل مختلف استراتيجيات القتال على أراض صالحة لحرب العصابات، ثم على أراض يصعب فيها شن حرب العصابات، ثم في المناطق المدنية. ثم يصف أنواع الأسلحة التي ينبغي استخدامها في كل منطقة، وعدد الرجال المشتركين والإجراءات أو التكتيكات التي تمليها جغرافية كل منطقة. فالأرض التي تسمح بشن حرب العصابات تكون ملائمة لأعمال التخريب وغنم الأسلحة والحصول على المؤونة. أما الأراضي التي يصعب فيها شن حرب العصابات فإنها تتطلب مجموعة لها قدرة كبيرة على التحرك. وأما العمل في المناطق المدنية فلا يكون إلا جزءاً

من استراتيجية شاملة، ويجب أن يوجه كلياً من «خارج» المدن. ويخلص تشي في هذا الفصل من كتابه إلى التأكيد على أولوية الريف كقاعدة لجميع العمليات الفدائية. أما الثورات المدنية فيجب أن لا تبدأ إلا عندما تكون الحرب في المناطق الريفية بحاجة إلى المساندة.

ويطور تشي في الجزء الثاني من كتابه الفكرة الرئيسية عن طبيعة رجل العصابات وعن مجموعة رجال العصابات. فدور رجل العصابات كمصلح زراعي و«كمقاتل من أجل حرية الشعب» يلقى مزيداً من التحديد والتوضيح؛ إذ يتوجب على كل ثائر أن يتحلى بخلق كريم وأن يتنزه في تصرفاته عن ارتكاب أي خطأ. «عليه أن يكون زاهداً... وأن لا يغفل عن مساعدة المزارع فنياً وخلقياً واقتصادياً وحضارياً». هذا السلوك يمهد لدور الثائر بعد الفوز بالحرب عندما يصبح إصلاح البنيان الاجتماعي مواصلة طبيعية لحرب العصابات نفسها.

وبهذه الطريقة يمهد الثائر لنفسه أن يطبق في المستقبل العدالة والقانون فيعاقب الخونة ويصادر الفائض من الأرض والثروة الحيوانية لإعادة توزيعها على المزارعين المحتاجين ،وكذلك مصادرة أملاك أعداء الثورة ومصالحهم. ويجب عليه أيضاً أن يحاول تأسيس التعاونيات إذا أمكن، وأن يثقف السكان المحليين عقائدياً. فالذي يكون في كثير من الأحيان رجلاً مثقفاً متحدراً من الطبقة الوسطى سوف يستخدم ثقافته في تنوير المزارعين، الذين سيشرحون له حقيقةأوضاعهم الاجتماعية، تلك الأوضاع التي عرفها الثائر من قبل وعاشها. كما يمكن للمزارعين أيضاً أن يعطوا الثائر درساً عملياً في ما يجب أن يبدأ به من الإصلاحات الملحة.

ويمضي تشي في شرح الصفات الخلقية والبدنية والعقلية التي يجب أن يتحلى بها الثائر: إنها مزيج غريب من الفضائل المجيدة والصفات الحميدة كالبراعة والاحتراس والتفاؤل والتعقل والصلابة. كما يجب على الثائر أن يكون شجاعاً لا يهاب، قوياً لا يتعب، عاقلاً لا تسيطر

عليه العواطف، رحيماً من غير ضعف، شديداً من غير ظلم. ويجب عليه أن يصمد أمام كل حرمان وجوع وعطش ومرض وألم وعذاب. بعد هذه القائمة من الاختبارات يصرح تشي بأن الفدائي كي يتحلى بكل هذا فلابد له من هدف يغذيه. «هذا الهدف يجب أن يكون بسيطاً وملموساً وليس معقداً ولا خيالياً، بل يجب أن يكون محكماً وواضحاً بحيث يستطيع الرجل أن يضحي من أجله بحياته دون أي تردد». وليس من الضروري أن يكون الهدف شيئاً عظيماً جداً. فهو بالنسبة للمزارع قد يكون امتلاك الأرض، وللعمال أجراً أحسن. ويشير تشي إلى أن الهدف كلما كان أكثر تحديداً كان تصميم الفدائي أقوى وأشد.

وينتقل تشي إلى المظاهر العملية لحياة الثائر، معالجاً كل جانب من القضية. ويقلل تحليله من حاجات مجموعة الثوار إلى حد أدنى أساسي ما عدا ثلاثة أشياء تعتبر زائدة ـ وهي أساسية بالنسبة لتشي نفسه ـ التبغ وكتب للقراءة ودفتر ملاحظات لتدوين الأفكار والحوادث. وانسجاماً مع طبيعته العملية يشرح تشي أفضل أنواع الحقائب الظهرية. وتعتبر تجربته الكوبية تجربة حيوية أفاد منها في تحليله لتجهيزات الثائر، كما في وصفه للمراحل الثلاث في رحلةرجال العصابات التي تتحرك من مرحلة القواعد المتحركة إلى مرحلة القواعد شبه المتحركة في التجنيد، ثم إلى مرحلة القواعد الثابتة والهجمات الصدامية في الطور الأخير. وهنا يضيف تشي قليلاً إلى كتاباته السابقة عن الحرب الثورية الكوبية لكي يؤكد ضرورة جعل الأرض الخاصة برجال العصابات دولة صغيرة، وقاعدة للعمليات من أجل هجمات على أرض العدو للاستيلاء على الأسلحة الثقيلة مثل المدفعية والدبابات. ويحلل أيضاً مفهوم العمل المدني ويقسمه إلى قسمين. ففي أراضي الثوار تتعلق المسألة بالحكومة والتثقيف العقائدي. أما في خارج أراضي الثوار فيتجلى العمل المدني بصورة رئيسية في جمع الأموال والقيام بالدعاية وكسب المؤيدين وجمع المعلومات والقيام بالتخريب.

ثـم يناقش تشي دور المرأة في حـرب العـصـابات. وهو يشـجب في البـدء «الـعـقـلـيـة الاسـتـعـمارية» لأولئك الأمـريكيين اللاتينيين الذين يبـخـسـون النسـاء قـدرهن، ويجابههم بالحقيقة التي أثبتت أنه ظهر بين النسـاء مـقـاتلات رائعات، وبوسعهن أن يخدمن مجموعة الثوار فيعملن خـيـاطـات وطـاهـيـات وممرضـات. وفي العـمل المدني تبرز أهميـتـهن كـمعلمات، وأهم من ذلك كله استخدامهن جاسوسات ينقلن الرسائل بـين الثـوار ومناطق الحكومـة. ويجب أن لا يكون وجـود النسـاء سـبب منافسـة جنسـيـة بين الثـوار، فـعلى المرأة الثـائرة أن تحسن التصرف مع جميع الثـوار، بالرغم من أن تشي لا يجد سـبباً يمنع رجلاً وامرأة ثوريين من النوم مـعاً إذا كانا «عاشقين ولا تربطهما التزامات أخرى».

ويعـتبر الطبـيب الثـائر ذا أهميـة خاصة بالنسبة لتشي. وتبرز أهميته الكبرى من الناحـيـة النفـسـيـة، وخـاصة في الأيام الأولى للمجموعة، عندمـا يكون وجـوده مـصـدر قـوة لعـزيمة الجريح والمريض. فالأدوية دون الراحـة أهميـة. «فـبالنسبة لرجل يتألم تكون لحبة الأسبرين أهميتها عـنـدمـا تمتـد بها يد صـديق يشـعـر مع ذلك المريض ويتألم لألمه». ثم يـواصل تشي فـيشرح بأسلوب فني كـيـف يمكن خلق مـسـتـشـفـيـات بدائيـة، من استـعمال الحمالات إلى إنجاز العمليات الجراحية في الميدان وغيرها من مـستلزمات العلاج في الحرب.

ثم يعـالج تشي مـسألة الدعـاية ويعرّفها بأنها التقارير المرسلة، وأن على جـرائد الثـوار والراديو أن تقـول الحـقيقة مهما كلف الأمر. فيجب أن يـكـون هدف دعـاية الثـوار قـول الحـقـائق عن المعـارك وعن القـوة المتنامـيـة، لأن دعـاية الحكومـة لاشك تكذب مـا يذيعه الثوار. كذلك فإن برنامج الثـوار الاجـتماعي لابد أن يوضح أيضـاً. ويعـتبر الحصول على المعلومـات من العـدو أمـراً حيوياً آخر، فغالباً ما يكون المزارعون، عكس النساء، مخبرين سيئين.

ويمضي تشي فـيـبـحـث في تدريب المتطوعين وبنيـة قوة الثوار. يجب أن لا تمنح الترقـيـات إلا للرجال الذين يستحقونها فقط، والذين يثبتون

جدارتهم من خلال القتال، لا كما هو الأمر في قانون الجيوش النظامية في بلدان أمريكا اللاتينية. فلا يمكن أن يكتب النجاح لقوة الثوار إن لم يكن هناك قائد فذ يمنحها الوقت الكافي للتدريب في حرية تامة. ذلك أن قوة الثوار لم توجد لضرب الجيش النظامي وقلب الحكم فحسب، بل لكي تحمي السلطة بعد الانتصار. ويجب أن يسرح الجيش النظامي ليحل محله جيش الشعب وقوامه فلاحون وعمال وجنود.

ويحلل تشي في آخر فصل من كتابه «حرب العصابات» وضع كوبا الراهن ومستقبلها. وهو يشرح ما فعلته الحكومة الثورية منذ أن تسلمت السلطة، ويظهر كيف أن هذه الأعمال هي النتائج المنطقية للحرب ذاتها. وكان مؤكداً أن تقود هذه الإصلاحات الراديكالية إلى إحداث ثغرة في القوة الامبريالية للولايات المتحدة التي درجت على حكم كوبا، ولكن كوبا لم تعد بحاجة إلى الولايات المتحدة، ولا هي بخائفة منها؛ إذ لا حاجة للبلدان التي تحرر نفسها أن تخشى القوى الاستعمارية التقليدية والقوى الاستعمارية الجديدة التي تستعبدها أثناء عمليات التحرير. ويشرح تشي العقوبات الاقتصادية والضغوطات التي فرضتها السياسة الأمريكية الشمالية على كوبا، وينبغي أن يكون في مقدور هذه الضغوطات تحطيم الاقتصاد الكوبي. قد تحاصر الولايات المتحدة جيش كوبا وسلاح البحرية والسلاح الجوي وتلحق الأضرار بها. لكن الثورة ستبقى حية لأنها وفت بوعودها للشعب الكوبي الذي سيدافع عن الثورة حتى الموت.

ليس الفصل الأخير خطبة وطنية مجردة، بالرغم من أنه كتبه في الفترة الصعبة قبل حصار خليج الخنازير في نيسان عام ١٩٦١ . كان لدى تشي نقطة تشغل باله أكثر من غيرها ،وهي: أن الثورة لا تستطيع الصمود أمام الخطر الخارجي والداخلي، إلا إذا سارعت بالوفاء بوعودها للجماهير، بحيث تجعل أهدافهم كلها تطابق أهدافها ويشعرون بأن بقاءهم رهن ببقائها. وعندما تؤدي حرب العصابات الناجحة إلى ثورة فيجب أن يثور الشعب بأكمله بعد أن يكون قد وزع

عليه السلاح ليدافع به عن مكاسبه. فبهذه الطريقة يزول الخطر الخارجي حتى لو كان مصدره قوة كبرى؛ إذ تعتبر الأمة بكاملها جيشاً ثائراً ضخماً يدافع عن كل شبر من الأرض بالروح نفسها التي يتمتع بها الثوار الأصليون. وفي عرضه للموضوع يتذكر تشي الإخفاق التام الذي منيت به غواتيمالا، حيث لم يكن الشعب مسلحاً تسليحاً كافياً ليحمي نظام أربنز الثوري.

لا يلقى كتاب «حرب العصابات» اهتماماً من المثقفين الغربيين بالمقارنة مع كتابات تشي عن النظرية الاشتراكية، لأن محتوياته تتنافى وأوضاعهم الخاصة، ولأن فيه بضع أفكار عولجت بروح التحدي. ومع ذلك فللكتاب أهمية أكبر بالنسبة للعالم الثالث تفوق كل كتابات تشي الأخرى باستثناء رسالته إلى مؤتمر القارات الثلاث. عندما يفكر الثوريون في أمريكا الجنوبية وإفريقيا وآسيا في تشي، وعندما يفكر به المناضلون السود في أمريكا الشمالية، فإنما يفكرون به من خلال كتابه هذا. فهو فضلاً عن أنه يعطيهم فكرة عامة كاملة عن حرب العصابات كطريقة، ويقودهم خطوة خطوة في هذا المضمار، فإنه يكرر دوماً أن ما حدث في كوبا يمكن أن يحدث في أي مكان آخر مهما اختلفت المقاييس وبعدت المسافات. على الثوريين أن لا يصغوا للأحزاب الشيوعية التقليدية، ولا للعناصر اليسارية الأخرى ممن يعزفون على وتر الظرف المناسب والوقت المناسب، دون أن يتحركوا عملياً محاولين الاستيلاء على السلطة. ويقول تشي: ضعوا الأحزاب والمذاهب والنظريات جانباً، لأن الثورة لا تحتاج إلا إلى بضعة رجال، وبضع بنادق، وإلاّ إلى بعض التدريب مصحوباً بروح التصميم على الانتصار. ما فعله بضعة كوبيين يستطيع أن يفعله الجميع، فليس هناك من حاجة ماسة لدعم شعبي أو لمذهب عقائدي. فإذا كانت البلاد فقيرة، فسوف يدعم الشعب الثوار فور بدء عملياتهم، فالقتال في حرب التحرير هو الذي يعلم الثوار النظرية المناسبة لهم. الثورة تغذي ذاتها.

وفي كـل مـكـان ذهب إليـه، كـان تشي يعترف بأن الثـورة الكوبيـة كـانت تمتلك ثلاثة عـوامل تعمل لصالحها: قيادة فيدل كاسترو، وعدم اسـتـعـداد الـولايـات المتـحـدة للحـرب، والوعي الطبـقي للمـزارعين الكوبيين الذين عـانوا من نظام الزراعـة. ومع ذلك فهو يذكر أن الثورة الكوبيـة ليـست حالة فريدة. فهي يمكن أن تتكرر في أي مكان آخر. فـالعـوامل الأسـاسـيـة يمكن أن توجـد في بلدان أخـرى متخلفة وشبه ناميـة. فإذا غاب أحد العوامل النافعة للثورة فلابد أن يتولد عامل آخر يسـاعـد الثـوار الجـدد ويشـد أزرهم. فما جرى في كوبا يمكن الاهتداء به وتطبيقه.

اعـتبر النقـاد كتاب «حرب العصابات» كتاباً مشحوناً بالثقافة وسعة الاطـلاع؛ إذ يـبـدو أنـه يعـقلن الاسـتـجـابات المرتجلة للأوضـاع التي تجـاوزت قـبـضة فيدل كاسترو. ولم يرفض تشي أبداً هذا الانتقاد، ذلك لأن التـحليل مـا هو إلا عـقلنة النجاح والفشل الماضيين. إن ما رفضه هو اعـتـبـار التـجـربة الكوبيـة تجـربة فريدة ومنعزلة. قد تكون الحرب الكوبيـة أسـاس كل نظريات تشي تقريباً، ولكنه كان يعتقد أن في وسع كل العـالم تقريباً دراسة النظرية الكوبية وتطبيقها.

قـال هاربرت مـاتيـوس عن كـتـاب ريجي دوبريه «ثورة في الثورة» إنه صيـاغـة جـديدة لكتـابات تشي التي هي بدورها مأخـوذة من صـميم أفكار فـيـدل كـاسترو وتجـاربه. ومما لا شك فيه أن دوبريه كان أفضل تلامـذة تشي، وأن تشي وفـيدل اتفقا إلى حد كبير على النقاط الواردة في «حـرب العـصـابات»، الذي يعـتبر القـاعدة لسياسة فيدل الخارجية في أميركـا اللاتينيـة. ومع ذلك فإن الاستراتيـجـيـة العـسكرية في الكتـاب كـانت نتـاج الخبرة المشتركـة لكلا الرجلين: فـقـد أمضى تشي الشهور الأخيرة من حـيـاته رئيـسـاً مـسـتـقلاً لمجموعة من الفدائيين أنيطت بهم مـسـؤوليـة شطر الجـزيرة إلى جـزأين مـتـخـذاً القـرارات بنفسه بصورة فـعـالة. إن الحـقيقة المهمة هي أن تشي نسب التجربة الكوبية إلى البيئة العـالميـة. كـان تشي واضع النظريات بعـد الحـرب فـضلاً عن أنه كان

واضع الاستراتيجيات الرئيسي خلال الحرب.

يستحيل على المرء معرفة أيهما كان الزعيم العسكري العظيم، تشي أم فيدل. لقد كانا صنوين متماثلين. «فحرب العصابات» عبارة عن خلاصة لأفكار تشي وأفكار فيدل الأصيلة المبنية على نتائج كان يجب أن تبدو بديهية لكل الرجال والنساء، لكل من قاتل في الحرب الكوبية. لقد آمنوا جميعاً بإمكان البدء بثورات والانتصار بها في كل بلد من بلدان أمريكا اللاتينية تقريباً، وإن فيدل كان يخاطبهم جميعاً عندما قال: إن كورديلير ألانديس يجب أن تحول إلى سيرا مايسترا أمريكا الجنوبية. أما تشي فقد أراد أن يبين إمكانية حدوث ذلك من خلال كتيب ،وخوضه المعارك في بوليفيا في وقت لاحق. إن نجاح الكتيب ليس موضع شك أو تساؤل بالنسبة لذوي القبعات الخضر وآخرين من القوى المضادة للثورة والقوات الخاصة من الأمريكيين الشماليين ،كالكتاب المدرسي بالنسبة للطلاب.

ومع ذلك فإن تشي يبدو لنا في النهاية، على نحو فريد، فيلسوفاً للثورة أكثر منه معلم عمل . وكما قال فيدل في مرثاته لتشي في ١٨ أكتوبر عام ١٩٦٧ :

«عندما نذكر تشي لا نذكره بشكل خاص لفضائله العسكرية. لا! فالحرب وسيلة وليست غاية. الحرب وسيلة الثوار. الأمر المهم هو الثورة، القضية الثورية، الأفكار الثورية، الأحداث الثورية، الوجدان الثوري، الفضائل الثورية».

إن «حرب العصابات» ليس إلا كتيباً ،وهو يعتبر أولاً بمثابة تحد لمنظرين آخرين للثورة، فمفاهيمه الأساسية الثلاثة هي: أن القوات الشعبية تستطيع دحر الجيوش، وأن البؤر الثورية تستطيع الامتداد لتخلق ثورة شاملة، وأن الثورة لابد أن تنتصر في الريف. هذه المفاهيم تحدٍّ صريح لنظريات البلاشفة والأحزاب الشيوعية الأخرى. ولقد اتضحت خطورتها على أثر الانشقاق الصيني السوفييتي. فجرت المقارنات المألوفة بين نظريات ماوتسي تونغ ونظريات تشي حول حرب

العصابات. فكان رأي الاثنين متفقاً حول أولوية أساليب حرب العصابات، واعتبار الريف منطقة للعمليات. ومع ذلك فإن تشي والثوريين الكوبيين الآخرين يؤكدون دوماً أنهم ربحوا الحرب ضد باتيستا دون علم بالتجربة الصينية. ويحتمل أن يكون هذا القول صحيحاً، فحتى لو كان الكوبيون مندفعين للتأكيد على طابع ثورتهم الفريد فهناك من التطابق ما بين النضال الكوبي والنضال الصيني ما يكفي للافتراض أن قادتهم توصلوا إلى استنتاجات متشابهة. فكلتا الانتفاضتين بدأت في المدن، حيث فشلت في الحصول على الدعم، وخسرت حين اصطدمت في مواجهة مع الجيش النظامي. وكلتاهما صمدت في المناطق الريفية، حيث كسبت الدعم الشعبي وبدأت في إلحاق الهزيمة بالجيش النظامي. وهذا ما دفع الثورتين لأن تجعلا من الإصلاح الزراعي هدفهما الثوري الرئيسي، وتضعا الفلاحين في مكانة البروليتاريين المدنيين، كطبقة ثورية جيدة في الصين وكوبا.

كان لحقيقة انتصار الثورة الكوبية بدون دعم الحزب الشيوعي الكوبي، ولكون الكوبيين انتصروا قبل أن يتخذوا هم أنفسهم الشيوعية عقيدة، ما يعلل، بصورة رئيسية، عدم التزمت في كتابات تشي في «حرب العصابات».والصينيون لم يجرؤوا مطلقاً على تقديم مثل هذه البدعة. فقد دفعت التجربة الكوبية تشي لأن يبشر باستقلال مجموعة الثوار خارج السيطرة المركزية لوجدانية الأحزاب الشيوعية المتمركزة، على الأغلب، في المدن. فقد جرى تطوير هذه النظرية أكثر من ذلك على يدوبريه في كتابه «ثورة في الثورة». إنه يذكّر بإحدى القضايا التي قادت إلى الانشقاق بين الفوضويين والماركسيين في القرن التاسع عشر. هل يتوجب أن يوجه النضال الثوري من تنظيم مركزي لحزب، أم بواسطة أولئك الذين يخوضون القتال في المكان نفسه؟

إن بدعة الكوبيين هذه قد انبثقت من تعظيم تشي للثائر نفسه. ففي مقال بعنوان «من هو المقاتل الثائر؟» قدّم تشي في عام ١٩٥٩ صورة رائعة للبطل المثالي، «مشبها إياه بالملاك الهادي الذي هبط على المنطقة،

لمساعدة الفقير دون اهتمام يذكر بالغني». لذا فالثائر المقاتل كالشيء القدسي تقريباً، هدية علوية هابطة من السماء، نظير روبن هود، أو المنقذ، هو الفارس الذي يتصرف بنبل وشهامة حتى مع أعدائه. وإذا أضيفت هذه الرؤى التكتيكية والحضارية والخلقية التي حددها تشي أيضاً كضرورات بالنسبة للثائر، فإن صورة الفدائي تكون قد حلت محل صورة القديس. إن هذا المفهوم المثالي لرجل العصابات بعيد عن مفهوم المجرم المتهور، الذي يتربص في الغابات، لينصب الفخاخ ويعيث في الأرض فساداً شأنه شأن شخص حقير يحمل قضية. والفرق بين هذا وذاك كالفرق بين الفاتحين الإسبان، وصور القديسين المسيحيين المناضلين الذين نصبوهم في الكنائس الكاثوليكية في الأمريكيتين كي يبرروا أعمالهم السالفة.

إن إعطاء الثوار شكلاً مثالياً يحمل معنى سياسياً. فقد ساعد فيدل كاسترو ورفاقه المقربين من ثوار السيرا مايسترا على أن يستولوا على المناصب المهمة في الحكومة الجديدة بعد سقوط باتيستا. كان باستطاعتهم أن يبرروا لأنفسهم إقصاء كل السياسيين والمعتدلين الذين لم يقاتلوا في الجبال. لذا فإن قيام تشي بإسباغ صورة البطل على الثائر، يهدف إلى تبرير استيلاء الثوار الكلي على السلطة في كوبا. وكتب تشي يقول «إن أفضل تدريب يقوم به الجندي في حرب التحرير، هو خوض حياة حرب العصابات نفسها. إن القائد الذي لم يتعلم مهماته الصعبة من خلال ممارسة حمل السلاح ليس بالقائد الأصيل». وقد انتبه ريجي دوبريه إلى هذه النقطة عندما كتب عن الرجال الذين قاتلوا في السيرا مايسترا فقال: «لقد خاطروا بكل شيء من الناحية الاستراتيجية، كي يفوزوا بكل شيء. وفي النهاية استحقوا أن ينالوا كل شيء». إن قادة الحزب الشيوعي في كوبا لم يخاطروا بكل شيء، وكذلك السياسيون المنفيون، ومثلهم الجماعات الديمقراطية التي وقفت ضد باتيستا. إنهم لا يستحقون إلا أن يكونوا في مرتبة أدنى من أولئك الذي حصدوا نتاج نصرهم من خلال القتال.

وقد وصف تشي في مقالته المكتوبة عام ١٩٥٩ النصر المسلح للشعب الكوبي بأنه «معدّل للعقائد القديمة». إن العقائد القديمة كانت لأولئك الذين ادّعوا الثورية، ومع ذلك فقد راحوا يؤجلون بدء القتال إلى اللحظة المناسبة التي لم تجيء قط. لقد تلمسوا النجم الأحمر في نهاية قوس قزح. إن أولئك الثوريين الزائفين هم بصراحة أعضاء الأحزاب الشيوعية التقليدية في أمريكا اللاتينية. لذا فإن تشي بدأ مناظرة ما زالت محتدمة منذ ذلك الحين بين المؤيدين لاتباع أسلوب «السلم» أو أسلوب «العنف» للاستيلاء على السلطة. وإلى حدّ ما قاد مذهب تشي في هجوم حرب العصابات المباشر إلى وضع نهاية للأحزاب الشيوعية التقليدية في أميركا اللاتينية بصورة أكثر فعالية حتى من الطرق التي اتبعتها الحكومات العسكرية التي اضطهدتهم. وكثيراً ما كان تشي يردد: قد يكون مفعول الفكرة أقوى من مفعول فوج.

وفي أميركا اللاتينية انفصل أتباع النظريات «الغيفارية» عن الأحزاب الشيوعية التقليدية. فقد كان المثال الكوبي أكثر إثارة للخلاف في الدوائر الراديكالية في أمريكا اللاتينية، بل حتى أقوى من الانشقاق بين روسيا والصين، بالرغم من أن الروس قد عمدوا إلى دعم مؤيدي التغيير «السلمي» للحكومة عن طريق الاضطرابات والتحريض والتسلسل، بينما راح الصينيون يدعمون التغيير «العنيف» عن طريق ثورة حرب العصابات. لقد أحدث الخلاف ضعفاً، وسبب حدوث انشقاق في الصفوف الراديكالية، قد يكون أعاق عقرب ساعة الثورة عدة سنوات . ولاشك في أنه ساهم في هزيمة تشي نفسه في بوليفيا ثم مقتله هناك، ولكنه كان صداماً لابد منه إكراماً لمستقبل شبه القارة.

من بين المنظّرين الثلاثة الرئيسيين لمسألة الهجوم المباشر لحرب العصابات، وهم كاسترو، وغيفارا، ودوبريه، كان تشي يبدو أكثرهم أهمية؛ فهو أول من أبرز المسألة، وأول من خاطر بكل شيء لكي

يثبت صحة القضية، وأول من مات بسبب نظرياته. قد يصمد الشيوعيون التقليديون أمام الهجمات الأيديولوجية التي يتضمنها كتاب «حرب العصابات» وقد يعيشون ليروا بأم أعينهم محاولات أخرى تسير على خطى النموذج الكوبي وتلقى هزيمتها على أيدي القوات الحكومية، ولكنهم على الأرجح لن يصمدوا أمام الاتهام الموجه إليهم من خلال المثل الشخصي الذي قدمه تشي نفسه. إن عودة تشي إلى القتال وموته كانا بمثابة الإدانة لهم.

أحدث كتاب «حرب العصابات» من العوامل الانفجارية حال ظهوره أكثر مما أحدثه البيان الشيوعي في حينه. ولقد خاض بعض الرجال والطلاب من الذين اقتدوا بكتابات تشي وبمثله حروبهم الخاصة في التحرير مختارين، أحياناً، المدن والجامعات في البلدان النامية كميادين قتال بدلاً من الجبال والغابات، وإذا قدر لهم أن يربحوا، فإن تشي يكون قد برر لهم حق الاستيلاء على جهاز الحكومة الكامل، وتجاهل تهمة الانتهازية التي توجهها له المؤسسات الديمقراطية والأحزاب السياسية القائمة. كذلك فقد أعطى الثوار مزيداً من التبرير للاستهزاء بإرادة الحزب الشيوعي في بلادهم، ذلك أن من حقهم بل من واجبهم أن يضعوا تنظيمهم الثوري الخاص مكان سلطة قوة الحزب التقليدي الذي مسّه الكبر والضعف. ويرى تشي أن على مجموعة الثوار أن تقاتل وأن تربح وأن تحكم مدعومة من الشعب. أما الحكومات والأحزاب القديمة التي فقدت دعم الشعب فيجب أن تندحر أو تهمل. حرب العصابات تصنع القائد، والثورة تصنع ذاتها.



الفصل الرابع

تطور مسيرة الثورة الكوبية

هيأ فيدل كاسترو مهمة الثوريين الشباب الذين دخلوا إلى هافانا يوم أن خلع باتيستا في عام ١٩٥٩ وقبل ذلك بخمس سنوات، وعندما أطلق باتيستا سراحه من السجن صرح كاسترو بأن: «حريتنا لن تكون مهرجاناً أو استراحة، وإنما هي نضال وواجب». وكان معظم رفاق فيدل غير مهيأين بشكل كاف لخوض الصراع ولمهمة إدارة البلاد، ولكن تشي كان من القلائل الاستثنائيين وحتى لو لم تكن لديه خبرة عملية في الاقتصاد أو الدبلوماسية أو الإدارة أو السياسة. فقد كان رجلاً مثقفاً، وصاحب فلسفة، سبق له أن أظهر مهارات إدارية في السيرامايسترا بعكس الأبطال الشجعان ـ الأميين تقريباً ـ أمثال جوان ألميدا وكاميلو سوينفيغوس (Camilo Cienfuegos). ومع ذلك فإن مهمات تشي الحقيقية داخل حكومة كاسترو كانت أقل أهمية من الدروس التي تعلمها من مهماته والتي طبّقها فيها. فكما كان منظراً للثورة كان كذلك منظراً للحكومة ،وثمة اختلاف في وجهات النظر حول أهمية تشي بالنسبة لنظام حكم فيدل كاسترو. فالبعض يجدون فيه الرجل الوحيد الذي كان بوسعه أن يبني أيديولوجية وبرنامجاً للثورة بطريقة متواصلة ومنظّمة. ولقد أكّدت جوانا، شقيقة فيدل كاسترو، التي هاجرت من الجزيرة بعد الثورة، وأكّد معها آخرون، أن تشي هو الذي حوّل الثوار تحويلاً حقيقياً . وهناك مؤرخون آخرون لكوبا لم يعطوا تشي إلاّ دوراً ثانوياً دون أن يكون له أثر جوهري في مسار التجربة الكوبية، واعتبروا معظم نظرياته مجرد

اقتباسات لأفكار وأعمال الشعوب الأخرى. فبالنسبة إليهم كان تشي مترجماً لسيرة الثورة الكوبية.

ويبدو أن الحقيقة تكمن بين الطرفين. فمما لا شك فيه أن تشي شارك في الثورة بنفس القدر الذي شارك فيه فيدل كاسترو، تقريباً. فبدون تحليلات تشي اليقظة وفصاحته الواضحة في أعمال مثل «الإنسان والاشتراكية في كوبا» كانت الثورة الكوبية ستظل تعاني من فقدان التحديد والطوباوية. كان فيدل محامياً وقائداً أُسندت إليه مهمات القوانين والبنيان وإلقاء خطَب الدفاع والهجوم أمام أفراد الشعب باعتبارهم هيئة محلَّفين. أما تشي فكان طبيباً مهمته التشخيص والمعالجة، فهما بالنسبة له تعنيان الحياة والموت.

ومن خلال مركزيهما في كوبا فرض كل من فيدل وتشي مواقف مختلفة. كان على فيدل أن يبقي على استمرارية الثورة وصيانة اقتصاد الجزيرة من الانهيار. كان عليه أن يجعل من الصفقات السياسية أمراً ضرورياً، وذلك مراعاة لمقتضيات الأمن الداخلي والقروض الخارجية. وكان عليه أن يوازن بين القوى التي يتنازعها أتباعه، وأن لا يغفل تطلعات الشعب الكوبي وشكاواه، ثم كان عليه أن يسعى لكسب الدعم الروسي دون أن يثير الولايات المتحدة إلى درجة التدخل العسكري. لقد استحوذت الأعمال اليومية لتسيير البلاد على أوقات كاسترو واهتماماته.

فبينما كان كاسترو يعالج المشكلات حال ظهورها في السيرا مايسترا ثم في هافانا بعد ذلك، كان مساعده تشي يركز على إيجاد نظرية لما اعتقد أنه يتوجب فعله. إن شهادات المراسلين توضح أن فيدل كاسترو لم يتخيل شكل حكومته في المستقبل عندما كان يقاتل في الجبال. وقد كتب هربرت ماثيوس يقول: «لقد آمن فيدل بسذاجة

(وأنا أستعمل هنا كلمته الخاصة التي قالها لي) أن باستطاعة الثوار أن يقوموا بثورة راديكالية اجتماعية بطريقة ديمقراطية، لأن هدفه الأساسي هو الثورة، أما الديمقراطية فكانت، ببساطة، الطريقة التي ظن أن بوسعه اتباعها. فقد غيَّر أسلوبه لا هدفه عندما وقع الصدام! ولـمّا كان تشي دوماً الرجل المتطرف على يسار قادة الثوار، فإن اصطدام فيدل بالتقدم نحو الديمقراطية والتضليل المفترض بأهداف الثورة يعود جزئياً إلى نتيجة الأخذ بنصيحة تشي».

في السنوات الأولى من الثورة ساعد فيدل وحركته في إقامة حكومة من المعتدلين والليبراليين تتألف من كهول لهم سمعة طيبة وممن كانوا يعارضون باتيستا. وسرعان ما اصطدمت هذه المجموعة الليبرالية مع القادة الأكثر تطرفاً من الثوار، الذين شعروا بضرورة تنفيذ وعودهم الكثيرة للمزارعين الكوبيين، وأن الإصلاح الراديكالي يتطلّب إجراءات صارمة. وبعد وقت قليل استغنى فيدل عن جميع المعتدلين واستعان برفاق له من السيرا مايسترا. وكما يروي سيليا سانشز فقد ظن هؤلاء أن عليهم أن يحكموا من خلال المعتدلين، ولكنهم سرعان ما اكتشفوا أنهم سادة الجزيرة. ويومها تبلورت أفكار تشي بالنسبة لحكومة الثوار وأصبحت لها دلالتها ومفهومها. وإذا كان لابد من إجراء تغييرات راديكالية، فإن قادة الثوار وحدهم، هم الذين يستطيعون القيام بذلك.

إن تحليل السنوات الست التي قضاها تشي في كوبا بعد عام ١٩٥٩ هو في الحقيقة تاريخ الثورة الكوبية. وعندما قال جان بول سارتر، أن تشي «أكثر الرجال كمالاً في عصره» كان يعني بذلك أن تشي عاش كلماته الخاصة، وتكلّم عن أعماله الخاصة، إلى درجة أصبح فيها تاريخه الشخصي ومجتمعه الخاص يحدثان عن القصة نفسها. إن التعقيد في

الثورة الكوبية من حيث تفانيها وأصالتها، وتجاربها وسقطاتها، كان بمثابة مرآة سوداء لتشي غيفارا. فبينما كان تشي يساعد في قولبة الثورة كانت الثورة تعمل على قولبته. ولكن بقيت كتابات تشي وأعماله في ستة مجالات أموراً أساسية بالنسبة للتجربة الكوبية : الزراعية، والصناعية، والسياسية النقدية، والحوافز الخلقية، والوعي الثوري، والشؤون الدولية.

كانت كوبا مجتمعاً زراعياً بصورة رئيسية. . . لذلك فقد توجَّب على الثورة الكوبية أن تكون ثورة زراعية. لقد أملى كل من اقتصاد الجزيرة وإحساس المقاتلين في السيرا مايسترا السياسة التي تعطي الأولوية للريف. فمبيعات السكر تشكّل وحدها ثلاثة أرباع دخل البلاد من العملات الأجنبية. لقد تحدد شرط الازدهار الكوبي بمحصول السكر، ومع ذلك فقد كان العمال الذين لا يمتلكون الأرض والذين ينتجون السكر، يعاملون دون معاملة الحيوانات، بينما كان العمال المدنيون ينعمون، نسبياً، بالامتيازات. كانت الثورة بحاجة إلى دعم وتأييد الفلاحين، فذكريات حرب الجبال، وتمجيد تشي للفلاحين بوصفهم الطبقة الثورية، هما العاطفة الوحيدة التي تكمن خلف أية ضرورة سياسية. وقد سبق أن بدأ الإصلاح الزراعي في المناطق التي استولى عليها الثوار. وبما أنهم يسيطرون على الجزيرة بكاملها فينبغي أن يشمل الإصلاح الجزيرة بأكملها.

لقد كان تشي واضحاً في وصفه الطريقة التي تتفاعل بها حاجات الثوار والفلاحين وسياساتهم.

«إن الرجال الذين وصلوا إلى هافانا بعد عامين من النضال القاسي في الجبال وفي سهول أورينته (Oriente)؛ في منخفضات كاموجويه وفي جبال وسهول ومدن لاس فيجاس، لم يكونوا من الناحية

الأيديولوجية من الرجال الذين نزلوا على سواحل لاس كولارادوس، أو الذين شاركوا في المرحلة الأولى من النضال. فقد تحول ارتيابهم بالمزارع إلى محبة واحترام لفضائله، وانقلب جهلهم المطبق بالحياة في الريف إلى معرفة بحاجات العمال الذين لا يملكون الأرض. ومع الممارسة ازدادوا معرفة بالإحصائيات وبالجوانب النظرية وجوانب التطبيق. لقد واجه هؤلاء الرجال الامبريالية بشعار الإصلاح الزراعي الذي سيعطي الأرض لجميع المعدمين، بينما سيحرمها على مالكيها الذين استولوا عليها ظلماً. لقد تعلّمنا من الفلاحين أنه لا حدود للجهود وللتضحية التي بوسعنا أن نقدمها جميعاً بينما نقاتل من أجل مصير الشعب».

في هذه الفقرة الهامة كان تشي يشير إلى نقاط أساسية ثلاث: الأولى أن الفلاحين هم الذين شكّلوا الثوار، والثانية أن الإصلاح الزراعي قد بدأ خلال الحرب، والثالثة أن مهاجمة الامبريالية كانت النهاية المنطقية للإصلاح الزراعي. كان الإصلاح الزراعي وعداً وفى به الثوار، وضرورة داخلية، وسياسة للخارج.

لذا فإن أهم قانون صدر عن الحكومة الثورية الجديدة كان قانون الإصلاح الزراعي الأول في أيار (مايو) ١٩٥٩ . فقد أممت جميع المزارع الكبيرة والممتلكات الأساسية، ووضعت سياسة تؤكد على نقل الاقتصاد من اقتصاد يعتمد على محصول واحد إلى اقتصاد يعتمد على التنوّع في الزراعة. كان الهدف هو تحقيق التشغيل الكامل على مدار السنة. وأُقيمت المزارع التعاونية ومزارع الدولة كنماذج، وأُعطي صغار المزارعين الذين احتفظوا بأراضيهم قروضاً، وعُلِّموا الوسائل المحسنة لفلاحة الأرض. وقد شرح تشي أثر أول إصلاح في المجتمع الكوبي قائلاً:

«إن الإصلاح الزراعي الراديكالي، وهو النوع الوحيد الذي يستطيع إعطاء الأرض للمزارع، يصطدم مباشرة مع مصالح الامبريالية وكبار الملاك وأصحاب المواشي والسكّر. إن البورجوازي يخشى الاصطدام مع تلك المصالح، بعكس البروليتاري، لذا فإن الثورة توحد العمال والفلاحين. إن العمال يدعمون المطالب التي ترفع في وجه كبار الملاك، والفلاح الفقير الذي أعطي السيطرة على الأرض، يدعم السلطة الثورية بإخلاص ويدافع عنها ضد الامبريالية وضد أعداء الثورة».

أظهرت هذه العبارة التطور في أفكار تشي وفي الثورة الكوبية. لقد خلص تشي إلى أن الطبقتين اللتين قدمتا الدعم للثورة هما طبقة الفلاحين وطبقة العمال المدنيين؛ فالفلاحون ساعدوا بإخلاص شديد في المعارك الأولى، وطبقة العمال المدنيين ساعدت في الدفاع عن الفلاحين في المراحل الأخيرة من الثورة في وجه الأعداء المشتركين: مالكي الأراضي، والمصالح الأجنبية، والبورجوازية، وهي طبقة بدأ الإصلاح الراديكالي في تحويلها ضد الثورة. وقبل هذه المرحلة وصفت الثورة بأنها لا طبقية. لقد لقّب الفلاحون بـ«الطبقة الطليعية» ، ولكن هذا التعريف لم يستثن «البورجوازية الطيبة» التي سبق أن شاركت في الثورة والتي أفرزت معظم قادة الثوار والمؤيدين لهم من المدنيين، ولم يستثن التعريف أيضاً العمال الصناعيين، بالرغم من مشاركتهم الضئيلة في هزيمة باتيستا، ودعمهم الفاتر خلال الحرب.

أما الشيوعيون الكوبيون فقد اضطربوا بالفعل بالنظر إلى الطبيعة اللاطبقية للثورة الناجحة، وكتب عن ذلك خوان مارتيللو الشيوعي في كانون الثاني (يناير) عام ١٩٥٩ يقول: «إن الثورة الظافرة لم تكن من عمل حزب واحد أو طبقة واحدة أو مجموعة واحدة، إنها الشعب

هو الذي حقَّق الانتصار». ولقد وافق تشي على هذا الرأي، فهو يرى أن الثورة حققت الانتصار «بمساعدة جميع الرجال من جميع الآراء وجميع الديانات والطبقات الاجتماعية». «إنها ملك الجميع» و«قامت بتوحيد الشعب على نحو رائع». وكان تشي هو الذي ارتأى التأكيد على دور الفلاحين كطبقة، وها هو الإصلاح الزراعي يعود إلى مفهوم الصراع الطبقي. فقد قسم المجتمع الكوبي إلى معسكرين: فهناك أصحاب الأراضي يساندهم قسم كبير من الطبقة الوسطى الذين يخشون بدورهم من مصادرة أملاكهم لاحقاً، وهناك من الناحية الأخرى الفلاحون المدعومون من العمال المدنيين.

لقد حدث ذلك أثناء فترة انعطاف القادة الكوبيين نحو الماركسية - اللينينية، وأثناء مرحلة إقامة علاقات ودية مع الحزب الشيوعي الكوبي، وإبان تفاقم العلاقة مع الولايات المتحدة بعد تأميم المزارع التي يمتلكها أمريكيون شماليون وتدعيم الصداقة الجديدة مع الاتحاد السوفياتي المغتبط ببسط نفوذه على مقربة من شواطىء فلوريدا. وأكثر من ذلك، فقد بدأ العمال المدنيون يدركون مصلحتهم أيضاً في الثورة الريفية، بينما نفرت الطبقة الوسطى بشكل متزايد من خلاف فيدل مع القادة الديمقراطيين القُدامى ومع الولايات المتحدة التي استمرت مدة طويلة صاحبة النفوذ الأساسي على البورجوازية الكوبية.

كان تشي يلعب دور المحرض والمنظّر في التحول الذي طرأ على سياسة الحكومة، فقد التقى هذا التحول مع تطور تفكيره الذي بدأ في غواتيمالا ونَما في مدينة المكسيك وتكون في السيرا مايسترا. لقد دفعته الحرب الثورية ضد باتيستا وطغيانه إلى أن يركز حقده مدة من الزمن على عدو شخصي وتابعيه. إن للطغيان وجهاً مميزاً، ولكن بعد الانتصار بقليل أدار تشي ظهره لهذه الضغينة، وأصبحت الامبريالية

الخارجية عدواً حقيقياً كما كانت في غواتيمالا، وبدا أن الحل الوحيد الدائم لمشكلات الدول المتخلّفة في دفاعها ضد القوة الاقتصادية للامبريالية يكمن في خلق الصناعات أكثر منه في تطوير الزراعة، مهما كان توزيع الأرض عادلاً للفلاح الفقير.

وسرعان ما بدأ التأكيد في خطب تشي يتحول. فقد قلّ الكلام عن الفلاح وكثر عن العمال (الشغيلة)؛ وقلّ عن الإصلاح الزراعي وكثر عن الصناعات الجديدة. وفي تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٥٩ ترأس تشي الدائرة الصناعية لإعادة التنظيم، ثم بعد أن عمل مديراً للبنك الوطني عين وزيراً للصناعة في شباط (فبراير) عام ١٩٦١ . كانت مهمته الأولى الإشراف على تحويل المنتجات الزراعية والفضلات إلى منتجات صناعية، وكانت مهمته الأخيرة أن يوجد ميادين جديدة تجعل كوبا تحقق اكتفاءها الذاتي. لقد أصبح النمو شغله الشاغل.

«من هو المتخلف ؟

المتخلِّف عبارة عن قزم له رأس ضخم، وصدر منتفخ، إلى حد يجعل ساقيه الضعيفتين أو ذراعيه القصيرتين لا تتناسقان مع باقي جسمه... إن بلادنا مشوهة بسبب الامبريالية التي قامت بشكل غير عادي بتطوير الموارد الصناعية أو الزراعية الضرورية لتكامل اقتصادها المعقد. يحمل «التخلُّف» أو النمو المشوَّه معه تخصُّصاً خطيراً في المواد الخام محتوياً على خطر المجاعة لكل الشعب. نحن «المتخلفون» نقع ضمن أولئك الذين يعتمدون محصولاً واحداً وإنتاجاً واحداً وسوق تصريف واحدة. فهناك منتج واحد غير واثق من بيع إنتاجه لأنه يعتمد على سوق واحدة تفرض مجموعة شروط ـ هذه هي المعادلة الكبرى للتسلُّط الاقتصادي الامبريالي، المتحدة مع الدولة الرومانية القديمة والمفيدة دوماً: فَرِّق واحكم».

كان لحقيقة ارتباط الاقتصاد الكوبي بحصة استيراد السكر التي أقامها الكونغرس في الولايات المتحدة ما يثبت رأي تشي حول الدول المتخلفة.

لم يشعر تشي بأنه كان يبتعد عن الفلاحين في تأكيده الجديد على العمال (الشغيلة) في المدن. كان الفلاحون سيكافأون بإصلاح الأرض، والمكاسب الاجتماعية، والتشغيل الكامل، والتعليم، والمكننة وتنويع المحصول. أما الآن فهناك طبقة واحدة تستطيع تحرير كوبا من تخلّفها وهي طبقة الشغيلة المدنيين. فقد جاء دورهم ليكونوا «الطبقة الطليعية» للثورة، فقد حكم على البورجوازية بالإخفاق في عام ١٩٦١. وكان تشي يرى في العطف الذي أبدته الطبقة الوسطى أثناء القتال ضد باتيستا عطفاً محدوداً، وذلك نتيجة للضغوط الامبريالية على مصالح البورجوازية الكوبية.

كان لابد من إعلان حرب جديدة على الطبقة الوسطى. وهنا كشف تشي النقاب عن مدى أهمية مثل «الفاتحين» بالنسبة للثوار الاثني عشر الذين بقوا على قيد الحياة ليغزوا الجزيرة بأكملها، تماماً كما بقي بيزارو حياً مع الرجال الثلاثة عشر في جزيرة جالو قبل غزو البيرو بأكملها. لقد رسم بيزارو خطاً على الرمال سار عليه حفنة من الرجال فقط، بينما تقهقرت باقي القوة تجر ذيل اليأس والإخفاق. ولكن مجموعة بيزارو الصغيرة صمدت لتربح بيرو، تماماً كما صمدت مجموعة فيدل لتفوز بكوبا. والآن استحضر مثل «الفاتحين» العظماء من قبل تشي ليوضح هجومه على أعداء الثورة الجدد. «لقد رسمت كوبا الخط على الرمال مرة أُخرى، ونحن نرى مرة أُخرى مأزق بيزارو. . . فهناك من جهة المحبون للشعب، وهناك من جهة أخرى الكارهون للشعب. وبين أولئك وهؤلاء، يبرز الخط الذي يقسم القوتين

الاجتماعيتين الكبيرتين، البورجوازية والطبقة العاملة، اللتين تحددان بوضوح متزايد مواقعهما المتتالية أثناء تقدم عملية الثورة الكوبية».

وكما هو الأمر دوماً، حدَّد تشي تاريخ انشغاله بالصناعات الجديدة منذ تجاربه في السيرا مايسترا، فلقد قال: «لقد تذكر فيدل كيف أقمنا مرة مصنع أحذية صغيراً، ومنذ ذلك الحين أصبحنا منتجين صناعيين». أصبحت إقامة الصناعات الآن جزءاً من نضال الثوار ومن الصراع الشامل لتحرير العالم الثالث. «كان أثر كوبا العظيم يظهر في قوتها السياسية كتجسيد لجميع الدول المتخلِّفة التي تناضل من أجل حريتها. لقد قامت علاقة متبادلة بين عنصري الثورة. إن هدف تلك الدول التي تقاتل من أجل حريتها هو أن تنتج الصناعات من أجل نيل تلك الحرية». لذا كان النضال الثوري بالنسبة لبلدان العالم المدخل الوحيد للتقدم الصناعي ضد التسلُّط الامبريالي الاقتصادي.

ومن الطبيعي أن يتطلَّب التقدم الصناعي صفات عديدة يتحلى بها العامل كتلك الصفات الضرورية التي يتحلى بها الثائر. فلابد للعمال المدنيين من أن يتعلموا روح التفاني والإخلاص المشابهة لتلك التي امتلكها المقاتل الريفي. لقد قاتل الفلاحون وربحوا المرحلة الأولى من الثورة، لذا فإنهم كانوا يتلقون مكافأتهم نصيباً من الأرض يستغلونها استغلالاً صحيحاً. والآن على العمال أن يقاتلوا في المرحلة الثانية من الثورة التي تتطلب خلق قاعدة صناعية في الداخل. وبينما يجري تنفيذ ذلك، لابد للعمال من أن يضحوا بالعديد من المكاسب الاقتصادية التي نالوها مقدماً، وبالتحديد الأجور التي رفعت مستوى معيشتهم درجات فوق مستوى معيشة العامل الريفي. يتوجب على العمال الآن أن يضحوا بالمنافع الشخصية إكراماً للثورة، فلا ينظروا إلى الدولة الجديدة على أنها رئيس آخر لكنه بخيل هذه المرة. فعلى العمال عندما

يكون مستواهم المعيشي مقبلاً على الانخفاض أن يثقوا بالمستقبل الزاهر لهم ولأطفالهم مع نجاح الثورة. ومن الأفضل أن يفعلوا ذلك فرحين مستبشرين كي تكون تضحياتهم جديرة بالاعتبار.

لقد رأى نقّاد تشي أن تحوله ـ لا شك ـ هو تحول كلي، فعندما احتاج إلى دعم الفلاحين دعاهم إلى التضحية الذاتية ودعم الإصلاح الزراعي، وعندما احتاج إلى العمال المدنيين أكثر مما احتاج الفلاحين دعاهم إلى التضحية الذاتية باسم النمو الصناعي. وقد ركز على مهاجمة ملّاك الأراضي من الثوار والفلاحين خلال المرحلة الأول، وخلال المرحلة الثانية هوجمت البورجوازية لاسترضاء الشغيلة. وفي كلتا الحالتين بدا أن النظرية والعقيدة استعملتا لتبرير السياسة الواقعية، مثال ذلك ما جرى من مغازلة الحزب الشيوعي المحلي عندما دعت الحاجة إلى الاستفادة من قوته في النقابات كي يحول بين العمال المدنيين وبين الاضراب. لقد ظهر تشي وكأنه لا يفعل شيئاً أكثر من إضافة بريق من المفاهيم إلى استراتيجية جديرة بأي سياسي.

ومع ذلك فإن التجربة والتحليل التطبيقي والخطة متصلة على نحو لا انفصام له. لقد جارى نجاح تشي السياسي نجاح كوبا السياسي خلال السنوات الأولى للحكومة الثورية، وكان التفاعل بين عقيدة تشي والسياسة العامة بمثابة زواج في الأهداف تقريباً. وهنا يمكن رسم خريطة توضح التغير في آراء تشي الشخصية وفي أهداف الثورة. ولربما أملت الحوادث جزءاً كبيراً من هذا التحول، ولكن عقيدة تشي لعبت دورها. إن نجاح كل ثورة عظيمة، يتطلّب ظهور سياسة وعقيدة منسجمتين تمارسان بنجاح.

تطور مسيرة الثورة الكوبية

	الوضع في المرحلة الأولى	الوضع فيما بعد
مكان الصراع	السيرا مايسترا والمناطق الريفية	كوبا بأكملها مع التركيز على المدن
القادة	الثوار كقوة عسكرية	الثوار كأسياد الموقف السياسي
الحلفاء	الفلاحون والمصلحون المدنيون من الطبقة الوسطى	الشيوعيون والعمال المدنيون والفلاحون
الأعداء	باتيستا والجيش النظامي؛ المصالح الكوبية والأميركية الضخمة.	الولايات المتحدة وقوة المنفيين الكوبيين المتنامية
الطبقة الطليعية	الفلاحون	البروليتاريون المدنيون
الأولويات	إعادة توزيع الأرض، وتنويع الزراعة	تأميم الصناعة وتطوير التكنولوجيا، والإفادة الكاملة من الموارد
التجارة والدبلوماسية	أميركا اللاتينية والولايات المتحدة وأوروبا الغربية	روسيا السوفياتية، وأوروبا الشرقية
العقيدة	الديمقراطية الإنسانية على أساس الحرية مع الخبز للجميع.«فيدل كاسترو» ١٩٥٩	«أنا ماركسي لينيني وسأبقى كذلك حتى يوم مماتي».فيدل كاسترو ١٩٦١

الفصل الخامس

تشي في البنك المركزي

احتقر تشي المال نظرياً وتطبيقياً. ففي حياته الشخصية كان على الدوام يوبخ الجشعين، وبدا أنه كان يشبع نفسه ويرضيها عندما يستغني عن النقود لا عندما ينفقها كما يحدث لكثير من الناس. وقاده زهده الشخصي إلى الشيوعية البدائية حيث تكون النقود شراً لابد منه. كان يشمئز من المال كما يشمئز راهب القرون الوسطى من الربا. وكان منذ شبابه يحتقر أولئك الذين ينفقون كل وقتهم في تجميع الثروات. ويذكر ذلك بزهو وافتخار في رسالته الوداعية لفيدل «لم أترك أي ممتلكات مادية لزوجتي وأطفالي، ولست بنادم على ذلك». وقد يبدو هذا الاعتراف مذلاً بنظر معظم الرجال، أما بالنسبة لتشي فقد كان موضع فخر. كم هو عدد السياسيين في أمريكا اللاتينية الذين بوسعهم أن يقولوا الكلام نفسه عند ترك مناصبهم؟ وكم عدد الذين عملوا منهم في الحكومة ويتمتعون بالقدر نفسه من الاستقامة ولا ينتابهم القلق بالنسبة لمستقبل زوجة تركت مع أربعة أطفال صغار دون مال؟

لم يكن تشي يعارض الطمع عند الأفراد فحسب، بل أيضاً عند المؤسسات والأمم. فقد كان يكره مبدأ القروض الأجنبية ويرى أن هذه القروض يجب أن تكون هبات. وهذه المشاعر لم تدفعه إلى أن يكون العدو الذي يكن الاحتقار للرأسمالية والنشاط الحر فحسب، بل جعلته أيضاً يعارض ممارسات عديدة للكتلة السوفياتية ، ومنها بالتحديد قروض روسيا بالفائدة لكوبا. ومما كان يثير غضبه أن يرى العمال في معظم المجتمعات يبيعون عملهم ومهارتهم لمن يدفع أكثر. ولم يكن يقبل أبداً أن يكون الطمع هو الذي يحفز البشر والأمم، ولذا فقد عارض الحوافز المادية لزيادة الإنتاج والحلول المؤلمة التي يقدمها العرض والطلب. كان يفكر بسلّم الأجر الواحد، حيث يحصل كل

شخص على الأجر حسب حاجته، إلى أن يلغى النقد جملة. إن الطلب العام على مادة معينة أو مهارة معينة يجب أن لا يؤدي إلى أن يدفع لقاءها أكثر مما يدفع لقاء مادة أخرى أقل شعبية ولكن مطلوبة أكثر من الناحية الاجتماعية.

ومن المفارقات العجيبة أن يقع الاختيار على هذا العدو الرئيسي للنقد ليكون مديراً للبنك الوطني لكوبا قبل أن يصبح وزيراً للصناعة. ومع ذلك فهناك منطق عجيب وراء اختيار تشي. فالمصلح الذي يريد أن يضع حداً للدعارة يجب عليه الذهاب إلى الماخور لا الذهاب إلى بيت امرأة فاضلة. وكذلك شأن من أراد محاربة النظام النقدي القديم، فينبغي عليه أن يصبح مديراً للبنك الوطني قبل خوضه المعركة. مع ذلك فهناك صلة تربط بين اهتمام تشي الخاص بالصناعة في كوبا والقرار الذي اتخذه. كان عليه أن يحصل على القروض والاعتمادات والمعونات من أجل تمويل مشاريعه للعمليات والصناعات الجديدة، فكان لزاماً عليه أن يتقنع بقناع الرأسمالي الشرير، كي يبقي عجلات الصناعة دائرة. لقد شارك ماكهيث تأمله حين تساءل: وما وجه المقارنة بين نهب مصرف ما وإدارة هذا المصرف؟

وقبل أن يتولى تشي مهماته الجديدة، ألمَّ إلمام الرجل الذكي بالاقتصاد، وبهذا تعلم بسرعة نظرية البنوك، وكتب العديد من المقالات حول التمويل، مقتبساً من المصادر الماركسية والهيجلية، كي يدحض الشيوعيين المتزمتين والاقتصاديين الرأسماليين الذين دافعوا عن النظام النقدي العالمي أو عملوا معه . لقد أملت أخلاق تشي بصورة أساسية نظرياته وبقي تعلّمه شيئاً مظهرياً. وبالرغم من أنه تعلّم أساليب المصارف، فإنه أراد أن يستخدم التمويل سلاحاً لخدمة أيديولوجيته فحسب. وكي تثبت العقيدة لابد أن تنجح الأساليب، أما أسباب اختيار وسيلة دون أخرى فلم تكن أسباباً اقتصادية، وإنما خلقية.

إن رؤيته للإنسان الاشتراكي لم تكن تتعارض مع أفكاره عن الثورة

والحرب والاقتصاد. كان يناضل من أجل خلق ذلك الإنسان الجديد والقضاء على استغلال الإنسان للإنسان. كان على كلّ شيء، بما في ذلك الاقتصاد، أن يشارك في ميلاد تلك المثل، وهنا تكمن أصالة تشي وآثاره.

آمن تشي بأن الحكومة الاشتراكية الثورية ورثت طرق تفكير عديدة وعظيمة، مغايرة لهدف الثورة، ولابد من إزالة هذه الطرق في الحال، وإلاّ فإنها ستفسد روح الرفاقية والراديكالية الجديدتين. فلم يكن كافياً تحويل النظام القديم إلى دولة يسعد فيها الإنسان وتؤمم فيها الصناعات وتوزع الثروة بعدالة أكثر، فالماركسية والتخطيط المركزي هما أكثر من مجرد أساليب لإدارة الدولة بشكل أكثر فعالية وعدالة. فما لم يستطع النظام الجديد تغيير العلاقة بين الناس أنفسهم، وبينهم وبين المجتمع، فلا تغني تضحيات الثورة ومعاناتها بما في ذلك الموت والتشويه (من القتال) والخسارة. وأكثر من ذلك، فإن ثورة أخرى ستنشب إذا كان همّ النظام الجديد تحسين الوسائل القديمة السيئة ليس إلاّ.

ذلك أنه إذا ما أريد للاشتراكية أن تعني أكثر من رفع مستوى العيش للأغلبية المسحوقة فلابد من تحسين نوعية الحياة؛ لابد من تقديم معنى للعيش إلى جانب التقدم المادي، وفوق كل شيء لابد لهذا المعنى أن ينطبق على عمل الإنسان. فعلى الاشتراكية أن تضمن «مستقبلاً يكون فيه العمل أكبر شرف يتطلع إليه المرء بحيث يصبح واجباً اجتماعياً وسعادة إنسانية حقة وفعلاً مطلقاً للإبداع». فبينما كان جهد الإنسان مجرد سلعة تباع وتشترى ،فإنه ـ الإنسان ـ لم يكن بوسعه أن ينظر إلى عمله بعين الرضا والافتخار. لقد كان «واجباً كريهاً وشراً لابد منه»، وذلك كان بلاء الرأسمالية الصحيح، فقد حرمت الإنسان فخره بعمله من حيث كان ينبغي أن يكون مصدر رضاه الأكبر. لقد لطخت الرأسمالية شرف العامل عندما حولته من شخص يزهو بعمله إلى شخص يرى ضالته في ما يربحه من مال لقاء

إنتاجه، وحولته إلى جشع يسخر من ذاته، حيث أصبح يعمل من أجل المادة، لا من أجل العمل نفسه. إن تغيير موقع العامل من عمله وبالتالي تجاه مرابحه كفيل بأن يحوّل الاقتصاد والمجتمع والإنسان نحو الاشتراكية الحقة.

شعر تشي بأنه لابد من أن تعالج هذه المشكلة خلال فترة الحماسة الأولى من المد الثوري. واصطدم هنا بالشيوعيين من أنصار المدرسة القديمة الذين أرادوا إقامة اقتصاد اشتراكي أولاً، حتى إذا ما نجح ظهرت عندئذٍ عقلية اشتراكية حقة بين الشغيلة. غير أن تشي لم يوافق على هذا الكلام، لأنه بعد خمسين عاماً من الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي ما زال العديد من الحوافز الرأسمالية وطرق التفكير باقياً في صفوف العمال والمديرين؛ إذ ينبغي أن يسبق التثقيف العقائدي ما ينتظره العامل من مكافآت لقاء الإنتاج. «نحن نؤكد أن إنماء الضمير، سيطور الإنتاج في وقت قصير نسبياً، إلى درجة يضعف فيها أثر الحافز المادي». إن إنماء الضمير كان يعني دفع العمال إلى أن يعملوا بكل طاقتهم غير مدفوعين بجشعهم أو طموحهم أو خوفهم، وإنما بمثاليتهم وإيمانهم بقادتهم وتطلعهم لمستقبل أفضل لأفراد في مجتمعهم ولأنفسهم. فإذا ما رعت الدولة كل مطالبهم كان بوسع العمال أن يعملوا لمصلحة الجميع دون أن يكون المال هدفهم.

وكانت نظرية تشي عن القيمة التي دعمها فيدل الأساس لكل المناظرة الاقتصادية. فالقيمة لا تحدد حسب العرض والطلب، وإنما حسب قيمة المنتج أو الخدمة من الناحية الخلقية والاجتماعية، وليس حسب قيمتها في السوق. لذا كانت قيمة العمل من الناحية الإنسانية أكثر أهمية من قيمته بتعابير الفعالية الاقتصادية. ينبغي على بنك الدولة أن يقرر الميزانية للمشاريع التجارية طبقاً لقيمتها الاجتماعية، لا أن يمنح القروض لاحتكارات الدولة التي يديرها مديرون لا هم لهم سوى الإنتاجية، كما هي الحال في روسيا. لقد فكر تشي بالقيمة بمعناها الخلقي القديم، وليس بتحديدها الاقتصادي الضيق. فالرجل

الاقتصادي هو المسخ الذي صنعه النظام الرأسمالي، وأما الإنسان فهو الكائن الاجتماعي والسياسي الذي حدده الفلاسفة اليونانيون القدامى. فينبغي على النظام الاقتصادي أن يخدم قيم الإنسان عن طريق خدمة قيم المجتمع الذي ينتمي إليه الإنسان، وعلى هذا فالمال لا يستحق أن يشغل حيزاً في حياة الإنسان.

لقد سيطرت هذه النظرية الطوباوية عن القيمة على قرار تشي كمدير للبنك الوطني. فقد اعتقد أنه ليس من العدل تشجيع المنافسة بين مشروع تجاري للدولة ينتج الجعة «البيرة» وبين آخر ينتج الكتب المدرسية، لمجرد أن بيع الجعة أوسع بكثير من بيع الكتب المدرسية. إن توسيع صناعة الجعة بسبب كثرة ربحها أمر غير مرغوب من الناحية الاجتماعية، إذا كان يعني تخصيص مال أقل لإنتاج الكتب المدرسية. وكان من واجب البنك الوطني أن يقدر القيمة النسبية للمادتين بالنسبة للمجتمع الكوبي، وأن يخصص ميزانية لكل من المشروعين محددة بالقيمة الاجتماعية للمادة المنتجة، عوضاً عن الربح الذي تجنيه الدولة الكوبية. وكان يجب أن تكون القروض التجارية بلا فائدة، لتفادي أي ضغط يمارس على المشروع، مما يمكن أن يفسد هدفه الاجتماعي في نشدانه للربح. وبنفس الطريقة يجب أن لا يمنح العمال حصةمن أرباح المشروع، وإلا فستظهر طبقة عمال من ذوي الامتيازات، وهذه سوف تحصل عل دخل يفوق دخل العمال الآخرين الذين أفادوا المجتمع بأكمله بالعمل في مشاريع غير مربحة لهم. إن مكافأة العامل تكون في العمل لصالح الجميع. يجب على البنك الوطني أن يحد من المنافسة والحوافز المفرطة، الأخوين التوأمين للجشع، ويجب أن يعلِّم قراره القيمة الحقيقية فقط:الرفاقية في خدمة الثورة.

دفعت هذه المعتقدات تشي إلى القيام باختيارات صعبة بشأن مسألة التخطيط المركزي. ومن البدهي أن يكون التخطيط المحلي قد قاد إلى شعور أكبر بالمشاركة، ولكنه قاد ايضاً إلى المنافسة بين المناطق المحلية.

أخذ التخطيط المركزي بعين الاعتبار مصلحة الجزيرة بأكملها، وساعد أيضاً في تقديم تقنية وتصنيع أفضل. ووصف تشي المنافسة الرأسمالية في إحدى خطبه التي خصصها للدفاع عن التوجيه المركزي بأنها «صراع بين الحيوانات»، ووصف المنافسة الاشتراكية المحلية التي تهدف إلى تحقيق أقصى الأرباح بأنها «صراع بين حيوانات سجينة».

كان يسعى إلى إنجاز حاجات الرجال الروحية، أما حاجاتهم الجسدية فقد كانت عرضية. ولقد أراد تشي، حتى في قضية اجتماعية كالعمل الطوعي، أكثر من مجرد العمل نفسه. «إن العمل الطوعي ليس عاملاً لزيادة الإنتاج وحسب، إنه منبع الثقافة الاشتراكية للجماهير».

لذا أراد تشي ومن هم على مذهبه من الاقتصاديين تبني التخطيط المركزي، بحيث تذهب الأرباح للدولة من أجل توزيعها على الاقتصاد وعلى المجتمع بكامله. وينبغي أن تدار الزراعة بالطريقة نفسها التي تدار بها الصناعة، وعلى مزارع الدولة الكبيرة أن تستمر في توظيف جميع العمال ودفع رواتبهم، وأن تكون الأرباح للمنفعة العامة. كما ينبغي أن توجه للصناعة كل العناية بحيث تصبح الهدف الذي من خلاله تتحرر كوبا من السوق العالمية، حيث تبتاع الأقطار المتطورة المواد الخام بأسعار منخفضة، وتبيع البضائع المصنعة بأسعار عالية. وكان التصنيع، أيضاً، الدواء الوحيد لمعالجة تدني مستوى التشغيل الذي ابتليت به جميع الدول المتخلفة. وكذلك فقد كان الإصلاح الزراعي ضرورة أيضاً، كي ينقل البلد المتخلف من الاعتماد على اقتصاد المحصول الواحد إلى الاكتفاء الذاتي، حتى ولو كان ذلك يعني تخفيض المحصول الرئيسي الذي يوفر رأس المال الأجنبي. فالاستقلال الاقتصادي أساس الاستقلال السياسي.

إن الحافز الكامن وراء هذا البرنامج هو الوعي الثوري. «إن بناء الاشتراكية لا يتم بالعمل وحده. إنه العمل والوعي؛ تطوير السلع المادية من خلال صنع الوعي وتطويره». ولكن تطوير الوعي الثوري

ينبغي أن يحظى بأهمية تفوق تطوير الإنتاج. فمثلاً بالرغم من أن المنافسة كانت شيئاً سيئاً عندما شجعت التنافس والفروق المادية سواء في البلدان الرأسمالية أو الاشتراكية، فإنها كانت مفيدة عندما شجعت الرفاق المخلصين على العمل بجد. وكانت المنافسة سلاحاً ذا حدين. «المنافسة لا يمكن أن تكون مثل لعبة الكرة، حيث يقذف الخاسر الحكم بالبرتقال. فالمنافسة ينبغي أن تكون ودية. لماذا؟ كي يضاعف كل فرد الإنتاج. إنها سلاح لزيادة الإنتاج. وليس هذا فقط، بل إنها أداة لتعميق وعي الجماهير، إنهما ـ المنافسة والوعي ـ يتمم أحدهما الآخر». وما ينطبق على المنافسة ينطبق على العمل الطوعي الذي كان شكلاً من التربية، بحيث لم يعد العمل هاجساً كما هو في العالم الرأسمالي، بل أصبح واجباً اجتماعياً جميلاً. إن صنع الإنسان الجديد كان هدف الأعمال الاجتماعية الأسمى.

إن الحقيقة المذهلة حول كوبا الحديثة هو أن هدف تشي هذا قد وضع موضع التطبيق. ومهما قال أعداء الثورة الكوبية فإن العمل الطوعي لا يزال ينفذ بأصالة من قبل المتطوعين، حتى لو لم تكن أسباب قيامهم بالعمل هي أسباب تشي نفسها. فقد يتطوعون أسوة بغيرهم، أو لأنهم يخشون توبيخ رفاقهم لهم، أو لأنه يوجد عمل بديل في كوبا يقومون به في أوقات فراغهم. ومع ذلك فإن الحماسة والوعي الثوري يفعلان فعلهما، فعندما يغادر المواطنون هافانا طوعاً من أجل قضاء فترة في قطع قصب السكر خلال موسم السكر، ينتابهم شعور بأنهم يؤدون دورهم المتواضع في الثورة. وقد يعملون ببطء ولا يعطي عملهم النتيجة المطلوبة، ولكنهم يعملون لمجتمعهم فيبرهنون على أن تشي كان على حق. وبالإمكان إعطاء أفراد الشعب العادي ما يكفي من الوعي الثوري ليعطيهم بدوره معنى لعملهم. فعندما يعمل العامل و«لا يكتفي بتحصيل معيشته، بل يبني شيئاً يراه ويشعر كأنه ملكه»، فإنه يكون بذلك قد خطا خطوة نحو مثل تشي.

مع ذلك، فإن تشي لم يكن نظرياً متزمتاً ولا متصلباً كل التصلب في

تفكيره برغم كل تشديده على التخطيط المركزي. لم يكن يريد بناء دولة قوية، وإنما بناء شعب اشتراكي سعيد. والحق أنه شجب أفكار أولئك المتزمتين الجامدين: «إن مهمة خلق مجتمع اشتراكي في كوبا يجب أن تتم بعيداً عن التفكير الآلي كما يبتعد المرء عن الطاعون، فالتفكير الآلي لا يقود إلا للأساليب المقولبة». أما الماركسية، فقد كانت ديالكتيكية، وهي عملية تغيير. إن الأفكار المتزمتة داخل الماركسية مرض لأنها رفض للتجربة. ويرى تشي أن يبقى الثوري كائناً بشرياً. فلقد كانت عبارة «أن تكون إنساناً» لا تعني لتشي أن تكون ضعيفاً أو تتصرف بشكل دون تصرف باقي البشر. إنها تعني بذل غاية الجهد الأحسن لا بذل الجهد الأقل. وهي تعني فوق كل شيء حث الإنسان على تطوير وعيه بحيث «يتألم لاغتيال أي إنسان في أي بقعة من العالم، ويفرح بزوال عائق آخر من طريق الحرية في أي بقعة من العالم». والواقع أن تشي يرى أن الكلمتين «إنساني» و«ثوري» هما توأمان، وذاك لعمري تفكير رجل ثوري.

وما من شك في أن تفكير تشي الاقتصادي ضم عنصراً من التناقض، فهو متصل بالفوضوية الطوباوية والشيوعية البدائية بخيط يكمن خلف كل تأكيداته على التوجيه المركزي. ففي أحد الاجتماعات التي ضمت حشوداً من العمال بدأ تشي خطابه بترديد كلام لشاعر كان يندب جهد الناس لأن أحداً لم يستطع «أن يفهم إيقاع الشمس» ولا «أن يحصد سنبلة قمح بمحبة وحنان». ثم راح يشرح كيف أن الكوبيين تخطوا هذا الوضع وخلقوا وضعاً جديداً عبر رغبتهم «في الرجوع إلى الطبيعة وتغيير نظام العمل اليومي الممل إلى نشاط هادف». ولو رجع الشاعر إلى كوبا فإنه سيرى «كيف تخلص المرء من جميع مراحل الحرمان الرأسمالي، بعد أن كان يسخَّر كالحيوان لمصلحة المستغل، وسلك طريق عودته إلى الإنسانية مرة أخرى ليضفي على العمل في كوبا اليوم معنى جديداً بأن يمارسه بسعادة ومحبة». ويؤكد تشي أنه كان هناك «محبة وحنان» في عمل قطع القصب بالذات، وأن

عبودية الإنسان لا تكمن في حاجته للعمل وإنما في حرمانه امتلاك وسائل الإنتاج. فقد استعاد أيضاً حسه القديم بالسعادة في العمل وشعر بأهمية نفسه داخل الآلية الاجتماعية.

«أصبح سعيداً وهو يشعر بأنه مثل تضاريس العجلة الدائرة، لها سماتها ومنافعها الخاصة. إنها تضاريس ضرورية لا غنى عنها في عمليات الإنتاج، لكن الإنسان كائن مفكر له دافع خاص، إنه يحاول بوعي أن يدفع بمشابرة وإحكام إحدى مقدمات بناء الاشتراكية، نعني إيجاد كمية كافية من السلع الاستهلاكية للشعب بأكمله».

ومن المفارقات العجيبة أن يكون تشي قد كشف في حديثه هذا أنه في موضع قريب من الأخلاق البيوريتانية الأصلية، التي كانت المحرك لاقتصاد أميركا الشمالية. لقد أكد البيوريتانيون باستمرار أن العمل واجب اجتماعي وأنه يجب أن يؤدى بمرح.

إن قوانين مجتمع تشي لم تكن قوانين مجتمع القرن السابع عشر، ولكن أساليب إقناع الناس وحثهم على العمل بجد ونجاح في ميادين حقيرة لم تكن مختلفة.

وقد لخص تشي فلسفته الاقتصادية في مقاله الشهير عن «الإنسان والاشتراكية في كوبا» الذي أنكر فيه أن تكون الدولة الكوبية قد جاءت للقضاء على الفرد، وإنما جاءت لخلق فرد جديد بدت ملامحه الظاهرة أثناء أيام القتال البطولية في السيرا مايسترا، وفي الأيام التي ضحى فيها الشعب بأكمله ليخدم الأمة أثناء أزمة الصواريخ، وخلال إعصار فلورا. إن المشكلة كانت في جعل شعور المساعدة، الذي لم يظهر إلى الوجود إلا أيام الأزمة أو الكارثة فقط، شعوراً دائماً. وقد اعتمد ذلك الشعور على التواصل التام بين الشعب وقادته. . . «تأتي المبادرات بشكل عام من فيدل أو القيادة العليا للثورة، ثم توضح للشعب الذي يمارسها وكأنها من صنعه، وفي بعض الأحيان يتبنى الحزب التجارب المحلية بمشاركة الحكومة ثم يعممها». ولكن هذه الاتصالات لم تكن على مستوى كاف من الإتقان، الأمر الذي يفسر

بعض الفـشل في الفهم، ولكنها قابلة للتحسن. لا شك أن ظهور مثل هذا النظام في الحكومـة قـصد به إخضاع الفرد، ولكن تشي لا يرى في الفـردية الغـربية أكثر من حكم الرأسمالية. فهذا روكفلر خير مثال على الفـردية الغـربيـة، «إنه شعب من الذئاب، فذلك الذي يصل إلى مثل قمة هذا النجاح إنما يفعل ذلك على حساب الآخرين». إن الإنسان في ظل الاشتراكـيـة لم يكن مخلوقـاً جـشـعـاً، بل مـادة غير مكتملة. وعلى المجتـمع الاشتراكي أن يستأصل من الفـرد العـيـوب المكتـسبة، وعلى الفـرد أن يعـيـد تربيـة نفـسـه. يجب أن يسـقط من حـسـابه الفكرتين التـوأمين للرأسماليـة القـائلتين ان الفـرد منعزل، وإن العلاقات محكومة بـقـانـون الـعـرض والطلب. هناك العـديد من البلدان المتـخلفـة التي حـررت نـفـسـهـا من قـبـضـة الامبرياليـة، لكن قـدرها بقي رهناً بيـد الامبرياليين لأنها فـشلت في تحرير نفسها من المنطلقات الرأسمالية. فإذا مـا أريد بناء وعي ثوري كـان لابد من خلق إنسـان جديد يكون حجر الزاوية في بناء الأمة الجديدة.

لذا فـالمجتـمع الثوري الجديد لابد أن يكون مدرسة ضخمة ؛إذ قد تلجأ الرأسماليـة، برغم كل شيء، إلى القـوة، هكذا عـودت الرأسمالية شـعـبها وحصلت على ثقته وفق نظامها الخاص. وعلى هذا فإن واجب الحكومـة الكوبيـة تعليم شعبها أفكارها الخاصة وبشكل مكثف حتى لا يقع أفراد الشعب في أخطاء الرأسمالية. عندئذ فقط، يبدأ ظهور إنسان جـديد. إن صـورته لم تكتـمل بعد، ولن تكتمل أبداً لأنه يتقدم بشكل مـوازٍ لتطور الأشكال الاقـتـصـادية الجـديدة. لم يعد يتقدم وحده نحو رغـبـات شـخصية مبهمة، فقد سار مع الجماهير خلف قادة حزبه نحو أهداف المجتـمع الجديد. لقد قام بدعم المؤسسات وتقديم التضحيات الثـورية، بيد أن ذلك كان مرحلة عابرة نحو العالم الجديد. كان هدف الثـورة المطلق إعـداد رجـال مـتـحـررين من عقدة الغربة عن مجتمعهم، التي كـانوا يسـمـونها خطأ نزعـة فـردية. «فـبـالرغم من تعيير الإنسان باشتراكـيته فإنه يبقى أكثر كمالاً من غيره».

لذا تجاهل تشي تساؤل المتسائلين: «وكيف يستطيع الفرد معارضة مجتمعه»، لأنه لم يعتبر مثل هذا السؤال منطقياً. ويتفق تشي مع أفلاطون في قوله إن قيام أي إنسان بتحقيق ذاته إنما يكون ضمن مجتمعه الشيوعي، لذا فإن صوت كل رجل يجب أن يسمع ضمن الجهاز الاجتماعي (Social apparatus) وليس ضده. كما يجب أن تلغى كل أسباب الخلاف ودوافعه التي قلبت الرفاق إلى متنافسين، يتنافسون في العمل من أجل المال، بينما المفروض أن يكون العمل واجباً اجتماعياً؛ «فالآلة في آخر الأمر هي الخط الأمامي حيث يؤدى الواجب». فإذا ما حرر الإنسان من العمل كي يوفر الطعام والكساء والسكن لعائلته، فبوسعه أن يجد نفسه قد أنجز خدمة للجماعة بأكملها. ويوافق تشي على أن العمل في دولة اشتراكية يجب أن يكون إجبارياً إلى حد ما، ولكن ينبغي أن يكون كما أسماه فيدل «إجباراً خلقياً»، ثم لا يلبث هذا الإكراه أن يصبح طوعياً بعد أن ينمو الضمير الاجتماعي نمواً لائقاً وعاماً. واعتقد تشي أن الفن كشف الفارق بين المجتمع الرأسمالي والمجتمع الاشتراكي. ففي الرأسمالية هاجم الفنان الدولة، فالفراغ والتسلية المبتذلة هما «صماما أمان للقلق الإنساني». مع ذلك فإن الثورة الحقة تحتوي التجارب الفنية داخل ذاتها. ومن المسلم به أنه لم يوجد «فنانون ذوو سلطة عظيمة ممن كان لديهم إلى جانب ذلك سلطة ثورية عظيمة». بيد أن الثورة كانت لا تزال فتية، والتجربة ستشملهم وتشمل الإنسان الاشتراكي الجديد. ولقد احتقر الواقعية الاجتماعية في القرن التاسع عشر التي احتفظ بها كفن رسمي لروسيا والصين، فقد كانت رجعية، تماماً كما كان الفن الرأسمالي المنهار في القرن العشرين رد فعل في ذاته لتلك الواقعية البائدة. إلا أن التجارب الجريئة والمتواصلة ستجد فناً جديداً يناسب إنسان القرن العشرين الجديد. إن ذلك الإنسان الجديد سوف يجد في قادة الثورة الكوبية، وبالتحديد في تضحياتهم، ما يدفعه ويلهمه. فقد كان هؤلاء موجهين بفعل المشاعر الأصيلة للمحبة. ومع ذلك فقد تخلوا عن

حيـاتهم العـائليـة من أجل القضية: «لا حياة خارج الثورة». يجب أن يسير الشعب مثل قـادته نحـو الأممية البروليتارية الحقة، وأن تتملك أفـراده رغبة شديدة في مساعدة رفاقهم المستغلين في جميع أنحاء العالم. ويجب على القادة أن يسيروا بالشعب في اتجاه هذه الغاية.

وأنهى تشي أعظم بيـاناته بسلسلة من المبـادىء الأسـاسـية حث فيها الشعب الكوبي على التمسك بالقضية والإيمان بها.

«نحن الاشتراكـيين أكـثـر حـرية، لأننا أكثر تحققاً ذاتياً، ونحن أكثر تحققاً ذاتياً لأننا أكثر حرية...

إن تضـحياتنا تضحيات واعية، إنها دفعة من أجل الحرية التي نحن نبنيـهـا، وسـوف نصنع إنسـان القـرن الحادي والعشرين: نصنعه نحن بأنفسنا».

هذه هي على وجـه التـقـريب آمال تشي ونواياه المبكرة. لقد خابت جميـعـهاً تقريباً، وحتى في كوبا لم تكن الأحلام بمتناول اليد. وقد حلل تشي في مقالة له نشرت في أكتوبر عام ١٩٦٧ الأخطاء التي ارتكبـتها الحكومـة الكوبيـة في حـقلي الصناعة والزراعة. وكان حكمه على أخطاء بلاده وعلى أخطائه الشـخـصـيـة، وهو الخبير في النقـد الذاتي، قـاسياً وشـفـافاً بحيث لا يستطيع حتى الأعداء أن يقولوا عنه أكثر مما قاله هو عن نفسـه. وفـيـهـا هاجم نظام المحـصول الواحد بوصفه لعنة تصيب الدولة النامـيـة، وأيد سـيـاسـة التنوع في المحـصـول بالنسـبـة للزراعـة كـوسـيلة نحـو التـشـغـيل الريفي الكامل والكفاية الذاتية القومية. كان رأيه صـحـيـحـاً من الوجهة النظرية، أما التطبيق الحقيقي للسياسة فقد كـان مـآله الفشل. فـقـد جـرت محاولة بالغ فـيها في تنويع المحصول حـالاً، فنتج عن ذلك انخـفـاض عـام في الإنتـاج الزراعي، ولذا كان على كـوبا أن تعـود إلى دورها الأصـيل كمنتجة رئيسية للسكر، الحقيقة الاقـتـصـادية الأساسية لوجودها. وقد اعترف تشي الآن بأن الولع الذي ربـط بـين الـسـكـر واعـتماد كـوبـا على الامبرياليـة والبـؤس في المناطق الريفـية، لم يكن سوى ولع ليس إلا. وفي الحقيقة كان على الكوبيين أن

ينتجوا السكر ويحصلوا من ورائه على مال أكثر، فالسكر لم يكن شيطاناً وإنما الميزان التجاري هو الشيطان.

وحدثت أخطاء مماثلة في صناعة كوبا الحالية والمندفعة. واعترف تشي بالفشل في فهم التكنولوجيا الدقيقة والاقتصاد اللازم لإقامة صناعات جديدة. ومرة أخرى دفعت البطالة والرغبة في تحقيق الكفاية الذاتية على المستوى القومي، الكوبيين، لتملك عدد كبير من المصانع بسرعة كبيرة. وكانت النتيجة أن أنتج الكوبيون سلعاً استهلاكية رديئة ـ لأنها مصنوعة على عجل ـ بأسعار مرتفعة بالمقارنة مع الأسعار الدولية. وحتى مشكلة الدفع للسلع الاستهلاكية المستوردة لم تساعد كثيراً بسبب ارتفاع استيراد المواد الخام بنفس المعدل تقريباً. كان على الحكومة الكوبية أن تتعلم بعد دفعها الثمن الباهظ ـ الفارق بين الأيديولوجية والتطبيق. واعترف تشي بأخطائه وبالأسباب الجذرية لهذه الأخطاء. «من الطبيعي أن ترتكب أخطاء مجموعة من الرجال المبتدئين الذين ليست لديهم أية خبرة سابقة، والذين كان عليهم أن يقودوا عملية متسارعة من التنمية في وجه القوى العسكرية والاقتصادية لما يسمى بالعالم الغربي».

إن هاجس الحاجة للتصنيع، والتصميم على تصنيع السلع الاستهلاكية محلياً بدلاً من استيرادها كان من الأخطاء التي يمكن فهم إقدام كوبا على ارتكابها. وبعملية حسابية نفهم أن الولايات المتحدة كانت تبتاع، أيام باتيستا، كل السكر الذي تنتجه كوبا تقريباً، وتزودها بكل السلع الاستهلاكية تقريباً. أما الآن فقد غدت الولايات المتحدة عدوة كوبا، وغيرت سياستها السابقة بالنسبة لتشي. إن حصار أمريكا الشمالية الاقتصادي للجزيرة والذي خفض بصورة فعالة انسياب البضائع الغربية إلى ما يشبه حالة التقطير أدى إلى اعتماد كوبا على البضائع والسلع التي تزودها بها الكتلة السوفياتية التي تبتعد آلاف الأميال ـ وهذه حجة لا تكفي للإحجام عن محاولة صنع البضائع محلياً. لقد أجبر منطق المصاعب الماضية والحاضرة كوبا على أن تجرب

الإنتـاج المحلي، تماماً كما جربت أيديولوجية الثورة الكوبية نفسها.

واعـترف تـشي أيضـاً بالأخطاء النظرية في التـخطيط الاقـتـصـادي. وكـانت هذه الأخطاء على نوعين مـتناقـضين. فـقد حدثت سلسلة من الأخطاء نتـيـجـة لتـقليـد خطط السنوات الخـمس الروسيـة الضـخمة بمـراحلهـا الجـامدة في ما يتعلق بالقرارات ونماذج الإنتاج التي يصعب تحـقـيقها. وانبثقت سلسلة الأخطاء الأخرى من القرارات المفاجئة التي اتخـذت ارتجـالاً كـي تـدفـع كـل شيء إلى الأمـام بسرعـة تفـوق قـدرته وطاقـتـه. وتفاقمت هذه الأخطاء بوجود عوامل أخرى:

«كـان عـلينا أن نبـقي مـصـانعنا ومـزارعنا ومـواصـلاتنا عـاملة دون اعـتمادات، ودون مـبـيـدات للحشرات، ودون مـواد خـام، ودون قطع غـيـار، ودون فـنـيين ودون تنظيم. خـلال تلك الفترة عـاث المخـربون فـسـاداً في أراضـيـنـا، بـدعـم مـن الولايات المتـحـدة، وارتكبـوا أعمال التـخـريب والعـدوان. وقـد أجبرنا التـهـديد الدائم بالغـزو على تعـبئة الشـعب الكوبي مـرتين أو ثلاث مرات في السنة، معرضين بذلك البلد للشلل.

نـحـن لا نـنـسـب جمـيع أخطائنا في التـخطيط إلى قـراراتنا، فنحن مـدينون بذلك أيضـاً إلى فـعل الامبرياليـة التي فـرضت علينا عـمليـة تعـجـيل أكـثـر مما يستطيع الحـزب فـرضه. وبالرغم من أخطائنا فقد سجلنا نجاحات مهمة».

وإذا كانت نظريات تشي مسؤولة إلى حد كبير عما حدث من أخطاء في حـقل الاقـتـصـاد الكوبي، فقد كانت أيضاً مسؤولة بنفس القدر عن نجـاحـه وازدهاره. إن معيار النجاح لا يكمن في النتائج العملية فقط، كما كـان تشي يعتقد، فالبرهان الأخير على إنجاز الحكومة يكمن فيما إذا كـانـت الحكومـة تحـتـفظ بدعم الجماهير أم لا، وهنا تأتي المقـارنة. فإن مجتـمع ليندون جـونسـون «العظيم» قـد خطط برنامجاً أسـوأ من برنامج الثـورة الكوبيـة طوال سنواتها الست الأولى. لكن الشـعب الكوبي وقف مع حكومـتـه وبرنامجها، بينما أدار شعب أميركا الشمالية ظهره للحكومة

وبرنامجها.

لقد كان فيدل كاسترو أعظم منعش للآمال ممن عرفهم العالم، بيد أن تشي زوده بالعديد من الأفكار لإنعاش ذلك الأمل. كان تشي النصير الأعظم للحوافز الخلقية، ولمبدأ عدم التضحية بالوعي الثوري من أجل الحوافز المادية أو الكفاية الاقتصادية. فما كان ليوجد في كوبا اليوم عامل مدني يستمر في دعم الحكومة لو لم يتعلم أن يعمل ليبني الاشتراكية، مفضلاً ذلك على مأواه الخاص. فإذا أدى الانخفاض المستمر في مستوى معيشة النصف الأعلى من طبقات المجتمع في كوبا إلى هجرة نحو خمس أفراد هذه الطبقات تقريباً، فلا تزال البقية باقية للتعلم من القواعد الخلقية من أجل الثورة. لقد أثبت مفهوم تشي حول الإنسان وثقته في طبيعة الإنسان، صحة هذا المفهوم في كوبا بشكل عام. إن الإنسان ليس مجرد معدة أو حساب في البنك، والمجتمع ليس معسكراً للمتشردين. إن الثورة الكوبية، بالرغم من أعدائها الخارجيين وعزلها وأخطائها الاقتصادية، لم تواجه الانهيار، وقد كان مكتوباً لها أن تخفق منذ وقت طويل لو لم تنتصر أفكار تشي ومثله العليا على آراء الشيوعيين المتزمتين والانتهازيين، الذين حاولوا اغتصاب الثورة الكوبية وتطويقها بحزام التجربة السوفياتية المتعبة. وقد يكون تشي وضع الاقتصاد الكوبي على شفا الهاوية، ولكن ليس هناك رجل آخر غيره، عدا فيدل، وضع الشعب الكوبي على حافة المجتمع الجديد في عالم جديد. واليوم يرتل الأطفال في كل قاعة دراسة: «سوف نصبح مثل تشي».



الفصل السادس

بحثاً عن التحرير

إن حياة الثائر المقاتل تجعل حياة الآخرين غير مرضية. فكما كان توم في «غاتسبي العظيم The Great Gatsby» ينشد دوماً الفتنة الدرامية للعبة كرة قدم يتعذر استعادتها، كان تشي يجلس خلف مكتبه يبحث دوماً عن أيام في السيرا مايسترا يتعذر استردادها. وجد تشي في الحرب نوع السلام الذي ينشده، وفي تحرير الآخرين تحريراً لنفسه.

عمل تشي من عام ١٩٦٠ فصاعداً سفيراً متجولاً لفيدل كاسترو، وسافر في بعثات هامة لموسكو ـ غير ناجحة في معظمها ـ كما سافر لفيتنام الشمالية ولبلدان أخرى شيوعية وغير منحازة. ولكنه عندما غادر كوبا في عام ١٩٦٥ ليصبح مقاتلاً متفرغاً ومتجولاً حول العالم، كان بذلك يترجم عقيدته، وهي أن من واجب الثورة الكوبية مساعدة البلدان الأخرى على القتال ضد الامبريالية. وكانت هناك أسباب أخرى لذهابه. فإن علاقة تشي بفيدل، بالرغم من كونها رفاقية ومجبولة بالمحبة ،اتسمت بالصعوبة. لقد شغلت الثورة الكوبية فيدل بصورة كلية، بينما بقي تشي منهمكاً بتوسيع دائرة الحرب لتشمل أمريكا اللاتينية، بل العالم أجمع. كان بوسع فيدل أن يكون ثورياً متفرغاً في داخل الثورة الكوبية، أما تشي فلم يكن بوسعه أن يكون ثورياً متفرغاً إلا خارجها. كان فيدل هو القائد في كوبا، بينما أراد تشي أن يكون قائداً في مكان آخر، وربح الأول الثورة الكوبية، وأراد الثاني أن يربح ثورة أخرى. كان فيدل سياسياً موهوباً ولامعاً. وكان تشي بطبيعته مقاتلاً موهوباً ولامعاً. ووجد فيدل متعة شخصية في التخطيط القومي والدبلوماسية وإلقاء الخطب، بينما كان تشي تزعجه المساومات والكلام غير المقرون بالعمل. وأكثر من ذلك، فقد رأى فيدل أن أفكار تشي الاقتصادية لم تؤت أكلها ، ولم يرضَ تشي بشعور

الفشل. وفي خريف عام ١٩٦٤ أخبر تشي فيدل بأنه يريد الذهاب بعيداً لبدء تحرير أميركا اللاتينية من النقطة المركزية في بوليفيا. وحاول فيدل عبثاً صرفه عن قراره، ثم بدأ في مساعدته لتخطيط حرب عصابات جديدة.

لم يكن تشي المقاتل الوحيد بين المقاتلين الذين جاؤوا من السيرا مايسترا وأرادوا أن يقاتلوا ثانية. ويعيد أوتيريا بويتيرز، وهو عضو في مجموعة تشي، إلى الأذهان قوله: «كان بيننا بعض المقاتلين ممن درجوا على القول دوماً حالما أحرزوا النصر على باتيستا: يتحتم علينا أن نذهب ونقاتل في بلدان أخرى». وأكثر من ذلك، فإن فكرة مواصلة القتال ضد الامبريالية كانت هدفاً يتطلع إليه جميع قادة الثوار. وعندما كتب تشي رسالته الوداعية إلى فيدل قال: «هناك أمم أخرى تحتاج إلى جهودي المتواضعة. أنا أستطيع القيام بها لا تستطيع أنت القيام به بسبب مسؤوليتك كقائد كوبي». هذه العبارة أوحت بأن تشي كان يواسي فيدل بسبب أن فيدل لم يستطع أن يفعل ما كان ينبغي عليهما فعله معاً.

ومع ذلك فإن تشي عندما قرر العودة إلى القتال الفعلي كان رجلاً في أواسط عمره، مصاباً بالربو ومترهلاً نسبياً بفعل سنوات قضاها في الإدارة. وباستثناء غاريبالدي وزاباتا، فإن قلة من القادة الثوريين تخلت عن السلطة لتعود إلى القتال ثانية. وهو ـ شأنه شأن القوّاد المذكورين ـ حوّله قدره إلى بطل أسطوري في عصره.

لقد تضمن قراره من الحكمة أكثر مما تضمن من الرومانسية أو السأم. فقد كان له اعتبار هائل، وكان وجوده في الميدان يعادل وجود كتيبة، وكانت حركة الثورة العالمية مشهداً يومياً في كوبا التي كانت تعج بمدارس لتدريب الثوار والمبعدين السياسيين، وبالمؤتمرات التي تعقد للعصيان المسلح. كانت البلاد بأكملها تدور حول ما يشبه رقصة الحرب، برجال يرتدون بزات الثوار، وغدت حالة الحصار تمثل الشعور القومي السائد. كان تشي أهم رجل بين كثرة شعرت بأنها

مكرهة على العودة إلى ساحة الوغى. فثمة بضعة آلاف من الكوبيين لاقوا حتفهم في السنوات الأخيرة أثناء اشتراكهم في ثورات في الخارج. ورافق تشي إلى بوليفيا سبعة عشر كوبياً، بينهم عدد من المحاربين القدامى من أيام السيرامايسترا، وكان من بينهم أربعة يتولون أعلى المناصب في الجيش الكوبي «Commandates» وأربعة من أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، وهي أكثر المراكز مسؤولية في الجزيرة، وكان هناك اثنان في الأربعين من العمر أحدهما نائب وزير والآخر مدير للمناجم. إن مثال تشي لا يعتبر فريداً بالنسبة لأمة ترسل كبار المسؤولين للقتال في الأدغال. لقد كانت الثورة مخاطرة تستحق التبني من قبل جزيرة صغيرة، شعرت بعزلتها عن العالم المحيط بها. كانت كوبا بحاجة إلى كوبا أخرى و ثانية و ثالثة بقربها.

وقد كان لدى تشي أيضاً سبب شخصي في الذهاب، فهو إنسان أرجنتيني. ومهما كانت حجته حين يقول إنه يشعر وكأنه في وطنه أينما كان، فإن بلاده الأرجنتين كانت لا تزال رأسمالية وتفتقر إلى إصلاحات. وبمباركة تشي غادر زميل أرجنتيني يدعى ماسيتي مع ثلاثة عشر رجلاً ـ بعضهم من الكوبيين ـ ليباشروا تحرير الأرجنتين من الأدغال في الشمال. وبعد عشرة شهور من التعثر دون جدوى والاضطراب الذي لا حد له، لاقت قوة ماسيتي الهلاك والتشتت على يد الجيش الأرجنتيني. وقد هزت الكارثة تشي الذي كان يأمل أن يمهد ماسيتي لقدومه فيما بعد. وشعر تشي بأن عليه أن ينتقم لفشل ماسيتي، بالرغم من أنه لم يكن مسؤولاً عنه أكثر من مسؤولية فيدل عن فشل تشي الخاص في بوليفيا. إنه لمن المستحيل إعطاء دعم حاسم لقوة من الثوار المعزولين في المراحل الأولى؛ فالقوة مستقلة تماماً، وبقاؤها هو من شأنها الخاص.

وكان الوقت قد حان ليغادر تشي كوبا؛ إذ كان عليه أن يتحمل مسؤولية فشل السياسة الاقتصادية الكوبية المبكرة. ووجد الروس والأوروبيون الشرقيون الذين كانوا يقدمون العون المالي للاقتصاد

الكوبي أن ذلك يسبب نزفاً ثقيلاً لاقتصادياتهم الخاصة، وضغطوا على فيدل كي يضبط الأمور في بلده. وأراد الروس أن يعاود الكوبيون تزويدهم بالسكر مقابل مبادلة البضائع والاستثمارات الروسية، وأن يشجعوا الحوافز المادية في الصناعة. وما كان بوسع تشي أن يقبل مثل هذه السياسات مطلقاً، لذا فقد اختار أن يواصل رحلاته مرةأخرى.
وقد ألقت والدة تشي في آخر جواب لها مرسل لابنها ضوءاً ساطعاً على ما كان يضمره تشي في رسالته الأخيرة لها. «إذاكانت كل الطرق في كوبا مسدودة لسبب أو لآخر، فإن في الجزائر السيد بن بلا الذي سيسعده كثيراً أن تذهب فتنظم اقتصاد بلاده أو تعينه على مهمته بنصائحك. وكذلك شأن نكروما في غانا، وبالطبع ستكون غريباً هناك،ولكن يبدو أن هذا قدرك». فكان على تشي أن يتحرك.

وقد تآزرت الأمور على إرسال تشي للحرب ثانية. وفي تصريح له أخبر جريدة «المجاهد»، لسان حال الحكومة الجزائرية، أن موضوع الثورة في أمريكا اللاتينية يستحوذ على اهتمامه. لم يتحمل تشي، كشخص فعال وصريح، عدم كفاءة وتعقيد البيروقراطية الكوبية مدة أطول. وكتب في عام ١٩٦٤ حول مهمة الحكومة يقول: «بما أنها مهمة، وبما أنها مهمة حكومة، فإنها لا شك ستتلاشى ولن تنجز الحكومة شيئاً». كان بالتأكيد يتوق إلى الماضي، إلى الأعمال والنتائج البسيطة التي حققها الثوار في القتال. وكتب في رسالته الوداعية عند مغادرته كوبا ما هو «مزيج من مشاعر الفرح والحزن»، وأشار إلى تحرره من وهم الإدارة في عبارته الغامضة «أخلف ورائي أنقى أحلامي كشخص بان». وكان تشي يشعر كل من حوله بأنه محارب في حرب مقدسة ،وكان ذلك هو الحافز الأساسي لذهابه. وكتب في النهاية لفيدل يقول إنه آلى على نفسه أن يحقق «أقدس الواجبات: واجب الكفاح ضد الامبريالية حيثما وجدت»، وهذا ما فعله.

وعندما خطب فيدل ليرثي تشي بعد وفاته قال: «سوف يكون تشي في المستقبل مثالاً ليس له مثيل، لقد تحرر عقله وقلبه من الوطنية

الضيقة والمحاباة والتعصب القومي وحب الذات». ومع ذلك، فهذا لم يكن صحيحاً بين (١٩٥٤ ـ ١٩٦٤) عندما كان تشي الخادم المخلص للدولة الكوبية، حيث كان يعمل سفيراً ويدافع عن السياسة الكوبية حيثما ذهب. وقد سلك تشي بإخلاص الطريق الكوبي في الدبلوماسية الدولية، مروراً بالحرب النفسية مع الولايات المتحدة، إلى تشجيع حركات الثوار في أمريكا اللاتينية، إلى علاقات المحبة مع البلدان الشيوعية. لقد بدا تشي وكأنه صهر نفسه في قوميته الكوبية الفخرية.

وبحلول عام ١٩٦٤ استعاد تشي التزامه القديم بالدفاع عن الأمم الفقيرة في العالم. وبدأ يعتقد أن الخلاف الحقيقي لم يكن بين الرأسمالية والشيوعية، وإنما بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة. وكانت خيبة أمله كبيرة في شروط التبادل التي وضعتها روسيا والبلدان الشرقية لمساعدة كوبا وغيرها من دول العالم الثالث المكون من أمم القارات الثلاث: أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. وقد وقف في وجه العالم الثالث عالمان، عالم غربي وآخر شرقي ،برغم ادعاء أحدهما معاداة الآخر سياسياً. وكلا العالمين مكون من كتل قوية، تضم بلداناً متطورة ذات مستوى معيشي مرتفع. وقد رسم التخلف والجوع حدوداً جغرافية مختلفة عن تلك التي رسمتها الرأسمالية والشيوعية، ووضع الفاصل الجديد الحدود بين المالكين والمعدمين، مصنعي البضائع ومزودي المواد الخام، الشعوب البيضاء والشعوب السوداء، ثم القوى الاستعمارية وممتلكاتها القديمة. لم يفصل الخط بوضوح دولة عن أخرى في كل حالة، وإنما حدد كل رسم للفاصل بوضوح أكثر عالماً ثالثاً مقاماً بعيداً عن كتلة القوى الغربية والشرقية.

سيطر مفهوم تشي عن العالم الثالث على مخيلة الجماهير بصورة كلية. وقاد هذا المفهوم إلى طرق للتفكير، بل حتى إلى تجمعات دبلوماسية. وكان ذلك ما هدف إليه تشي عندما أعلنه في خطاب في مؤتمر التجارة والتنمية التابع للأمم المتحدة في شهر (مارس) آذار ١٩٦٤ : يجب أن لا يدب التنافس والتنازع بين الأمم الصغيرة في سبيل الحصول على

القروض من الأمم الغنية، بل عليها أن تتمسك بالتضامن فيما بينها.

«إذا كانت مجموعة الدول المتخلفة تتنافس فيما بينها بلا جدوى من أجل فتات مائدة الجبابرة، متيحة بذلك الفرصة لشق صفوفها المتفوقة عددياً. . . فإن العالم سيبقى كما هو».

يجب على الأمم الفقيرة أن تتعلم تجنب مزاحمة بعضها البعض في أسعار تزويد المواد الخام، وأن ترفض الرشاوى للسير إما بركب الكتلة الشرقية أو الكتلة الغربية. كان تشي يعظ على الدوام بفضائل ما يشبه نقابة عمال للبلدان الفقيرة. ففي الاتحاد تكمن القوة والقدرة على المساومة. إن أمة تتصرف تصرُف الأجرب (بالمعنى العمالي للكلمة) هي أمة نذلة. وكان لكلماته وقع خاص لدى أولئك الذين رأوا أنفسهم مثل أشخاص (فرانز فانون) في «معذبو الأرض» من العالم الثالث أكثر من أولئك «المعذبين» الذين وردت أسماؤهم في أُغنية «الانترناسيونال»، وهم الشغيلة الفقراء في الأمم الصناعية.

وفي خطابه الذي ألقاه في الجمعية العمومية للأمم المتحدة في(ديسمبر) كانون الأول ١٩٦٤ اتخذ تشي موقفاً أكثر عدائية. فقد لمح إلى أنه بدأ يفقد ثقته بالحلول السلمية بما فيها المواثيق الدولية، والاتفاقات التجارية، والمحادثات، والعون الأجنبي. فهذه لن تحل الصراع بين الفقير والغني. وأعلن «إننا كماركسيين سبق أن أكدنا على أن التعايش السلمي بين الأمم لا يشمل التعايش بين المستغِلين والمستغَلين، المضطهِدين والمضطهَدين». كانت هذه العبارة هجوماً صريحاً على المحاولة الروسية الجديدة لتحقيق «تعايش سلمي» مع الولايات المتحدة، بعد أن جعل كنيدي خروتشيف يتنازل عن موقفه ويسحب الصواريخ من كوبا، وكانت أيضاً بمثابة إعلان حرب مفتوحة على الامبريالية.

وفي الخطاب تحدث تشي مطولاً عن الأحداث التي وقعت في كوبا منذ مقتل لومومبا، مظهراً شعوره الخاص بالتعهد الشخصي في تلك المنطقة. «يجب على أحرار العالم أن يهيئوا أنفسهم للانتقام من الجريمة

التي ارتكبت في الكونغو». وأظهر أيضاً تطابق إحساسه مع الشعوب غير البيضاء في العالم، وذلك في شجب أعمال الشعوب البيضاء بالعنف نفسه الذي يبديه القومي الإفريقي.

«لقد أزيلت الغشاوة عن أعيننا وتفتحت أمامنا الآن آفاق جديدة، ونستطيع أن نرى ما كنا عاجزين عن رؤيته بالأمس في ظل ظروف من العبودية الاستعمارية ـ وهو أن «الحضارة الغربية» تخفي تحت واجهتها البراقة مسرحاً مليئاً بالضباع والذئاب». إن هذا هو الاسم الوحيد الذي ينطبق على أولئك الذين ذهبوا لإنجاز مهماتهم «الإنسانية» في الكونغو. سفاكو دماء غذاؤهم الشعوب البائسة! هذا ما تفعله الامبريالية للبشر، وهذا ما يتسم به الامبرياليون «البيض».

إن الغضب الذي تتسم به هذه الفقرة يغاير عبارات تشي العادية الموزونة والشهيرة، إنها تكشف لنا عما كان يجول في ذهنه في ذلك الوقت وما عساه أن يفعل في المستقبل. وفي ضوء هذه المشاعر نستطيع أن نفهم السبب الذي جعله يقرر القتال في الكونغو. وكنتيجة للخيبة التي أصابت آمال تشي بصفته مساهماً في بناء كوبا، وإظهاراً لاشمئزازه من المساعدة الأنانية المشروطة التي تمنّ بها القوة الشيوعية البيضاء على الدول المتخلفة؛ فقد تخلى عن مكانته كإداري وكدبلوماسي ثوري مضحياً من عمره بسنوات قضاها في هذين الحقلين. لقد آثر أن يعود ثورياً متجولاً، كما كان في شبابه، لا يعرف الكلل، مستعداً لأن يعيش ويتجاوب مرة أخرى مع آلام الفقراء من البشر ويصاحب المعذبين في الأرض إينما وجدوا.

وصاغ تشي فكرته الجديدة بشكل أعنف في مؤتمر التضامن الإفريقي الآسيوي الذي عقد في الجزائر في (فبراير) شباط ١٩٦٥ والذي هاجم فيه السياسة الروسية بصورة مباشرة، فأربك بذلك الحكومة الكوبية وولّد الحنق عند الروس الذين كان يساورهم الشعور بأنهم قدموا الكثير لكوبا بما ينتهي معه المبرر لأن توجه لهم تلك الإهانات. ولكن حتى الروس كان عليهم أن يعلموا أن لا منّة في تقديم العون

الأجنبي. وأعلن تشي «أن من واجب البلدان الاشتراكية أن تصفي علاقتها الضمنية مع الأمم المستغلة في الغرب». وبالنسبة إليه لم يكن هناك من تحديد للاشتراكية سوى إزالة استغلال الإنسان. فليس بوسع أي بلد أن يشيد بالاشتراكية إذا لم يساعد جميع البلدان على بناء الاشتراكية ومهاجمة الامبريالية.

«ليس هناك من حدود لهذا «الصراع حتى الموت»، ولا نستطيع أن نبقى غير مبالين بما يحدث في أي جزء من العالم. إن انتصار أي بلد ضد الامبريالية هو انتصار لنا، كما أن هزيمة أي بلد هي هزيمة لنا، إن ممارسة الأممية العالمية ليست من واجب البلدان التي تناضل من أجل تحقيق مستقبل أفضل فحسب، بل إنها أيضاً ضرورة حتمية».

لقد حاول تشي أن يمارس دوماً ما كان ينادي به، وكان انتصاره ومأساته في آن معاً أنه ورط نفسه بزلات من لسانه. كان هذا آخر نداء له للعمل قبل أن يكتنفه الغموض، فقد عاد بالتأكيد إلى كوبا قبل أن يغادرها ثانية للكونغو ليقاتل المرتزقة البيض الذين أثاروا حنقه، وقبل أن يغادر كوبا أرسل رسالة وداعية إلى فيدل يقول فيها إنه سوف يحاول أن يبقى وفياً لمبادئه مهما كانت النتائج النهائية، وإنه كان مندمجاً دوماً مع ما حققته الثورة الكوبية عالمياً. وقد اصطحب معه إلى الكونغو عدداً من رفاقه في السيرا مايسترا، كما واصل بعضهم الآخر الذهاب إلى بوليفيا.

إن الذي حدث مع تشي في الكونغو لا يزال مجهولاً، والأرجح أنه التحق بالفرق المسلحة التي كان يقودها موليلي وسمواليوت في القتال ضد تشومبي. وحاول مع الكوبيين الآخرين أن يدربوا الكونغوليين على قتال حرب العصابات، ولكنهم اكتشفوا أن المتطوعين كانوا دون المستوى المطلوب. وبعد تسعة شهور من الإخفاق النسبي قرر تشي ورفاقه الكوبيون مغادرة البلاد. لم يكن بوسعهم تعليم التلامذة الإفريقيين أكثر مما تعلموه من تجربتهم الكوبية. ويفيد أحد التقارير أن ثمة شيئاً آخر أثار اشمئزاز تشي، وهو اكتشافه، إلى جانب وجود

المرتزقة البيض، أكلة لحوم بشر وسفاكين. كان تشي هذه المرة الطبيب الذي ثار.

في الوقت الذي كان فيه تشي يتأهب لمغادرة الكونغو كان كوكوبيريدو، وهو مقاتل بوليفي، قد ابتاع مزرعة على نهر ناشواسو (Nanchuasu) في جنوب بوليفيا لاستخدامها كقاعدة لثورة تشن على حكومة الجنرال بارنتوس البوليفية. وقد ناقش ماريو مونجه زعيم الحزب الشيوعي البوليفي مع فيدل كاسترو الخطط لجعل هذه المنطقة نواة لثورة تشمل أمريكا اللاتينية بالرغم من كونها منطقة عسكرية منذ ثلاثين سنة خلت. وفي الوقت الذي عاد فيه تشي إلى كوبا سراً في خريف ١٩٦٦، كانت قوة من الثوار تتسلل إلى البلاد وتخزن السلاح والمؤن في سانتا كروز ولاباز. وفي نهاية أكتوبر غادر تشي قاصداً بوليفيا ليبدأ حرباً كان يأمل أن تحرر قارته بأسرها من الامبريالية. كان يبغي أن يكون بوليفار الجديد وأن ينجح حتى أكثر من المحرر العظيم. لم يكن يهدف إلى القضاء على سيطرة الامبريالية فحسب، بل إلى توحيد أمريكا اللاتينية في كتلة اشتراكية كذلك.

أرسل تشي، بينما كان لا يزال يستعد لثورته الأخيرة، رسالة إلى كوبا تليت في منظمة تضامن دول القارات الثلاث في هافانا عام ١٩٦٧، شرح فيها عقيدته قبل موته، وأورد خلاصة لفلسفته التي اكتسبها في حياته مقاتلاً من أجل الشعوب الفقيرة على الأرض.

ابتدأ تشي بالتساؤل عما إذا كان ثمة سلام نسبي حقاً في الإحدى والعشرين سنة التي تلت الحرب الأخيرة. فعلى سبيل المثال استمرت الحرب في فيتنام ما يقرب من ثلاثين سنة، بينما قاتل الشعب هناك ثلاث قوى إمبريالية على التوالي ـ اليابان، ثم فرنسا ثم الولايات المتحدة. . . وكان الفيتناميون لا يزالون يعانون من القصف وتصعيد الحرب من قبل الأمريكيين الذين كانوا البادئين بالعدوان. ولكن هذا الإثم ينطبق أيضاً على أولئك الذين عندما جاء وقت الحسم ترددوا في

جعل فيتنام جزءاً منيعاً من العالم الاشتراكي، متفادين بالطبع مخاطر «حرب تشمل الكرة الأرضية بأسرها»، وقد استمر تشي - دون أن يذكر بالاسم روسيا والصين - في اتهامه القوتين الشيوعيتين الكبيرتين بالتنازع فيما بينهما وبإحداث الانشقاق في القوى المعادية للامبريالية في العالم. ولقد أسقط الفيتناميون، بفضل بطولتهم فقط، «مجتمع الولايات المتحدة العظيم» في القاذورات وأقنعوا الأمريكيين بأن القتل لم يعد عملاً مفيداً بالنسبة لاحتكاراتهم.

فماذا بوسع بلدان العالم الثالث أن تفعل عندئذ إذا كان شبح حرب ذرية عالمية قد سبب تسوية بين البلدان الشيوعية والرأسمالية المتقدمة، وسمح بإبادة الشعب الفيتنامي؟ كان جواب تشي أنه ينبغي تجاهل هذا الشبح. «بما أن الامبريالية تبتز البشرية بتهديدها بالحرب، فإن رد الفعل الحكيم هو أن نخاف الحرب». يجب على بلدان أمريكا اللاتينية وإفريقيا وآسيا أن يحرروا أنفسهم مهما كانت التضحيات؛ فقد تأخرت الثورة في آسيا وإفريقيا، أما في أمريكا اللاتينية فقد بدأت منذ وقت من بؤر مجموعات الثوار العاملة في غواتيمالا، وكولومبيا، وفنزويلا، وبيرو وبوليفيا. فإذا قدر لهذه البؤر أن تصبح ميادين قتال حقيقية، فسوف تجد الولايات المتحدة الأميركية نفسها مجبرة على التدخل بالأسلحة الحديثة والتورط بجيوشها النظامية. كان هذا هو الطريق لمساعدة النضال الفيتنامي ولقهر الولايات المتحدة.

«إنه طريق فيتنام، إنه الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الشعب، إنه الطريق الذي سنسلكه نحن في أمريكا اللاتينية. سوف يكون للثورة الكوبية اليوم مهمة خلق فيتنام ثانية أو ثالثة في العالم».

وبما أن الامبريالية نظام عالمي، فلا يمكن إلحاق الهزيمة بها إلا في مواجهة شاملة، أي في هجوم على مستوى الكرة الأرضية يستهدف

القـوة الرأسمالية الأسـاسـيـة. لقـد برهنت فـيتنام أن القوات المسلحة التـابعـة للولايات المتـحـدة كـانت معرضة للهجوم والسقوط على أرض الثـوار الذين يقاتلون من أجل بلادهم. إن أيديولوجية قوية تستطيع أن تهزم أكـثـر أنواع التكنولوجيا تقدماً. كانت الروح المعنوية نقطة الضعف عند الأمـريكيين الشماليين ،وهم، لولا ذلك، لكانوا مـقـاتلين أشداء. سـوف تشن عليـهم المعـارك دامـيـة عنيفة. كما ينبغي تجنب التضحيات التي لا تعـود بالفائدة، وبالقتال وحده يمكن إلحاق الهزيمة بالامبريالية الاقتصادية للولايات المتحدة.

«هذه المعـارك يجب أن لا تكون مجرد قـتـال شـوارع تسـتـخـدم فيها الحـجـارة مقابل القنابل المسيلة للدموع، أو مجرد إضرابات عامة هادئة، ولا أن تـكـون مـعـارك شـعـب غـاضـب يحـطم في يومين أو ثلاثة أيام المشـانق القـمـعـيـة للقلة الحـاكـمة، بل يجب أن يكون النضال طويلاً وقـاسـيـاً، وأن تمـتـد جـبـهـتـه إلى مـلاجىء الثـوار في الدمن، ومنازل المـقـاتلين. . . في مناطق السكان الريفـيـة التي تعـرضت للذبح، وإلى القرى والمدن التي دمرتها قنابل العدو.

إنهم يدفـعـوننا نحو الصراع، ولا مناص من قبول التحدي. فيجب أن نتجهز له وأن نصمم على الانتصار فيه».

كـانت بدايات الصراع تشير إلى أنها سـتكون قـاسية، ولكن الطريق الوحـيـدة لمسـاعـدة فـيـتنام كانت في شن حرب شاملة على الأمريكيين الشماليين. فيجب أن لا يشعر اليانـكي بالأمان في مقره أو في السينما أو في البلدة. يجب أن يسـيطر عليـه الشـعـور بأنه حـيوان يائس. وعندما تزداد تصرفـاته الحـيـوانيـة تقترب سـاعـة سـقـوطه المريع. فـمن واجب الجـمـيع إذن أن يقـاتلوا مـعاً في أممية بروليتارية حقة. إن الموت في ظل علم فـيـتنام أو فنزويلا أو غـينيـا أو بوليـفـيـا سـتكون له نفس الروعة

والجـاذبيـة لدى الأمـريكي والآسـيوي والإفريقي وحتى للأوروبي. وإن كـل رجـل يقـاتل ويمـوت من أجل تحـرير بلاد الآخـرين إنما يقـوم في الوقت نفـسـه بتـحـرير بلده. لقد ولى زمن التباعد بين مجموعات بلدان العـالم الثـالث ،وعلى جميع البلدان أن تتـحـد لمقـاتلة العـدو الامبريالي المـشترك، الولايات المتـحـدة، التي بدأت بالتـفـسخ داخليـاً في حـرب طبقية وعنصرية.

«حـيثما يمكن أن يفـاجئنا الموت فأهلاً به، بعـد أن تكون صرخـتنا القـتـاليـة قـد وصلت الآذان الصـاغـية، وبعد أن تكون يد أخرى قد امـتـدت لتـحمل بعدنا سلاحنا، وبعد أن يكون رجال آخرون يرافقون مـواكب حـضـارات الشـهـداء بزخات مزغردة من الرشاشات مصحوبة بصرخـات القتال الجديدة وأهازيج النصر».

بهذه الروح ذهب تشي إلى بوليـفيا ليقاتل فيها، وفيها يموت.

الفصل السابع

الموت والأسطورة

تعتبر يوميات غيفارا الكوبية أكثر كتاباته الطافحة بالشعور الإنساني والذكريات المفيدة. فهذه المذكرات دوّنها يومياً على مدى شهور طويلة أثناء كفاح كان البقاء فيه يلوح متعذراً في الأدغال والجبال والعزلة أمام عدو شرس ومدرب، وفيها تظهر روح الإصرار على الصمود. إنها تكشف النقاب عن نفسية تشي الأعزل الذي لم يكن مهيأً للحرب والقتال. لكن عهد الخطابة والتفلسف والنقاش قد ولى، ولم يبق أمام الرجل العظيم إلا السهر على دفع رجاله للقتال أثناء تقدمه هو نحو موته. وتمتلىء يومياته، كتحفة روبنسن كروزو الرائعة، بصور عن وسائل النجاة التي اتبعوها والأسلحة التي استعملوها والأطعمة التي أكلوها والمسافات التي قطعوها، والمؤن التي حملوها. أما الشدة والصبر والشجاعة وروح الرفقة التي مارسوها وعاشوها فتلوح بين الأسطر دونما حاجة إلى ذكرها.

«لم يعبر النهر سوانا نحن من المفرزة الوسطى بمساعدة روبيو والدكتور. كنا نريد أن نصل إلى مصب نهر ناشواسو (Nanchuasu) ولكن ثلاثة منا كانوا يجهلون السباحة، عدا أحمالنا الثقيلة. وجرفنا التيار نحو كيلو متر دون أن يكون بمقدورنا استخدام الطوق كما كنا نعتزم، وبقي ١١ رجلاً على تلك الحال عند الضفة بانتظار اليوم التالي حين يقطع الدكتور وروبيو النهر مرة أخرى. واصطدنا أربعة طيور لغذائنا لم يكن طعمها كريهاً إلى الحد الذي كنا نظن. كان كل شيء منقوعاً في الماء بالإضافة إلى استمرار رطوبة الجو الشديدة، وكانت معنويات الرجال متدهورة، كما انتفخت قدما ميجويل وتورمت أرجل بعض الآخرين. وكان الارتفاع ٥٨٠ متراً».

هذا ما كان يحدث في يوم عادي من أيام الثوار (وقع عليه الاختيار

عشوائياً) ما عدا الموت المفاجىء أو الوقوع في كمين الذي لم يكن في الحسبان. أما تدوين المشاعر في المذكرات فنادر بحيث لا تذكر إلا مقرونة بالانتصار على أفواج العدو التي تحاصر الثوار الثلاثين. وعندما استشهد توما وبقية الرفاق من أيام السيرا مايسترا كان تشي يدون الخسائر بإيجاز يثير الشعور إلى حد لا يطاق:

«لقد خسرت بفقدان توما رفيقاً لازمني طوال السنوات الماضية. كان مخلصاً حتى الرمق الأخير، كانت خسارتي في توما كما لو أنني خسرت لي ولداً. عندما سقط طلب منهم أن يعطوني ساعته التي سأحملها طوال أيام الحرب. ألقينا الجثة على ظهر دابة وسرنا بها طويلاً كي نواريها التراب بعيداً عن ذلك المكان».

إن المأساة البطولية تتطلب إحساساً بالقدر المحتوم، وفي كل مكان من «اليوميات الكوبية» نرى الموت ينسل من هنا وهناك. لم يذهب تشي ليقاتل في بوليفيا، ليُردى قتيلاً، ولكنه كان يعلم أن النزاعات هي التي تحول دون بقائه حياً. وقد علمته بداية الحملة الكوبية أن المجموعة بكاملها قد تكون عرضة للإبادة في المراحل الأولى، كما حدث مسبقاً في أليغريا دي بيو. وإذن فلابد أن يحالف المجموعة الحظ فضلاً عن المهارة كي تبقى حية. وقد انتهى حظ تشي في بوليفيا.

يسهل على المرء أن يتعلم الحكمة بعد حادثة مقتل تشي وفشل العصيان البوليفي المسلح مبدئياً. فثمة عوامل عديدة تجعل النجاح في بوليفيا كما في كوبا أمراً بعيد المنال. أولاً، كان قادة الثوار من بلدان مختلفة في أمريكا اللاتينية ، بينما سلكت الثورة في أمريكا اللاتينية على الدوام خطاً وطنياً قوياً، فحدث احتكاك داخل مجموعة الثوار نفسها بين الرفاق الكوبيين والبوليفيين، في حين ارتاب الهنود البوليفيون بالكوبيين؛ إذ لم يعتبروهم غرباء فحسب، بل أيضاً رجالاً من البيض الكاذبين. ثانياً، سبق لبوليفيا أن قامت بإصلاح زراعي إبان نظام حكمها اليساري السابق. وقد يكون الهنود البوليفيون فقراء إلى حد الشقاء، وها هم لأول مرة منذ ٣٠٠ عام يمتلكون أرضهم الجرداء ، فكان فدان في اليد خير من أي حلم على

الشجرة. وكان فشل تشي الكلي في تجنيد فلاح واحد يساند الثوار خلال الأحد عشر شهراً من التهيئة والقتال هو السبب الرئيسي في انهزامه. وسبق لتشي أن قال في كتابه «حرب العصابات» إن السبب الرئيسي للنجاح في كوبا هو مساعدة الفلاحين في السيرا مايسترا: «أن تجرب هذا النوع من الحروب دون تأييد السكان هو المدخل إلى كارثة حتمية».

وثمة عناصر أخرى حكمت على الثوار بالإخفاق. فكان عزل الثوار عن السكان هو الطامة الكبرى؛ إذ سرعان ما غُرر بالمؤيدين من الطبقة الوسطى في المدن الكبيرة ومن الثوار الخونة المتمردين. وكذلك أخفقت الانتفاضات المماثلة في البيرو وبلدان أخرى من أميركا اللاتينية بسبب انعدام الصبر والمواصلات. لم يقو تشي على أن يكون فظاً عنيفاً فيعدم الذين يظن أنهم كانوا خائنين من الثوار وغير الثوار، مما أدى أولاً إلى سقوط قاعدته في أيدي العدو وفقدان أدوية الربو التي لا غنى له عنها والمؤن والأوراق، ثم ثانياً إلى شق قوته الخاصة الصغيرة إلى قسمين أبيدا بعد مطاردة كل منهما على حدة. وبدأ يظهر على تشي مع توالي ضعف جسمه شيء من الوهن ونقص في إمكانياته القيادية ودوافعه العدوانية. وفي إحدى المرات، بلغ به الاضطراب حداً دفعه إلى طعن فرس. أما بطولته فقد تجلت في استمرار نضاليته بالرغم من شعوره بحتمية انهياره وانهيار مجموعته. لقد صمم على مواصلة القتال ما دام باستطاعته الصمود.

ساعدت العوامل السياسية في داخل بوليفيا على هزيمة تشي. يضاف إلى ذلك أن الجنرال بارينتوس كان بوليفياً بالرغم من أنه كان بوسع تشي أن يتهمه، بحق، بقبول السلاح والخبراء من الولايات المتحدة. كذلك كان بوسع بارينتوس أن يتهم الثوار، بعدل، بأنهم مفودون ومدعومون من الشيوعيين الكوبيين. وقد سبق لفيدل كاسترو أن رفض اصطحاب عدد كبير من غير الكوبيين خوفاً من أن ينظر إلى ثورته على أنها غزو أجنبي، غير أن تشي كان دون ذلك

حكمـة ووعـياً. وقد تجلى فشله الأكبر في فقدانه المرونة السياسية. كان عـليـه أن يتـوصل إلى تفـاهم مع رجل واحـد: مـاري مـونجـه، لينهي عـزلتـه، ويخلص مجمـوعـتـه من الموت اخـتناقاً على أيدي قوى جبارة. كـان مـونجـه هذا زعـيم الحـزب الشيوعي البوليفي. كان على تشي أن يحصل على مـسـاعـدته في إثارة الشـغب في المناجم وفي لاباز. لقد كان فـيدل داهية حقاً عندما أعطى الضمانات للسياسيين المدنيين كي يحصل على تأييـدهم، وقد شجب تشي نكوث فيدل بوعوده فقال:

«لم نـكن راضين بهذه التـسـوية، ولكنهـا كـانت ضرورية، وكـانت تقـدمـيـة في ذلك الحين. لم يكن من الممكن أن تسـتـمـر قائمة بعد أن أصـبـحت عـائقـاً في وجـه التطور الثوري. ولكن كان لدينا الاستعداد لتقبلها».

ولـكـن تـشي رفـض العـمل على التـوصل إلى تسـوية مع مـونجـه. فـعندمـا طلب مـونجـه ترؤس الحـزب الشـيـوعي البـوليـفي للثورة ثمناً لدعـمـه، أعلن تشي أنه لابد له أن يكون هو الرئيس. كـان تشي يرى أن الرئيس هو الذي يمارس القـتـال وهو منعـزل في الغـابات والجـبال، كما يجب أن يكون هذا الرئيس هو الزعـيم العـقـائدي أيضاً. كان ذلك ينسـجم مع العـقـيـدة الكوبيـة في أنه ينبـغي على قـادة الثوار أن يقودوا الثـورة. وعلى أية حـال فـقـد نكث مونجه بوعوده لفيدل بالنسبة لدعم الحـزب الشـيـوعي البـوليـفي لكوبا في جميع الأحـوال. كـان تشي قـائد الميـدان وكـان عليـه أن يقـود حسب نظريته الخاصة، كان يفضل الموت على أن يتنكر لذاته.

ومع ذلك فـبـالرغم من وجـود هذه المصـاعب والأخطاء فـقـد كان بـوسـع الـثـورة الـبـوليـفـيـة أن تطيح بحكومـة بارينتـوس وهي لا تزال تواصل القـتـال. إن النظرية الأصيلة للثورة الكوبية التي تقول إن الثورة تصنع ذاتها، وإن الظروف لن تصـبـح مكتـملة إلى حد يبدأ فيه الرجال العـاقلون ثورتهم، تلقت تأكـيـداً ثانيـاً قوياً. فبعد الهجوم الرائع للثوار على سـومايباتا في (يوليو) تموز ١٩٦٧ الذي أسـفـر عن استيلاء عدد

قليل من الثوار على البلدة وحاميتها العسكرية، اهتزت حكومة بارينتوس ولاحقتها سخرية الشعب. وحملت أسطورة الثوار الذين يقودهم تشي إلى إغلاق حدود البيرو والأرجنتين وإعلان التعبئة في جيشها. كانت بوليفيا في طريقها لأن تصبح نواة لثورة تشمل القارة
وذلك، بالتحديد، بعد تعرض الانتفاضة العفوية التي وقعت في المناجم البوليفية في (يونيو) حزيران ١٩٦٧ إلى القمع الوحشي على يد الجيش. ولو كان تشي أكثر عدوانية وعنفاً في تلك اللحظة، فهاجم برجاله الواحد والعشرين حقول الزيت والمواصلات السائبة في بوليفيا، لجلبت أسطورة الثوار الذين لا يقهرون متطوعين جدداً، ولربما سببت أيضاً سقوط بارينتوس الذي كان يتربص به أعداؤه الفرص مفيدين من النقمة الشعبية. ولكن تشي تلكأ كثيراً، وبدأت استراتيجية الجيش البوليفي في التحسن نوعياً، وبدت حفنة الثوار خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة من حملته، في حالة هروب وخسارة مستمرة.

ولم تكن حتى كارثة يورو رافين، حيث جرح تشي وأسر وشتتت مجموعته ،بأسوأ من كارثة اليغريادي بيو. لقد نجا عشرة رجال من الكارثة، وبالرغم من ذلك تمكن الجيش البوليفي فيما بعد من الإمساك بخمسة منهم، وقد وصل ثلاثة كوبيين من بين الآخرين سالمين. وعاد أينتي بيريدو، وهو قائد ثوار بوليفي، إلى بوليفيا ليواصل نضاله الذي لا يزال دائراً. وأرسل اينتي بيريدو في عام ١٩٦٨ برسالة موجهة من بوليفيا جاء فيها:

«لم تمت حرب الثوار في بوليفيا! بل لقد ابتدأت الآن. كان موت صديقنا الذي لا يعوض ورفيقنا الميجور آرنستو تشي غيفارا وغيره من الثوار ضربة قاسية لنا. . . ولكن هذه الأحداث المؤلمة أبعد من أن تخيفنا بل إنها ستزيد من وعينا الثوري.

إن هدفنا الوحيد والنهائي هو تحرير أميركا اللاتينية التي هي أكبر من قارة، إنها بالأحرى وطننا الممزق مؤقتاً إلى عشرين جمهورية.

نحن مقتنعون بأن حلم بوليفار وتشي ـ توحيد أمريكا اللاتينية سياسياً وجغرافياً ـ سوف يتحقق من خلال الكفاح المسلح، وهو الأسلوب الوحيد المشرف المنزه المجيد الذي لا نحيد عنه، والذي سيحرك الشعب ويحفزه».

إن الاهتمام الذي أبداه الجيش البوليفي في تدبير اغتيال تشي الجريح، وإحراق جثته، وذر رماده، أظهر الرعب الذي ألقته في روع الحكومات العسكرية في أمريكا اللاتينية أسطورة تشي وحلمه في توحيد القارة من خلال الصراع المسلح. كانوا يعلمون أن قضيته لن تموت بموت جسده، كان بوسعهم أن يحرقوا جثته ويحولوها إلى رماد، ولكنهم لا يستطيعون حرق مثله وتحويلها كذلك إلى رماد. لقد رفض بومبو حارس تشي الذي فر من بوليفيا عائداً إلى كوبا، أن يعترف بفشل المحاولة البوليفية. «لم نفشل، لقد خسرنا معركة» وواصل حديثه قائلاً: «إن مجموعة الثوار، مثل سائر الرجال، يصعب الدفاع عنها عند مولدها، إنها تكون طفلاً. ولكن لو قدر لوليدنا أن ينجو لنما وتطور، ولكن فشلنا الوحيد في بوليفيا أنهم اكتشفونا في وقت مبكر جداً، وعلينا أن نقاتل». إن هدف الثورة المسلحة التي تشمل القارة، والتي تنطلق من نواة قرب مركز القارة لم يمت بين أتباع تشي، لقد تأجل تحقيقه إلى أن تحين الانتفاضة القادمة.

لقد كان تأثير تشي في موته أكثر منه في حياته. حقاً لا يروي الموتى حكايات ولكن يصنعون أسطورة. لم يكن تشي واحداً من أعظم أبطال عصره فحسب، بل كان أكثرهم ذكاء وأصالة وتقشفاً وراديكالية وإنسانية وبهاء. لقد أثار آلاف الاضطرابات وألهم مئات الثورات، وترك للماركسيين قديساً كرس حياته وموته لأفقر الرجال دون أن يطلب العون من الله. إن قاعات الطلاب في جميع أنحاء العالم تزينها عبارة «تشي حي». وكان استشهاده إلهاماً للشباب. وقد يكون تشي مات من أجل الفقير، لكنه مات من أجل المستقبل أيضاً.

لقد صادف بعد موت تشي مباشرة أن اشتعلت حركة الحرس

الأحمر في الصين الماوية. وفي عام ١٩٦٨ ثار العـديد من طلاب العالم مختـارين تشي رمـزاً خـاصـاً والحرس الأحمر مثالاً عاماً. وكانت أحداث عام ١٩٦٨ مشابهة بشكل غريب لأحداث عام ١٨٤٨ عندما اجتاحت مـوجـة من الانتفاضات معظم مدن أوروبا الرأسمالية، وانتهت بانتصار القـوى الحـاكـمة أصلاً. إن الفارق الرئيسي بين ثورات الطلاب في عام ١٩٦٨، وثورات الطبـقة الوسطى في عام ١٨٤٨، يكمن في الحـافز الجـديـد. فـالـقـاسـم المشترك بين تشي والحـرس الأحمر الصـيني كـان مـفـهـومـهما للثورة وأنه لابد لها من أن تنطلق من الأرياف لتطهير المدن من الفساد.

إن طـلاب الطبـقـة الوسطى الذين قـاتلوا في شـوارع باريس خـلال ثورة مـايو، أو في شـيكاغـو خـلال المؤتمر الديمقراطي، أو في برلين أو لندن أو بيـونس أيرس أو طوكـيو أو مكسيكو سيتي أو في عشرين بلداً آخـر في السنة التي تلت مـوت تشي، جـاؤوا من بيئات مـدنيـة أو شبه مـدنيـة. لم يكن الطلاب يطلبـون مـعـرفـة فكر تشي وماو، ومع ذلك ذكرهم ماو بذلك عندما أعاد ٢٠ مليـوناً من الحرس الأحمر للعمل في الريف. كما أخبرت صـحـيفة (The New China Daily) والدي أحـد الشباب الصينيين بأن «أعظم حب يمكن لأحد أن يمنحه لأبنائه وبناته هو أن يشـجـعـهم على الذهاب إلى الصـفـوف الأولى في الإنتاج وأن يكيـفـوا أنفـسهم في الريف من خلال إعادة تثقيف أنفسهم على يد الفلاحين الفقراء».

لقـد انتصرت حكومات العالم في عام ١٩٦٨، فـقـمعت كل انتـفـاضـات الثوار تقريباً في أمريكا اللاتينية، وقضت سلطة الكبار على احـتـجـاج الشـبـاب في البلدان الشيوعية والرأسمالية وفي البلدان النامية والمتـخـلـفـة. واتخـذت إجـراءات قـاسـيـة بـحـق الطلاب في كـينيـا وتشيكوسلوفـاكـيـا والمكسـيك وفـرنسا والصين والولايات المتحدة. لقد كـانت ردة فـعل شـاملة ضد ثورة شاملة ألهمها موت تشي. وكما فشل بوليـفـار مـرات قـبل نجـاحه في أمريكا اللاتينية، وكما فشل تشي نفسه

ثلاث مرات في جواتيمالا والكونغو وبوليفيا قبل نجاحه مرة في كوبا، كذلك فإن فشل ثورات عام ١٩٦٨ لا يعني نهاية الثورات.

إن الإعجاب بتشي إلى حد بلغ منزلة العبادة يعود لأسباب شخصية وثقافية معاً. فقد تحدر تشي نفسه من أصل بورجوازي، أبيض، غني، متعلم، له جذور مدنية، شأنه في ذلك شأن العديد من قادة الطلاب الثوريين المعاصرين، أبناء الطبقة الوسطى، ممن خاب أملهم بالأحزاب الشيوعية التقليدية وبنقابات العمال وبقدرتها على قيادة أي نوع من الثورات مهما كان. إن هؤلاء المتطرفين الجدد ينسجمون مع تشي ومثله، فالذي فعله وحاول أن يفعله يجعل من المستحيل أمراً ممكناً. لم يكن تشي وليد حاجة تاريخية، وإنما كان ثورياً اختار أن يكون كذلك، ولذا فإنه يمد بالأمل أولئك الناس أمثال ريجي دوبريه الذين يرغبون في العمل من أجل الفقير والضائع في العالم دون أن يكونوا قد ولدوا زنوجاً أو مضطهدين أو محرومين من الامتيازات. لم يكن تشي صنيع نشأته بل كان صنيع ذاته.

وبالرغم من أن الثوري يظل بطل عصرنا، إلا أنه ليس بين الأبطال الثوريين من سيخلف تشي في مكانته. إن تنامي الإعجاب به بعد موته كان النتيجة المنطقية لنهاية حياته، تلك الحياة التي اكتنفتها الأسرار والألغاز والكفاح والصراع. إن الجبن الذي اتصف به اغتيال تشي قد خلده وأضفى عليه هالة من القدسية والبطولة تبهر الأنظار. لقد اختار تشي أن يغادر كوبا ويستشهد في سبيل مبدئه وعقيدته مما رفعه فوق أي من فيدل كاسترو وهو تشي مِنْه وماوتسي تونغ وجعله رمزاً للثورة مع أن مواهبه كقائد قد تكون أقل من مواهبهم. ولو بقي تشي في كوبا أو لو أنه مات مصادفة كما حدث مع كاميلو سينفيجوس لما كان الطلاب ليرفعوا صوره في جميع أنحاء العالم، وما كان ليضرب به المثل في كل مكان، وما كانت مؤلفاته لتنتشر وتقرأ في جميع الأقطار. إن التقدميين من معارضي العنف الذين لا يتعدى إعجابهم بتشي حدوداً معينة والذين يخالفونه في بعض أساليبه سيضمون أصواتهم إلى

أصوات جميع الماركسيين الذين يقدرون تشي ويقدسونه ويرددون مع فيدل كاسترو قوله: «إذا كانت لدينا رغبة في أن نتساءل عما نريد أن يكون عليه المستقبل، فالجواب: ليكونوا مثل تشي وكفى».

إن عبادة الأشخاص أياً كانوا لا تخلو من عنصري النفاق والبله. وبين عبادة تشي وعبادة المسيح عنصر مشترك. لقد قاتل تشي من أجل الفقير واختار أن يضحي بشبابه ليشعرنا دون ضوضاء أنه مات من «أجلنا» ومن أجل الإنسانية جمعاء. لا شك أن تشي قتل العديد من الرجال، وكره أعداءه، ولا شك أن معتقداته نابعة من مذاهب سياسية يشمئز لها الكثيرون وأنه استخدم وسائل تخلو من الإنسانية في بعض الأحيان، وأنه كان رجلاً يعيش في الغابة عيشة الحيوان، برغم هذا كله فقد سما فوق كل هذه النواقص حتى غدا أكبر من الكائن البشري واقترب بصورته من صورة المسيح المنقذ. وعندما تراجع أعماله وفيها ما يدينه يبقى الاعتقاد بأن تشي عمل ما عمل مدفوعاً بحبه للإنسانية وبما هو نافع للبشرية. إن المثل التي عبر عنها في كتاباته بأكملها وأحاسيسه وموته، تجاوزت العقيدة والأيديولوجية. إن صورة جثمانه معلقة الآن، كما تعلق الأيقونة، في البيوت الريفية من أمريكا اللاتينية الكاثوليكية.

كان سارتر محقاً عندما قال عن تشي إنه «أكثر الرجال كمالاً في عصره». كانت فيه صفة «الانبعاث» ؛فقد أنجز في تسعة وثلاثين عاماً أكثر مما أنجزته مجموعة من الرجال طوال حياتهم، حتى يخيل للمرء بأن له من الأرواح ما يزيد على أرواح عدد من القطط مجتمعة. وحاول أن يكون محترفاً في كل شيء فعله، كطبيب وككاتب يوميات، كمنظّر سياسي وعسكري، كمقاتل في حرب العصابات، كاقتصادي، كرجل تكتيك، كمصرفي، كمخطط ورجل دعاية، كمنفذ لجميع ما

أوكل إليه من أعمال، حتى ليصعب القول إنه كان يعاني من تناقضات أو نزاعات داخلية. كان ثابتاً إلى حد الإدهاش في كل ما قاله وفكر به وعمله لأن الإداري المحترف الذي درس اقتصاد أمريكا اللاتينية وطوره لا يختلف عن البطل الثائر في بوليفيا الذي قرر أن القتال هو الطريق الوحيد لحل مشكلات القارة الاجتماعية والاقتصادية. الفرق بين تشي وغيره من الرجال، هو أن تشي لم يسمح لغيره بتطبيق أفكاره بل راح هو يمارسها بنفسه ويطبقها.

لم تكن هناك ازدواجية بين أعمال تشي وأقواله. لقد مارس تشي ما نادى به لا كما يفعل غيره من المفكرين الذين يقولون ما لا يفعلون. إن رجل الفعل يدون تجاربه ويحللها كي يخلص بالنتائج العملية والخلقية منها، أما الشخص الحالم فإنه يطبق مهاراته في محاولة لجعل أحلامه شيئاً مجسداً. كان تشي يؤيد الحكم المطلق، وأراد أن يصل بكل شيء إلى نهايته العادلة، وكان ضبطه للأمور مثيراً إلى درجة تبدو معها وكأنها أنجزت من غير جهد. كما لم يعرف النفاق إلى نفسه سبيلاً. وعندما قال إن عمل المرء من أجل أصدقائه متعة لا تضاهيها متعة، كان ذلك صحيحاً بالنسبة إليه. ومن مقولاته أن الثوري الحق هو الذي يحارب ويموت في ظل علم أمة لم تولد بعد، وهو ما فعله تشي نفسه دون التباهي بشجاعته وإقدامه، بل فعل ذلك مبتهجاً كما لو أنه ينجز أمراً طبيعياً عادياً .لقد قال :ليس هناك إنسان مهما علا شأنه إلا ويمكن الاستغناء عنه، وهذا ما شعر بأنه ينطبق عليه، أكثر من أي إنسان آخر. ولذا عرض نفسه للخطر، ومات رجلاً كاملاً مكتملاً.

قد يذكر التاريخ غيفارا على أنه غاريبالدي زمانه وأكثر الثوريين إثارة للمحبة والإعجاب في عصره. أما أفكاره فقد لا تكون ذات أثر

في الاشتراكيـة وحـرب العـصابات إلى حين، بيد أن أثرها، لا سيما في أميركـا اللاتينيـة، يجب أن يسـتمر طويلاً، ذلك لأنه لم يأت رجل مثله منـذ أيام بوليـفـار يحمل مُثـلاً عظيـمـة في الوحـدة لهذه القـارة المجـزأة واليـائسـة .لاشك أن الأجيال الطالعة ستلاقي أبطالاً جدداً، ولكن لن يكون بينهم من هو في مـثل تأثيره وإلهامـه، وها هي آثار أفكاره ونتـائج أعماله بدأت تظهـر بعـد مـوته في التـحـولات والتـغيرات الاجتماعية من حـولنا. عندمـا ينظر الجنرال في بلدة «فـيـفـا سباتا» إلى جثة قائد الثوار المـشـوهـة يقـول: «يسـتطيع الميت في بعض الأحـيـان أن يكون عـدواً مخـيـفـاً». إن تـشي المـيـت عـدو مخـيـف لـلأمـم الغنيـة على الأرض، وللحكومـات الفـاسدة التي تحكم العديد من الأمم الفقيرة، وإنه لعدو رائع كـبير.

مؤلفات غيفارا :

1 - Guerilla Warfare (1961)

الحرب الثورية

1 - Guerilla Warfare : a method (1966)

طريقة الحرب الثورية

دراسات عن غيفارا :

1 - Debray, Regis, Che's Guerrilla war (1966)

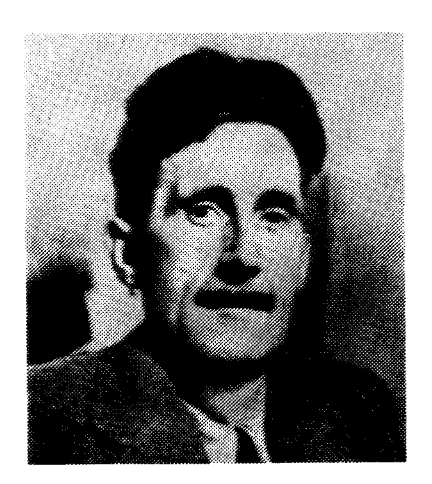
2 - James Daniel, Che Guevera (1969).

3 - Resnick, Marvin, The Black Beret, : The Life and Meaning of Che Guevera (1970)

4 - Sauvage, Leo, Che Guevara, The Failure of a Revolutionary (1974).

جورج اورويل

تأليف : ريموند ويليامز





يوم زكريا

الفصل الاول

من بلير الى اورويل

ولد آرثر اريك بلير عام ١٩٠٣ في موتيهاري من أعمال الهند الواقعة تحت الاحتلال البريطاني، وهو الطفل الثاني لوالديه ريتشارد والمسلي بلير وايدا مابل ليمزين. وكان والده البالغ من العمر ٤٦ عاماً حينذاك يعمل وكيلا في دائرة مكافحة الافيون التابعة لسلك الخدمة المدنية في حكومة الهند. اما جده لابيه فقد خدم في الجيش الهندي ثم اصبح فيما بعد قسيساً انجليكانيا، وعملت جدته لأمه بتجارة خشب الساج «التيك»، ومن ثم اصبحت من القائمين بزرع الارز.

وعندما بلغ اريك بلير سن الرابعة عادت العائلة لانجلترا واقامت في هينلي بالرغم من بقاء والده في الهند حيث عمل الى ان تقاعد عام ١٩١٢. وكتب اريك، فيما بعد، يقول انه بالكاد رأى والده قبل بلوغه الثامنة من عمره. وفي العام ١٩٠٨ كانت والدته التي تصغر زوجها بثمانية عشر عاماً حاملاً بولدها الثالث ،وكانت الاسرة تتألف حينذاك من ابنتين وابن تفصل بين اعمار الواحد منهم والاخر فترة ٥ سنوات.

وارسل اريك بلير، عندما بلغ الثامنة، الى مدرسة اعدادية خاصة في ساسكس، وسكن هناك، فيما عدا ايام العطل، الى ان بلغ ثلاثة عشر عاماً، وعندئذ ذهب في منحة الى مدرستين ثانويتين من المدارس الخاصة، هما مدرسة ويلنغتون (لفصل دراسي واحد) وايتون (لمدة اربع سنوات ونصف السنة)، واقام هناك ايضا في المدرسة خلال ايام العطل. وعندما غادر ايتون انتقلت العائلة من اكسفورد شاير الى سافولك، فالتحق اريك بلير بسلك البوليس الملكي الهندي وتلقى تدريبه في بورما ، حيث خدم مدة ٥ سنوات الى ان اتخذ عام ١٩٢٧

قرارا بعدم العودة، بينما كان يقضي اجازته في وطنه. واصبحت استقالته من البوليس الملكي سارية المفعول في اول يوم من ايام العام ١٩٢٨.

كانت حياة بلير بكل تفاصيلها المرئية وحتى بلوغه سن الرابعة والعشرين بمثابة اعداد (تدريب) للدخول في عضوية الطبقة المتوسطة التي تتولى الشؤون الادارية في بريطانيا الامبراطورية (الامبريالية). وكانت عائلته تعيش في الهند وبورما وتعمل في الجيش والادارة وفي التجارة. وكان اول عمل يقوم به كشخص بالغ ان انخرط مباشرة ضمن هذا النمط. أضف الى ذلك أنه ترعرع وكبر وهو يتميز بخاصية فقدانه للحياة العائلية الطبيعية في بلده انجلترا التي كانت بصورة اساسية مركزاً له وموئلا لمدارس الطبقات الحاكمة. وعندما تحطم هذا النمط عام ١٩٢٧ وجد نفسه في وطنه حيث قضى ثلثي عمره يعمل ضمن مؤسسات على الدوام، او فيما ندر، ضمن اوضاع عائلية تفرض مجموعة معينة من العلاقات الاجتماعية، وكانت السيطرة السياسية والثقافية للرجال الذين يتمتعون بخلفية مشابهة وتاريخ مشابه، متميزة في النصف الاول من القرن العشرين في بريطانيا، لدرجة ان نشأة بلير غالباً ما وصفت بأنها سوية وقويمة. وباي منظور آخر، بما في ذلك منظور معظم الناس في بريطانيا، فقد كانت حياته غريبة لا بل مغايرة في نواح هامة. وهذا الامر ينبغي تذكره والتأكيد عليه عندما نقوم بتفحص السنوات التسع القادمة من حياته. فقد كانت نتيجة تلك الامور صنع مجموعة جديدة من العلاقات الاجتماعية- وبمعنى هام- خلق هوية اجتماعية جديدة. هذا هو التطور الحاسم الذي مر به بلير منتقلاً إلى اورويل.

ان اسباب الانفصام الاول هي دون شك معقدة ،ولكن ثمة عاملين جليين، إذ إنه خلال فترة المراهقة كان واضحاً انه اراد ان يصبح كاتبا، فقد كان الالتحاق بالبوليس الملكي في هذا الصدد وغيره مهنة غير ملائمة على حد قوله. ولكن ثمة دليلا جيداً ايضا (بالرغم

من كـون هذا الدليل جـاء في فترة مـتأخـرة جدا، عندما اصبح تفكيره صـافيـا)، بأنه اصبح يتـفـهـم ويرفض الامبرياليـة التي كان يعمل في خدمتها.

كـتب يقـول في نهاية تغيره ان الامبرياليـة شيء شرير وانه كلما اسرع في الاسـتـقـالة من عـمله كـان ذلك افـضل. مع ذلك فان تجاوبه وهو يعمل في خدمتها كان اشد تعقيدا. فقد علق، كما رأى فيما بعد، بين مطرقـة كره الامبراطورية التي كان يخدمها وبين سندان الغضب الشديد على مـواطنيـه الذين عـارضـوها والذين جـعلوا وظيـفته المباشرة صعبة. فـهـو يقـول انه من الناحيـة النظرية كان يقف كليا مع البورميين وضد مـضطهـديهم (بكسر الهاء) البريطانيين، امـا من الناحيـة العـملية فقد كـان، في الوقت نفـسه، معارضاً للعمل القذر الذي تقوم به الامبريالية ومـتورطاً في ذلك العمل.

ويـمـكـن مـلاحظة بعض اجـزاء هذه الاسـتـجـابة المعـقـدة تسري باسـتـمـرار في بقـية حياته. الا انه من الاهمية بمكان ايضاً ذكر علاقته المتـقلقلة والغـامـضة بانجلترا عندما وقع الانفصام، ذلك المجتمع الذي يعـرفـه وينتمي اليه. ومع ذلك، وباستثناء بعض الحالات المجردة، لا يعـرفـه بتـاتا. لذلك كـان بامكانه ان يسـتـعـفي من خـدمـة البـوليس الامبريالي ويقيم في بريطانيا ضمن شبكة العلاقات الطبقية نفسها، ولو انه كـان يقاوم الامبريالية الصريحة فحسب لكان هذا النهج سويا. بيد ان مـشكلة العـلاقـة داخل انجلترا كانت اكثر خطورة. ان ما قام به بلير فـعلاً في الشهور الستة الاولى بعد تسريحه هو القيام بما كان يحسبه حملة استكشـافـيـة الى الحي الشرقي (ايست اند) من لندن لكي يتعرف على الفـقـراء الانجليـز، وقـد اتخذ من غرفة في حي «نوتنغ هيل» قاعدة له. ثم استأجر غرفة، في ربيع العام ١٩٢٨ في حي عمالي في باريس. لقد اقـامت خـالته نيللي ليموزين المحببة الى قلبه في الشارع نفسه في «نوتنغ هيل» وكـانت تقـيم في باريس خـلال الثمانيـة عشر شـهراً التي قضاها هناك. امـا رحلتـه الاسـتكشـافـية الى حي «ايست اند» الشرقي فكانت

من النوع الذي قام بتكراره مرارا فيما بعد، رحلة لاكتشاف الناس الانجليز العاديين، ولكن اذا ما نظرنا الى العامين ونصف العام الأولى لحياته الجديدة ككل، فمن المعقول ان نرى أن دافعه الرئيسي هو في توطيد نفسه ككاتب، لهذا الغرض فان اختيار باريس ليس صفة مميزة لذلك الوقت. وكتب يقول بعد عشرة اعوام ان باريس كانت في نهاية العشرينات مجتاحة من قبل اسراب من الفنانين، والكتاب، والتلامذة وهواة الفن والمشاهدين المتفرجين على المناظر والمشاهد والفاسقين والبطالين البسيطين كما لم يشهد العالم ذلك من قبل. . . وفي بعض احياء المدينة كان عدد ما يسمى بالفنانين يفوق فعلا عدد السكان العاملين. ثم هبط الركود بعد ذلك مثل عصر جليدي اخر فاختفى ذلك الجمهور الحاشد من الفنانين الكوزموبوليتانيين (مجموعة المقالات والرسائل، ج١، ص٩٩٣). وينبغي علينا ان نلاحظ احدى عاداته، وهي صفة ملازمة لعدة مراحل من تجربته، وهي انه كان يكتب بمثل هذه الالفاظ الراشحة بالازدراء والتحقير عن شيء كان هو نفسه يؤلف جزءاً منه، فخلال اقامته في باريس كتب روايتين ونشرهما، لم يعثر عليهما، ونشر بعض المقالات بالانجليزية والفرنسية. اصيب بمرض «ذات الرئة» (النزلة الصدرية) وعمل عشرة اسابيع في غسل الصحون وحمالاً في المطبخ ثم عاد الى انجلترا في نهاية العام ١٩٢٩.

اما السنتان ونصف السنة اللاحقة فقد خصصها لكي يوطد نفسه ككاتب انطلاقا من قاعدة مختلفة. لقد استخدم منزل والديه في سافولك للكتابة واكتسب مالا من كتابة المقالات بين الحين والحين ومن التعليم. وقد أتم كتابة عدة نماذج مما عرف فيما بعد بكتابه الاول المسمى «التسكع في باريس ولندن» Down and out in Paris and London» : «انني افضل ان أكون غاسلاً للصحون عن حالة التسكع» (مجموعة المقالات والرسائل، ج١، ص١٠٧). كان الكتاب سجلا لخبراته، ولكن «اذا كان من شأن تأثيره ان يأتي على وتيرة واحدة بالنسبة للجميع فانني افضل ان انشره تحت اسم مستعار». وبما

انه كان يكسب معيشته كمدرس عندما كان الكتاب قيد الطبع فان هذا الجانب من تفضيله يصبح مستساغاً، بيد ان مسألة الاسم والمسألة الاعمق من الهوية، سبق لهما ان ظهرتا من قبل، وفي ذلك الحين كان لا يزال يتابع ما كان يعتقد أنه جولات في انجلترا: يعيش مع المشردين والذين يركبون وسائط النقل مجانا وفي مناطق عمالية. وفي معرض مناقشته لكتاب «التسكع في باريس ولندن» كتب عام ١٩٣٢ الى وكيله الادبي يقول: «بالنسبة للاسم المستعار كنت استعمله دوما اثناء تسكعي وهلم جرا ، وهو ب.س. بورتن ولكن اذا كنت لا تعتقد بان هذا يبدو محتملاً فماذا بشأن

كينيث مايلز؛

جورج اورويل؛

هـ. لويس اولويز ؟

في الواقع انني افضل اورويل (مجموعة المقالات، ج١، ص١٠٦) والاورويل هو نهر في سافولك، يقع الى الجنوب من منزل ابويه.

نشر هذا الكتاب الاول من تأليف اورويل عام ١٩٣٢، وخلال السنوات الثلاث التي تلت انتهى من توطيد نفسه ككاتب. كان يكسب الاموال عن طريق التعليم والعمل في مكتبه ومن مراجعة الكتب، وابتدأ يقيم فترات اطول خارج منزل والديه. واعقب كتابه «التسكع في باريس ولندن» صدور رواية «ايام بورما» Burmese days التي نشرت اولاً في الولايات المتحدة عوضاً عن انجلترا لتخوف ناشرها من ان يلحق بمؤلفه (اورويل) الاذى في بورما . وتلا ذلك روايتان ، الاولى ابنة رجل الدين Clergyman daughter ونشرت عام ١٩٣٥ والثانية Keep the Aspidistra Flying (دع الدريقة مرفرفة) ونشرت عام ١٩٣٦ . وانتقل في ربيع العام ١٩٣٦ الى مخزن قروي في ولنغتون من مقاطعة هرتفورد شاير، وبعد ذلك بشهرين تزوج من ايلين اوشوغنسي وهي ابنة احد جباة الضرائب تخرجت من القسم الانجليزي من جامعة اكسفورد (١٩٢٧) وعملت

معلمة وصحفية ثم حصلت على شهادة عليا من قسم علم النفس في جامعة لندن (١٩٣٤). كان اسمها اريك وايلين بلير، بيد أن هوية جورج اورويل المتميزة قد اصبحت الآن عقب سنوات المحن والتحول متوطدة بوضوح تام. قامت شهرة اورويل حتى ذلك الحين، ككاتب وكصحفي، اساسا على وصفه للفقر والكآبة. لقد اكتسب من خلال رحلاته ومن ثم من تقاريره المقنعة هوية معينة، برغم محدوديتها، في المجال الادبي، فقام اولاً بقطع علاقاته الاجتماعية التقليدية، ومن ثم تخلى عنها عبر فترات غير منتظمة ولكن عن وعي وبشكل متكرر. والذي جاء به الى حضارة تتميز بالوعي الطبقي في وقت كان يسوده الفقر والكساد، كانت تقارير من عالم بدا بعيداً في التجربة مثل بعد بورما، وكان كتابه التالي يتناول هذه الهوية بالضبط؛ اذ كلفه نادي الكتاب اليساري ان يقوم باستقصاء عن حياة الفقراء والعاطلين عن العمل.

ولكن العام ١٩٣٦، عندما اوكلت اليه هذه المهمة، كان عام الازمات والتغير في مجال مختلف تماماً. وبينما اطالت المهمة الموكلة اليه من استمرارية هويته السابقة ككاتب كان اسلوبه في تأدية هذه المهمة من خلال كتابه «الطريق الى رصيف ميناء ويغان» The Road to Wigan Pier علامةً للدخول في مشروع جديد ، ككاتب سياسي، وقد استمر ذلك بقية حياته. وللوهلة الاولى، يبدو الجزء الاول من الكتاب وكأنه ذلك النوع من الكتابة التقريرية الذي كلف به والذي بمقدوره ان يجيده فعلا، اما الجزء الثاني فهو عبارة عن مقال حول الطبقة الاشتراكية ،ويعتبر فعلا اول تصريح حول موقف اورويل السياسي. بعد ان يكرر معارضته للامبريالية والنظام الطبقي، فانه يضيف الآن التزاماً بالتعريفات الاشتراكية لكل من الحرية والمساواة ويهاجم في الوقت نفسه معظم الحركات الاشتراكية المنظمة ولا سيما مختلف انواع الاشتراكيين الانجليز من أبناء الطبقة الوسطى.

وقام خلال شهري فبراير ومارس/ شباط وآذار برحلة الى لانكشير

ويوركشير، قبل ان يستقر في ولنغتون حيث كان يفتح متجره بعد الظهر. وعقد قرانه في شهر حزيران ، وقام خلال الصيف والخريف بتأليف كتابه، بيد ان الحرب الاهلية اندلعت في اسبانيا في شهر تموز، وفي نهاية الخريف كان اورويل يتأهب للسفر الى اسبانيا لجمع المواد لمقالاته وربما للمشاركة في القتال. وبعد وصوله الى برشلونة بقليل التحق بميليشيا «البوم» «الحزب العمالي للاتحاد الماركسي» Partido Obrero de Unification Marxista واشترك في القتال معهم في يناير/ كانون الثاني ١٩٣٧ ، ثم انتقل الى فرقة حزب العمال البريطاني المستقل التي كانت تعمل بالتعاون مع ميليشيا Poum واصبح عريفاً ثم ملازماً اول. واصيب بجراح في منتصف شهر ايار، وكان قد حاول في شهر نيسان ان يلتحق باللواء العالمي في مدريد ولكنه تورط في الصراع القائم بين السلطات الجمهورية والمنظمة المذكورة، وتورط مرة اخرى عندما اعلن أن المنظمة غير شرعية. فغادر اسبانيا الى فرنسا في شهر حزيران.

ادت تجربته هذه في الحرب وفي السياسات الثورية الى تصليب موقفه في نواح عديدة. لم تجعل منه هذه التجربة معادياً للشيوعية، لكنه رفض الشيوعية على الطراز السوفياتي كالتزام ممكن قبل سنوات عديدة. ومع ذلك فقد حاول الالتحاق باللواء الدولي خلال ازمة اسبانيا، وكانت تجربته المباشرة للتنافس القائم بين منظمة Poum والشيوعيين هي التي زادت بشكل رئيسي من حدة معاداته للشيوعية ودفعته الى موقف ايجابي. واصبح في الوقت نفسه، خلال العامين او الثلاثة اعوام التي تلت، اشتراكياً ثورياً، وقد نشر بينما هو في جبهة القتال، كتابه «الطريق الى ويغان باير» في شهر اذار، وهو الكتاب الذي ضمنه هجومه على المواقع الاشتراكية البريطانية التقليدية بما فيها ما كان يعرفه بانه الماركسية. وفور عودته من اسبانيا بدأ في كتابة «وفاء لكتالونيا» Homage to Catalonia والذي تم فيه انفصاله عن اليسار التقليدي. نشر هذا الكتاب في شهر نيسان ١٩٣٨ ، وفي شهر

حزيران التحق اورويل بحزب العمال المستقل وبقي فيه حتى الشهور الاولى من الحرب. لقد اراد الذهاب الى الهند من اجل كتابة مؤلف جديد ولكنه اصيب بمرض السل في نهاية خريف العام ١٩٣٨ وبقي في المصحة حتى اواخر الصيف، وبعد ذلك وعلى اثر القرض الذي منحه له مايرز مؤلف «القريب والبعيد» The Near and The Far ذهب لقضاء فصل الشتاء في المغرب وعاد الى انجلترا في ربيع العام ١٩٣٩.

وخلال فصل الشتاء الذي قضاه في المغرب كتب روايته الرابعة Coming up for Air (الارتفاع بحثا عن الهواء).

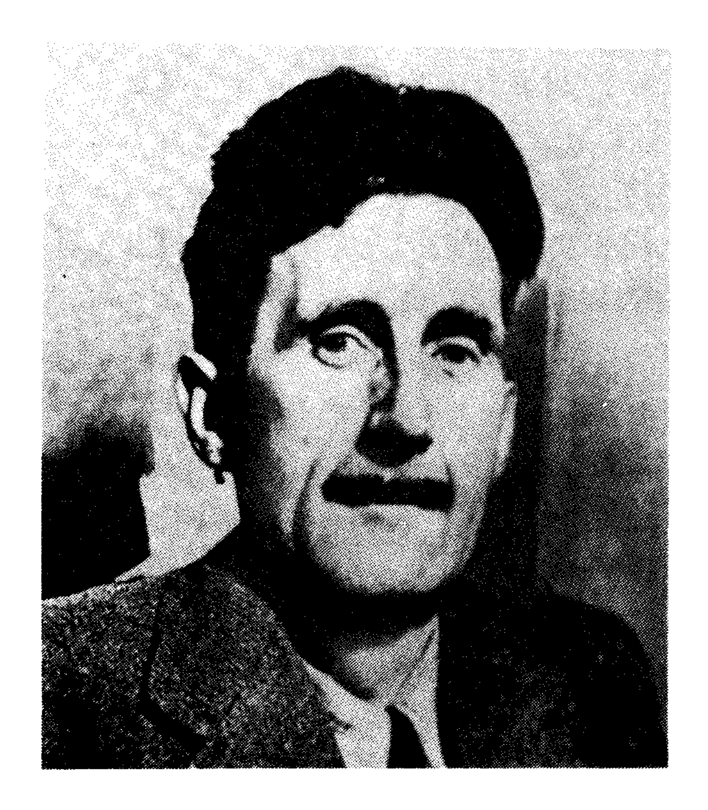
وبعد عودته الى انجلترا كتب بعضا من اوسع مقالاته شهرة، وهي مقالات عن ديكينز، وعن المجلات الاسبوعية للصبيان، ومع بداية نشوب الحرب كتب «في جوف الحوت».

واثناء مقامه في المغرب كان يكتب الرسائل التي يرسم فيها الخطوط العريضة لامكانية قيام يسار سري مناهض للحرب باعتباره البديل الاوحد للاندفاع البطيء نحو الفاشية في بريطانيا. بيد أنه عندما ابتدأت الحرب اصبح يؤمن بأنه «اما ونحن نخوض غمار هذه الحرب الدموية فينبغي علينا الفوز بها، وانني ارغب في تقديم يد العون» (مجموعة المقالات والرسائل، ج١، ص٤١٠) . بيد أنه لم يسمح له بالانخراط في الجندية لكونه غير ملائم جسديا، واصبح في حاجة الى المال مرة اخرى. وعندما تدنت الفرص للعمل في الصحافة قفل عائداً الى لندن في ايار ١٩٤٠، وفي خريف ذلك العام الف كتابه «الاسد ووحيد القرن» The Lion and the Unicorn ، وهو مقالة تحمل عنواناً فرعياً «الاشتراكية والعبقرية الانجليزية»، وابتدأ يكتب منذ مطلع عام ١٩٤١ زاوية «رسائل لندنية» للمجلة الامريكية بارتيزان

ريفيو American Partisan Review، ثم التحق في شهر آب بهيئة الاذاعـة الـبريـطانيـة كـمنتج للبرامج في القـسم الهندي التـابع للاذاعـة الشرقـية حيث بقي يعمل حتى اواخر العام ١٩٤٣، وخـدم فـترة في الحرس الوطني كمراقب للحرائق.

كان العام ١٩٤٣ نقطة تحـول بالنسـبة له من عدة وجوه. ففي اذار تـوفيـت والـدة اورويل، وكـان لا بد من ان يترك الحـرس الوطني لانه كـان مـريضـاً، وترك هيئة الاذاعـة البريطانيـة ليـصـبح محرراً للشـؤون الادبية في مجلة «تربيون» Tribune ، التي كـان يديرها انورين بيـفان وقـام بمـراجـعـة العـديد من الكتب بشكل منتظم. بيـد ان الحـادثة الحـاسـمـة هي انه ابتـدأ عند اواخـر ذلك العام في كتابة روايته «مزرعة الحيوانات» Animal Farm ، واصبـحت الرواية جـاهزة في شـهـر شباط/ فبراير ١٩٤٤. بيـد أنها رفـضت من قبل عدة ناشرين لاسباب سـياسية. ولم تظهر الرواية في النهاية الا مع حلول شهر آب/ اغسطس ١٩٤٥ عندمـا وضعت الحرب اوزارها.

وعند اقتراب الحـرب من النهاية في اوروبا، سافر اورويل الى فرنسا ثم الى المانيـا والنمسـا وعـمل مـراسـلاً، وتبنى هو وزوجـته ابنا لهما في العام ١٩٤٤، بيـد ان زوجـتـه فـارقت الحيـاة في شـهر آذار من العام ١٩٤٥ تحـت عملية اجريت لهـا، فاحتفظ هو بالطفل.



جورج اورويل

الفصل الثاني

انجلترا... أية انجلترا؟

«انـجـلـترا، انـجـلـترا التي تخصني» . هكذا كـتب لورانس، وكـتب اورويـل «انجلترا، انجلترا التي تخصك» .

كـتب اورويـل مـقـالـتين طويلتين عن انجلترا: الاولى هي «الاسـد ووحيد القرن» عام ١٩٤٠ ، والثـانيـة «الشـعب الانجليـزي»، عـام ١٩٤٤ . وهو يقـدم في بداية كل منهما وجـهة نظر الشخص الذي يعود الى انـجـلـترا. «عندمـا تقـفل عـائداً الى انجلترا من اية دولة اجنبيـة، يتـملكك على الفـور احـسـاس بانك في جـو مختلف (مجموعة المقالات والرسائل، ج١، ص٥٧). انه لجـدير بالمرء ان يجرب لفترة قـصيرة ان يضع نفـسـه في مـوضع المراقب الاجنبي، الجـديد على انجلترا، ولكنه غير مـتعصب لرأيه وقادر بحكم عمله على الاتصال مع الناس العاديين المفـيدين والبسطاء» (مجموعة المقالات والرسائل، ج٣، ص١).

قـد يبـدو أن هذا الامـر لا يعدو كونه وسيلة ادبية، فمعظم كتابات اورويـل عـن انـجلترا دقـيـقـة وتفـصـيليـة، وتشـديده على الفـضـائل الانجليـزية مـتـواصل الى الحـد الذي يبدو عنده النظر اليه الآن بمثابة الانـجـليـزي النمـوذجي الاصلي ومن اكـثـر الكتـاب الانجليـز تميـزاً في الصـفـات الاخـلاقـيـة الانجليزية. بيد أنه من الضروري تذكر التاريخ الحـقـيقي ،وهو كيفية انبعاث اورويل من بلير. ان العديد من الحالات التي يصـور فيها انجلترا جاءت متأثرة ومحددة احياناً بتاريخه الشخصي؛ فـقـد ولـد وتعلم وحظي باول وظيـفـة له ضـمن عـلاقـاته مع الطبـقـة الحـاكـمـة التي كـانت احياناً، متعمدة، منفصمة عن انجلترا العادية، فـرفض شـبكة العـلاقـات هذه وانطلق معتمداً على ذاته لكي يكتشف

البلد لنفسه. كذلك فان العديد من النواحي التي تقوم فيها الحياة الانجليزية جاءت متأثرة ومحددة بمثل هذا النوع من الرحلات. ان تعلقه البارز بها رأى انه يمثل انجلترا البسيطة ليس نابعا من فعل عضويته بقدر ما هو نابع من فعل الانتماء الواعي.

سوف نرى كيف أحدث ذلك تأثيراً على مخيلته وقيمه العميقة. بيد اننا بحاجة لان نلقي نظرة أولاً على انجلترا التي كان يتفاعل معها بهذه الطريقة الخاصة. ثمة ميزة واحدة خاصة تتعلق بماضيه: الا وهي انه جاء ينظر الى انجلترا ضمن معرفة بامبراطوريتها فجاءت وجهة نظره عن هذا المجتمع الجزيري ثاقبة في نواحٍ عديدة.

كتب اورويل عام ١٩٣٩ مقالة بعنوان «دون عد العبيد» Not Counting Niggers تدور حول خطة من أجل الاتحادالفيدرالي الذي كان شبيها من الناحية الجغرافية (وكذلك من الناحية السياسية) بما نعرفه اليوم بحلف شمال الاطلسي NATO والسوق المشتركة. ان ما تجاهلته الخطة، عن طريق السهو الملائم، هو وجود مجموعات سكانية مستعمرة ضخمة تسيطر عليها هذه الكتلة. «اننا ننسى على الدوام أن الاكثرية الساحقة للبروليتاريا البريطانية لا تعيش في بريطانيا وانما في آسيا وافريقيا... هذا هو النظام الذي نعيش فيه جميعا (مجموعة الاعمال والرسائل، ج١، ص٣٩٧) . وكتب في مكان اخر يقول «التحقت بالبوليس الهندي لمدة ٥ سنوات، وعند انتهاء تلك الفترة كنت اكره الامبريالية التي خدمتها بمرارة ربما لا استطيع توضيحها». ففي اجواء الحرية التي تنعم بها انجلترا تبدو مثل هذه الامور غير مفهومة. «لكي تكره الامبريالية لا بد وان تكون جزءاً منها».

ان عيون الشخص المراقب، الذي يعود الى انجلترا، هي عيون ملأى بهذه الخبرة عن الامبريالية. بيد انه لا يحضر الى انجلترا بالطريقة نفسها التي يأتي بها طالب هندي او افريقي عند مجيئه الى بلد اجنبي تعرف اليه عن طريق المطالعة. فهو تعلم هنا وعاشت عائلته هنا،

وهـو يـدرك البنى الداخليـة للمـجـتـمع الانجليـزي، ولكن من مـوقع طبـقي رفـضـه من الناحية النظرية ليس الا. وكتب يقول انه عندما كان في المـدرسـة لم تكن لديه «اية فكرة عن كـون الطبـقـة العـاملة من بني البشر.. فـقـد كنت اتعـذب لآلامـهم... بيـد انني كنت اكـرههم واحـتـقـرهم عندمـا اكـون على مـقـربة منهم... فبالنسبة لامثالي ممن تـشربوا البرجـوازية بشكل يبعث على الاشـمئزاز كـان «عـامـة الناس» يبـدون لنا متوحشين ومنفرين».

ان هذا الموقع الخـاص جـداً، وهو نوع من الرؤية المزدوجـة الواعية، يعتبر مـركـزياً بالنسبـة لاورويل. فقد جرى تجاهل هذه الناحية مراراً وتكـرارا مـن اولئك الـنـاس الذين قـرأوه في تقـاريره (او مـراسـلاته الصـحـفـيـة) الاخيرة، وبصـفة خاصة من جانب اولئك الذين شاركوه نوع طفـولتـه وثقـافته، بيد أنهم لم يمروا بطور اشمئزازه المباشر واللاحق من الامبرياليـة. ومن المستحيل ان تقنع معظم الناس ممن حصلوا على نوع التـعليم المنفصل الذي حصل عليه اورويل بأنهم في معظم النواحي الـرئيـسـيـة، غـير انـجليـز. بالطبع فـان تعـريف «انجلترا» بأسـاطيرها وأيديولوجـيـتـها بقي في ايدي هؤلاء بالذات لمدة تزيد عن القرن. فهذه هي الطبـقة التي تقوم بمعظم الكتابة والتي تدير ليس مؤسساتها الخاصة فـحسب، بل معظم المؤسسات الاخرى، وهي التي بسبب سفراتها في الخـارج اصـبـحت معروفة لمعظم الناس في العالم بأنها ممثلة «الانجليز». ويـمـكن القـول بأمـانة واطمئنان ان نظرة العـالم الى انجلترا اصـبـحت قائمة على طباع هذه الاقلية الضئيلة واخلاقها.

مـع ذلـك لا تخـلـو صـفـوف هذه الاقليـة من خـلافـاتها الداخليـة الخـاصـة، ومن الضروري وصـفها بأنها طبقة حاكمة، لا بل انها كانت الطبقة الحاكمة للامبراطورية في ذلك الحين.

بيـد ان السـيطرة الكليـة كـانت من نصيب فئة قليلة من هذه الطبقة ممن امـتـلـكـوا الـقـدرة على العـيش من ريع ممتلكاتهم واسـتـثماراتهم او الانتـقـال مـبـاشرة الى المؤسـسـات المركـزية في العاصمة الأم. فالسواد

الاعظم من تلك الطبقة كان يقوم بوظائف اشد صعوبة واكثر تواضعاً. وثقافتهم كانت قائمة في جوهرها على كونهم بمثابة خدم لنظام ينتمون اليه بوصفهم موظفين فحسب. وهؤلاء هم الناس الذين اقحموا انفسهم في النظام فواجهوا حقائقه بصورة مباشرة. اما اريك بلير فقد أبصر النور في كنف ما أسماه لاحقاً بهذا المعنى تماماً «الشريحة السفلى من الطبقة المتوسطة العليا». فهو ينتمي نظرياً للطبقة الحاكمة ويشارك في صنع اساطيرها وايديولوجيتها الملحة عن «انجلترا». اما من الناحية العملية فقد كان هو وامثاله على الطرف الخارجي للنظام في نواح عديدة. ولانهم ما امتلكوا ارضاً او ملكية كبيرة، فقد اعتمدوا على معاشاتهم المهنية التي كانت تعتمد بدورها على قبول التعريفات التي اوجدها النظام ككل عن «المهنة» «والخدمة». وغالباً ما يحدث في مجموعة كهذه نوع من المغالاة في التكيف مع الاساطير ذاتها التي تعرض تحديد عضويتهم في الطبقة ككل. وقد يدفع الخوف من الانسلاخ عن الطبقة التي يشكلون فعلاً طرفها الاسفل الى بروز تعريفات حول «انجلترا» التي يتمسكون بها أكثر جموداً وصخبا من التعريفات التي توجد لدى مركز الوسط المطمئن والمرتاح. والمرة الاولى التي ظهر فيها اسم اريك بلير مطبوعاً وله احدى عشرة سنة من العمر حينذاك، كانت يوم نشر قصيدة مميزة يقول فيها:

«استفيقوا! يا شبان انجلترا».

انه صبي يقلد وطنياً بالايماء، ويتلبس دوراً.

واذا ما نظرنا الى هذا الامر من الخارج، على غرار ما نفعله الآن، فان هذا الوضع يولد نوعاً معيناً من التوتر الذي ينتاب ذلك الرجل الذي يكون مسيطراً وخاضعاً للسيطرة في الوقت ذاته. ويمكن ان يغلف هذا التوتر بنوع من القسوة الايمائية التي يمكنها ان تقوم بمقام الشخصية كلها، او تؤدي الى أزمة، كما هو الحال مع بلير: تلك الأزمة التي حولته الى اورويل، بعد ذلك تصبح الرؤية المزدوجة والمتجذرة في الاوضاع المتأنية لكل من المسيطر والمسيطر عليه، قوية

ومشوشة في آن واحد.

عندما دخل اورويل انجلترا من جديد- ان جاز القول- كان دافعه الاولي سلبياً؛ اذ تمثل في رفضه للنظام والايديولوجيا اللذين ثقف وتربى عليهما وخدم في ظلهما. ولكن بسبب طبيعة النظام لم تكن ثمة «انجلترا» اخرى لكي يستطيع ان يلجأ اليها فوراً.

كان بوسعه فقط ان يتخلى عن انجلترا تلك ويقوم برحلات استكشافية لانجلترا اخرى. وعندما قام في نهاية رحلته بتلخيص ذلك كله، جاء كلامه متأثراً بطبيعة رفضه وبالقدر نفسه الذي تأثر فيه بطبيعة انتسابه الواعي واللاحق.

«شعرت بأنه ينبغي علي ان افر، ليس من الامبريالية فحسب، بل وحتى من كل شكل من اشكال سيطرة الانسان على الانسان. كنت اريد ان احجب نفسي، واذهب رأساً لأكون بين صفوف المضطهدين (بفتح الهاء)، ان اكون واحداً منهم، وأقف الى جانبهم ضد طغاتهم... وبهذه الطريقة توجهت افكاري نحو الطبقة العاملة الانجليزية. كانت المرة الاولى التي كنت فيها مدركاً فعلا وجود الطبقة العاملة، وكان هذا الادراك ناجما فقط من كونها قدمت تناظرا وظيفيا. كان ابناء هذه الطبقة هم الضحايا الرمزيون للظلم، يلعبون في انجلترا الدور نفسه الذي لعبه البورميون في بورما (الطريق الى رصيف ميناء ويغان، ١٤٩ـ١٥٠).

في هذا الكلام، بكل وضوح، وهو كلام يوصف بصراحة اورويل المعهودة، يكون الاقتراب من جماعة جديدة والانتساب اليها بمثابة وظيفة لخبرة الشخص الاجتماعية الاولية والمكونة.

انجلترا، أية انجلترا؟ في كتابه «الطريق الى رصيف ميناء ويغان» لا يزال حس الرحلة نشطاً لديه: يصف اورويل هنا «الامتين» مكتشفا كيف يعيش (في عبارة من عبارات الطبقة الوسطى) «النصف الاخر». فهو رؤوف وساخط في آن، منجذب ومنفر، انه يصف بلداً تشكل الطبقة العاملة فيه ثلثي عدد السكان في وقت من الكساد والبطالة

المنتشرة على نطاق واسع.

ان كل حججه الفاعلة هي عن التباينات الصارخة وهي تباينات لا تحتمل. و «انجلترا» مثل اية فكرة بسيطة، قد تحطمت بفعل هذه التباينات، والصورة الوحيدة لطفولته قد حلت مكانها الخصوصيات والتنوعات والتفاوتات والمنجم والمعمل وحي الفقراء ودار البلدية (دار المجلس البلدي)، وموقع البيوت المتنقلة وكومة النفايات وفيلا العصر التيودوري. هذه انجلترا متسمة بالنشاط، وهي انجلترا التي يمكن التحرك عبرها.

اما انجلترا التي صورها في مقالاته المتأخرة التي كتبت خلال الحرب، فهي مختلفة، وهي ليست بالضرورة اكثر صدقاً او زيفا، بيد انها تعتبر مرة اخرى فريدة في بعض النواحي الهامة. «من الناحية الاقتصادية تنقسم انجلترا الى أمتين» ان لم يكن الى ثلاث او اربع أمم. بيد ان الاكثرية العظمى من الناس يشعرون في الوقت ذاته بأنهم يشكلون أمة واحدة وهم مدركون انهم يشبهون بعضهم البعض اكثر مما يشبهون الاجانب (مجموعة المقالات والرسائل، ج٢، ص٦٤). وربما كان ذلك الامر غير مثير جدا للدهشة. ومن المفترض انه قد يصدق على اية بلاد تعرف الاستيطان المستقر منذ زمن طويل.

لكن شيئاً آخر يجري قوله في هذه الملاحظة غير الاستثنائية ومن خلالها:

«انجلترا هي البلد الاكثر خضوعاً للاستحواذ الطبقي تحت الشمس. انها بلاد الامتيازات، يحكمها الى حد كبير العجائز والسخفاء، لكن في اية حسابات تجري بشأنها ينبغي للمرء ان يأخذ في الحسبان وحدتها العاطفية، والنزعة لدى جميع سكانها تقريباً لكي يشعروا بالطريقة نفسها وللعمل سوية في لحظات الازمة العصيبة» (مجموعة المقالات والرسائل، ج٢، ص٦٧).

ان الجملة الاخيرة من هذه الفقرة، التي كتبت عام ١٩٤٠ في فترة

من الوحدة القومية الاستثنائية تحت وطأة التهديد بالغزو، هي بصورة اشد جلاء، مقبولة اكثر من الوصف السابق عن « الوحدة العاطفية» الذي ينطوي على ادعاء اكبر بكثير. ان عبارة «انجلترا هي... ولكن...» هي النمط المتكرر في هذه الحجة التي تبلغ ذروة معينة حيث تقترب «الى اقرب ما يستطيعه المرء... في وصف انجلترا بعبارة واحدة».

«اسرة يتسلم فيها الاعضاء الطالحون زمام السيطرة».

والآن فان اورويل ليس اول من يقول شيئاً من هذا القبيل ولا اخر من يقوله. وتقبع اهمية جملته في الموقع الذي تحتله من سلم تطوره. فليس هناك كثير من الاحساس بالعائلة او بالوحدة العاطفية في انجلترا الكئيبة والمتأملة التي يصورها اورويل في روايته «الطريق الى رصيف ميناء ويغان». ويتم التشديد هناك على الحقائق والنتائج العائدة لمجتمع طبقي. واعتقد بأن ما يحدث هو أن اورويل يتحرك من خلال مرحلتين من مراحل الاستجابة الى «انجلترا»: فأسطورة صباه- الناس الاخصاء، و «العائلة»- تتبعها الملاحظات عن عودته . انه مشهد من التناقضات المريرة والكئيبة. ولكنه لا يلبث ان يخلق في مرحلة ثالثة اسطورة جديدة بقيت فعالة حتى فترة حديثة العهد تماما.

ففي اضفائه حقائق التفاوت الاقتصادي والاجتماعي على الصورة الاصلية لتعديلها، يخلق اورويل الحس بانجلترا المألوفة واللائقة بشكل اساسي، وهي «انجلترا حقيقية»، «وحيوان ابدي يمتد الى المستقبل وفي الماضي»، حيث يتسنى لنا على سبيل العرض تقريبا، او على الأقل بمثابة تعبير مهجور بدهيا، ان نرى أن «الاعضاء الطالحين» من الأسرة هم في موقع السيطرة.

يرجع الفضل في التأثير الكبير الذي مارسه اورويل منذ اربعينات هذا القرن الى هذه الصورة القوية بقدر رجوعه الى أي انجاز منفرد آخر. وما كان لهذه الصورة ان تكون قوية الى هذا الحد لولا انها احتوت بعض الحقيقة. هناك ما يبرر تشديد اورويل على عمق

الحريات المدنية في بريطانيا وعلى المشاعر الداعمة لها في العالم كما كان يعرفه وكما نستمر نحن في معرفته. مثلما ان تشديده الاضافي على العذوبة والاعتدال في كثير من الحياة الانجليزية العادية وعلى كون هذه الصفات بمثابة انجازات ايجابية في عالم يسوده القتل والغضب هو تشديد معقول ايضاً. وثمة ضروب معينة من العفوية والصداقة والتساهل في كثير من الحياة اليومية الانجليزية تؤيد تشديده على «الحشمة» كفضيلة، بيد أنه من الممكن ان نعرف كل هذه الأشياء ونعترف بها، ومع ذلك ان نسلك في التحليل مسلكاً يقودنا الى أي من الاتجاهين.

ان اورويل هو اقرب ما يكون الى ما اعتقده بأنه الحقيقة عندما وصف هذه الميزات بانها جزء من حضارة شعبية اصيلة «ينبغي لها ان تحيا الى حد ما، ضد النظام القائم» (مجموعة المقالات والرسائل، ج٢، ص٥٩)، وكذلك عندما يتحدث عن «شبكة خفية من التسويات» او عن تكيفات تتم من خلالها المحافظة على فضائل وانجازات معينة جنباً الى جنب مع بعض المظالم البينة والمتطرفة. ولكن حين نبدأ بالتعريف على هذا النحو نجد أننا نخوض في علاقات شديدة التعقيد ضمن بنية اجتماعية معقدة جداً. ان اورويل يدرك التعقيد ويشدد عليه، لكنه لا يقوم بتطوير اي نوع من التفكير الذي يمكنه اسناد تحليل نقدي للبنيات والمضي فيه. ويجري خلق الحس بوجود مناخ او جو على نحو بارز جدير بان يذكر. بيد أن البنية الاجتماعية لا تشكل مناخاً. وليس كافيا ابداً القول إن فضائل معينة توجد «جنبا الى جنب» مع مظالم معينة، وكأنها حقائق متباينة عن العالم الطبيعي (وهو العالم الذي يستمد منه اورويل عموما الكثير من صوره الاجتماعية). هذه الحقائق تكون في مجتمع ما بمثابة علاقات من النوع النشط والتاريخي والمتطور. وهذا النوع من الواقع هو الذي تطمس معالمه صورة اورويل عن انجلترا. وهذا واقعه الناجم عن طريقته، ولكن كما يحدث غالبا فان الطريقة تعتمد في النهاية على

وجهة نظر. ان طريقة اورويل في وصف اخطاء هذه «الاسرة» التي يسيطر على مقاليدها افرادها الطالحون كانت ايضاً ذات تأثير كبير. وعلى سبيل المثال يوصف النظام الطبقي، رئيسياً، بعبارات الفروقات في اللهجة والملابس والاذواق والتأثيث والطعام. ولقد اصبح هذا الامر اعتيادياً. ففي «الطريق الى رصيف ميناء ويغان» نجد أن الطبقة الوسطى الآخذة في الانهيار بعد ان تلاحظ تطابق مصالحها مع مصالح الطبقة العاملة المستقلة، ليس لديها «من شيء تخسره سوى قيودها».

ونجد، بالمقابل، في عالم «الاسد ووحيد القرن» الاكثر اعتدالا ان العمال المزدهرين اخذون في التحول بشكل مرئي الى طبقة وسطى اكثر. بهذا الاسلوب في التفكير اعد اورويل المعتقدات السياسية الارثوذكسية لدى جيل من الناس. لانه من الصحيح طبعا، أنه اذا كانت الطبقة لا تعني سوى هذه الفروقات في السلوك الاجتماعي الخاص، وهي فروقات لا تعدو كونها غالباً مجرد فروقات تافهة، فان اللاطبقية هي حتمية في ظل ظروف من الازدهار النامي ومن الاتساع في التعليم والمواصلات. والفارق بين ذلك وبين التباهي العلني القديم والمبتذل بالتمايز الطبقي هو شيء من شأن كل انسان عاقل ان يرحب به. ومع أن إبقاء تعريف الطبقة مقتصراً على هذه الميزات التي سوف يزيلها في اية حال كل مجتمع صناعي مزدهر، والحفاظ على مجموعة اخرى من الحقائق التي تكون الطبقة فيها علاقة اقتصادية قوية ومستمرة- كما هي الحال بين اصحاب العقارات ورؤوس الاموال وبين الذين لا يملكون سوى قوة العمل، فما هو الشيء الذي يضع الافراد الطالحين في مركز السيطرة ازاء لهجاتهم وملابسهم وطريقة اكلهم وتأثيثهم لمنازلهم؟ ومن الغرابة بمكان ابداء هذه النقطة لان اورويل كان يعتبر تشديده على الحقيقة المقررة بالنسبة للنقود حادا جداً، حتى انه وصل في بعض الاحيان (في الثلاثينات) الى التطرف في التشديد.

لكن توجد نقود في الجيب، والمزيد من النقود في مزيد من الجيوب

سوف يعني بالضبط تلك اللاطبقية التي يشير اليها. غير أن هناك ايضا تلك النقود المختلفة تماما، وهي رأس المال الذي يعني ملكية وخلق وسائل الحياة الاجتماعية نفسها. وهنا يغدو اي سؤال حول السيطرة، بشكل حتمي سؤالا عن هذه الملكية التي يمكنها حقا البقاء دون تبديل او تغيير بأية صورة اساسية خلال فترة تكون قد تمت فيها ازالة العلاقات المرئية الدالة على وجود الطبقة- وهي بمثابة فكة النقود الصغيرة لدى النظام- لانه لا توجد علاقة تحقق حدوث ذلك عقب مضي ثلاثين عاما على ما كتبه اورويل، او في الاقل قد جرى تعديلها وتخفيف حدتها وتطويرها.

ان اوضح علاقة على الضعف الكامن في وصف اورويل- وكذلك، بالمناسبة، على جاذبية هذا الوصف- تمكن ملاحظته من خلال مناقشته لما لا يزال يطلق عليه تسمية الطبقة الحاكمة. هنا نجد ان مواقفه الاولية معقدة للاسباب التي ناقشناها من قبل. فهو يرى ان جماعته الخاصة، عائلات الخدمة، جرى الحط من شأنها واهميتها ويعتقد اورويل ان نشاطاتهم وقدراتهم على المبادرة قد تدنت منذ ان بلغت الامبراطورية ذروتها العليا في السنوات التي سبقت ولادته بالضبط.

وفي الوقت نفسه اصبح جزء من الطبقة ذاتها ليس فقط مصابا بالاحباط والخيبة بل ساخطاً ايضاً، وهذا هو وصفه المنتظم لمثقفي الطبقة الوسطى الانجليزية، لا سيما المثقفين اليساريين منهم:

«انهم سطحيون وسلبيون، فقدوا الصلة بوطنهم ويقفون ضد بلادهم» ولكنه يرى هؤلاء المثقفين كمرافقين: كاتباع في اسرة الطبقة الحاكمة، اما الآن فهم اما خدامها او «خرفانها السود». ان النواة الصلبة للطبقة الحاكمة لا تزال قائمة، وان اكثر ما يلفت النظر بشأنها على حد قوله هو غباؤها. وبعبارة العائلة التي هي انجلترا، يتألف هؤلاء المثقفون من الاعمام غير المسؤولين والعمات طريحات الفراش، فالصورة، كما يصادف الامر، لا تترك مكاناً للاب.

انها «ارستقراطية يتم تعزيزها باستمرار من بين صفوف محدثي النعمة... لقد جلسوا هناك، في نقطة المركز من امبراطورية واسعة وشبكة مالية تغطي العالم بجنون الفوائد والارباح، وينفقونها. على ماذا؟» ليس على امور نافعة أو مجدية بالتأكيد. «نصف مليون شخص فقط، من الناس الساكنين في البيوت في الأرياف... هم الذين استفادوا بالتأكيد من النظام القائم» (مجموعة المقالات والرسائل، ج٢، ص٦٩-٧٠). هذا الكلام صحيح الى حد كاف ولكن الامر اللافت للنظر هو أنه كان ينظر اليه بوصفه «انحلال طبقة حاكمة» وكأن هذه العصابة من الارستقراطيين المعززين من صفوف محدثي النعمة قد سبق لها أن امتلكت أية أهداف اجتماعية مختلفة او أكثر قابلية للتبرير. إن الاختبار الحقيقي الوحيد «لقدرتهم» سوف يكون بالتأكيد مقدرتهم على الاستمرار في فرض انفسهم.

انه لمن الأسهل ان تحتقر الطبقة الحاكمة على ان تضمر الكراهية لها وتحطمها. عمات اورويل واعمامه الهزليون هم عبارة عن صورة راديكالية متكررة الحدوث، بيد أن النظر الى الطبقة الحاكمة الفعلية على هذا النحو هو في النهاية كناية عن انغماس ذاتي ويعتمد عاطفياً على صورة الطبقة المتوسطة بالذات في ابرازها ملامح هي صورة مرسومة لانجلترا كعائلة. ومرة اخرى جرى تعديل الاسطورة الساذجة بواسطة بعض نتائجها غير المعترف بها، بشكل اكثر مدعاة للقبول. ان عبارة «توقفت منذ زمن طويل عن ان تكون قابلة للتبرير» تفترض مسبقاً تبرير وجود الحل، وذلك حين لم تكن الارستقراطية تتلعثم ويظهر عليها الغباء، بل كانت قادرة وجريئة وقاسية. انه وهم راديكالي وبلاغة راديكالية، وقد عمد هذا الامر دوماً الى اضعاف اليسار البريطاني باستمرار.

كان اورويل اقرب الى حقائق المجتمع الذي كان يعاينه، واقرب الى الاستجابة الضرورية له عندما كتب بغضب كان يحتفظ به عادة

لاعـدائه في الجـانب اليساري مهاجماً «وجوه المصرفيين التي تشبه مصائد الفئران والضـحكات النحـاسيـة التي يقـهـقـه بها في سـوق الاسـهم» ،هؤلاء من الذين هب ضدهم كل النقد الاجتماعي.

تكمن الصعـوبة بالتأكيـد، في الصـورة الاصليـة لعـائلة مـا. كره اورويل مـا شـاهده من نتـائج النظام الرأسمالي، بيـد انه عجز ابداً عن رؤيتـه، بشكل كـامل، كنظام اقـتصادي وسياسي. ان قوته العظيمة في تشـخيص مظالم مـعـينة لم يدعـمـهـا اي فهم كان لتلك القوى العامة والفاعلة فيها بالذات.

لقـد اراد ان يكشف بعـمق واصالة عن «انجلترا الحقيقية» وان يقلب الحـرب الى «حـرب ثورية» بحيث تلحق الهزيمة بالفاشية وتقضي نهائياً على الرأسماليـة في آن. «مـراقب أجنبي، جـديد على انجلترا». بالطبع لم يكن أورويل مـثل هذا المراقب ابداً. بيد أنه رجع من الخارج وهو يكن حـقـداً حقيقياً ومستمراً للامبريالية ورأى بأم عينيه ماذا هيأت له ثقافته وتجـربتـه: «عـائلة يتـحكم بمصيرها الافراد غير المناسبين». والواقع انه كـان بحـاجـة الى هذه العـائلة. فـقـد حرم منها ولحقت به المهانة على يدها. امـا الآن فقد تصرف بدافع المهانة، محاولاً التحدث الى الاعضاء الآخـريـن في الاسرة وحـشـدهـم سـويـة، وحمـلـهـم عـلى تسلم زمـام السيطرة.

ان الشيء الذي كـان في وسعه ان يخبرهم عنه كان بشكل فعال تلك الامبرياليـة التي تجـاهلوها، والبـيـوت القـذرة التي اهملوها. ولكن مثلما هـو مـن الامـور المـقـيـدة ان يتم النظر الى نظام رأسمالي دون امـتـداده الامبريالي، كذلك هو الامر تماما بالنسبة للنظر الى الرأسمالية من خلال الامبرياليـة فقط ومن خلال طبقتها الحاكمة المنظورة.

ان جـزءاً من انجلترا التي اكـتـشـفـهـا اورويل كـان يشكل مجتـمعاً حـقـيقياً يعيش في ظل هذا النظام ومن ضمنه، وقد حافظت قيم معينة على استـمـرار الفـعـاليـة. بيد ان الامر الذي لا ينفصم عن ذلك هو انـجـلـترا المختـلفـة التي أوجـدها هذا النظام عبر تحـامـلاته وتسـوياته

وتكيفاته وأوهامه. فالاستجابة للمجتمع من شأنها ان تعني التمييز بين جزء وآخر والدخول في نزاع لا بد من أن يصل الى كل مجال من مجالات الحياة. بيد ان انتهاج مثل هذا الاسلوب مع عائلة ما، مع «انجلترا» ،هو امر لا يجوز التفكير فيه، فهو ينطوي على خيانة وخسة. لقد خسر العائلة واعتزازها العريق، إنه يحاول الانضمام الى عائلة لكي يشارك في مستقبل لائق. العواطف شريفة يمكن تفهمها بيد انها عواطف معينة- عواطف النفي عن بلد ضائع وعن طبقة ضائعة. وهذه المشاعر بسيطة جدا ومهدئة جدا وعذبة جدا إذا ما نظر اليها من مكان حدوث انجلترا، التي تمتد نحو الماضي والى المستقبل بتفاعلاتها الاكثر مباشرة وتعقيداً.

ذلك ان عبارة «انجلترا، انجلترا التي تخصني» هي توكيدية، واعلان للاستقلال ومدعاة للتحدي، وبالمقابل، فان «انجلترا، انجلترا التي تخصك» هي صيغة، وقصة وحلم وعندما تتحطم تحت وطأة الضغط فانها سوف تتحول الى كابوس.

دائما، مثلا، وحتى في اواخر حياته الى اجراء التمييز، عن قصد، بين كتابة النثر وكتابة الشعر. ويظهر هذا التمييز لدى انعام النظر فيه، بأنه تمييز بين الكتابة من اجل تأثير المضمون، والكتابة من اجل تأثير الكلمات. ويفترض ان الحالة الاولى هي السائدة في النثر، بالرغم من ان ذلك لا يشمل كل اشكال النثر.

بيد أن هذا التمييز نفسه هو نتاج نظرية مجزأة في الجماليات (علم الجمال)؛ فاللغة، على نحو مميز، يجري اعتبارها بمثابة عامل من عوامل التجربة (الخبرة) بدلاً من كونها مصدراً للخبرة. وبكلمات اخرى فان المضمون يعتبر سابقاً على اللغة، ومن ثم يستطيع الكاتب ان يختار بين الافصاح عن المضمون بصورة مباشرة او التعامل مع الكلمات ككلمات في حد ذاتها. وحتى لو كان هذا الامر من باب التشديد فحسب بدلاً من كونه تمييزاً صارما، فانه يبقى مضللا أعمق التضليل، ذلك ان العلاقة بين التجربة والتعبير بالنسبة للمؤلف الفرد وبالنسبة للغة والاشكال التي يشارك فيها مجتمعة هي العنصر الحاسم فعلا على الدوام.

بقي اورويل يعود الى هذه المشكلة كلما حاول ان يوجه تطوره الشخصي وان يفهمه، ففي مقالته «لماذا اكتب؟» عام ١٩٤٦ وصف اولى مراحل تطوره المبكر من مرحلة اعجابه بنفسه كبطل، الى ما يطلق عليه «مجرد وصف اكثر فاكثر لما كنت اقوم به وللأشياء التي رأيتها». ان لفظة «مجرد» هنا تنطوي على مغزى. ذلك لأنها تتكرر في ما يعتبره بمثابة المرحلة التالية من مراحل تطوره في سن المراهقة عندما اكتشف فجأة «الفرحة بمجرد ومجرد كلمات». هذه الطريقة في النظر الى المشكلة الادبية بقيت ذات اهمية، ليس في تطوره فحسب، بل كشكل مميز للازمة الاجتماعية الكامنة في عصره.

ان الامر البالغ الدلالة هو الرغبة في تبرير نفسه ككاتب؛ وهذه المشكلة في التبرير وفي الجدية هي التي جعلتها النكتة المتذكرة حيوية. فبعد كل حساب، كان يحيا في وقت وضمن طبقة حيث كانت ممارسة

الكتابة كلها تنطوي على اشكالية. فاذا ما تركنا جانباً «الكتابة من اجل التسلية» (اي انتاج سلعة مكتوبة يقوم الآخرون باستهلاكها واسباغ القيمة عليها في حالة سرورهم بها) فان المواقف من الكتابة تصلبت حتى انها اصبحت مستقطبة. وفي اوساط الطبقة الوسطى المنكبة على صيغتها هي للنواحي العملية، جرى اعتبار الكتابة بمثابة نشاط ثانوي وغير عملي. وكبديل عنه هناك «القيام بعمل حقيق». هنا طبعا، وعلى نحو مميز، جرى السماح بتأمين طريق للهرب عند تلك النقطة حيث كان النشاط غير العملي يسفر عن نتائج عملية: وهي اكتساب المال. بكلام آخر، فالمؤلف الناجح (وهو شخص يختلف تماما عن «الكاتب» البسيط)كان حينئذ منتجاً يحظى بالاعجاب وينال المكافأة مثل اي شخص آخر.

بيد ان الصعوبة لم تقتصر على صعوبة المراحل فحسب- اي الانتقال من كونه كاتبا الى كونه مؤلفاً ناجحاً. كانت هناك ايضا الحقيقة القائلة إن الكاتب تبعاً لهذا الاسقاط، لم يكن يمتلك اهدافا مستقلة خلال هذه التغيرات، اي ان تعريفه الانجاز من شأنه ان يتكون منذ البداية بواسطة مقياس خارجي غريب. وفي الوقت نفسه فان قلة متنامية من الطبقة الاجتماعية نفسها قامت بتجريد مضاد في الظاهر، لكنه وثيق الصلة، كرد فعل على هذا الامر. واذا كان الاختبار التقليدي الوحيد للانجاز هو الاعتراف والنجاح الاجتماعي، فبالامكان معارضة هذا بواسطة النفي البسيط. و «الكاتب»، الكاتب الحقيقي، لم تكن له اهداف تجارية ولكنه ايضاً لا يمتلك في جذوره وظيفة اجتماعية. وهكذا، فإنه بلا مضمون اجتماعي. لقد «كتب» فحسب ولكنه بالتالي يعيش كشخصية معروفة ومحدودة ذاتيا، «خارج» المجتمع: انه الفنان بمعنى غير تقليدي.

ان هذا التطور والاستقطاب يشكل تاريخا اجتماعيا حقيقيا. انه مرحلة هامة من حياة البرجوازية وفكرها في القرن التاسع عشر، وقد وصلت الى ذروتها الاولى في الثمانينات والتسعينات من القرن التاسع

عشر في معظم انحاء اوروبا وبقيت مستمرة النشاط بالرغم من قساوتها واحياناً تقليديتها في العشرينات من هذا القرن. لقد كانت لها تأثيرات عديدة، على صعيد النظرية والممارسة العملية. وهي تقبع عند جذور التمييز التقليدي بين المضمون والشكل بمعناه الفعال والحديث. ان اسئلة اورويل النظرية لم تندفع الى مسافة كافية لان تصبح نظرية اصيلة، ويمكن اعتبارها ايضاً بمثابة ردود فعل عملية للازمة الفورية بالنسبة لما كان يزمع القيام به. ثمة اسباب عديدة وراء رفضه الواعي للحياة التقليدية لدى طبقته: محاولة في التماهي الاجتماعي مع ضحاياها، وبحث عن هوية تتجاوز اشكالها المقررة، ورفض لما فهمته بانه النجاح. ولكن يوجد ايضاً في البداية على الاقل، رد فعل اكثر بساطة، يتمثل في دور من الادوار البديلة والمعدّة.

لذا ارتأى القول انه بهذا المعنى، يذهب الى باريس لكي يكون كاتبا: اي لكي يعيش «خارج» المجتمع «ويكتب». وعندما يستعيد تلك الفترة في مقالة «في جوف الحوت» فهو يكرر تذكره للنكتة في مجلة Punch ويتذكر الفنانين والكتاب، والتلاميذ وهواة الفنون، والسائحين، والغواة، والمتسكعين البسطاء، ويصف ايديولوجيتها: «في الاوساط المثقفة» امتدت نزعة الفن للفن، عمليا، الى عبادة اللامعنى، وكان من المفترض ان يتألف الادب من مجرد التلاعب بالكلمات فحسب (مجموعة المقالات والرسائل، ج١، ص٥٠٨). ربما كانت هناك مبالغة في التعبير عن هذه النقطة. انها تعميم متأخر، بيد انها طريقة شيقة في النظر الى شكل الازمة الادبية والاجتماعية التي تطور من خلالها.

يمكننا ان نرى الآن ان خيار اورويل ككاتب سار في الاتجاه الاخر بعيدا عن ذلك التشديد في العشرينات. ويمكن القول انه اختار المضمون قبل الشكل، والتجربة قبل الكلمات، وإنه اصبح ذلك المؤلف الواعي اجتماعياً في الثلاثينات بدلا من الكاتب الجمالي للعشرينات. وبالتأكيد الى حد كبير، هكذا رأى مسألة الخيار بنفسه.

ولكن على الدرجة نفسها من الاهمية فان رؤيته الخيار على هذا النحو جعلته يندم عليه احياناً. ففي مقالته «لماذا اكتب؟» ذكر مثلا ان المؤلف يمتلك اربعة دوافع: الانانية المطلقة، والحماسة الجمالية، والدافع التاريخي، والغرض السياسي. وهذه الدوافع تتناقض فيما بينها احياناً وتتفاوت من حيث نسبتها ودرجتها لدى جميع الكتاب ولدى اي كاتب وفقاً للمرحلة التي يمر بها. كما قال في عصر مختلف إن الدوافع الثلاثة الاولى، بالنسبة له، كانت ستفوق الدافع الرابع ثقلا. «كما كان من شأنه ان يكتب كتبا منمقة او مجرد كتب وصفية». لكن «الذي حدث هو انني اجبرت على أن أصبح مؤلفاً للكراريس» (مجموعة المقالات والرسائل ج١، ص٢). والطريف في الموضوع هو كلمة «اجبرت». انه يملك فكرة واضحة عن نفسه وعما سيكون عليه في زمن مختلف. كان بوسعه حينذاك ان يرى كتابته الفعلية بمثابة تناقض مع طبيعته في بعض النواحي: لو اعتبرت طبيعتك الحالة التي تكون قد بلغتها عندما تصبح يافعاً للمرة الاولى... (مجموعة المقالات والرسائل، ج١، ص٢).

وهذه ليست «طبيعة» فرضية في زمن مختلف تماما. انها «طبيعة» ذات اطار مرجعي في فترة زمنية معينة، ترجع الى حين بلوغه سن الرشد، في العشرينات.

ان الذي حدث انذاك اذا ما سلمنا بهذه الرواية، هو غزو فعلي لذاته الطبيعية ولكتابته الطبيعية من قبل واقع اجتماعي وسياسي حتمي. ورؤيته للامر كشيء حتمي هي بالطبع ذات اهمية. كيف يمكن للانسان، والكاتب، ان يقف جانباً عندما تحدث أشياء كهذه؟ بيد ان شكل هذا الاعتراف يبقى مثيراً للاهتمام، لأنه يفترض موقفا يكون بوسع الكاتب فيه الاختيار بين أن يكون منفتحاً على واقع اجتماعي وسياسي وألا يكون: «وتكمن مرارة الثلاثينات في أنه لم يكن بوسع اي انسان شريف ان يختار أن لا يكون منفتحاً».

غير ان هذا الأمر مجرد تكرار بصيغة معينة لنظرته الاصلية الى

العالم، وانا اقول انها فكرة متواصلة. فالرجال لهم طبائعهم، وهي ليست طبائع فطرية بل ذواتهم البالغة والمتكونة- التي يغزوها واقع اجتماعي وسياسي. وتتحول ملاحظة اورويل المحدودة في الظاهر حول الكتابة، عندما نتأملها، الى ملاحظة عامة جدا حول الأفراد والمجتمعات. فالعلاقة بين « المثابة» والواقع هي شكل من أشكال العلاقة بين الناس وتاريخهم.

ربما كان من شأن اريك بلير حقا ان يصبح انسانا اخر: ليس اورويل وانما «س» (س= كمية مجهولة) من الناس. فاختيار اورويل- ليس الاسم وانما العمل الفعلي- جرى من خلال تاريخ شخصي ضاغط وعام جدا. لقد تطور ككاتب خلال سنوات ازمة الركود الاقتصادي والفاشية.

كان في كل لحظة خلال تلك الأعوام يعرض نفسه لهذه الحقائق بأشكالها المباشرة الى اقصى الحدود. فأصبح عاطلا عن العمل ومعدما، ويعود ذلك جزئياً الى الصعوبات الباكرة التي اكتنفت كونه كاتباً، ولكنه يمثل ايضاً وعن قصد طريقة لقطع صلاته بمركز اجتماعي قائم وغير مقبول. لقد ذهب الى اسبانيا لمحاربة الفاشية، في البدء على نحو جزئي كطريق لان يصبح كاتباً، ومن ثم، لكي يضع حياته، متعمداً، في مواجهة قوة اجتماعية شريرة ومدمرة. ان شجاعته ومثابرته في هذه المواجهة المتكررة مع أصعب حقائق عصره تعتبر لافتة للنظر باي مقياس كان. ومع ذلك تبقى هناك مشكلة مستعصية من خلال هذه المواجهة: إنها مشكلة الذات الاخرى، والكاتب الاخر الذي كان يتمنى ان يكون اياه ولا يزال.

كانت قوة الرغبة تمثل المشكلة بكاملها، فالعديد من الناس والعديد من الكتاب جرى «غزوهم»- فقد اقحموا بتاريخ لم يقوموا باختياره وبقي خارجياً بالنسبة اليهم، الى جانب كونه مزعجاً وباعثاً على الاضطراب. هذه الحالة بالطبع لا تنطبق على اورويل. فالغزو يجري السعي وراءه بنشاط، بل إن الدعوة توجه اليه حقاً. مع ذلك تكمن

خلفه، طيلة الوقت- خلف هذا «المضمون» الحتمي - صورة اخرى وكلمات اخرى، وطريقة اخرى في « ان يكون كاتبا».

لقد عمم اورويل هذه المشكلة في النهاية من خلال المقالة المتأخرة عن« الكتاب والتنين الهائل». (فهو يقول):

«ان غزو الادب من السياسة كان لا بد من حدوثه. كان يجب ان يحدث حتى ولو لم تنشأ ابداً المشكلة الخاصة للتوتاليتارية، لاننا افرزنا نوعاً من الندم لم يكن موجوداً لدى اجدادنا، الا وهو الوعي بالظلم والبؤس الهائل الذي يسود العالم، وشعور بالاثم من أنه ينبغي للمرء ان يقوم بعمل ما للمساعدة، مما يجعل اتخاذ موقف جمالي خالِص من الحياة امراً مستحيلاً. ليس بوسع احد الآن ان يكرس نفسه للادب كلياً مثل جويس او هنري جيمس» (مجموعة المقالات والرسائل، ج٤، ص ٤٠٨ _ ٤٠٩).

ان هذه الرواية للغزو تنطوي على مغزى. فالتوتاليتارية او الكليانية، أو التدخل النشط والفعلي في شؤون الكتاب، مشكلة خاصة ولكن يكمن تحتها شيء اكثر عمومية وهو الضمير الاجتماعي. هل يعتبر هذا غزواً؟ يصف اورويل عادة مشاعره الخاصة بدقة متناهية الى درجة يصبح معها التحليل السطحي غير ضروري اطلاقا: يبدو أنه يقول بوضوح جدا ما يعنيه.

ولكن نجده هنا يقول إن «الضمير الاجتماعي» للكاتب، المنسلخ حتى الآن، اصبح بالضرورة متورطا، الامر الذي يعتبر غزواً للادب. ويبقى تعريفه للادب، متعذر البلوغ الآن، وهو مرتبط «بموقف جمالي بحت من الحياة»، ولا يخدم مثاله عن جويس في توضيح الصورة.

فقد كتب جويس كما فعل هو عبر الفقر والمنفى. وأكمل روايته «صحوة فينيجان» عام ١٩٣٩. هذا التأكيد سواء كان صوابا أم خطأً كان متوافراً تاريخياً، لكن المثال عن هنري جيمس شديد الايحاء لانه يرجع بنا الى فترة اصبحت فيها هذه الطريقة في طرح المشكلة، وليس المشكلة نفسها، طبيعية.

ان قـراءة ما رواه اورويل على عجل قد لا تتيح للمرء ابدا ان يتذكر الـروائيـين الانـجليـز من ديكنز واليـزابيث جـاسكل الى جـورج اليـوت وهاردي: اولئك الذين كـانوا مـعـاصرين «لاجـدادنا» وكانوا واعين حقا «للظلم الفـادح والبـؤس في العـالم» والذين كـتبوا ادبا، باشكال شتى، من خـلال هذه التـجربة بالذات. ليس ثمة شيء جديد بالنسبة للوعي الاجـتماعـي لـدى الـكـتـاب، ولـقـد كـان هذا الوعي واسع الانـتـشـار ومـتنامياً في القرن التاسع عشر لا سيما بين الروائيين. ولكن جرت عند اواخـر القـرن، وفي انجلترا بالنسبة لهنري جيمس، محاولات على نطاق واسع لاقـامة تضاد (تعارض) بين ما هو «اجتماعي» وما هو «جمالي».

ولم يكن النظر الى التـجـربة الاجـتماعـيـة كـمضمون وللادب كشكل فـحـسب، بل ايضـاً، وعلى نحـو أشد خطورة، كان النظر الى التجربة الاجـتماعـيـة مجرداً وكشيء عـام فقط، فأسفرت النتيجة عن أن تعريف المضـمـون الادبي اصـبح ضـيـقاً ومقصوراً على التشديد على «العلاقات الشـخـصـيـة» المجـردة. وهذا، بالمناسـبـة، قليل الصلة بعمل جيمس الفـعلي، حيث كان التركيز على التجربة الاجتماعية والشخصية، بالرغم من ان ذلك جـرى بالتأكـيد في عالم محدود، على اساس انهما متفاعلتان واحـيـاناً مـتكاملتـان. بيـد أن جـيمس في تشديده على «معالجة» المادة وتطبـيق «الاسلوب» على «المادة» انما قـام بنشر وعي مـفـهـوم للاسلوب الفني الى نقطة اصـبح عندها التـشـديد الجمالي المجـرد كليـا يبـدو امراً مـعـقـولا. ان الخـصام الهام بين جيمس وويلز- بين فن معظم خالص سـلـبي في جـوهره وبين انواع جـديدة من الكتـابة الاسـقـاط والكتـابة الملتـزمـة والهادفـة في جـوهرها- حـدث هذا في وقت كـانت فـيه مسألة تطور الرواية في القـرن العشرين تعتبر موضوع الساعة. كان هناك وعي أعـمق للتـعـقـيدات النفـسـيـة في الوقت ذاته من وجـود وعي أعـمق للتـعـقـيدات الاجـتماعـيـة. والقاسم المشترك كان حساً بالازمة ، لكن سـبـلا بديلة لوصـفـها كانت قيد العمل والممارسة تؤدي كل واحدة منها بأسلوبها الخـاص الى تحولات جذرية في الشكل الادبي، ومع ذلك فهي

تقوم بالجذب في اتجاهات مضادة تماما.

ان هناك مشكلة حقيقية واساسية في علم الجمال حيث القرارات التي تتخذ بشأن الشكل غير منفصلة عن القرارات المتعلقة بالتجربة. بيد أن هذه القضية المركزية التي ما زالت دون حل جرى تغليفها بنوع من أسر المصطلحات، بحيث ارتبط «الجمالي» وحتى «الادب» بقرار واحد فقط من القرارات الممكنة. اما القرارات الاخرى الممكنة الفعلية فقد وصفت خارجياً بانها «مضادة للجمالية» او انها «سوسيولوجية» (عائدة لعلم الاجتماع). ومع انتقال هذه الحجة الخطيرة الى أيدي الطفيليين، نشأ وضع اصبح معه بوسع انسان من طراز اورويل ان يتحدث عن موقف جمالي من الحياة لا يأخذ بالحسبان بداهة الضمير الاجتماعي او حتى الوعي الاجتماعي. كان الموقف الجمالي ذو الشأن هو الموقف من الفن، طبعا من مشكلاته الجوهرية والجدية والمتغيرة. ان «الموقف الجمالي من الحياة» كان عبارة عن وعي مستبدل يتعلق بأحد القرارات الفنية العديدة والممكنة، والاهم من ذلك هو أنه متعلق بصيغة المجتمع: هذا الوعي ليس فنيا، وانما هو وعي اجتماعي متنكر بحيث يمكن فيه التغاضي عن الارتباطات والتورطات الحقيقية مع الآخرين بشكل معقول ومن ثم يجري، ابرامها بالفعل: وهو تعريف للوضع «أن تكون كاتبا» استثنى التجربة الاجتماعية والاهتمام الاجتماعي.

قام اورويل بمحاولات شاقة جادة لرفض تفكير الطبقة الاجتماعية التي تلقى تربيته فيها، ونجح في محاولات عديدة ولكنه دفع ثمناً باهظاً لذلك، لكن السخرية ان يستمر الرجل الذي قام عمليا بحل بعض هذه المشكلات الادبية بطريقة فعالة ومؤثرة في اغلب الاحيان، في الاعتقاد ليس فقط بأنه لم يكن يحلها (وهو شعور طبيعي جدا بالنسبة لاي كاتب مستمر) وانما كان، بطريقة ما، يتهرب من الادب او يتخلى عنه: «إنه نوع من كتابة الكراريس» كما قال بالسخرية التي تعلمها.

احتاجت قراراته لان تكون متكاملة. ذلك انها في الجوهر كانت

قرارا واحداً. «فالموقف الجمالي من الحياة» لم يكن مجرد طريقة لكتابة روايات من نوع معين. بل كان ايضاً في الواقع، معادلة او حتى معاهدة من نوع ما برزت في تلك اللحظة التي شهدنا فيها الاختزال البرجوازي للفن، يعتبر حاسماً جداً بالنسبة لتجربة القرن العشرين، وبامكاننا ان نرى، اذا ما تطلعنا إلى الوراء، كم كان ملائماً (وكم هو لا يزال ملائماً في غالب الاحيان) ان يوضع الادب في مقصورة بحيث ينبغي له، اذا اراد ان يكون صادقاً مع نفسه، ألا يمتلك اهتماماً مباشراً بالواقع الاجتماعي، وهذا مناسب للناس الذين احتقروا الادب لكونه غير عملي والذين ارادوا في مطلق الاحوال ان لا يجري اي نوع من التفحص المستقل للمجتمع، من أي نوع كان، هذا المجتمع الذي كانوا يقومون على توجيهه وابداعه بنشاط.

وخلف الكلمات البسيطة للانسان غير المبالي بالثقافة غالباً ما تقبع الكلمات الاكثر قساوة للشخص القابض على زمام السيطرة او الرقيب. ولكن عندئذ تكون المعارضة الظاهرة- اولئك الذين قالوا انهم يقدرون الادب- قد وضعت المسألة عملياً في ساحة امنة. وعلاوة على ذلك فانها كانت- المعارضة- تعلم او تبشر بمواقف من شأنها ان تحد من استخداماتها فتقصرها على اللمس والذوق. ولا يمكن لاي فن حقيق مهما كان نوعه ان يختصر بهذه الطريقة، بيد ان الأمر الهام في الوعي العام ليس الاعمال وانما المواقف، وهي مجموعة من التأكيدات والاغفالات، والتشجيعات والتثبيطات والتحذيرات، ويمكننا ان نرى مدى تأثير هذه المجموعة من خلال اورويل؛ اذ ندم على التطور الذي كان في الواقع انجازه واصبح يكن كرهاً للادب التقليدي مع انه ما زال يحمل تعليماته في عقله ليضايق طاقته الخلاقة ويضعفها.

ثمة مشكلة اخرى هي استجابات اورويل المعقدة للادب الحديث الذي كان يقدره، واستخداماته لبعض طرائق هذا الادب في عمله الخاص. سوف ننظر الى هذا بشيء من التفصيل في الفصل القادم عندما نتتبع تطوره الادبي، بيد انه لا بد من قول شيء ما حول «الغزو» الذي قام به الواقع السياسي والاجتماعي، وللتعريف الذي تبدل بالقوة عن «أن يكون المرء كاتباً». لقد ذكرت أن قراراته احتاجت لان تكون متكاملة، وأن قراراته الاجتماعية والسياسية - رفضه لان يعيش امبريالي او ما يعادل ذلك رتبة في بلده كضابط - كانت مرتبطة على نحو عميق بقراراته حول الكتابة. كان هناك الفشل الذي اشرت اليه سابقاً ،وهو التخلص من تلك الافتراضات حول الادب التي كان يناقضها في الممارسة العملية.

ولكن هناك ايضاً شيئاً آخر يكمن في الاعماق السحيقة من عمله، وربما كان هذا الشيء بمثابة السبب الاساسي لما كان يمكن أن يكون مجرد فشل سطحي.

سوف يكون من السهل القول ان جميع أعمال اورويل المهمة تقريباً تدور حول شخص يفر من حالة سوية (ظالمة). فابتداء من الشخصيات المحورية في روايات «ابنة رجل الدين» و «دع الدريقة مرفرفة» وحتى «الارتفاع بحثا عن الهواء» فان هذه التجربة للوعي والرفض والهروب تحدث بصورة متكررة. مع ذلك فان من الاصدق القول إن معظم كتابات اورويل المهمة تدور حول شخص يحاول الفرار ولكنه يفشل. هذا الفشل، والانهماك مجددا، يحدث في النهاية في جميع الروايات المذكورة بالرغم من أن تجربة الوعي والرفض والهروب بالطبع قد تركت اثرها الهام.

لذا فان المفارقة لدى اورويل يمكن رؤيتها بوضوح اكثر. ومن

المحتمل انه لولا فعل الوعي والرفض لم يكن ليتسنى له أن يكون كاتباً على الاطلاق، لذلك فان معظم تشديده ينصب على هذه النقطة بالذات، وهذا امر يمكن تفهمه. ولكن ماذا لو أنه شعر كل الوقت بأنه كان مقدراً له ان يفشل في هذه الحركة بالذات؟ وماذا لو شعر في آن واحد بأن الهروب كان ضرورياً انما عديم الفائدة؟

ان هذا من شأنه ايضاح الكثير، لان اورويل ليس مجرد ذلك الرجل والكاتب الذي يسير في درب جديدة. ولكن او ليس بالامكان ان يكون ايضا الرجل والكاتب الذي غزا «طبيعته» واقع غير مرحب به فكان عليه ان يحيا ويكتب بهذه الأساليب ؟؟؟

الفصل الرابع

الملاحظة والخيال

يمكن تصنيف كتابة اورويل في الثلاثينات تقليديا، الى الاعمال «الوثائقية» و «الوقائعية» من جهة، والاعمال «القصصية» والخيالية من جهة اخرى. فالاختلاف السطحي واضح بشكل كاف: نجد من جهة، «التسكع في باريس ولندن» و«الطريق الى رصيف ميناء ويغان»، و «وفاء لكاتالونيا» وبعض الاسكتشات مثل «المسمار الشائك» و «عملية شنق» و «اصطياد فيل»، ومن الجهة الاخرى لدينا «دع الدريقة مرفرفة» و«الارتفاع بحثا عن الهواء». مع ذلك ايضا لا شيء اوضح- لدى تفحصنا العمل ككل- من أن هذا التقسيم التقليدي هو تقسيم ثانوي. فالمشكلة الرئيسية في هذا العمل كله هي العلاقة بين «الحقيقة» و «الخيال»، وهي علاقة غير أكيدة وتشكل جزءاً من كامل الازمة المتعلقة بكون الانسان كاتباً.

لم يسبق ان صنف الادب بهذه الطرق الخارجية.

فالتمييز الصارم بين الكتابة الوثائقية والكتابة الخيالية هو من نتاج القرن التاسع عشر، وقد انتشر بشكل واسع في ايامنا. ويكمن اساسه في التعريف البسيط «للعالم الحقيقي»، ثم في الفصل البسيط بين هذا العالم وبين ملاحظة الإنسان وخياله. فلو كانت هناك حياة حقيقية مع سجلها من جهة، وعالم خيالي منفصل من جهة اخرى، لامكن التمييز بين نوعين من الادب على نحو موثوق، وهذا اكثر بكثير من تأثير شكلي. ان هذه الثنائية الفعالة بين «العالم» و «العقل» هي في النظريات الطبيعية والايجابية على الاقل قابلة للملاحظة بوضوح. وقلما جرت ملاحظة الثنائية التقليدية في معظم النظرية الادبية التقليدية، ناهيك عن تحديها. وتستمر عبارات مثل «الخيال» و «اللاخيال»، «العمل

الـوثـائقي» و «العـمل الخـيـالي» في طمس مـعـالم الكثير من المشكلات الحقيقية للكتابة.

ان وحـدة أعمال اورويـل «الـوثائقـيـة» و «الخـيـاليـة» هي أول شيء يمكن مـلاحظتـه. كـانت هناك عـدة مـشكلات تتـعلق بالمنهج، لكن اورويل، في الاقل، اجـتـاز التصنيف التقليدي ولو أن ذلك جرى على صـعـيـد الممارسـة العـمليـة فقط. وقد رأى ان التقسيم كما قدم نفسه له فـعليا هو أكثر من مشكلة صورية. لقد رآها بشكل صحيح، كمشكلة للعلاقات الاجتماعية.

يكتب الادب الخـيـالي الانكليـزي في الجزء الاكبر منه على مستوياته العليـا بواسطة رجـال ادباء عن رجـال ادباء من اجل رجال ادباء، وعلى مـسـتـوياته المنخـفضة فانه عموماً اكثر هروبية على صعيد الفساد: فهو يـتـنـاول تخـيـلات الـعـوانس عن الذكـور او رؤى الرجـال المكتنزين الصـغـار عن انفـسـهم بوصـفهم من زعماء العصابات في شيكاغو. اما الكتب عن الناس العـاديين الذين يتصرفـون بشكل عـادي، فهي نادرة جـداً، لانها كـتب لا يكتـبـهـا سوى شخص قادر على الوقوف في كلتا الجـبـهتين الداخلية والخارجية للانسان العادي، كما يقف جويس داخل «بلوم» Bloom وخـارجها، مثلا. لكن هذا ينطوي على الاقرار بانك أنت نفـسك شـخص عادي لتسعة أعشار الوقت، وهذا ما لا يريد أي عـاقل ان يفعله تماما (مجموعة المقالات والرسائل، ج٢، ص٢٣٠).

هـنـاك شيء من الشعـور الطبـقي المتستر في هذا القـول، ويبـقى اورويل ينظر من الخـارج على مـسـافـة ذات بعـد كـاف للافتراض بان هناك اناسـاً- طبـقـة من الناس- «عـاديين» دائماً وابداً. ان بلوغـه هذا الحد يسترعي الانتباه.

انا أعتقد ان الاهتمام الذي يثيره فينا بلوم Bloom هـو انه رجل عـادي غير مـثقف، يوصف من الداخل بواسطة شخص يستطيع ايضا ان يـقـف خـارجـه ويـراه مـن زاوية اخـرى، وليس لكون بلوم رجـلاً نموذجاً خالصا في الشارع.

يوصف رجل الشارع عادة في القصص الخيالية اما بواسطة كتاب هم انفسهم على الصعيد الفكري من رجال الشارع، بالرغم من أنهم قد يمتلكون مواهب عظيمة كروائيين (ترولوب مثلا) او بواسطة رجال مثقفين يصفونه من الخارج (صموئيل بتلر، الدوس هكسلي مثلا) (مجموعة المقالات الصحفية والرسائل، ج١، ص٢٢٨).

«الرجال المثقفون الذين يصفون رجل الشارع من الخارج». يستطيع اورويل في هذا العيب الاجتماعي ومن خلاله، وهو عيب ابتلته به طبقته وتربيته، ان يصل الى فكرة الانسانية الموسعة او حتى الى فكرة الانسانية المشتركة. وتتجه كتابته في الثلاثينات نحو اكتشاف مثل هذه الانسانية، بالخبرة وعن طريق الكتب.

ان مشكلة العلاقة الاجتماعية هي، اذن، مشكلة صورة. ان كتاب «التسكع في لندن وباريس» هو بالفعل يوميات. والشيء المرصود في هذه اليوميات هو التجربة عن كون المرء بدون مال في مدينة حديثة: تجربة غاسلي الصحون المتسكعين، والغرف القذرة، والبيوت ذات أسرة النوم المؤقتة للفقراء، والاجنحة الطارئة في المستشفيات. الكاتب حاضر، لكن حضوره مشروط فقط بحدوث هذه الاشياء له وللآخرين. ان شخصيته وحوافزه مرسومة او مخططة باختصار مثل شخصية وحوافز اي شخص آخر نقابله في المطبخ او في الطريق؛ فهو ليس في «الداخل» ولا في «الخارج». ببساطة، إنه ينجرف مع الاخرين- قريبا منهم بشكل استثنائي، لكن ذلك يتم في اطار الحقيقة بأنهم ينجرفون، باجسادهم وعقولهم.

لكن بعدئذ قارن «ابنة رجل الدين». إنها رواية عن فتاة مكبوتة، تصاب بانهيار وتتشرد، ثم ترجع نهائيا عن طريق التعليم الى المكان الذي بدأت منه. ان اي شخص يقرأ كتابات اورويل الاخرى العائدة لذلك الوقت، سوف يجد معظم تجارب الرواية في مكان اخر بأشكال اخرى. ان «أوقات الكنيسة» والدرع المسرحي المصنوع من الغراء والورق البني وحتى الشمطاء المشرفة على الموت والتي يجب ان تنقل

كـريـات العث وشراب «الجن» والتي يجب ان تحـمل تقـريبـاً من المذبح واليـه كلهـا مـوجـودة في الفـصل الاول من الرواية وفي رسائل اورويل التي يتـحـدث فـيـهـا عن نفسه (مجموعة المقالات الصحفية والرسائل، ج١، ص١٠١ـ ١٠٢، ١٠٣، ١٠٥).

كـذلك فـان صـورة الفـتـاة التي تتشرد، وركوب السيارات بالمجان، والزنجـبـيل، والنوم بخـشونة في ساحة الطرف الاغر: كل هذه الاشياء مـوجودة في الفصل الثاني وفي بداية الفصل الثالث، وفي مفكرة اورويل ايضـا، (ركـوب السـيارات بالمجان) (مجموعة المقالات والرسائل، ج١، ص ٥٢ـ٧١). المسألة المقـصـودة هي العـلاقـة الخـارجـيـة بين «مادة» الكاتب و «عـمليـة خلقـه». فـالاهتمام منصب تقـريبا كليا على طريقة مـعالجة حضور المؤلف بالذات: الشخصية الوسيطة للفتاة «في الداخل» عـنـدمـا تقع في روتين الكنيـسـة والتـعليم «من الخـارج»، حـتى» وهي فـاقـدة الذاكـرة، وعندمـا تسير على الطريق على غير هدى». ان محاولة تصـوير الفـتـاة وكأن حـضـورها أكـثر من مجرد انابة تجيء احيانا جدية ومـفصلة ومجرد وظيفية في بعض الاحيان. لكن الهوية الذاتية العالية لا يمكن تحـقـيـقـهـا من خـلال تنوع التجربة وتفككها. ومن الطريف ان يقـوم اورويل في مـرحلة من المراحل- مـشـهـد الليل في ميدان الطرف الاغـر، في القـسم الاول من الفـصل الثالث- باجراء تجربة ادبية واعية من نوع مختلف وغير شـخصي. ومن الواضح جـداً انها تجـربة مـسـتقاة من الفـصل الذي يدور حـول مـدينة الليل في رواية «يوليسيس» ،وهي الـروايـة التي كـانت تدور في خلده كـثيراً كـمـثـال يحتـذى. لقـد بقي مسروراً بهذه التـجربة، بالرغم من انه توصل الى رفض الكتاب ككل.

ان تـقـارب اورويـل من جـويس- او محاولة التـقـرب منه- أمـر لا يلمس في قـراءاتنا العـادية. فمن الكتاب الحديثين الذين يكرر اورويل ذكـرهـم، في عصره الاول، ويلز وبينيـه وكـونراد وهاردي وكـيـبلينغ. وفي سنة ١٩٤٠ نجـد لديه قـائمـة مختلفـة- جويس واليوت ولورانس. هذا الاخـتـلاف بالتشديد طوال الثلاثينات هو طبيعي ونموذجي تماما،

ومن بين الكتاب الاوائل على قائمة سنة ١٩٤٠ يرد اسم شكسبير وسويفت وفيلدينغ وديكنز وريد وبطلر وزولا وفلوبير. إن اهتمامه النقدي بشكسبير وسويفت وديكنز يمكن رؤيته من خلال مقالاته. لكن ثمة تشديدين مختلفين في تطور كتابته الخاصة: الاول الاهتمام التفصيلي بـ «يوليسيس» (خصوصا في رسالته الى برندا سالكلد، الاعمال والرسائل، ج١، ص١٢٥-١٢٩) وفي الوقت ذاته في «ابنة رجل الدين»، وايضا عندما قال في سنة ١٩٤٠: «انني اؤمن بأن الكاتب المعاصر الذي كان له تأثير كبير لدي هو سومرست موم، الذي اعجب به بشكل كبير بسبب قدرته على رواية قصة بشكل مستقيم وبدون تصنع» (الاعمال والرسائل، ج١، ص ٢٤).

اسماء كهذه لا تهم كثيراً. فالتأثير الادبي هو عمل ثانوي. الشيء المهم هو مشكلة الموقف الذي هو بمثابة المفتاح بالنسبة لاي حكم انتقادي حينما يتعلق الامر باورويل. ومن السهولة بمكان ان نقول ان «التسكع في باريس ولندن» هي افضل من «ابنة رجل الدين»، لكن يجب الا نخضع هذا الى تعميم كأن نقول إنه «مراقب» اكثر من كونه روائيا. تكمن المشكلة الحقيقية في العمق، في التصورات المتوافرة عن «الرواية».

«رواية القصة بشكل مباشر وبدون تصنع». ان «القصة»، بعد كل حساب، هي المسألة برمتها. ان موم هو «راوي القصة» ذات المميزات الادواردية: أي إنه جامع وموزع للحوادث الانسانية. كانت متوافرة لدى اورويل مادة هذه الامور (وقد جمعت في الغالب عن بعد، وفي بلاد اخرى)بيد أن أول رواية له، «أيام بورما»، هي من هذا النوع. وحتى هناك، عندما تكون المؤامرة متعلقة بمكيدة شخصية بين جماعة اوروبية منعزلة على محطة شرقية، نجد أن التشديد يقع على النتائج الاجتماعية المعقدة للامبريالية، ومن خلال هذا يبرز ما نستطيع ملاحظته الآن، الا وهو نموذج اورويل العميق: الرجل الذي يحاول ان يهرب من قواعد جماعته لكنه يرتد اليها، وفي هذه الحالة، محطما.

الشيء الفريد في عمل اورويل الروائي هو أنه يخلق محيطاً اجتماعيا ومـاديا كـامـلا يحدد من خلاله النقد الاجتماعي والانفصام الشخصي. وتتشكل البنية الاساسية في جميع رواياته الاخيرة، بواسطة العناصر التي اصبحت متفرقة: الانفصام الشخصي، والنقد الاجتماعي الذي يوجه من خلالها، كما في روايات الثلاثينات، والنقد الاجتماعي ويكمن في داخله الانفصام الشخصي كما في روايته «١٩٨٤».

يبدو ذلك تطوراً واضحا، لكن ما يحذفه هو مادة «الملاحظة». بعد ان وجد اورويل شكلاً واحداً لهذا في «التسكع في باريس ولندن»، فقد أراد بوضوح ان يضمنه في رواية. هذه هي الاهمية التطورية في «ابنة رجل الدين»، حيث تقترب الملاحظة المباشرة من التخيل بشكل متكرر. لكن منذ ذلك الوقت يظهر أنه رضي بالفصل بين العمل الوثائقي والعمل القصصي. لقد تجنب اعادة صياغة الرواية او ثبت له أنه شيء صعب جداً: وأنا أقول ليس لانه لم يكن روائياً بالفعل لكن لأن مشكلة الوعي التي شارك فيها مع اخرين في عصره برزت كمشكلة شكل.

كانت اهمية جويس بالنسبة لاورويل هي في ادراكه المباشر للتجربة لـ «داخل» و«خارج» الانسان العادي. لكن هذا الوصف يخفي مشكلة علاقة الروائي مع شخصيته التي هي دائماً صيغة علاقة الكاتب مع عالمه. والعلاقة التي هي بيت القصيد يمكن ان توصف: «كقبول» أو «استسلام»، فالنتيجة المنطقية لتشديد جويس على «تناول» الفنان «للمادة» تبدو كأنها قطعة مجردة. انه الفنان الذي تشذب من الوجود والملاحظة والتدوين: انه من المستحيل ان تلاحظ اي شيء دون أي تدخل في علاقة ما معه، ما عدا ذلك الذي يحدث في الممارسة. فالعلاقة الظاهرة، تلك المنتشرة والمحبذة، هي العلاقة «الجمالية» و «تناول المادة» و«الانهماك بالكلمات»، ذلك هو تطور جويس الحقيقي. لكن «المادة» يمكن ان يجري تناولها فقط بهذه الطريقة- من الممكن ان يجري تجريدها وتبقى مع ذلك مكتوبة - اذا افترضنا وجود علاقة

معينة: «القبول» او «الاستسلام». ان الاختلاف بين الاوصاف الايجابية والسلبية هو اقل اهمية من حقيقة العلاقة نفسها- الاحجام عن التدخل، او اكثر، النظر الى أنه لا حاجة للتوسط، بما أن وفرة «المادة» هي اهتمام الفنان الرئيسي والوحيد.

نجم فشل اورويل الفني، في رواياته في الثلاثينات، وبشيء من المفارقة، عن انجازه على الصعيد الاجتماعي. وهو على الاقل عرف الاستسلام، عن قرب، كما يصف في «التسكع في باريس ولندن». بيد ان معرفته به جاءت ليس بوصفه كاتباً عنه ،وإنما ضحيته، وبالمقدار الذي كان فيه «المادة» فقد كان مادة من نوع تتعلق به شخصيا اكثر من كونه كاتبا. ان ما رأيناه يصفه «غزوا» هو نمو ذلك الوعي الاجتماعي الذي اقتضى تدخله، والذي جعل اما القبول او الاستسلام مستحيلا بالرغم من أنه رجع الى فكرة القبول او الاستسلام في «في جوف الحوت».

قام فيما بعد عن طريق صياغة شكل ادبي، بخلق صورة الوسيط «ممتص صدمات البرجوازيين كما اشار مرة عن الاشخاص الذين من شاكلته». وعوضاً عن أن يقوم مباشرة بتفهم الاشياء التي لاحظها نراه يقدّم صورة الوسيط الذي يدور ويذهب الى الاشخاص ممن حصلت معهم بعض الاحداث. وهو لا يعكس هذا الشكل، في الروايات نفسها، وهذا شيء مهم جداً. الشكل له تجاربه، في «ابنة رجل الدين» وبعد ذلك بطريقة مختلفة في «دع الدريقة مرفرفة». ان الشخصية سلبية، كالاشياء التي تحدث في دوروثي Dorothy او كومستوك Comstok، وهذا النموذج يطلق عنصراً واحداً من تجربة اورويل- الاشياء التي «حدثت» معه- لكن ليس جزئياً او جزئياً فقط بسبب حدوث هذه الاشياء، وليس بسبب التوسط او «غزو» الوعي. دوروثي، بالتأكيد، هي الصورة الاكثر سلبية. لقد اعطى كومستوك في «دع الدريقة مرفرفة»، بعضاً من وعي اورويل الكامل: ليس فقط في المحاولة للعيش بدون نقود، ولكن لاعلانه الحرب على النقود وعلى

نظامـهـا. كـومستوك هو صورة فعالة وانتقادية في جميع الكشف الاولي، لكن ثمـة تناقضا يبرز ضمن الملاحظة بشكل متزايد. ان اصرار اورويل الفـعال والقوي، والبقاء المؤثر واعادة تكوين النفس النشيطة، كلها من الامـور التي يجري صدها باستمرار بينها تستمر عملية ملاحظة القبول. ان مـا يبـدأ على شكل احـتـجـاج يصبح عويلا، وتتم اعادة استيعاب كـومـسـتـوك مرة ثانية في عالم ذي اغراض غير قويمة بنوع من الانتصار المنحـرف: إن «شـخـصـيـة» الوسيط (مـثل «شـخـصـيـة» فلوري او «شـخصية» دوروثي) هي «تبرير» للاذعان وللهزيمة النهائية.

هذا هو التـحـول الغـريب في «القبول» او «السلبية». ولا يكون هنا في داخل اورويل، بسـبب التـبـاسـاته، نظامـاً فنياً ولا نظرة مقبولة الى الـعـالم. ان محـاولـتـه الاخيرة في محاكـاة صـورة بلوم بشـخـصـيـة بولينغ «الارتفـاع من اجل الهواء» كـتبت من مسافة بعيدة ومتذكرة وربما كانت من اجل ذلك السبب اكثر تماسكاً في بنيتها الداخلية. يبتعد بولينغ عن الـروتـين الاورثـوذكـسي كـالاخـرين، بالرغم من انه لا يظهـر ذلك، عندمـا تحـدث له الاشـيـاء، لكن يعـود الى الماضي، الى انكلترا القديمة وطفـولتـه، وبعـد ذلك تكون التجربة: تجربة الضياع، وزوال الاوهام، وفـتح البـصيرة. ظهـرت «الارتفـاع من اجل الهواء» بعـد تجربة اورويل السـيـاسـيـة الحـاسـمـة في اسبانيا بنتائجها التي يترتب علينا أن نعالجها بالتـفـصـيل. لكن تبـقى عناصر القـرار الادبي مـستمرة: الملاحظة من خـلال وسـيط محدود، مع الحد الذي هو اساس لنموذج اعمق: اثبات للذات بالحـاجـة وعـدم امكانية التوقف المستمر، لكي يتضاءل التوسط الفـعال الى احتجاج مؤقت او الى تأكيد ذاتي. ان اهمية هذا النموذج في عالم «١٩٨٤» المتـغير تحـتـاج الى تحليل اكـثـر، عندما نأخذ التغييرات الاخـرى بعين الاعتبار.

ادى فـشل اورويل في حل مشكلته الصعبة العميقة بالنسبة للرواية، الى توجـهـه نحـو اشكال اخـرى متوافرة عمليا أكثر. لقد كانت كتابته الاجـتماعـيـة والسـيـاسـيـة بمـثـابة انعتاق وجداني مباشر، وهي النتيجة

العملية للتوسط. وعلى سبيل المثال فان «صيد فيل» تعتبر اكثر نجاحاً من اي شيء في «ايام بورما»، ليس لانها «وثائقية» اكثر منها «تصورية» - التصور مثلما رأيناه، كان معتمداً بالمثل على الاشياء التي حدثت له - لكن بسبب وجود اورويل بدلا من فوري: شخصية مبدعة بنجاح بكل معنى الكلمة. فبدلا من تخفيف ادراكه من خلال وسيط، كما يقتضي اسلوب التصور، فانه يكتب الآن بقوة وبشكل مباشر عن تجربته الكاملة، ويصبح النثر قويا بالحال.

ان «صيد فيل» ليست وثيقة، بل هي عمل ادبي، فالتمييز ما بين العمل الخيالي او التصوري والعمل الوثائقي ليس مسألة ما اذا كانت التجربة قد حدثت للكاتب ام لا، بل هو تمييز بين ما هو «حقيقي» وما هو «تصوري»؛ اذ ان التمييز الذي له اعتباره يتعلق دائماً بالافق والوعي. وينبغي ان نعترف دوما بالتجربة الانسانية المكتوبة بصورة اولية وغير متخصصة، كأدب؛ اذ ان الاشكال الخاصة واصول المادة هي مسائل ثانوية. فقد بدأ اورويل يكتب ادباً، بالمعنى الكامل، عندما وجد هذا الشكل «غير التصوري». اي، عندما وجد شكلاً قادراً على استيعاب تجربته مباشرة.

لقد استوعب تجربته - ليس فقط ما قد حدث له وما قد لاحظ - لكن شعوره وتفكيره نحو ذلك، والتعريف الذاتي «لاورويل» الرجل داخل التجربة وخارجها. ولربما يكون افضل مثل على ذلك هو «الطريق الى رصيف ميناء ويغان»، واتفق ان تكون ملاحظات مذكرات يومية اورويل قد نشرت (مجموعة الاعمال والرسائل، ج١، ص ١٧٠ـ٢١٧). إن المقارنة بين اليومية والكتاب ممتعة لعدة اسباب؛ اذ إنه لمن السهل ان تجد في الملاحظات مصادر اكثرية الاوصاف: نزل بروكر، مثلاً، في الفصل الختامي، وما هو واضح ايضا، ان مقارنة الاثنين، هي العملية الادبية. ثمة تطور ضروري ومتوقع، في مشهد ما من الرواية المنشورة: وصف كامل واكثر سلاسة وتفصيلات يستعاد تذكرها. لكن هناك ايضاً اشباعا للمنظر بالمشاعر. ان اورويل

مـوجـود ومسـتجيب، وهو بالتأكيد يوجه الاستجابة بطريقة ما موجودة فـقط باتجاه النهـاية في الملاحظات اليـومـيـة. ويظهـر ايضـا انه ينتقل بالمسـتأجـرين في نزل بروكـر، وهو نزل ليس مـذكـوراً في الكتاب. لهذا السـبب لم يجر التـشـديد على نزل بروكـر، في الكتـاب، بالدرجة الاولى فحسب، لكنه يعامل كنموذج لتجربة اولية.

«لقـد ادهشني ان هذا المكان لا بد وان يكون عـادياً جداً مثلما النزل في المناطق الصناعـية»، بينما نجد في اليومية تجربة تسبق ذلك وبالاحرى مختلفة.

هذا مـثل واحـد صـغير فـقط لتـوضـيح نقطة التـجربة «الوثائقية». فـالكاتب هو الذي يقـوم بتكوين وتنظيم ما يحدث ليحدث بدوره تأثيراً خـاصـا، مـرتكزاً على التـجـربة ولكن مـبتدعا منها. فالتنظيم الكلي في «الطريق الى رصـيف مـيناء ويغـان» هو مـثـال رئيسي عن ذلك، فـفي المقـام الاول تـعـتـبر، «الملاحظة» حـول الشمال الصناعي، واحـدة من النقـاط الرئيـسـيـة. وبعـبارات ادبية، فان اورويل هو الملاحظ المنعزل الذي يتـجـول ويرى الاشياء بنفسه. وتستخدم هذه الشخصية المبتدعة لدرجـة مـهـمـة في القـسم الثاني، الذي يدور حول مناقشة الاشتراكية، حيث تجـري مقارنة الانسان الذي ذهب ورأى أن عينه مع الاشتراكيين الـبرجـوازيين ذوي الالفـاظ الطنانة: ان أول شيء ينبـغي ان يذهل اي مـلاحـظ خـارجي هـو أن الاشـتراكـيـة في شـكلهـا المتطور هي نظرية مـقتصرة كلياًعلى الطبقة الوسطى.

ان النقطة الخـارجية السياسية ليست هي الاكثر اهمية هنا: ان عبارة «في شكلهـا المتطور» جنبـتـه إشكالاً كـبيراً، وتبـقى النقطة الرئيسية هي شـخص «الملاحظ الخـارجي»- اي، اورويل. والصلة الاسـاسـيـة بين الجـزأين بالتأكـيـد هي هذه الشـخـصـيـة: «داخل» وبعـدئذ «خـارج»

التجربة.

اننا نعلم من الملاحظات اليـومية انه بعد عدة ايام من التجوال داخل اراضي «مـدلند»اجـرى اورويل بعض الاتصالات السياسية في لانكشاير وانه قـابل اشتراكـيين من طبـقـة العمال واعضاء «حركة العمال العاطلين عن العـمل». واتيح له في احـد هذه الاتصـالات ان يزور احد المناجم وان يحـصل على مـعلومـات عن حـالة السكن من بعض المحـصلين في «حـركـة الـعمال».ومـن الاهميـة بمكان ان اورويل يحذف اكـثـرية هذه التـجـربة- شـبكة من الاتصـالات الاجـتماعـية والسياسية الحقيقية- في «الطريق الى رصـيف ميناء ويغان». تظهر بعض الصعوبات جلية حتى في يومـيـاته. نجـد أن موظفا في احدى النقابات وزوجته، «وكلاهما من الطبـقـة العـاملة»، يعـيـشـان (في منزل ذي اجرة تتراوح بين اثني عشر واربـعـة عـشر شلنا) في بيئة تسـودها الطبـقـة الوسطى كليـا (مجمـوعـة الاعمال والرسائل، ج١، ص١٧٣).

لاورويل تعـريفـه الخاص عن الطبقة العاملة. ولهذا، اغلب الظن، استطاع ان يقـول، بعـد مـقابلته لاولئك الناس (الذين احرجوه عندما دعـوه «رفـيـقا») ولكهربائي يشارك بقسط بارز في الحركة الاشتراكية «إن الاشتراكـيـة هي من شأن الطبـقـة الوسطى». فـاذا كـان الرجل العامل اشتراكـيا، اذا فهو في اغلب الظن، من الطبقة المتوسطة، لان شخصية رجل الطبـقة العاملة معروفة سلفا.

بيـد ان النقطة السـياسية هنا هي نفسها النقطة الادبية. الشيء الذي ابتـدعـه الكتـاب هو مـلاحظ مـسـتـقل منعـزل مع مـواد مـلاحظتـه. فـالشـخصيات والتجارب المتداخلة التي لا تشكل جزءاً من هذا العالم- بنيـة الشـعور هذه- قد حذفت ببساطة. ما تبقى كلام «وثائقي» بدرجة كـافـيـة، لكن طريقـة الاخـتـيـار والتنظيم هي عـمل ادبي: فشخصية

الملاحظ هي حقيقية وايضا مبتدعة بنفس الدرجة التي يصف فيها العالم الحقيقي، ومع ذلك المبتدع بقوة كبيرة.

من هنا تعتبر كتابات اورويل باكملها حتى سنة ١٩٣٧ سلسلة من الأعمال والتجارب حول مشكلة عادية. وينبغي علينا بدلا من ان نقسمها الى «تخيلات» و «وثائقيات» ان ننظر اليها كمسودات باتجاه ابتداع الشخصية الاكثر نجاحا «اورويل». ولربما سوف تكون ناجحة كثيراً لو أنها لم تحيَ بشكل عنيف ومؤلم جدا.

الفصل الخامس

السياسة

كـان الغـرض الاسـاسي من وراء ذهاب اورويل الى اسـبـانيـا «جمع مـعلومـات للمـقـالات الصـحـافـيـة وما شابه ذلك» (مجموعة المقالات والرسائل، ج١، ص٣١٦) .بـيـد انـه اخبر بانه يتـوجب عليـه لكي يدخل الى اسـبـانبـا ان يحصل على اوراق تصـاريح من احدى المنظمات اليـسـاريـة. وكـان الناشر فـيكتـور غـولانز قـد اسس نادي «الكتـاب اليساري» في ايار/ مايو ١٩٣٤ . وتـألفت لجنة الاعـضـاء للنادي من غـولانـز، وهارولد لاسكي، وجـون ستراتشي. وقـد وافق نادي الكتـاب اليـسـاري على نشر كـتـاب «الطريق الى رصـيف ميناء ويغان» في شهر اذار/ مـارس عام ١٩٣٧ بـشرط اضـافـة مـلاحـظة تحـذيرية . وتمكن اورويل عبر ستراتشي من القـيـام بأول محاولة للحـصـول على معاملات الـسـفـر الى اسـبـانيـا، بيـد أن بوليت الشـيـوعي اشترط على اورويل الانضمام الى «الفـرقـة الدوليـة». وقـابل اورويل الامـر بالرفض بسـبب عـدم اطلاعـه على مجريات الامـور في اسبانيا. وبعد ذلك بدأ اتصالاته بحـزب العمال المسـتـقل الذي سبق له ان «اقام اتصالات بسيطة معه»، فـاعطي رسـالة توصـيـة ليـسلمـها الى جون مكنير في برشلونة. وكانت هذه الرسالة السبب الرئيسي في انضمامه الى ميليشيا منظمة «البوم» التي كـان لحـزب الـعمال المـسـتـقـل بعض الاتصـالات بها. وبانضمامـه الى الميليـشـيـا اصـبح مـدفـوعا الى حلبة الصراع السياسي المعقد والمرير بين الجماعـات الاشتراكـيـة. ولكن بعد معرفتنا بما حدث، وخاصة باتصاله الاول ببـوليت عن طريق ستراتشي ،يمكننا أن نقـول إن اورويل لم يسع الى كل هذا. لقـد عـرف عن اورويل انه كـان يتـخـذ موقفا نقديا من النظرية الماركـسية ومن الفاظها الطنانة وتنظيماتها المنقسمة .كما انه قد قال

قبل مغادرته انجلترا في كتابه «الطريق الى رصيف ميناء ويغان» ان الواجب الاول للاشتراكيين- كي يدفعوا فريقا من الناس للتصرف كاشتراكيين- قد تعطل بسبب الاسلوب والمحيط المنفرين. وكان يعتقد ان الاشتراكية تعني معاداة الامبريالية والفاشية والايمان بالمساواة. ولم يكن انضمامه الى الميليشيا «البوم» انضماما بالمعنى السياسي للكلمة؛ فلقد كانت انتقاداته لها وللحزب الشيوعي الاسباني هي نفس الانتقادات التي كان يوجهها للاشتراكيين الماركسيين في انه لم يكن شديد الاهتمام بالفروقات المذهبية في بادىء الامر. لكنه بعد مضي بضعة شهور وبعدما ازدادت معرفته بهم اتخذ الموقف نفسه عند ذهابه للقتال في مدريد، وطلب الحصول على توصية من صديق في الحزب الشيوعي. وبقي يعتقد ،كما قال، أن اهتمامه الاول انصب على المشاركة في القتال حيثما كان يجدي ذلك.اما ظلال المذهب السياسي فكانت ثانوية في احسن الأحوال. «بالنسبة لرغباتي الشخصية المحضة كنت ارغب في الالتحاق بصفوف الفوضويين، بيد ان الخدمة على اكثر الجبهات حسما تأتي قبل كل شيء».

ان اهمية هذه التفاصيل تعود لسببين: احدهما انها تكون سجلاً (وقد اصبح مشوشا جداً)، والثاني أنها تعطي انطباعا صافيا حول اشتراكية اورويل غير العقائدية. وهنا يمكن القول ان الاشتراكية هذه تصبح ثانوية من وجهة نظر اورويل، اذا ما قورنت بالصراع ضد الامبريالية والفاشية وعدم المساواة. وكانت الاشتراكية فكرة عامة واسما عاما ضد جميع تلك المفاسد، وكانت في مضمونها اكثر ايجابية بقليل قبل ان يرحل عن بريطانيا. وزادت تجربة برشلونة الثورية من تصميمه على القتال، اكثر من اي تعاطف ايجابي اظهره في بريطانيا. وكانت المرة الاولى التي يجد نفسه في «بلد تتولى فيه الطبقة العاملة مقاليد الحكم» (وفاء لكاتالونيا، ص٨).

لقد تحولت «فكرته المشوهة عن القتال فيما لو كان ذا اهمية» بفعل هذه التجربة الجديدة. واصبح الانضمام الى الميليشيا يبدو له الشيء

الوحيد الواقعي الذي يمكن القيام به، فبالالتحاق بالميليشيا تزول العديد من البواعث الطبيعية في الحياة الحديثة: الكبرياء والسعي وراء المال والرهبة من السلطة... الخ... حتى ان التقسيم العادي لطبقات المجتمع اختفى لدرجة اصبح معها من غير المعقول ان يجري شيء من هذا في انجلترا ومحيطها المعني بتحصيل الاموال. كانت تلك التجربة بالفعل انجازا سياسيا ضخماً: «كان المرء يعيش بين جماعة يسودها الامل وبعيدة عن اللامبالاة والسخرية، حيث كانت كلمة «رفيق» تحمل كل معاني الرفاقية، وعلى النقيض من معناها الواسع الانتشار كما هي في جميع الاماكن الاخرى... لم يكن احد مرغما على العمل، وكنا نعاني من نقص في كل شيء، بيد انه لم يكن ثمة امتيازات او وساطات كان يمكن للمرء في مناخ كهذا ان يتنبأ بما ستكون عليه بداية الاشتراكية. «لقد كان تأثير هذا الوضع علي قويا بحيث انني اصبحت اكثر الحاحا في رؤية بناء الاشتراكية أكثر من اي وقت مضى» (وفاء لكتالونيا ص١٠٢ـ١٠٣).

او كما عبر عن ذلك باسلوب اشد تأثيرا في رسالة له في حزيران ١٩٣٥ عندما كان يستعد للرحيل من اسبانيا. «لقد شاهدت اشياء رائعة، واخيراً اصبحت اؤمن بالاشتراكية ،وهو ما لم افعله مطلقاً في السابق» (مجموعة الاعمال والرسائل ،ج١، ص٢٦٩). هذا التأكيد امر في غاية الاهمية؛ فخلال تلك الشهور التي قضاها اورويل في اسبانيا، اصبح ثورياً اشتراكياً، ويمكن لمن يتتبع تطوره السياسي ان يرسم خطاً واضحاً لتجربته في سنوات الفقر والتهتك ومنعه من الامتيازات- سنوات الترحال- وبين تجربته في خوض الصعاب المشتركة في برشلونة. ولكن يوجد ايضاً التخلي عن الانانية الشخصية واختيار المصلحة العامة. وقد تحولت تجاربه مع اشد انواع المصاعب قسوة الى انهماك نشيط في النضال لوضع حد لها. لذا ،ومن مفارقات الامور في اللحظة التي اصبح فيها اورويل ثائراً اشتراكيا، حدث ان تورط في صراع طويل وشديد لدرجة يصعب معها تتبع تجربته

وتطورها بشكل واضح- واستمع اورويل خلال اقامته في الجبهة في الاشهر الاولى لعام ١٩٣٧ لمجادلات لا نهاية لها تتعلق بمستقبل الحرب والثورة. وقد كان الوضع معقداً لدرجة انه لم يكن ثمة حدود للجدل. فثمة رأي كان يدعو الى تسخير كل شيء للقتال ضد الفاشيين، بينما كانت وجهة النظر الثانية تقول ان الحاق الهزيمة بالفاشية لا يتم الا بقيام ثورة اجتماعية في الوقت نفسه. وكانت كلتا وجهتي النظر قد اختبرت مرارا في السابق بتفصيل ومرارة كبيرتين. وكان التحرك في تلك المنطقة اشبه بالسير في حقل الغام. وقد التزم معظم المؤرخين بوجهة النظر القائلة إن الثورة التي قام بها النقابيون الفوضويون بصورة رئيسية الى جانب مشاركة «البوم» كانت عبارة عن إلهاء لا طائل منه لحرب يائسة. وذهب بعضهم في ذلك الوقت، وبعدئذ، الى ما هو ابعد من ذلك في وصف الثورة على انها هدم متعمد للجهود المبذولة في دعم الحرب. وايد نفر قليل وجهة النظر القائلة إن قمع الثورة بواسطة المجموعة الرئيسية لقوى الجمهوريين ما هو الا عمل ناجم عن سياسة استخدام مراكز القوى المرتبطة بالسياسة السوفياتية التي ادت بدورها الى خيانة للقضية التي يقاتل من اجلها الشعب الاسباني.

وكما رأينا فان تجربة برشلونة الثورية دفعت اورويل ليصبح اشتراكياً، ولكن تأييده للخط الشيوعي في أغلب الاحيان كان بسبب حالة الفوضى والخمول في الاشهر الاولى على الجبهة. لقد بدا له بالسليقة والفطرة السليمة ان ما كانوا بحاجة اليه في تلك الفترة هو الوحدة والفعالية. والواقع أن اصداء تدريبه الشخصي كضابط في كلية الشرطة الملكية اصبحت تسمع مرات ومرات عندما كان يتكلم عن انعدام التنظيم في صفوف الميليشيا الثورية، ولكن في الوقت نفسه فان تجربته لروحها الثورية والرفاقية العملية كانت فوق كل اعتبار ، وهي كانت قبل كل شيء السبب في انخراطه في القتال. ومن الصعب الاجابة على التساؤل: كيف يمكن حل ذلك التناقض في الدوافع

العـالقـة في ذهنه والتي كـانت تضغط عليه، ومن ذلك ايمانه من خلال مـا درسـه ومـا تدرب عليـه بان الفـعـاليـة قـيـمـة مـعزولة، ومن ذلك الـتـنـاقض ايضـا ايمانه الناجم عن تطوره الاجتماعي خـلال تجـواله في بـريـطـانيـا بالقـضـيـة المشتركـة للمـضـطهـدين. وكـان صـدره يضـيق بالانقسامات السياسية التي اعاقت او منعت شرح قضية المضطهدين. وفي كلتـا الحـالتين كان اورويل ذلك الرجل الذي ينتمي بصورة طبيعية للجـبـهـة الشـعـبـية. وكان معجبا بقناعة الجمهوريين الرسمية. ولكن ايمانه السلبي السـابق بالقـضـيـة العـامـة اصبح اكثر وضوحاً من خلال تجـربتـه الثـورية التي اطلقـته من أسره واصبح يشعر بأنه يعيش في عالم انسـاني جـديد. وعند عـودته الى برشلونة بعد مضي ثلاثة اشهر ونصف وجـدها مـدينة مختلفـة تمامـا، بعـد ان كـانت في كانون الاول من عام ١٩٣٦ مـدينة تكاد تخلو من الفروقات الطبقية وتوزيع الثروة.

امـا الآن فلقـد عـادت الامـور الى سيرتها الاولى؛ فـالاغنياء يملأون المطاعم والفنادق ويلتـهـمـون الوجـبـات الفاخرة، بينما ارتفعت اسعار المواد الغـذائيـة بالنسبة للطبقة العاملة بدون ان يكون هناك ارتفاع مماثل في المدخـول (وفاء لكاتالونيا، ص١١٠). لقـد اخـذ المناخ الثوري في الاضـمـحـلال، ولم ينجم ذلك عن التـغيرات السـيـاسـية فحسب التي ادت الى انهاء وجـود الميليـشـيـا الشـعـبـية واعادة تنظيم الجيش والادارة المركـزيين، ولكن ايضـا عندمـا انفـجـر الصراع على السلطة الذي كان مـتـضـمناً في تلك التـغيرات في مـدينة تبدو الآن طبيعية، فان عواطف اورويل لم تكن مـوضع شك، ناهيك عن أن خـدمته في ميليشيا منظمة «البـوم» جـعلتـه يصبح جزءاً من حركة معلنة غير شرعية وكانت موضع مـلاحـقـة. ان تحليله للصراع يكشف التـعـقـيـدات الكبيرة التي كان ينطوي عليـهـا، وهنا يسرع للقـول ان بوسـعه ان يروي بنفسه فقط ما يشـاهده وان تحليله مـثل اي تحليل اخـر، عرضة للتحيز او الخطأ. بيد أن مـا حـدث له ولرفـاقـه على الجـبـهة كان عشوائياً ووحشياً لدرجة ان اخـتـيـارهم للقـتال كان امراً حتمياً. ولقد اعطيت تحليلات مختلفة عن

بداية قتال الشوارع وعن دوافعه السياسية وما يزال يقدم المزيد منها. كان ما عرفه اورويل او تسنت له معرفته هو أنه جرى تطويق الرجال المرهقين العائدين من الجبهة الى هذه المدينة المقسمة طبقياً، من الحرس والشرطة، بحجة النضال ضد الفاشية. وحسب معظم الادعاءات باسم قضية الاشتراكية الحقة وباسم الشعب، احدثت تلك التجربة جرحاً بالغا لم تندمل اثاره ابداً، ومن المؤكد ان المرء سيسيء الظن به فيما لو التأم الجرح فيما بعد.

ان كتاب (وفاء لكتالونيا) هو، الى حد ما ،من اهم كتب اورويل واكثرها حيوية، فهو بمثابة رواية شخصية تنبض بالحياة عن الثورة والحرب الاهلية. ولكن هذا الكتاب لم يحظ بتقييم رفيع وذلك لاسباب سياسية متنوعة، فقد كانت تحليلاته عن الصراعات المحلية مثيرة للجدل بالضرورة وادت الى مقاطعة الكتاب من العديد من اليساريين، كما قاطعه نوع آخر من القراء أكثر عدداً بسبب التزام اورويل النابض بالاشتراكية الثورية، وهؤلاء كونوا عن اورويل من خلال عمله اللاحق فكرة ثابتة قوامها انه صوت الضياع السياسي والفشل الحتمي للثورة والاشتراكية. وثمة ما يؤكد هذه النظرة في كتابه(وفاء لكتالونيا) في الحديث عن الضياع وعن قمع الروح الثورية. «انها ببساطة مرحلة مؤقتة وذات نطاق محلي جرت في اطار لعبة كبيرة على مستوى العالم كله» (وفاء لكتالونيا،ص١٠٢). ومع ذلك فاننا لا نجد في اي من كتابات اورويل عن اسبانيا ما يوكد أنه خلص الى نتيجة يمكن رؤيتها فيما بعد على انها يمينية. فبالرغم من قمع الحركة الثورية التي كان ينتمي اليها فلقد عاد اورويل الى اسبانيا ثورياً اشتراكيا، وكتب يقول «عندما ارى احد العمال يتخاصم مع عدوه الطبيعي (رجال البوليس) فانني لست بحاجة لان اتساءل مع اي جانب اقف» (وفاء لكتالونيا، ص١١٩) . كانت تراوده الشكوك بالتأكيد كما حدث معه قبيل ذهابه حول ما سماه «الشيوعية البرجوازية» وبنظرتها المثالية للعامل. بيد أنه عندما وقع الصراع

الحـقـيـقي قـام بحـسم مـوقـفـه، وكـان شديد الامتعاض من السياسة الشـيـوعـيـة في اسـبـانيـا ومن تقـارير الاجانب حول الصراع الاسباني. وبقي كـرهه لما اطلق عليـه «الستـالينيـة» مـلازمـاً له باستمرار. ولكن اصبح بعـد خـوضـه للتجربة الاسبانية في موقع الاشتراكي الثوري وهو مـا يـسـمى الآن، اذا مـا نظر اليـه من الخـارج، الموقف المتطرف. ان تحليله للصراع في اسـبـانيـا مـشـابه جـداً لتـحليلاته السابقة للصراع في بـودابست وفي باريس، وهذه التـحليـلات التي كـانت قـد كـتـبت من مـنـطلق ثوري اشتراكي شـديدة المعـاداة للنظام الرأسمالي وللشـيـوعـيـة الارثـوذكـسـيـة. وهذه المرحلة من تطور اورويل اليـسـاري تحـتـاج الى تأكـيـد شـبـه استثنائي. ولربما كان من الامور التي تثير الاهتمام بشكل اكـثـر ان نعـرف كـيف ومـتى تبدل مـوقف اورويل عن مـوقفه خلال السنوات الاخيرة. فـعلى سـبـيل المثـال كـان اورويل يعتقد عندما كتب مقالة «التفاتة نحو الحرب الاسبانية» في عام ١٩٤٢، وبعد انقضاء مدة طويلة على خـلافـاته مع ما سماه الكذب الرسمي للصحافة الشيوعية، أن الفـاشـيـة هي الخطر الدكـتـاتوري الوحـيد. ودفعته الدعاية الفاشية والدعـاية المؤيدة لفـرانكو على صـفـحـات «الديلي مـيل» و «كـاثوليك هيرالد» الى القـول «ان جـوهر مـفـهـوم الحـقـيـقـة الموضـوعـية اخذ في التـلاشي في العالم» (مجموعة المقالات والرسائل، ص٢٥٨ـ٢٩٠).

واوحت اليـه النظرية النازية بمـفـهـوم العـالم الكابوس الذي يسيطر فيه الزعـيم او زمرة حاكمة لا على المستقبل فحسب بل وعلى الماضي ايضاً. فـاذا قـال القـائد إن حادثة ما لم تقع ابدا- حسنا فهي لم تقع؛ واذا قال إن حـاصل جمع اثنين مع اثنين خمسة فـمـعنى ذلك ان مجمـوعها خمسة (مجمـوعة المقالات والرسائل، ج٢، ص٢٥٦). لـقـد جـاءت هذه التـوقعات المباشرة في رواية «١٩٨٤» اساسا كاستجابات لظهور الفاشية ولاعـادة تثـبـيت نظام العـبـودية اللذين شاهدهما يحدثان واللذين وجدا اسـاسا لهما في معسكرات العمل النازية. ليس ثمة ما هو اكثر زيفا من القـول إن اورويل عـاد من اسـبـانيا اشتراكيا واهماً وانه بعد ذلك كرس

جـهده محذراً من مستقبل اشتراكي ديكتاتوري.

ومع ذلك فـان تتبع تطوره الحـقيقي امر صعب بلا شك؛ ففي عام ١٩٣٨ انضم اورويل الى حـزب العمال المسـتقل، واوضح «ان على المرء ان يكون اشتراكـيـاً بالفـعل، وليس مـتـعاطفاً مع الاشتراكية فقط، والا فـسـوف نسـقط فـريسـة في ايدي اعـدائنا النشـيطين (مجموعة المقالات والرسائل، ص٣٣٧). واوضح انه خـلال عشرة اعـوام خلت اسـتطاع ان يفـهم الطبـيـعة الحقيقية للمجتمع الرأسمالي.ومع انه كان يأمل بفوز حـزب العمال المسـتـقل في الانتـخـابات القـادمـة الا انه كان غير واهم باشتراكـيـة الحـزب، ولم تكن لديه نيـة «لأن ينقـاد الى طريق مـفـروشـة بالازهار باسم الديمقراطية الرأسمالية».

وفي عام ١٩٣٨ دافـع اورويل مـرة اخـرى عن الحـركـة المعـادية للحـرب وفي وجه الذين غمزوا بان اللاعنف بديل سهل للمثقفين.

«الواقع ان اي تقـدم ملمـوس، ناهيك عن اي تغـيير ثوري اصيل، يمكن أن يبـدأ فـقط عندمـا ترفض الجماهير بحـزم الحـرب الرأسمالية-الامبرياليـة. . . ومـا لم تظهر الجماهير ارادتها «للدفاع عن الديمقراطية» او «ضـد الفـاشـيـة» او اية شـعـارات براقـة اخرى، فان نفس الخدعة سـوف تنطلي عليـهم مرات ومرات» (مجموعة الاعمال والرسائل، ج١، ص٣٣١).

وعندمـا قـام بمـراجـعـة مـقـالة بركـينو التي نشرت في مجلة «الأممية الشـيـوعـيـة» كتب يقول: «اذا كان لا بد من حل مشكلات الرأسمالية الغـربيـة فـلا بد ان يكون ذلك من خـلال بديل ثالث، اي من خـلال حـركة ثورية اصيلة ترغب في اجراء تغيير شامل وفي استعمال العنف، اذا لزم الامـر، ولكن لا تفـقـد صلتـهـا بالقـيم الاسـاسية للديمقراطية الامـر الذي حـدث مع الشيوعية والفاشية. ان هذا الشيء ليس ضرباً من الوهم؛ فـبـذور هذه الحـركـة مـوجودة في العديد من الاقطار وهي قـادرة على النمو (مجموعة الاعمال والرسائل، ج١، ص٣٥٠).

وكتب في كانون الثاني ١٩٣٩ الى هربرت ريد: «اعـتـقـد أنّ من

الضروري جدا لمن يعتزم منا معارضة الحرب القادمة ان يبدأ في تنظيم نشاطات غير شرعية معادية للحرب. انني اوافق تماماً ان الناس، وخاصة البارزين منهم، بامكانهم الحصول على افضل النتائج اذا ما قاتلوا علنا، ولكن قد يكون امراً عظيم الفائدة بالنسبة لنا وجود تنظيم سري ايضاً (مجموعة الاعمال والرسائل، ج١، ص٣٧٧-٣٧٨).

يقترح اورويل في هذه الرسالة وفي رسالة اخرى ارسلت الى ريد لاحقاً اقتراحات عملية للقيام بنشاطات سرية ضمن وضع سياسي سيضطر فيه معظم اليسار للمقاومة ولا يبقى بديلا معارضاً للفاشية سوى «المنشقين اليساريين من امثالنا». وتساءل في شهر تموز/ يوليو ١٩٣٩ وفي معرض كتابته عن الامبريالية البريطانية «ما معنى الاطاحة بنظام هتلر اذا كان البديل له اقرار نظام اشمل منه بكثير ولكن يوازيه سوءاً؟» (مجموعة الاعمال والرسائل ، ج١، ص٣٩٧) . ومن الجدير بالذكر ان يضاف الى ذلك انه خلال هذه الفترة التي سادت فيها الاشتراكية الثورية المعادية للحرب لم يكن اورويل «تروتسكيا» باللغة التي طالما انتقدها نفسه. وكثيراً ما كان يجادل بأن هذا الوصف كان ببساطة سبابا فالتا، مع أنه هو نفسه سبق له ان استخدم كلمة «ستاليني». ولكنه اوضح خلال تلك الفترة أنه يؤمن بان اخطاء الاتحاد السوفياتي «تعزى الى اهداف وطبيعة الحزب البلشفي»، فكتب يقول: «كان تروتسكي في منفاه يشجب الدكتاتورية الروسية.بيد أنه لربما كان مسؤولا عنها بنفس القدر كأي انسان حي الان» (مجموعة الاعمال والرسائل، ج١،ص٣٨٣).

لم يجد اورويل اثناء محاولته تعريف الاشتراكية الثورية، موطناً تنظيمياً فعالا لها مع انه بقي يؤمن به ويخطط له. وبعد ذلك حدث التغيير بشكل مفاجيء تقريباً. على ان هذا التغيير لم يكن مجرد ردة فعل لبدء الحرب او حتى لاتفاقية ستالين- هتلر. وفي الواقع:

«في الليلة التي سبقت اعلان التحالف الروسي الالماني حلمت بان الحرب قد وقعت، وكان هذا الحلم- وبغض النظر عن التفسيرات

الفرويدية الباطنية التي يمكن ان يحتويها- احد الاحلام التي تكشف لك احيانا عن حقيقة مشاعرك الداخلية. لقد علمني هذا الحلم شيئين، اولاً: علي ان ارتاح عند بداية الحرب المزعجة. ثانياً: انني وطني في الصميم ولن اهرب او اقوم بعمل ضد من اقف معهم، وسأدعم الحرب وسأقاتل اذا وجدت لذلك سبيلا (مجموعة الاعمال والرسائل، ج١، ص٥٣٩).

كانت عودته الى انجلترا قد تمت منذ اذار المنصرم، وتوفي والده في حزيران. وفي المقال السابق الذي يرد فيه الحلم وعنوانه «انها بلادي يمينية كانت او يسارية» تحدث عن صباه عندما وقعت الحرب في الأعوام ١٩١٤ـ١٩١٨ «لقد شعرت بنفسك بانك لم تبلغ سن الرشد بعد، لان الحرب فاتتك». سبق له ان تدرب على حمل السلاح منذ طفولته، كما تدرب في فيلق طلبة الكلية العسكرية، وتلقى بعض التدريب خلال «الحرب الاهلية الاسبانية العظمى». وكتب في مراجعة لمقالة هاري مجريدج «الثلاثينات» في الربيع التالي يقول:

«في الاوقات العصيبة يكتشف الفرد الذي ينتمي الى الطبقة الوسطى انه انسان وطني، ويعود ذلك لنشأته وفقا للتقاليد العسكرية. لا بأس ان تكون «متقدما او متنورا» وتسخر من الكولونيل بليمب وتدعي انك بريء من كل الولاءات التقليدية، ولكن سيحين الوقت الذي تصبح فيه رمال الصحراء مخضلة قانية، وعندها تسأل نفسك: ماذا فعلت من اجلك يا انجلترا؟ انجلترا التي تخصني. انني نشأت على هذه التقاليد، لذلك اجد نفسي قادراً على كشفها من الاقنعة التي تزيفها، كما انني اجد نفسي متعاطفاً معها، فهي حتى في اشد حالاتها غباوة ووجدانية تبقى اكثر رحابة من اعتداد المثقفين اليساريين (مجموعة الاعمال والرسائل، ج١، ص٥٣٥).

يظهر لنا من التوضيح السابق ان تغير اورويل المفاجىء ما هو الا عودة الى التقاليد. وبمعنى ما فان هذا صحيح، ولكنه في ظل ظروف التكيف الجديدة والتي كانت متاحة تقليديا، حدثت له انتكاسة قوية.

وهـذا مـا اوضـحـه مـباشرة في كـتـاب «في جـوف الحـوت» الـذي تلا «الارتفـاع من اجل الهواء» الذي انجـزه خلال صيف ١٩٣٩ . وعندما كـتب يتـعـاطف مع النزعـة السلبـية بالنسبة لهنري ميلر وصفها انها من وجـهـة نظر رجل يؤمن بان حـركة العالم خارج ارادته، وهو لا يرغب، على اي حـال، بالسـيطرة عليـهـا، ذلك ان التـقدمية والرجعية كلتيهما سلعـة مـغشوشة بمنظاره، ويبدو انه لم يبق سوى النزوع الى السكوت- اي سلب الواقع من مـعـانيـه المفـزعة عن طريق الاستسلام له. «ادخل في جـوف الحـوت- او بالاحـرى اعترف بانك في جوفه (لانك في داخله فـعـلا)، اسـتـسلم لحـركـة العالم، وكف عن القتال ضده، او الادعاء بانك تسـيطر على هذه الحـركـة، تقـبله، وتحـمله، وسـجله» (مجمـوعة الاعمال والرسائل، ج١، ص٥١٩-٥٢٦).

هذه هي وصـفـتـه لكاتب في ظل المخـاطر القائمة حينذاك، ولكنها تشير بشكل عـام الى وهن اصـاب عـزيمته. لقد عرض نفسه لمصاعب جمة ومن ثم خـاض كـفـاحـاً شـاقـا، واصيب برصاصة في فمه وهو في اسـبانيا، وانتابه الاعياء الشديد نتيجة لاصابته بداء السل، وبذل الكثير من جـهـده لما كـان يبدو تخوفاً من الوهم السياسي والاكاذيب والخيانة. وكـان يـترتب عليـه ان يقـوم بتـسـويات عـديدة للتـوفـيق بين اسطورة انجلترا وذلك الوهم الاوروبي العـمـيق.

اظن ان هذه الطريقـة في العـرض هي افـضل اسلوب لمعـرفة تطور اورويل السـياسي. وتنطوي معظم كتاباته الصحافية خلال الحرب على طلاوة ولكنهـا وليـست افـضل مـا كـتـبـه، وثمة في انتقاده للاشخاص الـذيـن اتخـذوا او مـا زالـوا يـتـخـذون مـواقـف ممـاثـلـة بـين عـامـي ١٩٣٧ـ١٩٣٩، شيء من المناقـشة الجدلية الحية وقدر كبير من الحقد او السباب احياناً.

كـان يـفـترض فـيـه، في تـلك الظروف الضـاغطة التي تبـعث على اليأس، ان يعرف، »أنه في ذلك شأن شأن الجميع، من الصعوبة أن يعـثـرعـلى اي مـوقف ثابت ونظيف. وكـان يدرك احـيـانا من خـلال

الصراعـات الطائفيـة، واطلاق التـسـميـات والالقـاب على الجماعات «الانهزاميـة»، مـدى صـغـر هذه الامـور وحقارتها. وكتب ملاحظة في يومياته في ٢٧ ابريل / نيسان عام ١٩٤٢ يقول فيها «اننا جميعا نغرق في القـذارة .وعندمـا اتحدث او اقرأ لشخص اخر من الذين يريدون ان يدلوا بدلوهم، فـانني اشـعـر بان الامانة الفكرية، والاحكام المتزنة، قد اختـفت ببسـاطة من على وجـه الكون. ان افكار الجـمـيع مطبـوعـة بالطابع الجـدلي» (مجموعة الاعمال والرسائل، ج١، ص ٢٣ـ٢٤).

يبـدو ان ذلك ينطبق على مقالاته خلال الحرب وعلى مقالات الذين كـان ينتـقـدهم، مع بعض التـحـفظ، فـقد اتسمت مقالاته بمبالغات هسـتيرية في كل اوجـه المبـالغـة والهستيريا المنتشرة. وقام اورويل ولفترة مـن الـزمـن، وبـشكل علني، بالتـوفـيق بين دعـمـه للحـرب ودعـوته لبرنامج، لتـحـويلهـا الى حـرب ثورية، من اجل الحـاق الهزيمة بهتلر وبالنظام الطبـقي الانجليـزي مـعـا، بالاضـافـة الى مـهاجمته المتخاذلين وعمله في هيئة الاذاعة البريطانية BBC بي.بي.سي.

لقـد حـاول ان يبـقي الدعـاية الموجهة للهند نظيفة، كان ذلك املا كـبـاقي الآمـال التي كانت تراوده. ولكن ملاحظة اورويل المميزة تعاود الظهور عندما قام في عام ١٩٤٤ بمـراجعة جميع اخطاء التحليل التي ارتكبـهـا خـلال تلك السنوات بشكل علني فـخلص الى القـول «سواء قـمنا «بمـسـاندة» الحـرب او «بمعارضتها» فان اول ما يجب ان نقوم به هو الاعتراف بأننا جميـعـا مخطئون» (مجمـوعة الاعمال والرسائل، ج١، ص٢٩٤).

ان هذا يشكل على احـد المسـتـويات اعترافا معقولا، وهذا من مزايا اورويل المعـروف بنزاهتـه وصراحـتـه الشـديدتين. ولكن على مـستوى اخـر فـانه يدفع بعنصر يلتحم بخيبة الامل الباطنية، الا وهو القول إن التـفكير السـيـاسي، مـعظمـه او كلّه تقـريبـاً، هو عـبارة عن نمط من التكيف مع نزوات المرء واهوائه. كما كـتب يقول عام ١٩٤٦ :

«ليس من السـهل الايمان ببـقـاء المدنية. . . انني اعتقد أن على المرء

مواصلة الصراع السياسي، تماماً كالطبيب الذي يحاول ان يسعف مريضاً من المحتمل وفاته... لكننا... لن نصل الى نتيجة ابدا ما لم ندرك ان السلوك السياسي هو في معظمه غير عقلاني وأن العالم يعاني نوعاً من الاحتلال العقلي الذي ينبغي تشخيصه قبل ايجاد الحلول له» (مجموعة الاعمال والرسائل، ج١، ص ٢٤٨ـ٢٤٩).

يعتبر هذا الاستنتاج ذا اهمية كبرى في فهم عمله الاخير. وبالتأكيد فانه اعطى بنية فوقية سياسية عليا، العنصر الاساسي في فهمها انها استبدلت الفاشية بالشيوعية كخطر توتاليتاري.

ونظراً لخبرة اورويل وتطوره السياسي فقد كان الامر حاسماً، ووجد في القنبلة النووية نقطة تحول كبيرة: «اما ان نشجبها او انها سوف تبيدنا» (تشرين الثاني ١٩٤٥ ،مجموعة الاعمال والرسائل، ج٤، ص١٩). بيد ان الاشكال السياسية اخذت تتغير، فكتب في عام ١٩٤٢ يقول:

«اخذ العالم الكئيب، الذي يحاول الامريكيون من اصحاب الملايين واتباعهم من البريطانيين ان يفرضوه علينا، في التشكل. ان الشعب البريطاني بجماهيره يرفض عالماً كهذا... وعاطفياً تفضل الاغلبية في هذا البلد ان ترتبط بروسيا على ان ترتبط بامريكا» (مجموعة الاعمال والرسائل، ج٢، ص٢٨٢).

وفي نهاية ١٩٤٧ انعكس الامر وكتب يقول: «اذا ما خيرتم بين امريكا وروسيا فعلى من منهما سوف يقع خياركم؟... لم يعد بمقدورنا ان نقف وحدنا ،واذا ما فشلنا في ايجاد اتحاد اوروبي غربي فاننا سوف نكون مرغمين، في المدى البعيد، على ان نخضع سياستنا لرغبات احدى الدول الكبرى، وبالرغم من كل الثرثرة التي تثار في هذه اللحظات فان كل فرد منا يشعر بداخله بان علينا ان نختار امريكا (مجموعة الاعمال والرسائل، الجزء الرابع، ص٣٩٨).

يكمن تحت هذه التكيفات السياسية خوف عميق من ان العالم سوف ينقسم الى دولتين متفوقتين او ثلاث، تملك كل منها القنبلة

الـذريـة وفي داخـل كـل دولة يسـود نوع من السلطوية او مـا أسماه هو نقـلا عن بوركينو «الجماعة الاوليغاركية اي حكم القـلة Collective Oligarchy» . طبعا هذا هو عالم رواية ١٩٨٤ ، ولـكن من المهم ان نوضح ان اورويل بنى تصـوره للمـسـتقبل، في تلك السنوات الحرجة، وفي ضـوء السـيـاسات التي ترتكز الى القوة، واستمرار الاقتصاد الحربي والـنـزعـة الـسـلـطـوية- وهي تيـارات منتشرة في كل مكان وخلف كل واجـهـة سيـاسـيـة تقـريبـاً- من ثم قـام بمطابقة ذلك مباشرة بالنظام السـوفـيـاتي. لقـد ظل اورويل اشتراكـيـاً ديمـقراطياً بذل معظم جهده السـيـاسي في سبيل الدفاع عن الحرية المدنية على امتداد جبهة عريضة، بيـد أنه في رؤياه العـمـيقة للمستقبل حقق الكابوس ذا الطبيعة العامة، ومن ثم تحت تأثير التـيـارات السـيـاسـيـة لعصره قام بتضييق ابعاد هذا الكابوس بحيث اصبح هو نفسه احد العناصر المكونة لهذه الرؤية.

الفصل السادس

اسقاطات

ابتدأ اورويل يكتب «مزرعة الحيوان» في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٢، وانتهى من كتابتها بعد ذلك بثلاثة أشهر. ولقد رفضها العديد من الناشرين لأسباب سياسية، ومن المفارقة أن يتأخر ظهور هذه الرواية مدة سنة ونصف السنة، فقد كتبت ضد مزاج الرأي العام السائد حينذاك لتظهر في وقت تغير فيه الوضع السياسي وأصبح من الممكن استخدامها في الحرب الباردة.

بقي الكتاب لفترة طويلة من الزمن ملازماً هذا المضمون السياسي الذي ينطوي على المفارقة. ووصف اليساريون اورويل بأنه جرى «يزعق بين أيدي الناشرين الرأسماليين» (المجلة الفصلية الماركسية كانون الثاني/ يناير ١٩٥٦). وبالتأكيد لم يكن هذا حقيقة ما جرى لاورويل في تلك الفترة (إنني اواجه صعوبة كبيرة في ايجاد ناشر لهذا الكتاب، مع أنني لا أجد صعوبة عادة في نشر المواد التي اكتبها).ولا شك أن الكتاب قد استغله أناس لا يتعاطف معهم اورويل، وعندما أتبعه برواية ١٩٨٤ استغلت بدرجة كبيرة، حيث جرى تصوير اورويل بصورة اعتبرها هو مضللة، في الاقل. وبقيت القصة الكاملة لرفض روايته «مزرعة الحيوان» وترويجها تزخر بمفارقات من النوع الذي يهتم به اورويل مباشرة بما فيها الحادثة المتعلقة بالطبعة الخاصة باللاجئين الاوكرانيين، والتي صودر نصفها تقريبا بواسطة السلطات الأمريكية في المانيا وجرى تسليمها للموظفين السوفيات (مجموعة الاعمال والرسائل ج٤ ص٣٧٩).

تعتبر «مزرعة الحيوان» عملاً فريدا من أعمال اورويل في ظل غياب شخصيته. ومن هنا تظهر أهمية هذه الرواية التي احتوت على اسقاط

مـسـتـقـبلي لرؤيتـه للعامل اكثر من أي عمل آخر كتبه. مع ذلك فإن شروط هذا الاسـقـاط كـانت تحـد من وعي الشـخـصـيـة التي ابتدعها اورويل من أجل التـعـامل مـعـه. فـهـو عمل تبسيطي بالمعنى الجيد، والرديء ايضاً، للكلمة.

ووصف اورويل ذات مـرة (الرواية) بأنها سـخـرية لاذعـة (مجموعة الاعمال والرسائل ج٣، ص٩٥). ولكنهـا كانت دوما اكثر خطورة من ذلك، ففي مقدمة الطبعة الاوكرانية نقرأ:

مـا من شيء سـاهم في افـساد المعنى الأصلي لمذهب الاشتراكية أكثر من الاعـتـقـاد بأن روسيا بلد اشتراكي، وان كل فعل يصدر عن القادة السـوفـيـات ينبـغي تبريره بل محاكاته. لهذا السبب اصبحت مقتنعا في السنوات العشر الماضـيـة بتـدمير الاسطورة السـوفـياتية من خلال كتابة قـصـة يسهل على الجميع فهمها، كما تسهل ترجمتها الى لغات عديدة (مجمـوعة الأعمال والرسائل ج٣، ص٤٠٥).

ان الدقـة في تحـديد هدفـه السـياسي والمضي في البحث عن البساطة والشـمـول يحمل في طيـاته بعض التناقضات الحتمية. ولربما كان الأهم من ذلك تشـديد اورويل على تحطيم اسطورة المجـتـمع السـوفياتي والتي كـانت حـسب اعتقاده شائعة بين اوساط اليسار في الغرب. ولربما كان هذا التـوجـه في مـرحلة مـا، يفـوق شـيئاً آخر، اذ انه يواصل في نفس المقدمة قوله:

«حـتى لو امـتلكت القـوة فإنني لست راغـبـاً بالتـدخل في الشـؤون الداخليـة للسـوفـيـات. ولن أقـوم بإدانة سـتـالين وصـحبه لمجرد أنهم اسـتـخـدمـوا اسـاليب بربرية وغير ديمقراطية، فلربما كانوا غير قادرين مـهما كـانـت نـواياهم حـسنة وضـمن الظروف القـائمـة حـينذاك على التصرف على نحـو اخر (مجموعة الاعمال والرسائل ج٣، ص٤).

لا يـوجـد في الـرواية ذاتها شيء من هذا القـبـيل، لا بل إنه لم يكن بوسـعـهـا ان تظهـر على هذا النحـو، لا سيما اذا اعتبرنا انها تشدد على اوضـاع حـقـيقية وظروف تاريخية معينة في رواية نظر اليها وكتبت على

أساس أنها خرافة عامة، أصبح من الممكن دوماً، إن لم يكن مرجحاً، ليس تحطيم الاسطورة الاشتراكية السوفياتية فحسب، بل اسطورة الثورة أيضا. وبالتأكيد جري تفسير مزرعة الحيوان على هذا النحو، واعتبر اورويل «دليلا» ضد الجيل الثوري الجديد. إن احياء الحركة الاشتراكية، وهو ما أعرب عن رغبته بحدوثه، يقابله الشبح الحزين الاخير. ربما كان هذا أمرا حتمياً نظراً للاستغلال الذي تعرض له الأدب من قبل سياسة الحرب الباردة. ولكن ثمة شيئاً أعمق لا بد من مواجهته: الوعي الحقيقي في الخرافة ذاتها. فاذا ما تغاضينا عن الاستغلال الرخيص وما يقابله من رفض مماثل، فإن الخرافة في «مزرعة الحيوان» تقدم دلائل ايجابية وسلبية ذات طابع مشوق ومستمر.

استوحى اورويل بذور الخرافة من رؤية «صبي صغير في العاشرة من عمره، يقود عربة كبيرة تجرها أحصنة في ممر ضيق، وكان الصبي يوسع الأحصنة ضرباً بالسوط كلما حاولت أن تحيد... ووردت في ذهني خاطرة: لو أن هذه الحيوانات اصبحت تعي قوتها لما استطعنا السيطرة عليها. وبنفس الطريقة التي يستغل الانسان الحيوان يقوم الأغنياء باستغلال البروليتاريا » (مجموعة الاعمال والرسائل ج٣ ص ٤٠٦).

هذه الرؤية بالطبع هي من نوع آخر يختلف عن الاسقاط النهائي، فالسرعة التي ينتقل بها في عقد مقارنته بين الحيوانات والبروليتاريا هي من الأمور المثيرة- فهي تعكس ترسبات في تفكيره باعتبار الفقراء كالحيوانات: قوية ولكنها غبية، وبالطبع ينظر الى الرجال، هنا وفي الرواية كمستغلين (بكسر العين).أما البلاشفة الخنازير، في القصة، فاسوأ ما فيهم أنه يصعب تمييزهم عن السكارى والجشعين وقساة القلوب، وأنبل الحيوانات هو بوكسر حصان الشغل.

وفي هذا المجال، يجدر بنا أن نتأمل في ملاحظات اورويل حول «حيوانات» جواناتان سويفت الشبيهة بالانسانHouyhnhnms and

Yahoos يجيء تحليله سريعاً في اظهار قرف سويفت من بني الانسان وتفضيله للحيوان ولكنه يتابع قائلا: بأن الحيوان المسمى Houyhnhnms ، والذي لا يجده جذابا، هو اقرب في مظهره للرجال من الـ Yahoo (*) المنحطة قصدا. وهنا مشاعر غاية في التعقيد. إن الأحصنة القوية، المعروفة بغباوتها، «في مزرعة الحيوان» ينظر اليها بأحترام وشفقة بالغين، أما الرجال الخنازير فهم اذكياء، حذرون، جشعون وقساة القلوب، إن هذا بالتأكيد اكثر من مجرد مقارنة عملياتية، إنها استجابة جوهرية، بل حتى طبيعية.

العنصر الثاني في المقارنة هو الاستغلال. إذا اصبحوا «هم» يعون قوتهم، فلن نقوى «نحن» عليهم. إن اورويل يفكر هنا بشيء يتجاوز حادثة سياسية ما، بمجموعة من العلاقات تتعلق باستخدام الانسان للحيوان وللطبيعة. والنقطة التي يتطرق اليها تعتبر مدهشة بأي مقياس.

«انتقلت الى تحليل نظرية ماركس من وجهة نظر الحيوانات، كان من الواضح انهم ينظرون الى مفهوم الصراع الطبقي في المجتمع الانساني بأنه وهم، والسبب في ذلك هو أنه كلما اتفق على ضرورة استغلال الحيوانات يقف جميع البشر متحدين ضدهم: فالصراع الحقيقي هو بين الحيوانات والبشر. عند الاختلاف الذي تحدثه هذه النقطة يصعب الاسهاب في القصة.

ان الصراع الحقيقي هو بين الحيوانات والبشر: هل يعتبر هذا الموضوع الحقيقي لكتاب «مزرعة الحيوان»؟ تصعب الاجابة بالايجاب دون أن تتهاوى معظم الأشياء التي تطفو على سطح القصة.

الذي يحدث حقيقة، في اعتقادي، هو أنه لم يتم الاحتفاظ بالتطابق العميق جدا بين الحيوانات العاملة والمستغلة (بفتح العين) والفقراء العاملين والمستغلين أيضا، وهذا يحدث دون ان يلاحظه أحد تقريبا، كأساس للكشف عن ذلك «الوهم الخالص... عن الصراع الطبقي بين البشر». والآن فان البشر سواء كانوا رأسماليين أم ثوريين، الطبقة

(*) Yahoo واحد من جنس البهائم له شكل الإنسان وجميع رذائله (في كتاب رحلات جليفر لمؤلفه جوناتان سويفت).

الحاكمة القديمة أم الجديدة، وكائنًا ما تكون خلافاتهم وصراعاتهم، فانه يمكن الاعتماد عليهم في المضي في استغلال المخلوقات التي يعيشون من وراء ظهرها وحتى الاتحاد ضدها، كما هو في نهاية القصة. إن اورويل هنا يتجاوز في معارضته التجربة السوفياتية والستالينية وهنا يجري انكار وعي العمال وامكانية حدوث ثورة حقيقية بطريقة عميقة.

إنني أعتبر هذا النكران لا انسانيا، ولكن جزءاً من مفارقة اورويل انه استطاع أن يبعث من هذا الاساس اليائس انسانية مباشرة وعملية تمثلت في رفاقية المعاناة، التي يشعر بها بعمق، وأيضا، وبدرجة أنشط، ضرب من الشكوكية النقدية تجاه المستغلين (بفتح الغين) ونوع غير متوقع من الوعي الذي يحكي القصة. سبق وأن قلت إن «مزرعة الحيوان» تعتبر عملاً فريداً من بين كتب اورويل بسبب أنها لا تحتوي على شخصية اورويل، ذلك الرجل المنعزل الذي يبتعد عن قواعد المجتمع، ولكنه بعد ذلك يلقى الهزيمة ويتم امتصاصه من جديد. وبالاحرى فإنه يجري اسقاط الشخصية بعمل جماعي: وهذا ما يحدث للحيوانات التي تحرر نفسها ومن ثم يعاد استعبادها من خلال استعمال العنف والحيلة معها.

ان للاسقاط الجماعي نتيجة أبعد، فالذي يحدث هو تجربة عامة، بكل مراراتها، وليس تجربة منعزلة. إن أنين الاعصاب المهترئة، وخيبة المسار الوحيد، يستبدلان باتصال نشيط هو اسلوب السرد النقدي. إن الشقة التي تنطوي على المفارقة، والذكاء الواثق، النشط والمرح، يظهران بالفعل من خلال النفاذ الى تجربة الهزيمة وكشفها. استطاع اورويل من خلال هذا الاسلوب بالذات أن يفصح عن نثر غاية في الجزالة والصفاء. وليس بالأمر الغريب أن تتحول جملة «جميع الحيوانات متساوية، ولكن بعضها متساو اكثر من البعض الآخر» الى لغة عادية تحمل معنى أقوى بكثير من المقطوعة الهجائية البسيطة عن الخيانة الثورية. إنها إحدى العبارات الدائمة حول الفجوة بين الادعاء

والحقيقة، المجاهرة والممارسة، على نطاق واسع جداً.

إن هذا الذكاء الوقاد والمحرر يقوم في مواقع كثيرة من «مزرعة الحيوان» بتحويل الرؤية الأليمة الى نقد عملي وحافز، ويقوم هذا الوعي النابض بالتوصيل والاخبار من وراء تفاصيل المقارنة الموضعية، وبصورة تبعث على المفارقة ومن وراء اليأس الاساسي. وحتى في آخر مشهد حزين عندما تجول الحيوانات المستثناة بأنظارها بين الرجال والخنازير فلا تستطيع التمييز بينهما ثمة شعور يتجاوز الوهم أو اليأس، فهم يكتشفون بأنهم يشبهون بعضهم البعض لانهم يتصرفون بصورة مماثلة، بغض النظر عن الأسماء والرسميات، وهذه اللحظة من لحظات اكتساب الوعي، لحجمها الصغير وبعباراتها المحدودة تفجر طاقة راديكالية تتجاوز المناسبة التي كتبت فيها وتكتسب نوعا خاصا من الديمومة.

إن رواية ١٩٨٤ هي بالبديهة من نوع مختلف جدا، فمنحنى المشاعر المنعزلة، والكشف الممزق والمنهوك، قد عاد بصورة حاسمة. مع ذلك فما تزال هناك عناصر عديدة من الرواية تنتمي الى وعي أكثر تحررا. إن الملحق Appendix Newspeak «قواعد الكلام الجديدة» ، لم يدخل بأكمله في العالم الخيالي، بيد أن استيعابه الأساسي كعلاقة بين الاشكال اللغوية والاجتماعية قوي جداً: إن الوظائف الخاصة لبعض كلمات هذه القواعد ، ومن ضمنها «التفكير القديم» ، Oldthink لم يقصد منها التعبير عن معنى بالقدر الذي قصد منها تحطيم ذلك المعنى (١٩٨٤ص، ٣١١)، وبعض كلمات اللغة الجديدة-prolefeed speed-wise sexcrime غذاء البروليتاريا، على طريقة السرعة، جريمة جنسية- اصبحت بعد مرور عقد، ذات وقع مألوف ومشؤوم. كذلك بالنسبة لاسماء الدوائر الحكومية الاخرى في Newspeak مثل وزارة الحقيقة Minitrue، وزارة السلام ، Minipax وزارة الحب Miniluv، ووزارة الوفرة Miniplenty.

إنني أتوقع أن يعجب اصحاب حقوق كتاب Minitech

باورويل، بيـد أنهم لو قـرأوه فإنهم لن يفـهـمـوه بالتأكـيـد. إن معظم رطانة التحديث - Modernization - ذلـك البـديل غير الطبـيـعي للديمـقـراطيـة الاجتماعية التي تبنتها حكومات العمال البريطانية وقامت بنشرها في السـتينات، تندرج تحت اللغـة الجـديدة. كـذلك فإن بعض الأسـاليب المسـتـخدمة في إدارة الأخبار لها وقع مماثل ومألوف. ان دائرة القـصص الخـيـاليـة، كـمـؤسسة، بالكاد تكون موجودة الآن. وعندما يقـوم وينسـتـون سـمـيث بوصف لأحـد افلام المهرجانات النموذجية- القت الطوافة بقنبلة تزن ٢٠ كلغم فظهـر ضـوء رهيب، وتحطم القارب بحـجم ثقـاب الكبريت، ثم تلا ذلك لقطة رائعة لذراع «طفل تعلو الى فـوق في الهواء»، ولا بد أن طوافـة تحـمل كـاميرا في مـقـدمتها هي التي التقطت الصورة ١٩٨٤ ص١٢- يبـدو سـميث وكأنه قد شاهد افلاما عن فـيتنام: ووحده وزن القنبلة جرى سوء تقديره بطريقة عبثية.

كـذلك فـقد شق فيلم «الأخ الأكبر يراقبك» وبشكل مختلف طريقه نحـو اللغـة العـادية، واصـبح شـعـاراً للمـقـاومة المشككة. لقد نجح اورويل بهذه الطرق البـسـيطة والقوية في توضيح عناصر معينة بارزة في الأزمـة الاجـتماعية الطويلة التي نعاني منها. وهو يبقى، بعداوته الصلبة لكل انواع جرائم الفكر thoughtcrime وازدواجية التفكير Dou-blethink حميا وحيويا.

ان نظرته للسـيـاسـات المرتبطة بالقـوة تعـتبر نظرة محكمـة ومقنعة. وحـصل تبادل المواقع بين «الحلفاء» و «الاعداء» الرسميين بصورة علنية تقـريبـا، ابان الفترة التي مـارس فـيها الكتابة. وكانت فكرته عن العالم المنقـسم الى كـتل ثلاث المحـيطات، اوراسـيا، وشقي آسيا حيث تكون كـتلتـان في حـرب دائمة مع الكتلة الثالثة- فكرة سديدة. وثمة اوقات يعـتـقد فيها المرء «أن ما كان يسمى بانجلترا أو بريطانيا» اصبح ببساطة المهبط رقم ١.

وهـنا يصـبح من الضروري أن نسأل لماذا تحـدث أشـيـاء أخـرى في اسـقـاطه بصـورة خـاطئة بعـد أن أصـبـحت هذه العناصر مـفـهـومة،

بخطواتها العامة على الأقل. إن نموذج اورويل المقتبس عن المجتمع الشيوعي السوفياتي المنضبط والعسكري هو أمر ذو دلالة، وهو يتضمن عناصر تفصيلية تتعلق بماضي المجتمع والصراع بين ستالين وتروتسكي (الأخ الأكبر وغولد ستالين).إن ايديولوجية المهبط رقم١ هي الديمقراطية الانكليزية English Socialism او Ingsoc .

وعندما راج الكتاب في الولايات المتحدة اضطر لأن ينشر كلاما ينكر فيه ذلك وينسبه لحكومة العمال التي تولت الحكم بعد الحرب.

ان روايتي الأخيرة لا تهدف الى مهاجمة الاشتراكية أو حزب العمال البريطاني (الذي ادعمه) بقدر ما تهدف إلى إظهار الانحرافات التي يمكن أن يتعرض لها الاقتصاد المركز والتي ظهرت جزئياً في الشيوعية والفاشية (مجموعة الاعمال والرسائل ج٤، ص٥٠٢).

اذن يمكن القول ان الاشتراكية الانجليزية عند اورويل لا تمثل الاشتراكية الانجليزية الحقيقية . مثلما ان Minitrue لا تمثل وزارة الحق، بيد أن التطابق حصل فعلا وكانت آثاره شديدة الضرر، ليس بما تقوله حول المجتمع السوفياتي- فموقف اورويل واضح وثابت في هذا الصدد- وانما بما لمح عنه بشكل عام حول الاشتراكية والاقتصاد المركز . وهذا يتصل باكثر الاخطاء وضوحاً في اسقاط اورويل، وهو أن اقتصاد الحرب الدائم والمضبوط بال ولا يسد الحاجة. ان العلاقات البنوية التي يمكننا أن نراها الآن، بين الاقتصاد الحربي وبين تحقيق الوفرة الاستهلاكية، تتجاوز التطور التاريخي الذي عجز اورويل عن التنبؤ به.

انها تشير لبعض الحقائق الاجتماعية التي اصبحت هاجساً بالايديولوجية، والتي لم يضعها نصب عينيه.

ثمة أسباب وجيهة تبرر السبب في عدم تنبؤ اورويل برأسمالية عسكرية تنعم بالوفرة، أو بعالم مكون من شركات دولية تعمل بالداخل والخارج، تماما كالحزب الذي توقع قيامه. ولكن كانت لديه اوجه الاسباب- من خلال تجربته المؤثرة- لمعرفة أن البوليس

السياسي، مثلا، لم يكن بدعة اشتراكية او شيوعية، كذلك الأمر بالنسبة للدعاية او الرقابة او العملاء المحرضين. إن الصاقه جميع الاشكال الحديثة للقمع والرقابة التسلطية بنزعة سياسية بمفردها لم تجعله يسيء تقديمها فحسب، إنما قطع الطريق أمام تحليل كان بوسعه أن يكشف هذه القوى اللاانسانية والمدمرة اينما ظهرت، كائنة ما تكون اسماؤها وايديولوجيتها التي تتقنع بها. بالتأكيد فانه من قبيل ازدواجية الفكر الآن ان نظن ان المصدر الوحيد لهذه العناصر هو شكل من الاشتراكية مثلها انها جريمة فكرية تستطيع ان تمنعنا من رؤية عبارة دعاوية مثل «العالم الحر» كمثل واضح جدا للغة الجديدة. إن عملية الاسقاط الاورويلية عن عالم مميز وواضح قد سببت لنا الارتباك في معرفة بنياته، وايديولوجياته وامكانية مقاومته.

وتكتسب النقطة المتعلقة بالمقاومة اهمية ابعد عند تذكرنا لعمل اورويل المبكر، ولا شك انه ثبت زيف اسقاطه، حتى على اكثر المستويات عمومية، وبقي العديد من النساء والرجال يحتفظون بشجاعتهم بالرغم من القيود القاسية والظروف الشاذة وهبوا في محاولة لتحطيم النظام أو تغييره.

وبامكاننا ان نسجل تجارب برلين، بودابست، الجزائر، عدن، وواتزفيل Wattsville في هوامش سلبيات اورويل. وكان بوسعه شخصياً أن يكتب عن سانت بطرسبرغ، كرونستادت، برشلونة، ووارسو. ومن الصحيح ان نعترف بأن معظم الانتفاضات منيت بالهزيمة بيد ان اورويل يذهب الى ابعد من ذلك ليقطع الامل. انه يصور الشعور باللامبالاة عند جميع المضطهدين (بفتح الهاء) وهو شعور مختلف ان كان ثمة شعور اصلا.ان ٨٥٪ من السكان هم من الجماهير اللامبالية، وان اطلاق كلمة (بروليتاريا) عليهم يتجاوز الكلمات الحزبية الطنانة... ان الحزب ينظر اليهم بانهم «وضيعون بالطبيعة... مثل الحيوانات» ولكن كيف ينظر اليهم اورويل؟ كحشد صاخب وغبي يطوف بالشوارع، يحتسون الخمرة ويقامرون وهم مثل

«النملة التي بمقدورها ان ترى الاشياء الصغيرة لا الاشياء الكبيرة» و «أناس لم يتعلموا التفكير مطلقا». ان عالم الشغيلة، قبل ١٩١٤، كما كان ينظر اليه تلميذ في المدرسة الاعدادية: «بالنسبة لي في صباي، وبالنسبة لمعظم الاطفال الذين هم من عائلات مشابهة لعائلتي فان الناس العاميين، كانوا يبدون لنا دون البشر تقريباً» (الطريق الى رصيف ميناء ويغان ١٢٧). ولكن في تجربة اخرى فان عالم هؤلاء «دون البشر تقريبا» كان ينظر اليهم، في لحظات ارتداده عن طبقته، كأمل المستقبل، ومخلصين ينظر اليهم «بتبجيل صوفي» و «اناس لم يتعلموا التفكير مطلقا ولكنهم كانو يخزنون في قلوبهم وبطونهم وعضلاتهم القوة التي ستقلب العالم يوما»، ١٩٨٤، ص٢٦٦. «في يوم ما سيخرج من بين هذه الاسود الجبارة جنس من المخلوقات الواعية» ١٩٨٤، ص٢٢٧.

ان هذه الرومانسية الثورية الساكنة مهينة كالملاحظة الأصلية. انها انتفاضة الحيوانات، كما ورد في الخرافة. «وهي تبدو معقولة لدى كتابتها، اما عندما نظرت الى المارة على الرصيف فانها اصبحت فعل ايمان». ومهما كانت المرارة ينبغي القول ان طغيان ١٩٨٤ اذا ما ظهر يوما، فان احد العناصر الرئيسية المكونة لولادته الايديولوجية سوف تكون هذه الطريقة في النظر الى «الجماهير» و «البشرالذين يتجاوزونك على الارصفة» و الى حثالة القوم الذين يشكلون ٨٥٪ من الجمهور. ولن يأبه احد ممن ينتمي الى تلك الأغلبية أو ينظر اليها كبشر فيما لو ان الشخص الآخر ينظر اليها كحيوانات ينبغي اخضاعها او كمخلوقات عديمة التفكير سيخرج من صفوفها اسود جبارة، في المستقبل، ان الانسانية الناقصة ستبدو واضحة جدا بالنسبة للملاحظ المؤمن نفسه.

هذه هي الطريقة التي تسير فيها الأمور سياسيا. لقد رأى اورويل بوضوح عالم القوى السياسية، اما «مئات الملايين من الحمالين المبخوسي الاجر الذين يعملون بكد» ويسكنون «في منطقة مربعة بين

طنجة، وبرازافيل، وداروين وهونغ كونغ» فهم ايضا يتسمون بالسلبية (١٩٨٤ ص١٩٢) «ولولا انهم لم يكونوا موجودين، فان بنية المجتمع العالمي، وطريقة محافظتها على ذاتها، لن تكون مختلفة بالضرورة» (١٩٨٤/ ص١٩٣).انها سوء تقديم مروع ليس بحق اولئك الناس فحسب، وانما لبنيات الاستغلال التي يحافظ من خلالها على الدول الحاضريةMetropolitan States وقد أدى النظر الى الصراع وكأنه يجري بين فئة قليلة لقيادة الجماهير، غير المكترثة، الى جعل اورويل يخلق ظروف الهزيمة والخيبة.

يمضي اورويل في استخفافه بالأمور، فقد شاهد اناسا يعودون الى اسبانيا تحت ظروف التهديد بالاعتقال بسبب ولاءاتهم الخاصة والعامة، وشاهد مئات من حالات الاعتراف القسري. لقد بقيت زوجته في برشلونة، وكانت ترقد في فراشها بينما كان البوليس يقوم بتفتيش حجرتها، وذلك كي تبقى بقربه ولمساعدته، ولكن مع ذلك يكتب اورويل:

«تحت ظلال شجرة الكستناء الوارفة

تخليت عنك وتخليت عني».

إن بوسعه ان يصف ذلك بدقة على انه «ملاحظة غريبة، مدوية، منكرة، وساخرة... ملاحظة حقيرة» (١٩٨٤/ ص٨١) لكنها تبقى مع ذلك من صنعه. ان الجلجلة الساخرة المنبعثة عن سباق الفئران، والتي سمعنا مثلها في مكاتب وحفلات الوكالات تقود رأساً الى كابوس الفأر في غرفة ١٠١ ، وبالطبع فإن الناس ينهارون امام التعذيب ولكن ليس جميعهم، وفي ظل عالم قذر وظالم ثمة اشكال اعمق للمقاومة الشخصية كما اتسع لاورويل الاسباب لان يعرف ذلك- من خلال العلاقة المؤقتة بين وينستون وجوليا.

وتعتبر حملة الحزب ضد الجنس من أغرب العناصر المكونة لاسقاطاته (اما كونها تبدو وكأنها اخذت من مسرحية زامباتين «نحن» فهي مسألة واردة ولكنها ثانوية). ان هدف الحملة هو منع الولاءات

غير المكبوحة واكثر من ذلك «ازالة اللذة بأكملها من الفعل الجنسي».
ومثل هذه الحملات كان موجوداً من قبل، مع أنه في بعض النظم المستغلة (بكسر الغين) كان يمكن تحقيق الغرض الاول عن طريق نوع من التجربة العكسيةللغرض الثاني: فالحصول على اللذة بدون الولاء من الاشياء المرغوبة والتي لها وجود قائم. ومن الغرابة ان اورويل استطاع معارضة القيود والتحفظات عن طريق الاكتفاء بالعلاقة الغرضية بين ونستون وجوليا فحسب، وهذا يبدأ كرحلة الجماع في رواية «دع الدريقة مرفرفة»، ولكنها بعد ذلك تبتعد في الحال عن أي تجربة شخصية متبادلة الإحساس.

خفق قلبه، لقد فعل ذلك عدة مرات وكان يتمنى لو كانت مئات المرات- بل آلافها. وكانت اية ايماءة بالفساد تملأ نفسه دوماً بالآمال العريضة (١٩٨٤/ ص١٢٩).

لم يجر تقديم الحب العادي والمستمر بين الرجال والنساء، في الصداقة والزواج، كشيء معاكس، على الرغم من كونه جزءاً من ذلك العالم غير المرح وانما الذي قدم الفساد واللامبالاة المقصودة- مجرد الرغبة غير المميزة، كان زواج ونستون بمثابة روتين بارد وبائس، فقط بشيء من الفساد يمكن للذة أن تحصل.

ولربما تكون هذه من اعمق الاخفاقات في رواية «١٩٨٤» فجميع المنابع العادية للحياة جرى استبعادها واهمالها كالبروليتاريا، اذ يتحد الوهم الوحيد حول «الاسود الجبارة» في المستقبل مع التخبط الوحيد للمراهق الذي يثقل عليه الشعور بالذنب بسبب ممارسة الجنس لدرجة يصبح فيها ارتكاب الفساد ضروريا للحصول على اللذة. إن شخصية وينستون سميث ليست شخصية الرجل على الاطلاق- سواء في وعيها، في علاقاتها، في قدرتها على الحب والحماية والجلد والاخلاص. إنه يقع في اسفل السلم- الأقل خبرة وذكاء واخلاصا وشجاعة من صانعه- الذي يتم من خلاله.

ان مسألة الرؤية المستقبلية في رواية «١٩٨٤» ليست مسألة مجردة

تتعلق بالتحول من تفاؤلية ميرسير او ويلز الى تشاؤمية هكسلي او اورويل. ان التفاؤل او التشاؤم المجرد هما بعيدان بالدرجة نفسها عن النقطة المقصودة، وثمة قاعدة منطقية للنظر الى المستقبل بشكل تعميمي يكون اما مظلماً وإما مشرقا. إن ما هو اكثر اهمية من المزاج العام المفروض هو مقدار التجربة التي تستقي منها الاحكام. اما الوعود والمحاذير التي تحد من التجربة فهي ذات اهمية محدودة.

وهكذا فان السؤال حول «١٩٨٤» كما هو بالنسبة لروايات اورويل السابقة، هو لماذا قام اورويل بخلق حالات واشخاص هي بالمقارنة مع ملاحظاته الخاصة المكتوبة تبدو احادية الجانب وتصميمية. وهذه اساسا مسألة سياسية وانما مسألة تجربة اكثر امتدادا بالنسبة لذات المجتمع.

ولقد تحركت تلك المشاعر الأضعف والأقل وعيا تحت قوة وشعور شخصيته الناجحة الوحيدة «اورويل»، ذلك الرجل الحي جسمانياً وعقلياً الواعي والقاسي والمثابر- في ارض حالمة لا تمييز بها. ان الاهمية المركزية لا تكمن في التناقضات الشخصية وانما في البنيات الاعمق للمجتمع وآدابه. وعندما قام اورويل بصنع اسقاطاته فقد عبر عن أشياء تتجاوز ذاته.

الفصل السّابع

خطوات مستمرة

اصبح اورويل بعد وفاته بقليل شخصية رمزية بالفعل، فقد كان من اولئك الرجال الذين تطابقت حياتهم وكتاباتهم عبر الممارسة وقدموا نموذجاً يحتذيه الاخرون في اسلوب حياتهم وفي كتاباتهم. ومن السهل ان يقال إن ذلك يرجع لكونه انساناً واهما، نظيفا، بسيطا، ومعاديا للشيوعية. وبالطبع فان ترويج هذه الصورة قد حصل. بيد ان معظم الناس الذين قرأوه لم يلتفتوا الى ذلك ،وانه لامر ذو دلالة ان لا يقتصر عدد الذين كانون يكنون له الاحترام على الناس الملتزمين بالتغيير الجذري الاجتماعي والذين كانوا يستخدمون اوهام اورويل كغطاء لهم. فقد كان بوسع العديد من هؤلاء، وآخرين غيرهم ممن لم يطلب منهم حتى معايشة هذه العملية، ان يأخذوا اوهام اورويل صافية، بيد أنه يوجد عدد مماثل تماما ممن شرعوا بالتزامهم السياسي معه على آرائه حول الستالينية والامبريالية والمؤسسة الانكليزية، والذين صنعوا سياسات اشتراكية جديدة انطلاقا من شعوره بالفشل.

ثمة خط واضح، بالتأكيد، برز من خلال رواية «في جوف الحوت» ورواية «١٩٨٤» ،يسود فيه مزاج شمال اطلسي وتتجسد فيه جميع المعتقدات الانسانية والبنّاءة، وخاصة الايمان بالتغيير الجذري الذي يمكن ادراكه سلفاً اما كاسقاط لنوع من عدم التكيف الشخصي، واما كمثالية عديمة التجربة مراهقة وساذجة، والتي بالرغم من ارادة ورؤية اصحابها فانها تعود عملياً الى دكتاتورية يحضر لها دوما عناصر اكثر فسادا من خلف واجهة تبدو بريئة ظاهرياً. ولا تزال هذه الشروحات والتحذيرات تقدم بصورة واثقة للحركات

الطلابية في السنوات الاخيرة، مقرونة باسم اورويل احياناً. مرة اخرى ثمة خط واضح له علاقة معينة بذلك بالتأكيد، يفصل بين تفكير اورويل الاجتماعي في «الاسد ووحيد القرن» ومقالات مشابهة للتحريفيين في صفوف حزب العمال البريطاني في مرحلة الخمسينات والستينات. ان تعريفهم للاشتراكية على انها السعي نحو تحقيق المساواة له وقع تقليدي، وانما ذو دلالة اكثر ايجازا ومعاصرة، فما كان يفهم على انه اقتصاد اشتراكي جرى «كما يجادلون» ابطاله عن طريق نمو مجتمع صناعي وافر.

وبرزت لا طبقية جديدة من بين صفوفه سوف يتم تثبيتها من خلال خطوات الاصلاح العملية الاجتماعية. وحسب تعبير اورويل فان «الافراد غير المناسبين في الاسرة» والعناصر «الاقطاعية» او «الارستقراطية» سوف تستبدل برجال جدد و «بريطانيا الجديدة» وعندئذ تصبح الامة اكثر مدنية واكثر انسانية واكثر ازدهارا بشكل عام وعادل تماما كما كان ينادي اورويل منذ ان كتب «الطريق الى رصيف ميناء ويغان». وهذا يرتبط بالمشاعر التي يكنها الراديكاليون الذين لم يكونوا متورطين مباشرة بالنقاشات السياسية التي كانت تدور حول اعتبار اورويل، على عكس الكتاب الاشتراكيين الاخرين، قد فهم الحياة الانكليزية: وتيرتها وتسامحها ومقتها للتجريدات ولأيّ نظرية تدعو للتطرف. انها نوع من الحياة معقول ومتواضع وشريف، واي تغيير متسرع او كبير يسبب لها الاهتزاز او يعرضها للخطر، ولكنها لا تزال اساس الاشتداد المتواصل للعيش الانساني والمسؤول.

بوسعنا ان نسمي تلك الآراء والاطوار ميراث اورويل، ولكن عندئذ تبرز الاهمية لنظرة الاجيال نحوه والتي كان ملؤها الاحترام، وهي الاجيال التي اعتبرت السويس والمجر والقنبلة الذرية مؤشرات لتجديد العمل السياسي، وهو جيل لم يؤمن بالحركة الاشتراكية الجديدة فحسب، وانما بحركة تقوم على الاضطراب ـ اي على التظاهرات والعمل المباشر وعلى سياسة الشارع والمحليات. وقد

احترم هذا اليسار الجديد اورويل بصورة مباشرة لا سيما في السنوات المبكرة. وكان احتلال السويس تجربة واضحة على وجود الامبريالية البريطانية التي طالما هاجمها باستمرار.

وجاءت الثورة المجرية بمثابة انتفاضة شعبية اشتراكية ضد نوع من الشيوعية البيروقراطية والمتوسطة، لتثبت قوله السابق حول الستالينية وهي تشكل في الوقت نفسه تظاهرة للحركة الاصيلة التي دفع عربون وفائها في كاتالونيا. كان الخطر من القنبلة «التي إما ان نشجبها او انها تقوم بتدميرنا» لا يقتصر في نظره على كونها السلاح الذي سيدمر المدنية، وانما لانها تكون الظل الذي ينمو ويمتد من خلاله نوع جديد من اقتصاد الحرب التسلطي. ومن ثم يرتبط بتلك المواقع السياسية بشكل وثيق اورويل الذي كتب عن العمل والفقر والثقافة الشعبية واورويل الذي حاول ان يحيا ويشعر مثل اغلبية الشعب الانجليزي، فكان مراسلا متفهماً ويكن الاحترام متجاوزاً بذلك حدود حضارة «المؤسسة»، وهذه العناصر البارزة في اليسار البريطاني الجديد هي ايضا ميزات اورويل الفعال.

ما نوع تلك الظاهرة اذن التي يظهر فيها الشخص نفسه والكاتب نفسه مثل تلك الميول المختلفة وتنشده وتحترمه جماعات متعادية؟ ومن السهل ان يبدأ خصام حول ميراث اورويل، بيد ان ذلك لن يكون مفيداً، فيكون بمثابة تمزيق للجسد او للمظهر الخارجي لشخص او لاسلوب يهدف الى تبجيل خلفائه المحسوبين، ولا يمكن اجراء اي تحليل مفيد في هذا الصدد، وقد حدث الكثير منه في كل شيء ابتداء بالحكايات وانتهاءا بتقمص الشخصيات. ان عبارة «الاب عرف جورج اورويل» هي موال قديم وكاذب.

كذلك لن يجدي نفعا اجراء تحليل مختزل، وسوف يكون من السهل القول إن تلك الميول المختلفة يمكن تفسيرها باتباع التسلسل الزمني: ففي الثلاثينات اورويل الاشتراكي، وفي الاربعينات اورويل الرجعي، وبين الفترتين اورويل الراديكالي. بيد انني تفحصت كتاباته بدقة،

اخـذا في الاعـتـبـار هـذا الـتـفـسير، وانني على يقين بانه لن ينفع. ان الدليل على كل مـوقف من هذه المواقف يمكن اسـتنتـاجـه من كل فترة من تلك الفترات، وبالطبع بالرغم من وجـود اخـتـلافـات في الاهمية. هناك المعـادي للامبرياليـة في بداية الثـلاثينات، والثـوري الاشتراكي في نهاية الثـلاثينات، وكـاتب المقـالات الراديكالية في نهاية الثلاثينات وفي الاربعينات.

مع ذلك فـاننا نجـد خـلال تلك الفترات نفـسـهـا انماطا للهزيمة، وشـخـصـيـة الـرجـل الـشريف المنعـزل الذي تجـاوز في رؤيتـه الكلام الاشـتراكـي وتكاثر الاسـاطير حـول انجلترا. او اننا نجـد النبي المضلل المتألم في الاربعـينات الذي رأى في النجـاح خـدعـة وفي الثـورة هزيمـة للنفس، بيـد ان هذا الرجل نفـسـه كـاتب المقالات الراديكالي في مجلة تريبيون Tribune الذي ينشط لا في الدفـاع عن ضـحـايا السـتـالينية فـحسب، وانما ايضاً في الدفاع عن «الحركات المدنية للمواطنين ايا كانوا في الامبراطورية البريطانيـة». وهو الى جانب ذلك، ناهيك عن شكوكه وتحـفظاته، رجل مـتـهـم بافـشـاء اسرار ذرية للاتحاد السوفياتي (مجموعة الاعمال والرسائل، ج٤، ص١٩٧-٣٧٧). ان مـرور اورويل بمـراحل مـتطورة لهو امـر واضـح جـدا، بيـد انه عرف التناقضات نفسها في كل فترة.

ان القـيـام بتـحليل مختـزل من خـلال دراسـة الكتـابة قـد يبدو من جـديد امرا معقولا، ولكنه لن يجدي حقيقة. انني لاحظت ان معظم الراديكاليين يفـضلون مـقـالاته وكأن مـقالات «فن دونالد ماكجيل» او «ديـكـنـز» او «كـيـف يـمـوت الفـقـير»أو «رافلز والانسـة بلانديش» هي بطريقـة مـا اهم أعماله. انني معجب بهذه المقالات وبالعديد منها، بيد انني لا اؤمن ان بالامكان عـزلها عن عـمله الآخـر، وان تقـييد اورويل بتلك الاعمال يجعله يبـدو اصـغـر بكثير مما هو في الحـقـيـقـة، ولنأخذ الـروايات، ومنهـا «الارتفـاع من اجل الهواء». لقـد كـان لهذه الروايات اثر أكبر بكثير مما جـرت ملاحظته بشكل عام، والواقع انه يمكن للمرء

ان يقول إنها خلقت اسلوب الرواية الانجليزية المنساق ضد البطل الذي ساد في الخمسينات، بالرغم من ان تلك الروايات كانت تقوم على مصادر متباعدة مثل ويلز وجويس وجيسنغ وسومرست موم، بيد أن النقطة هي ان جميع الميول المتناقضة موجودة في الروايات: الاسلوب العامي وتلمس الحياة العادية ولكن الى جانب ذلك ايضاً انماط الهزيمة، وكره النفس، وذلك السباب العام الذي يغطي الانهماك. اما في المجلات والتقارير فغالباً ما يوجد موقف اقوى واكثر ثباتاً، بيد أن بعض الالتباسات السياسية تظهر في كل شيء تقريباً باستثناء رواية «وفاء لكاتالونيا». ان عملية خلق اورويل- الملاحظ النزيه- هي اكثر نجاحاً من خلق الشخصيات الخيالية، بيد أنه يبقى علينا ان نفسر التناقضات في الوعي المركزي.

وبالتأكيد، فان التناقضات، وتعتبر من مفارقات اورويل، ينبغي ان ينظر اليها على اساس انها فوق كل اعتبار. فعوضا عن تسطيح التناقضات عن طريق اختيار هذا الاتجاه او ذاك على انه «اورويل» الحقيقي او تفتيتها عن طريق فصل هذه الفترة او ذلك المذهب، ينبغي علينا القول ان المفارقات هي الشيء المهم في النهاية. ولن يكون اي تفسير مبسط لها منصفا لرجل بمثل ذلك التعقيد (انه اكثر تعقيدا لانه يبدو على السطح بسيطاً جداً). اما بعض المفاهيم التي نحن بحاجة لها لاجراء اي تفسير كامل فقد لا تكون بمتناولنا بسبب الاشياء التي تجمع بيننا وبين اورويل وتشكل نوعا معينا من الضغط التاريخي، وتركيبا معينا من الاستجابات، والاخفاقات على الاستجابة، بيد أنه يمكن اقتراح نقطتين.

الاولى: هي ان المدخل لاورويل كفرد هو مشكلة هويته. ان ثقافته واكتسابه لوعي من نوع معين جعلت المفتاح لتطوره الكلي هو انه تخلى عن هويته او حاول التخلي عنها وانه قام بسلسلة كاملة من المحاولات لايجاد هوية اجتماعية جديدة. وبسبب هذه العملية نجد ان لدينا كاتباً استطاع بنجاح ان يكون عدة اشياء قد لا تكون في مسار طبيعي: فهو

ضابط بوليس امبريالي، وهو ثوري من رجال الميليشيا، مثقف منسلخ عن طبقته وكاتب انجليزي من الطبقة الوسطى. تكمن قوة اعماله في قدرته على نكران الذات وفي انه كان منفتحا بشكل نادر على كل نوع جديد من التجارب عندما كانت تحصل. لقد سرت فيه انواع مختلفة من الحياة تمر بقدر قليل من الرقابة في هويته القائمة، ويظهر الاسلوب الذي طوره- بساطة مدروسة (مع جعل المعني يختار الكلمة). انه كان يرحل دوما بجدية، ولكن بخفة ايضا. ان هذه الصفة يمكن ربطها برغبته في التخلي عن مواقفه وتجاربه المبكرة وبالكتابة عنها- او حول اخرين هم الان فيها، بازدراء او غضب وكأنهم كانوا شيئاً اخر منفصلا تماما. مع ذلك ففي فترة تتميز بالحركة بشكل استثنائي كان لذلك آثار ايجابية وعناصر سلبية ايضاً. كان بوسع اورويل ان يتصل عن قرب وبانواع مختلفة من الناس تماما بسبب تحركه الدائم وتظاهره بادوار بشكل متلاحق وجدي. وعندما يكون في وضع ما يكون منهمكا فيه لدرجة يبدو معها مقنعا بشكل غير عادي، ويسهل نوع كتابته للقارىء أن الامر يحدث له شخصياً. ان غياب الجذور يعني ايضا غياب العوائق.

يمكننا القول إن تلك هي «القدرة السلبية» للكاتب التي كتب عنها كيتس، بيد انه لا توجد حالة سيكولوجية دائمة تسيطر على «الكاتب». فتلك سيكولوجية اجتماعية لكاتب معين في عهد معين. حتى انها في زمن اورويل، تعتبر سيكولوجية طبقية. فالدوس هكسلي، واودن وغراهام جرين وكريستوفر ايسرهود يشاركون اورويل في عناصر هامة في هذا الصدد مثل الكتابة عن رحلاتهم، وهو ما يشكل تاريخهم الاجتماعي العلني: فهم يقومون بملاحظة الاخرين- في حياتهم، ولكن خصوصا في معتقداتهم ومواقعهم وامزجتهم- من خلال نقائضهم المتغيرة. ليست بنية الشعور هذه ما عناه كيتس بعبارة «القدرة السلبية»، فهي اكثر جموحاً واصغر في الوقت نفسه، فوضوح وبروز الملاحظات المتلاحقة هي انجاز لا يشك

فيه، بيد انه يوجد ايضا برود مميز يتمثل في عدم القدرة على ادراك الحياة الكاملة لشخص اخر، ورؤيته من خلال حياة شخصية غير نابضة.

وبالنسبة لاورويل يتمثل هذا البرود في رواياته، حيث يكون حضور الشخص الاخر الذي يفوق حضور شخص غريب جرت مشاهدته او مقابلته في رحلة، امرا متوقعاً، ولكنه لا يحدث. وتبدو العلاقات، وبصورة مميزة هزيلة، سريعة الزوال، مترددة، مضللة وحتى خائنة، وهذا امر ملفت للنظر الى حد كبير في اعمال رجل بمثل هذا العطاء. بيد أنه يجري تذكير المرء بوضوح بالغ بأن اورويل في هذا المقام انما كان يكتب حسب المزاج السائد في عصره. ان العلاقات في رواياته هي علاقات تتميز بها القصص الخيالية التي سادت في فترة ما- فترة تميزت بالحتمية وحتى بالجمود العقائدي، في اعتبار العلاقات تتخذ الان ذلك الشكل- وهذا ما عنيته عندما قلت ان تفسير المفارقة التي ينطوي عليها اورويل تتطلب منا مفاهيم تتجاوز الوعي والبنيات الاجتماعية التي سادت خلال الفترة التي عاش فيها، وكل ما يمكن ان نقترحه الان هو الخبرة بان هناك علاقات اخرى اكمل واكثر ديمومة وان هناك منافذ تكمن حتى خلف هذا الاغتراب.

مع ذلك، فقد حاول اورويل مراراً التأكيد على جعل نفسه مكشوفاً تماماً. وهذا ما يجعل منه شخصية تتجاوز السلبية في ذلك البنيان المسيطر على الشعور. لقد شارك فيها ولكنه حاول تجاوزها، وشعر بوضوح، كأي فرد في جيله، ان تلك الازمة كانت تاريخية، وليست حالة انسانية او حقيقة ميتافيزيقية غيبية. من هنا فان تحركه كان يحمل قصدا اجتماعيا واضحا.

لقد كان يكتب عن رحلاته، بيد ان الغريزة، وليس الحظ، هي التي جعلته يذهب الى جميع المناطق ويخوض التجارب الحساسة في عهده، فلم يكن مجرد زائر وانما كان رجلا يريد ويأمل في المشاركة، لقد خاض في حياته تجارب مباشرة عن الامبريالية والثورة والفقر. ولم

يكن صاحب نظرية ليفسرها ولا معتقدات بناءة متجذرة تتجاوز دوره الشخصي. ولكنه ذهب بعناد وثبات وشجاعة فائقة الى مراكز التاريخ التي تقرر مصيره للحصول على تجربتها وتقرير مصيرها بصورة مختلفة. كان هذا فوق كل شيء، ويمثل انجازه كفرد. فقد كان كاتباً يرمي الى كشف الحقائق فكان يذهب ويشارك بنفسه، وقد تعلم ان الكتابة اداة لهذا الكشف بالذات.

لكن بسبب ذلك فان هذا التاريخ يصبح اكثر من كونه تاريخاً فرديا. ومهما حسنت النوايا، فليس بوسع احد ممن عاصره ان يحصر ازمته بتطوره الذاتي. لقد كان ثمة عوامل شخصية مهمة في نجاحه واخفاقه، بيد أن بعض أعمق تناقضاته هي جزء من تاريخ عام، وليس بوسعنا ان نضع انفسنا فوقها وكأنها مشكلة مجردة دقيقة.

فالمفتاح الثاني للفهم يكمن في فهم طبيعة الديمقراطية الرأسمالية في فترة شهدت ثورات اشتراكية وبزوغ الامبريالية والفاشية ووقوع الحرب. ان رؤية الديمقراطية الرأسمالية في الثلاثينات في اطار الامبريالية السياسية والكساد الاقتصادي لم يكن امراً صعباً. ان اشتراكها في الجريمة مع الفاشية، او رغبتها في احسن الاحوال في التعاون مع الفاشية في جهد مشترك ضد الاشتراكية تمكن ملاحظتها لا من خلال معاملتها مع الاتحاد السوفياتي فحسب، وانما في اسبانيا. فمن الممكن ان تسجل تحفظات حول طبيعة الشيوعية السوفياتية، او السياسات الداخلية للجمهورية الاسبانية. ومع ذلك فهناك مجموعة من الاحتمالات القائمة، او التي بدت لسنوات عديدة انها صحيحة. فالديمقراطية الرأسمالية لن تحارب الفاشية ولن تحرر الشعوب المستعمرة وتقضي على الفقر الذي شوهها حتى في مجتمعاتها بالذات. وتعاني الاشتراكية من خلافات داخلية تخصها ومن تسويات بحقها بقيت في كل مكان الاسم الذي تنضوي تحت لوائه معارضة هذا التحالف الخطير والمستغل.

ولقد جرى تعديل هذه النظرة للعالم بصورة عميقة تحت وطأة

ضغوط تاريخية هائلة في عملية بالغة التعقيد تتعلق بالسبب والمسبب، وتأثرت الثورات الروسية والاسبانية نفسها ،بعمق ومرارة في تطورها، بنوع التحالف المضاد وبحاجتها الماسة للنجاة. وخلال سنوات معدودة فان ما كان يبدو امراً مستحيلاً اصبح تاريخاً لا مفر منه، وتمثل ذلك لا في الانحلال المتزايد للشيوعية السوفياتية من خلال محاكمات ستالين وخيانة اسبانيا، وهما أمران مريران بما فيه الكفاية، ولكن بسبب الاحداث التي غيرت العالم عام ١٩٣٩ : التحالف بين ستالين وهتلر وبداية الحرب بين الفاشية والديمقراطيات الرأسمالية. ولربما كان أيسر علينا الان ان نحيط بابعاد هذه العملية فنرى ظلال المستحيل في بداية التاريخ الطويل للخيانة والاهمال، فتبرز التناقضات الدفينة الى العلن في النهاية.

بيد ان الصدمة التي احدثتها تلك السنوات لم تكن ذات اهمية، فقد كانت اكثر النتائج حسما لاي شخص يكون في موقع اورويل، هي الاستجابة التي تلت للديمقراطية الرأسمالية. كانت التناقضات والاوهام الجديدة تبرز من خلف التناقضات والاوهام القديمة دون ان تجري ملاحظتها. وبالنسبة لاورويل فان الحتمية المادية للحرب ضد الفاشية امتزجت، كما رأينا، بارتباط تقليدي مع الوطن. ففي تلك الفترات بالذات دونت اسطورة اورويل الناضجة حول بلده. بيد أن موضع التساؤل لم يكن حول انجلترا وحدها وانما حول طبيعة الديمقراطية الرأسمالية. وكانت سهولة التكيف مع انجلترا والحرب ضد الفاشية تدفعان الى الافراط في التكيف.

والواقع انه يمكن حذف كلمة «الرأسمالية» كصفة «للديمقراطية» او الاستخفاف بحقيقتها، كالوهم بانه يمكن تحويل الحرب ضد المانيا الى حرب ثورية، او الوهم الاعمق والمستمر بان انجلترا الحقيقية- انجلترا الديمقراطية- يمكن ان تظهر من خلال النفاذ داخل القشرة الرقيقة للنظام المنهوك والبالي.

وبالقدر الذي يمكن فيه عزل «الديمقراطية» كما كان التحالف ضد

الفاشية يبدو مقبولا، فبالامكان جعل ذلك الاساس لتوجيه نقد مفحم للنظام الاشتراكي، الذي اصبح بفعل الضغوط التاريخية الطويلة، نظاماً سلطوياً.

ولو لم تكن تجربة الديمقراطية حقيقية لاصبح هذا الكلام بدون معنى، وتمثلت حقيقتها في ميراثها للرأسمالية الليبرالية وفي النضال المرير من اجل الحريات، الامر الذي يعتبر بمثابة تثقيف شعبي مضاد للرأسمالية. ومن الناحية المادية كانت عناصرها الراديكالية المشتتة موجودة ولا يمكن اقتلاعها. ولكن اذا وضعنا التشابه بين الانظمة الديمقراطية والسلطوية جانبا، وقمنا بتجريدها من انظمتها الاجتماعية النامية والمتناقضة، فإننا نكون قد اعددنا مجموعة جديدة من الاوهام، ونظرة تاريخية جديدة هشة للعالم، وهذا بالتأكيد مشابه في بنيته واثره للعزل والتجريد السابقين «للاشتراكية».

وفي الدول الاوروبية الغربية الاخرى، حيث تضافرت عناصر النظام القديم مع الفاشية لاجراء تحالف ضروري من اجل المقاومة، فإن التظاهر بأن الخيارات الاخرى كانت ديمقراطية اجتماعية او انها في طريقها لان تكون ذلك، استمر مدة اطول من قناعة الجميع.

وبقي هذا التظاهر او الامل قائماً حتى ما بعد سنوات ١٩٤٥ ـ ١٩٥١ وسنوات ١٩٦٤ـ١٩٧٠ وما حملته من اوهام عميقة، مع ذلك فان هذا الوهم لا يتسم بالجمود. ولو كان التشابه الاجتماعي الفعال الوحيد هو بين «الديمقراطية» و «الشيوعية» فان بعض التكيف مع الرأسمالية- الرأسمالية التي كانت على وشك ان تصبح ديمقراطية- كان يبدو في البداية، ومن ثم بحكم العادة، معقولا. وبعد أن تحقق هذا التكيف مع الرأسمالية، وما يليه من اعتبار الشيوعية الخطر الوحيد، يصبح من الصعب رؤية واقرار ما يمكن ان تفعله الامبريالية الرأسمالية، وما فعلته في السنوات التي اعقبت وفاة اورويل، في اوقات الكساد وفي اوقات الحرب.

هذه هي العقدة التي عقدت في اواسط الاربعينات من هذا القرن،

وقـد سـاعد اوروبل، بالتأكيد، في عقدها. ثم قام في اخر عمل روائي لـه بالتـخلي عن العنصر الايجابي، ظاهريا- وهم الايمان بقـرب تحـقـيق الديمـقـراطيـة الاجـتماعـيـة- وبقيت له النواحي السلبية فقط. واقتصر تصـوره المسـتقبلي على الشيوعية السلطوية، دون قوى اجتماعية بديلة او مـوازنة. وكـان اول عنوان مقترح لرواية «١٩٨٤» هو «الرجل الاخير في اوروبـا» ،وهـذا بـالـطبع هو جـوهرها؛ اذ انها تنطوي على نوع من النزاهة المكشـوفـة، بيـد أنها تكشف عن التناقـضـات السـيـاسـيـة ومـا تـتـضـمن من عـزلة وتجـريد، وعن عـدم وجـود اية هوية اجـتماعـيـة، فتحدث بذلك رعباً اصيلا.

ولو لم تكن التناقـضـات عـامـة الى حـد كـبير، لما كان بامكان ذلك الامـر ان يصل الى عـدد كـبير من الناس. ولكن الرمية اليائسة الاخيرة بالنسبـة لاورويل اصبـحت نمطاً يحتذى في حياة الاخرين. واندمجت النزعـة التـشـاؤمـيـة لديه بوهم حدوث الديمقراطية الاجتماعية. والشيء الـذي تفكك داخل اورويل بفـعل الرعب تحـول الى نظرة مـشـجـعـة وملحة للعالم استمرت (لدى الجيل الاكبر حتى ما بعد فيتنام).

ان الشيء الوحـيد المفيد الان هو ان نفهم كيف حدث ذلك؛ اذ ان فـقـدانه للهـوية هو من النوع الذي بقي يتكرر في ظل تاريخ مضطرب ومتحرك.

ان الصلة التي حـاول صنعـها، والتي كان مستعداً لبذل حياته من اجلهـا، وقـفت في وجـهـهـا التناقـضـات السـيـاسية خلال تلك الفترة وضـاعت في النهاية في الوهم والرعب. واضطر الكاتب لان ينشق عن المـنـاضـل السـيـاسي. ان فـكرة الايمان بالشـعب تأجلت الى مـرحلة تـطـورية، ولو ان فكرته الطبـقـيـة الاصيلة عن الناس «دون البشر» و «عـديمي التـفكير» لم تتـحـول بسـهـولة كـبيرة الى نظرة واهمة للجماهير الرثة والمتسـامحة لكانت هذه المرحلة قـريبـة. وبقيت القوى الجماهيرية الحـقـيقية تستمر في التحرك، معه وبدونه، ومن خلال التناقضات التي عـاشها، وكذلك تجدد القتال الذي انضم اليه ومن ثم يئس منه، وامتد

واكتسب ارضية جديدة هامة.

اننا على الاغلب، لن نصل الى وقت نستطيع فيه ان نستغني عن صرامته وطاقته ورغبته في المشاركة. وينبغي أن نكن لهذه الخصال الاحترام مهما تكن النتائج التي يمكن ان نتوصل اليها. ولكن هذه الخصال تكون حقيقية فقط طالما انها مستقلة ونشيطة.

ان أعمال الرجل وتاريخه هما للقراءة وليس للمحاكاة. انه خالد، وبامكانك ان تتلمسه، بندبة حنجرته، بوجهه الحزين الصلب، وبكلماته البسيطة التي كتبت خلال المحن والاخطار والمواجهات، غير اننا حين نحاول ان نجسه فاننا لا بد مرتطمون بالضرورة بشيء من صلابته. اننا نسلم بحضوره، وبمسافة تفصلنا عنه، باسماء اخرى، بسنوات اخرى، وبماض يدفعنا لتذكره ويفرض علينا احترامه والانطلاق منه صوب المستقبل.

ـ ر ـ ـ ورويل :

1 - Down and out in Paris and London ; London, 1933

«التسكع في باريس ولندن»، لندن ١٩٣٣

2 - Burmese Days; New York, 1934

«أيام بورما» نيويورك ١٩٣٤

3 - A Clergyman's Daughter; London, 1935

«ابنة رجل دين»، لندن ١٩٣٥

4 - Keep the Aspidistra Flying; London, 1936

«دع الدريقة مرفرفة»، لندن ١٩٣٦

5 - The Road to Wigan Pier; London, 1937

«الطريق الى رصيف ميناء ويغان»، لندن ١٩٣٧

6 - Homage to Catalonia; London, 1938

«وفاء لكاتالونيا» لندن ١٩٣٨

7 - Coming up for Air; London, 1939

«الارتفاع بحثاً عن الهواء»، لندن ١٩٣٩

8 - Inside the Whale; London, 1940

«في جوف الحوت»، لندن ١٩٤٠

9 - The Lion and the Unicorn; 1914

«الاسد ووحيد القرن»، ١٩٤١

10 - Animal Farm; London, 1945

«مزرعة الحيوان»، لندن ١٩٤٥

11 - Nineteen Eighty Four; London, 1949

«١٩٨٤»، لندن ١٩٤٩

12 - Shooting an Elephant; 1950

«صيد فيل»، ١٩٥٠

13 - Politics and the English Language; 1950

«السياسة واللغة الانكليزية»، ١٩٥٠

14 - Such were the Joys 1953

«هكذا كانت الافراح»، ١٩٥٣

15 - Collected Essays, Journalism and Letters of George Orwell; 4 Volumes, London, 1968

«مجموعة الاعمال والرسائل في اربع مجلدات»، لندن ١٩٦٨.

بعض الكتب والمؤلفات بالانكليزية عن اورويل :

- Atkins, John, George Orwell, London, Calder, 1954.

- Brander, Laurence, George Orwell, London, Longman, 1945.

- Hollis, Chirstopher, A study of George Orwell, London, Hollis & Cater, 1958.

- Hopkinson, Tom, George Orwell, London, Longman, 1953.

- Oxley, B. T., George Orwell, 1969.

- Rees, Richard, George Orwell - Fugitive from the camp of victory, London, Secker & Warbur, 1961.

- Steinhoff, William, George Orwell and the Origins of 1984, 1975.

- Thomas, Edward M. , Orwell, Edinburgh, Oliver & Boy, 1953.

- Vorhees , Ricahrd J. , The Paradox of George Orwell, Lafayette, Indiana, Purdue University, 1961.

- Woodlock, George, The Crystal Spirit, London, Cape, 1967.

- Zwerdling, Alex, Orwell and the Left, 1974.

جورج لوكاش

تأليف : جورج لختهايم





النخلة و شجرة الطيور و الورود

مقدمـــة

تـقـضي الضرورة بان تكون هذه الدراسـة التي تتناول حـيـاة جـورج لوكـاش وأعماله دراسـة قصيرة وانتقائية. فالغاية منها تسهيل فهم كاتب ذي شأن نشرت مـعظم أعماله باللغـة الهنغـارية او الالمانية. لذلك فهي اساسا مقالة في التأويل او التفسير Interpretation تبـغي افادة الطلاب من ذوي الثـقـافـة الامـريكيـة او البريطانيـة. ان هذه المهـمة ستكون صـعـبـة، حتى ولو كان لوكاش أقل خصومة ككاتب، فهناك الـعـديـد مـن المشكلات التي لا بد من مـواجـهـتـهـا بصراحـة، ومنذ الـبـدايـة. ينتـمي لوكـاش بقـوة للتـقليـد الاوروبي المركـزي في فكره، والمعـروف ان الافتراضـات التي يقـوم عليـهـا هذا التقليد، لا يوجد لها في الـغـالـب مـقـابل دقـيق عند الناطقين بالانجليـزية. أضف الى ذلك تمسـك لوكـاش بالطريقـة الهيـغليـة في التـحليل، بالرغم من التـزامـه بالماركـسـيـة مـدة نصف قـرن، وهي طريقة غير مقبولة، بصورة عامة، من اللينينيين، ناهيك عن الماركـسـيين الغـربيين على اخـتـلاف مـيولهم السياسية.

وقد ادت انهماكات لوكاش الشخصية، بعد عام ١٩١٧، في بلده هـنـغـاريا الآن وضـمن الفلك الاوسع للحـركـة الشـيـوعـيـة الى بروز تكتـلات ومناظرات جـبـهـوية انطوت بالنسـبـة الى لوكـاش على اهميـة بـالـغـة، ويسـتـدل على ذلك من خـلال مـلاحظاته في السيرة الذاتيـة ومـقـدماته التي كتبها في السنوات الأخيرة للطبعات الغربية من اعماله. وفي بعض الحـالات انتـهـز الفـرصة للتراجع او لمراجعة أحكام سابقة، بيـد أنه استـغل في حـالات اخـرى التغييرات في المناخ السياسي لينكر نزعـاته التـوفـيقية مع الارثوذكسية السائدة في شرق أوروبا في الثلاثينات والاربعـينات، ليـصـفـها بأنها كانت محض تكتيكية. وثمة تسجيل لهذه المناورات المتأرجـحـة في مـقدمة الجزء الثاني من كتاباته التي ظهرت عام ١٩٦٧، كـجزء من أعماله الكاملة التي يقوم ناشر المـاني غربي بنشرها.

وهذا الجزء بالذات يحتوي على الدراسة التي تحمل عنوان «التاريخ والوعي الطبقي» History and Class Consciousness والتي ادى ظهورها عام ١٩٢٣ الى حدوث الخصام الذي نشر عام ١٩٦٧ لمواقفه الفلسفية التي سبقت ظهور اللينينية ، ونجده ايضا يحيي خلافات تنظيمية مختلفة خلال الفترة نفسها ويحاول ان يبرز، ولو بشكل متأخر ، آراء سياسية معينة نادى بها حوالي عام ١٩٢٨ . ثم يصف بوضوح نقده الذاتي الوحيد الذي كان قد نشره بعد ذلك بوقت قصير، عندما واجه خطر طرده من الحزب الشيوعي، بأنه تكتيكي وغير مجدٍ (وجدير بالذكر انه واجه المصير نفسه اثر مشاركته القصيرة عام ١٩٥٦ في المحاولة المشؤومة من أجل إضفاء الصفة الديمقراطية على النظام المجري).

وفي غضون عام ١٩٣٠-١٩٣١ عمل لوكاش في معهد ماركس-انجلز في موسكو، ولعب دورا بارزا في الحياة الأدبية للحزب الشيوعي الالماني في برلين في الفترة ١٩٣١-١٩٣٣، ثم التحق عام ١٩٣٣ بمعهد الفلسفة التابع لاكاديمية موسكو للعلوم، وبقي هناك حتى العام ١٩٤٤ حيث ساعد في تحرير المنشورات الأدبية، الى أن عاد الى المجر اثر دخول الجيش الروسي.

تعرض لوكاش، ابان الفترة التي كان يشغل فيها منصب استاذ علم الجمال والفلسفة الحضارية، في عهد ماتياس راكوسيRakosi في بودابست، للهجوم من العناصر الستالينية المتطرفة، فبدأ بالانسحاب تدريجياً من حياة الحزب النشطة. الا أنه عاد وبرز مرة اخرى بعد الانفراج الذي اعقب خروج ستالين عام ١٩٥٣ وخلال انتفاضة اوكتوبر - نوفمبر/ تشرين الاول والثاني القصيرة عام ١٩٥٦، واصبح عضوا في اللجنة المركزية للحزب، ووزيراً للتعليم في حكومة ايمري ناجيNagy. وقد سلم من الموت بالرغم من سقوط الأخير واعدامه. ثم عاد الى بودابست بعد ان نفي فترة وجيزة الى رومانيا وسمح له بالاقامة ابان حكم جانوس كادار Kadar ، بيد ان كتاباته

تعرضت للخطر الرسمي فاضطر الى نشرها في الغرب. وبعد السماح له بدخول الحزب الشيوعي ثانية عام ١٩٦٧، عرف عنه انه كان يحتج في مجالسه الخاصة على غزو تشيكوسلوفاكيا واحتلالها. وفي آذار عام ١٩٦٩، وبمناسبة الذكرى الخمسين لتأسيس الجمهورية السوفياتية الهنغارية القصيرة العمر، قلد رسمياً وسام «الراية الحمراء»، وسمح له، مرة اخرى، ان يعبر عن آرائه بصورة علنية في مقابلات مع المراسلين من الشرق والغرب.

ان محاولة القيام بدراسة شاملة لاعمال لوكاش منذ مطلع القرن، تظهر الاهمية المصيرية للحرب العالمية الاولى وللثورة الروسية عام ١٩١٧؛ فلقد اصبح حقيقة بدهية ان كلا الحدثين، قضى على نمط معين من العيش وعلى ميزان القوى السياسي القائم حينذاك. وما هو بحاجة الى التأكيد مجددا هو الوضع الحاسم لالمانيا ولهنغاريا- النمسا. فبينما نجد ان الشيوعية انبثقت من اشتعال الثورة الروسية، وان رواد الفاشية ظهروا في فرنسا وايطاليا قبل عام ١٩١٤ فان الاسهام الفكري الحاسم كان على يد منظّرين اقاموا في المانيا وفي المملكة الثنائية هنغاريا - النمسا، بالاضافة الى عدة دول خلفتها بعد عام ١٩١٨. لذلك يمكن القول، وفقا لهذا المنظور، إن لوكاش من اجل الشيوعية يماثل ما قدمه معاصره اوزوالد شبنغلر Spengler لمنافستها الفاشية. ومنذ وفاة لينين عام ١٩٢٤ لم تنجب روسيا سوى قلة من المفكرين الاصليين لم يكن بينهم واحد ذو اهمية عالمية. من هنا اكتسبت هرطقات لوكاش الفكرية تدريجياً اهمية لم تتمتع بها من قبل. ونتيجة لان اوروبا الوسطى كانت في العشرينات والثلاثينات ساحة للمعارك الايديولوجية والسياسية، فلقد انتشرت المشاعر التي حركتها هذه المناقشات بحيث اصبحت دوائر اوسع. وابقى كارل كورش Korsch، الذي انفصل عن الشيوعية الدولية في وقت لاحق، وبقي ماركسيا، بخلاف لوكاش، الجدل حيا ضمن محيط الاشتراكية الالمانية. كذلك انعكس صدى هذه المناقشات في

الدراسات الاجتماعية والتاريخية التي قام بها بعض الباحثين التابعين لمعهد فرانكفورت، واشهرهم ماكس هوركهايمر Horkheimer وتيودور ادورنو وهربرت ماركيوز. ويمكن ان نجد لاعمال لوكاش المبكرة تأثيراً على كتابات ولتر بنجامين الناقد الأدبي المعروف في عهد جمهورية فايمار، بيد أن أعمال بعض الباحثين (المهاجرين قسراً) المنفيين امثال لوفنثال Lowenthal تعكس صدى ابعد لتأثيره.

ومن اوروبا الوسطى انتقلت رسالة لوكاش الماركسية- الهيجلية الى فرنسا على يد الناقد الروماني الاصل لوسيان جولدمان، الذي قام بدراسات عن باسكال وراسين، عرفت العالم الفرنسي الاكاديمي بالطريقة الجديدة لمعالجة القضايا الأدبية. وبالمقابل لم يكن للوكاش تأثير في الاجيال الصاعدة من الكتاب الماركسيين، في السنوات الاخيرة. فهو بالنسبة اليهم كان تقليدياً بشكل عام، متأثراً بشكل خاص وعميق بالافكار السائدة في الأدب السوفياتي. اما التطوريون (من امثال ارنست فيشر الشيوعي النمساوي المحنك) فقد كانوا يميلون الى تجاوز لوكاش في محاولتهم بناء قاعدة ماركسية لارتباط الفن بالقضايا الاجتماعية. وايضا في مجال الفلسفة كانت الوجودية التي نادى بها سارتر، وليست اعمال لوكاش بعد الانفراج عام ١٩٥٦ هي التي مكنت بعض الماركسيين الشرقيين الشباب، من امثال الفيلسوف البولندي كولاكوفسكي Kolakowski من تحرير انفسهم من القيود الايديولوجية الستالينية.

وفي هذه العجالة، فان ذكر هذه الامور، بغض النظر عما تعنيه لعالم الأخلاق، انما يهدف الى اظهار صعوبة فصل الفلسفة عن السياسة في اعمال لوكاش. فثمة انسجام وتوافق في التزاماته النظرية والعملية يظهر من خلال دراسة مؤلفاته الضخمة. كذلك يمكن تتبع عناصر مهمة في تفكير لوكاش قبيل عام ١٩١٤، حين ظهرت اهتماماته الفكرية، وفي خلفيته الاجتماعية، وفي ميراثه الروحي، كمفكر للانتلجنسيا اليهودية الهنغارية. وبينما ستجد هذه الموضوعات

متنفسا قصيراً لها في دراستي هذه، الا انني حاولت بشكل عام ان اركزها على تحليل للاسهام الذي اسداه لوكاش الى النظرية الماركسية، وبالتحديد في مجال اختصاصه: الا وهو علم الجمال. طبعا انه لمن المتعذر معالجة هذه الفكرة بروح البحث العلمي المجرد. لذا فبامكان المرء أن يهدف الى الموضوعية بالمفهوم الهيجلي لها، اي ان يحاول تعيين موقع لأهمية تلك الظاهرة الفريدة من نوعها والتي تنضوي تحت اسم جورج لوكاش.

الفصل الأول

ولد جورج لوكاش Gyorgy Lukacs في ١٣ نيسان (ابريل) ١٨٨٥، من ابوين يهوديين ثريين، كانا يقطنان بودابست، العاصمة الثانية للمملكة النمساوية الهنغارية حينذاك. وكان والده مديراً لبنك مؤسسة التسليف (كرديت انشتالت) احد اهم البنوك في بودابست في ذلك الوقت. وقد اظهر لوكاش منذ صباه شغفاً بالأدب وموهبة عظيمة في النقد، وتعود اولى كتاباته الى عام ١٩٠٢. ساهم بحيوية في الحياة الفكرية لمدينته ولما يزل في اوائل العقد الثالث. وفي العام ١٩١١ كتب دراسة حول الدراما في جزأين، بلغت صفحاتها الالف. وفي العام نفسه نشر دراسة فلسفية بالالمانية بعنوان «الروح والاشكال» «The Soul and the Forms» سبق ان نشرت في بودابست قبل عام. ومنذ ذلك التاريخ بدأ يتخلى تدريجياً عن اللغة المجرية ليكتب باللغة الالمانية، وفي السنوات اللاحقة اصبح معروفا على النطاق العالمي باسمه الالماني جورج لوكاش عوضاً عن «فون لوكاش»، وهو اسم شرف منحته لوالده السلالات الحاكمة.

وقد ادت بعض التطورات الفكرية المعقدة الى انتقاله من النزعة الجمالية، السائدة بين المثقفين في اوروبا الوسطى قبل عام ١٩١٤، الى قبول Lebensphilosophie، وهي شكل من اشكال مذهب فلسفة الحياة او الحدسية التي كانت بمثابة القطب المعاكس لمذهب العقلانية العلمية. وقد تقبل كطالب في بودابست (حيث حصل على شهادة الدكتوراة في الفلسفة عام ١٩٠٦) مذهب الكانطية الجديدة السائد الذي حفظ البحث المنتظم عن الحقائق التجريبية للفروع المتخصصة في العلوم والآداب، بينما قصر الفلسفة على علم المنطق

ونظرية المعرفة. وفي العام ١٩١٠ بدأ يستمع لمحاضرات الفيلسوف وعالم الاجتماع جورج سيميل Simmel في جامعة برلين، حيث تبنى تفسير الاخير الشخصي لمذهب الكانطية الجديدة التي كانت تضرب جذورها في اعمال فيندلباند وريكرت، ثم صاحب تلميذ ريكرت النابغ اميل لاسك Lask.

وخلال تلك السنوات تركزت الحياة الثقافية في المانيا قبل الحرب الاولى على تذويب المدرسة الكانطية الجديدة، وبروز علم الظاهرات او الفينومينولوجيا على يد هوسيرل Husserl ، ونمو الميول اللاعقلانية والحدسية المنبثقة بالنهاية عن الحركة الرومانسية. وكانت المدرسة الكانطية التقليدية الممثلة بهرمان كاهن وبول ناتروب في جامعة ماربورغ ترمز الى التمييز الصارم بين نظرية المعرفة وبين الميتافيزيقيا التأملية. اما مدرسة هايدلبرغ فقد كانت تميل الى اعطاء أهمية اكبر للتاريخ من العلوم الطبيعية. وقد سهل تأثيرها ما اسماه ويلهلم ديلثاي١٩١١ Geisteswissenschaft أي علم الروح. وقد كان الخلاف يدور حول ما اذا كان يمكن للفلسفة ان تهدف بحق الى ما هو أبعد من تعميم الطريقة العلمية. لقد مثّل كل من ديلثاي وسيميل الردة في وجه وضعية العلوم الطبيعية وفي وجه مدرسة ماربورغ التي انكرت امكانية التبصر في الطبيعة الحقيقية للواقع. فكانا يؤمنان، شأنهما في ذلك شأن معاصرهما هنري برغسون الذي ترك مؤلفه «التطور الخلاق» عام ١٩٠٧ اثرا ملحوظاً على سيميل، بان جوهر الحقيقة يمكن ادراكه عبر فعل من الحدس العقلي.

ان مفهوم «علم الروح» عند ديلثاي كان شيئاً مختلفاً، بصورة اساسية، عن الطريقة العقلانية، حيث قامت العلوم الطبيعية والاجتماعية بتفسير العالم وفق علاقات سببية. وقد كانت مهمة المؤرخ

بالنسبة اليه تقوم على الفهم «التأويلي» - Hermeneutic under-standing للماضي من خلال استعادة مبتكرة لافكار الاخرين. ان عملية الفهم هذه تعني ان ينقل المرء نفسه الى بعد روحي مختلف، وهي عملية اطلق عليها ديلثاي اسم الحياة من جديد Reliving- متابعا في ذلك اللاهوت الرومنطيقي الذي وضعه شلير ماخر. ان هذا العمل، الذي هو في النهاية عمل شخصي لا عقلاني والمتمثل في اعادة الصياغة الروحية كان ينظر اليه بانه مناسب للعلوم الاجتماعية. فالتأويل يرمز الى اسلوب في الفهم لا يعتمد على التفسير السببي بل انه يهدف بالاحرى الى تفهم الابداعات المتعددة الاشكال للروح البشرية. ان أعمال العقل لها أهمية خافية ينبغي على «علم الروح» Geisteswissenschaft أن يعمل على اماطة اللثام عنها. وقد ظهرت طريقة ديلثاي أول ما ظهرت في علم النفس، مما حمل فيند لباند ان يطلق تحذيراً عام ١٨٩٤ ضد الخلط بين البحث الطبيعي عن القوانين العامة والتحليل التاريخي للحادثة الفريدة والوحيدة، وتشير كتاباته الاخيرة الى تأثير هسرل عليه في رفضه المتطرف «للنفسانية» Psychologism. ان ما اسماه «علم الروح» قد نظر اليه منذ البداية كمغامرة فلسفية. وهكذا توصل ديلثاي في النهاية الى مقولة «المعنى المراد» او المقصود الذي مكنه من الافتراض بوجود علاقة موضوعية بين حقائق معينة (اعمال فنية مثلا) وتاريخ الروح البشرية.

وبالرغم من اصالة مغامرة ديلثاي، فانها كانت متأثرة بالمدرسة الالمانية (لا سيما التاريخية) التي ارتبطت في بداية القرن التاسع عشر باسماء مثل همبولدت ونيبور وسافيني وجريم وشلير ماخر. ان ما اكدت عليه المدرسة هو استقلالية التاريخ والانثروبولوجيا- علم

الانسان- ودراسة الدين مقابل البحث الوضعي عن قوانين السببية التي تنطبق على الطبيعة والتاريخ على حد سواء.

وقد نشأ عن هذه الطريقة نتيجة طبيعية مهمة، وهي ان جميع الظواهر الفردية تنتمي الى كل منتظم، بينما تميل وضعية العلوم الطبيعية الى اعتبارها نسخاً بمثابة امثلة دالة على قاعدة عامة. ولاسباب بدهية فان الطريقة التاريخية- مثل الفلسفة الرومانتيكية بشكل عام- تشبع رغبات الفنانين اكثر من العلماء، لذا نجد ان الثورة ضد العقلانيين استخدمت على نحو نموذجي المفاهيم المشتقة من نموذج الابداع الفني. وفي الوقت نفسه تضمن التشديد المنبثق عن مذهب الكل Holism والقائل باعتماد الاجزاء على الكل دلالات بالنسبة للعلوم الاجتماعية. وقد طور كل من فيند لباند وريكرت وديلثاي وسيميل تدريجياً التمييز بين «الطبيعة» والتطبع وهو تمييز كان يرفض ظاهرياً البحث عن «قوانين التطور»، وقد دعمت كتاباتهم ماكس فيبر (١٨٦٤ ـ ١٩١٠) في بحثه عن طريقة سوسيولوجية تنظر في معنى الاعمال الفردية بالنسبة للاخرين. ان وصف فيبر لعلم الاجتماع بانه محاولة لفهم النشاط الاجتماعي «على مستوى المعنى» كان مرتبطاً بوضوح باعمال الباحثين الذين سبق ذكرهم.

وفي كتاباته المبكرة رضخ لوكاش لهذه الطريقة بعد ان كان ناقش في مقالاته الادبية شعر الرومانسيين ثم ادان هذه المرحلة في سنوات لاحقة باعتبارها تمثل انحراف او زيغ الشباب ،ووصف فلسفته المبكرة بانها «مثالية طاتية» وهو مصطلح يوقف على المذاهب المشتقة من «كانط». من هنا لا بد ان نعالج تأملاته الواردة في سيرة حياته بشيء من الحذر؛ اذ توجد بعض الشواهد التي تشير الى انه بعد سنوات تلمذته، لم يصبح «كانطياً» جديدا اطلاقا بل كان لا أدريا Agnostic

ويعتبر الكون، بالتحليل الأخير، غير قابل للادراك والمعرفة كليا. ان مؤلف «الروح والاشكال» يبدو وكأنه قد آمن بأنه يمكن للمرء في مجال علم الجمال ان يتصل بالحقيقة المطلقة من خلال فعل حدسي مباشر.

وبعيداً عن كونه مثاليا ذاتيا في نظرته الى «نقده الذاتي» فقد كان من الجلي تماما انه تأثر أيما تأثير باميل لاسك وموقفه شبه-الفينومينولوجي اثناء مقامه في هايدلبرغ، الأمر الذي سهل له، فيما بعد، الانتقال الى مثالية هيجل الموضوعية. اننا نشير هنا الى الفترة الواقعة بين عامي ١٩١٣-١٩١٤ عندما كان لوكاش قد استقر في هيدلبرغ واصبح عضواً في حلقة ماكس فيبر. وكان اميل لاسك ١٨٧٠-١٩١٥ يعمل أستاذاً للفلسفة في جامعة هايدلبرغ في ذلك الوقت فكان لا بد ان يقع لوكاش تحت نفوذه، وقد زوده كتاب لاسك (منطق الفلسفة ونظرية المقولات) بأساس منطقي لضرب من الافلاطونية الجديدة التي سبق للوكاش ان تحول نحوها بشكل غريزي، وهذا بدوره مهد الطريق امام ايمان في عالم للكينونة يتجاوز الاخلاق ويمكن الدفاع عنه منطقيا. اما دراسات لاسك في علم الاخلاق والجمال وفلسفة الدين- التي اعترضتها الحرب عام ١٩١٤ وتوفي بعد وقوعها بسنة- فقد وضعته في رحاب مدرسة ادموند هوسرل الفينومينولوجية. وقد ظهر اثر لاسك بعمق على تطور لوكاش الفكري في تلك السنوات. فالى جانب انه كان يكبره في السن فقد كان مفكراً يتمتع بقوة فكرية غير مألوفة ونفاذ في نظرته، وقد اخذ في التحول التدريجي نحو نظرة يمكن ان توصف بحق بانها نظرة ميتافيزيقية.

ان مثل هذا النوع من الاتجاهات لم يكن غريبا حوالي العام

١٩١٠، ولكن الحرب العالمية الأولى هي التي وضعت الأمور في نصابها؛ فخلال تلك السنين العصيبة فقدت الفلسفة الاستاذية التي قسمت المعرفة الى أجزاء مستقلة ما كانت تتمتع به من سلطات. وكان ثمة رجال من امثال فيبر يؤكدون ان العودة الي الميتافيزيقيا مستحيلة، ولكن الجيل الجديد كان يطالب بنظام «كلي» عن «الحقيقة» في العام. وقاد هذا البحث بعض الكتاب من ذوي الميول الفلسفية الى الدين والبعض الآخر الى الرفض العدمي للثقافة ككل. اما لوكاش- فلأسباب سوف تتضح بعد حين- فقد تحرك باتجاه مختلف: نحو هيجل، ولعل من المهم الاشارة الى أن أعماله الفلسفية ابتدأت بالنقد الأدبي. وقد اصبح خلال تلك السنوات عضواً في الحلقة المقصورة على فئة قليلة من الخاصة والمحيطة بالشاعر ستيفان جورج، وكان الانغماس في السياسة ابعد ما يكون عن فكر اولئك الرجال. وقد اعتنى تلامذة غوته ونيتشه هؤلاء ومعهم شعراء «نهاية القرن» من ذوي الميول الصوفية، بتنمية ضرب من الفردية التي وجدت شرعيتها في النفور العميق من عالم الناس العاديين. وثمة موقف مشابه يكمن وراء مؤلف لوكاش «نظرية الرواية» الذي يعتبر من اهم اعماله الروائية خلال هذه الفترة. اما المزاج الذي كان يسيطر على لوكاش ابان تأليفه الكتاب عام ١٩١٤-١٩١٥ فيمكن معرفته من خلال قراءة مقدمة الطبعة الالمانية. في هذه المقدمة المكتوبة في «بودابست» في تموز عام ١٩٦٢، وبالرغم من النقد الذاتي المنبعث من التحسس بالواجب الذي يرد فيها، فان المقدمة لا تتبرأ كلياً من المزاج العقلي الذي لجأ به لوكاش خلال تلك السنين الى عالم الفن هربا من الواقع. واي امل كان هناك في العالم السياسي اذا كانت الامبراطوريات الشرقية الثلاث (روسيا، والنمسا- هنغاريا والمانيا) قد انهزمت نتيجة الحرب هزيمة

نكراء؟ وعندما وصف لوكاش فيما بعد موقفه خلال المرحلة الأولى من الحرب العالمية الاولى على هذا النحو، فانه زود قراءه بمفتاح السر لاعجابه الطويل بتوماس مان، وذلك باستدراك بدهي هو ان مان Mann ببساطة لم يأبه لانتصار الغرب على الرايخ الالماني. كان يريد الانتصار لالمانيا! (انظر كتابه الصادر عام ١٩١٨ بعنوان: «تأملات رجل غير سياسي»)... واما لوكاش فانه اشمأز من البورجوازية الليبرالية ومما اعتبره بمثابة الانحطاط الغربي بدرجة لا تقل عن احتقار توماس مان لهما خلال تلك السنين، ولكنه بعكس مان لم يكن يجد من حاجة الى المانيا الفيلهلمينية ابّان حكم فيلهلم اوغليوم لها، ومن هنا فان دراسته النقدية عام ١٩١٤-١٩١٥ قد عكست ما اسماه عام ١٩١٧ «حالة من اليأس الدائم من وضع العالم، ولم احصل الا عام ١٩٦٢ فقط على اجوبة عن اسئلتي التي بدت حتى ذلك الوقت بدون جواب».

فالثورة الروسية بددت قلقه الميتافيزيقي بان اعطت جوابا علمياً عن المشكلات النظرية التي استمالته للانسحاب والاعتكاف في قوقعة خاصة. ولقد كانت «نظرية الرواية» نتاجا للنظرة العقلية المرتبطة بما كان يعرف في اوساط اتباع ديلثاي ب «تاريخ الروح» Geistesges-chichte؛ فالحرب اوصلت الامور الى اوجها، لكن طابع الاشكالية (المعضلة) سبق له الوجود. وكما عبر لوكاش عن ذلك عام ١٩٦٢ حيث قال:

«لم يعد من الصعب اليوم ان نرى بوضوح قصور الطريقة التأويلية. لا بل انه يمكن للمرء ايضاً ان يفهم مبررها التاريخي النسبي مقابل ضحالة وهزالة الوضعية الكانطية الجديدة وغيرها من الوضعيات، سواء في معالجتها للشخصيات او المضامين التاريخية او في

بنيانها الثقافي للبنى الفكرية (المنطق، علم الجمال . . . الخ). انني افكر مثلا بما حققه ديلثاي من ابداع في مؤلفه «التجربة المعاشة والأدب» Das Erlebnis und die Dichtung (لايبزيغ ١٩٠٥) ، وهو عمل بدا رائدا في استكشافه لارض بكر. لقد بدا لنا هذا الحقل الجديد في تلك الايام وكأنه عالم عقلي من تأليفات او طباقات فخمة سواء من الناحية النظرية او الناحية التاريخية. لقد اخفقنا في رؤية مدى تجاوز هذه الطريقة للمدرسة الوضعية وعدم قيام افتراضاتها على اسس راسخة . . . واصبح الأمر الشائع هو ان ننشىء مفاهيم عامة مركبة مبنية في معظم الحالات على مجرد ادراك حدسي لبعض الاتجاهات الخاصة بحركة او حقبة ما».

مع ذلك فلم يخل عمله المبكر من فائدة ترجى، واستطاع لوكاش في عام ١٩٦٢ ان يرى مظهراً واحداً في الأقل كان يبعث الامل، فقد كان المؤلف الشاب في ذلك الحين يسير في اتجاه تطوير موقفه اللاحق.

«لقد سبق ان اشرنا الى ان المؤلف . . . اصبح هيجليا. ان الممثلين الكبار للطريقة التأويلية يرتكزون الى اساس كانطي وهم لم يتحرروا بعد من الترتيبات الوضعية، وقبل اي شيء من ديلثاي.

ان المحاولة لتجاوز اللاعقلانية الوضعية كانت تدل دائماً على الاتجاه خطوة نحو اللاعقلانية لا سيما محاولة سيميل وديلثاي. صحيح ان نهضة هيجل كانت قد وقعت قبل سنين من وقوع الحرب . . . ولكن حدث هذا في مجال علم المنطق او النظرية العامة للعلوم. وعلى حد علمي فان «نظرية الرواية» Theorie des Romans هو اول عمل في مجال التأويل لتطبيق الفلسفة الهيجلية على المشكلات الجمالية بشكل واقعي . يوحي البروفسور فيكتور زيتا Zetta في دراسته المعادية والقاسية، ان لوكاش فشل في ان يصبح شاعراً (في هنغاريا قبل عام

١٩١٠) او فيلسوفا (في المانيا حوالي ١٩١٤) وانـه ارتضى أن يصـبح كـاتبـاً وناقـدا ادبيا نشيطا في مجال الحياة الفكرية حيث التفوق لا يجلب الشـهـرة بالضرورة وحـيث لا يكون تحـقـيق الابداع والرفعة أمراً سهلاً وحـيث يكون النبـوغ ملفـعـا بحقيقة انه ينبغي ان يخضع نفسه للتعليق والتحليـل.

ودون الذهاب بعـيـداً فلعله من المهم القول انه بالرغم من العبقرية الـتـي يـزخـر بهـا عـمله الاول والتي لا مجال لانكارها، فـانه فـشل في اظهـار نوع من القـوة المنطقـيـة الثـابتة التي نجدها عند لاسك. وكتابه «الروح والاشكال» عـمل يدل على القـوة والألمعـيـة من وضع شـاب لا يتجاوز عمره ٢٥ عاما، وقد احرز بفضله مكانة بين النخبة من مثقفي هـنغـاريا، برغم ان الواقع ربما اشـار الى ان الهنغـاريين كـانوا يعـتبرون الشـعـر ارقى من المقـالات الافـلاطونية عن الفن. ومن الممكن جدا ان يـكون لوكـاش الذي سـاعـد على تنظيم مسرح «ثاليـا» وهو لا يزال في سن المراهقـة، قـد احب ان يصـبـح شـاعـراً او روائيـا قبل ان يتردد في أخـذ دور الناقـد. وهكذا حـقق لنفسه منزلة فريدة حتى قبل ان يوجد منهـجـا فلسفيا خاصا به. وقد اعجب كتابه «نظرية الرواية» القراء على اخـتـلاف اتجـاهاتهم في المانيا هذه المرة- ونال صاحبه تقديرا خالداً من احـد اهـم روائيـي المانيـا العظام: الا وهو تومـاس مـان. ولكن، وكما لاحظ لوكـاش بنفـسـه في السنوات اللاحـقة، فقد كان هذا العمل من وضع شـاب يافع ومأخـوذ، كما كـان يعـتـمـد اسـاسـا على افكار غير مـبتكرة. وعندمـا نصل الى عـمل يعـتبر من اكـثـر اعمال لوكاش اثارة للجـدل ، الا وهو مجموعة المقالات التي ظهرت عام ١٩٢٣ باسم «التـاريخ والوعي الطبقي» فاننا سنجد ان مضمونه الفلسفي البحت قد جـاء مـن تـفـسيرات لاسك لكانط وفـيـخـتـه وهيـجل، وان محتـوياته

السياسية والاقتصادية اخذت جملة من لينين وروزا لوكسمبورغ (لم يكن التنافر بين الوطنيين الماركسيين واضحاً بالنسبة اليه بعد) . وقد تخلى فيما بعد عن نقده للديالكتيكية المادية التي نادى بها انجلز استجابة للنداءات الملحّة بالالتزام الفكري.

ولا يمكن للمرء ان يغفل ايضاً ان ديلثاي هو الذي فتح عيني لوكاش اصلاً على الفارق الشاسع بين العلم الطبيعي والتاريخ، كون الحادثة التاريخية فريدة والحاجة الى ادراكها بجميع مظاهرها عن طريق القيام بمعايشتها من جديد، وهو فعل يمكن ان يكون له بعده الفكري بالاضافة الى بعده الجمالي. ان ملاحظة كل هذه الامور تعني ان يسجل المرء ببساطة حقيقة مؤداها انه بالرغم من ان لوكاش ميز نفسه في سن مبكرة عن طريق تقديم اعمال لامعة فانه ليس بوسع المرء ان يقول انه أظهر ذلك الضرب من الأصالة التي تتميز بها عادة حتى الأعمال غير الناضجة والصادرة من العباقرة. وكتاب «نظرية الرواية» لا يشذ عن القاعدة ؛ فهو مجرد قطعة من الكتاب تنم عن موهبة، ليس الا.

الفصل الثاني

غالباً ما تبدأ الدراسة النقدية المخصصة لكاتب ذي شأن برسم صورة شخصية لحياته ومن ثم التركيز على تحليل اعماله. بيد ان اي شخص يحاول تطبيق هذه العملية على لوكاش سرعان ما يكتشف ان هذه الطريقة ستخفق، ذلك ان الحياة الخاصة، حتى بالنسبة لاكثر الباحثين انطوائية وعزلة لا يمكن عزلها كليا عن موقفه العام. وعندما يكون الكاتب قيد الدرس قد امضى نصف قرن من حياته في خدمة قضية ثورية، فانه من الواضح ان التمييز بين «الحياة» و «الفكر» يصبح امراً يتعذر الدفاع عنه هنا. اضف الى ما سبق انه اذا كانت أهم أعمال هذا الكاتب كمنظّر، تتعلق بمواضيع تنبع من التحولات الحديثة في التاريخ الاوروبي منذ عام ١٩١٤، فكيف يمكن للمرء هنا ان يفصل النظرية عن التطبيق ؟ لقد شهد العقد الممتد من ١٩١٤ الى ١٩٢٤ اعظم جيشين عرفتهما اوروبا منذ أيام نابليون، ومن هنا ليس ثمة حاجة لاستخدام المنهج التاريخي في النظر الى اعمال لوكاش خلال تلك الفترة المليئة بالاحداث. مع ذلك فلا بد من اجراء عملية تبسيط ضخمة، وسوف نحاول ان نحلل تحول لوكاش من ذلك الافلاطوني المحدث الشاب عام ١٩١٤ الى المنظّر الماركسي عام ١٩٢٤ ، ثم نعود في وقت لاحق لارتباطاته السياسية والتنظيمية بالمعنى الضيق للكلمة.

ان احدى المصاعب التي تواجهها اية دراسة للوكاش هي التعارض بين مكانته كمنظّر في القارة الاوروبية وبين النظرة السائدة لاهميته بالنسبة للعالم الناطق باللغة الانكليزية. هذه ليست قضية سياسية، وهي لا تتضمن احكاماً على مزايا كتاباته المبكرة او كتاباته اللاحقة.

ثمة فكرة منتشرة نسبياً في الغرب يتعلل بها كل من محبيه المتهورين وبعض من نقاده، ومفادها ان لوكاش كان خلال حياته منظراً في علم الجمال، اما وجوده في الحزب الشيوعي فقد حدث لاسباب شخصية طارئة. يعود هذا الخطأ في فهم الفشل الناجم عن نظرة جادة الى نوع

التنظير الذي ساهم على نحو معين بايجاد الارضية للتفكير الاوروبي القاري.

فالاعتقاد بأن الادب والفن لهما دلالة فقط لكونهما يجسدان الحقائق الابدية والقيم المطلقة، هو بالتأكيد اعتقاد مشترك بين المحافظين سياسياً والمحافظين دينياً في العديد من البلدان. بيد ان هذا النوع من المحافظة يتسم بالدفاع منذ وقت طويل. ومن بين اعدائه الفلاسفة من اصحاب نظرية النسبية الى جانب الكتّاب الانطباعيين الذين تمنعوا عن منح علم الجمال مرتبة النظرية الاصيلة المرتبطة برؤية حقائق مستقلة عن مكانة الناقد الشخصية. ان ما يسمى الآن بالتجريبية يتمشى مع الليبرالية في السياسة والنزعة الذاتية Subjectivism في علم الاخلاق، فالفن هو مبررها الخاص، واما علم الجمال فهو ببساطة، التحليل الوصفي لما يشكل الاستقلالية الذاتية للفن.

وهنا تبرز الحاجة الى القول- بغض النظر عن المواقف السياسية على اختلاف نزعاتها الايديولوجية من الشيوعية الى الفاشية- إن العالم الانكلو-امريكي كان يبدو لاوروبا، وحسب التعبير الشائع حالياً، وحدة متكاملة لا مركز لها، ذات حضارة مادية فارغة المحتوى، تفتقر لاي شيء يستحق ان يسمى فلسفة. بمعنى آخر انها كانت تفتقر لاي نوع من التفكير الفهمي conceptual الذي يحاول ان يجعل للحياة، ككل، معنى أو للنظام الاجتماعي الذي تكون الثقافة جزءاً منه. وحسب وجهة النظر هذه فإن ما تنادي به الفلسفة في البلاد الناطقة بالانكليزية ليس سوى تمرين مسل في التحليل المنطقي في احسن الاحوال ولعبة اكاديمية في اسوئها. اما ردة الفعل المشتركة للفلاسفة الامريكيين والبريطانيين لهذا النوع من النقد فهي رفض للميتافيزيقيا باعتبارها هراء قديماً ورفض للفلسفة الهيجلية باعتبارها دجلاً وشعوذة، ورفض للماركسية باعتبارها نتاجاً او ثمرة غير شرعية للهيجلية.

ان احدى نتائج حالة عدم الفهم المتبادل هذه تفرض على اي

شخص يحاول تفسير اعمال جورج لوكاش للجمهور الناطق بالانكليزية ان يؤكد على امور تعتبر من البدهيات خارج العالم الانكليزي- الامريكي، ومن هذه الامور تحديداً انه لا يمكن للعمل ان يحتل نفس المكانة التي احتلتها الميتافيزيقية العظمى. فاذا ماتت هذه النظم فليس ثمة امل في احلال التحليل المنطقي او اللغوي مكانها. ولكن تترتب على ذلك نتيجة ابعد ،وهي ان الفراغ لا يمكن له ان يملأ بدراسة الأدب. بيد ان وجوب حدوث هذه المحاولة اليائسة فعلا منذ نصف قرن يشهد على حقيقة انه حتى في ظل حضارة مغتربة عن ماضيها فان الناس لا يحيون بعبادة الحقائق وحدها. وبالرغم من النجاح العظيم في رفع مكانة النقد الادبي الى مستوى التنظير الاصيل، فمن الواضح انه ليس في وسع احد ان يقوم بدور الجمع المفاهيمي بالمعنى الهيجلي الماركسي للكلمة (او بالمعنى الكيركجاردي او البارثي Barthian نسبة الى اللاهوتي الجدلي كارل بارث). ليس بوسع الأدب او الفن ان يحتلا مكانة الفلسفة او الدين بالرغم من استطاعتهما ان ينفذا الى قيم كل منهما او احداهما. كان هذا الاكتشاف بالتحديد هو الذي انزل الفتى لوكاش من برجه العاجي وان كان سلك هذا المنحى بطريق المصادفة، بمعنى انه مسلك قد تقرر بحكم الاوضاع السياسية في بلد لوكاش- هنغاريا- وبالدور الاساسي لطبقة الانتلجنسيا التي ما كان بوسعها ان تختار، ولأسباب اللاعقلانية الرومانسية التي اعتنقها اليمين السياسي.

ونحن بطرحنا السياسة جانباً لمعالجة امر اخر، نكون قد تابعنا تطور لوكاش الخاص بشكل منطقي، لأنه لم يصبح لينينيا بمعنى الكلمة الا في عام ١٩٢٤ .وحتى ذلك التاريخ كان يسعى لأن يجمع بين موقف اليسار المغالي في التطرف سياسياً (بلغة الشيوعيين) وبين تفسيره الشخصي للماركسية، الذي ظهر بشكل أخّاذ في مجموعة مقالاته عام ١٩٢٣. وبعد ان وضع كتيباً صغيراً عن مؤسس البلشفية بمناسبة وفاة لينين في يناير/ كانون الثاني عام ١٩٢٤ لاحت تباشير

تراجع تكتيكي عن منصب صعب المنال، مما مكن لوكاش من الاحتفاظ بموقفه الرسمي داخل الحركة الشيوعية العالمية. بيد ان ما يهمنا الآن هو تطور لوكاش الفكري خلال الاعوام ١٩٢١-١٩٢٤.
فاذا حملنا هذا التحليل لمناقشة مواقفه السياسية بعد العام ١٩١٩ بشكل منفصل، فان الخطأ ينبغي ان يعزى، جزئياً الى لوكاش، ثم ان لوكاش، بعد استيعابه ماركس عن طريق هيجل ومن ثم لينين بتخلّيه عن مذهبه الاصيل الذي تضمنه كتابه «التاريخ والوعي الطبقي»، استطاع ان يغير الصورة التي رسمها لنفسه بشكل كلي في العام ١٩٢٤. والحقيقة ان تحوله الى اللينينية لم يلغ التزامه بعدد من الحقائق عن التصورات العامة التي كان يحملها قبل عام ١٩١٤ حول طبيعة الكون ومصير الانسان. فقد كانت هذه الحقائق بالنسبة اليه مطلقة وموضوعية وغير تجريبية. وصحة هذه الحقائق لا يضمنها العلم بالمعنى الوصفي للكلمة ولا الايمان اللاعقلاني الاعمى، وانما النفاذ الى الطبيعة الاختبارية للحقيقة، وهي عملية فكرية قدمت فلسفة هيجل نموذجاً عنها.
لا شك ان هذا الكلام سيبدو ضرباً من التفخيم للشخص المؤمن بالتفكير المنطقي البسيط في العالم الناطق بالانكليزية. لذلك ينبغي التأكيد على انه من وجهة نظر المفكرين في وسط اوروبا في تلك الحقبة- من انصار نيتشه والهيجليين مروراً بشبنغلر وهيدجر وانتهاء بلوكاش، فان التفكير المنطقي البسيط بالحقيقة التجريبية كان هو العدو، وبالطبع كان هناك تراكم هائل من التفكير الوضعي في العلوم الطبيعية يبدو وكأنه قد تأثر بالأزمة التي مرت بها العلوم الانسانية. وكانت توجد اسماء ذات نفوذ اكثرها شهرة ماكس فيبر- دأبت على مناصرة التفريق الكانطي الجديد بين التفكير والاستنتاج العلمي وبين الميتافيزيقيا. وبالمثال كان هناك فلاسفة بارزون من الكانطيين الجدد والوضعيين بين صفوف الحزب الديمقراطي الاشتراكي الالماني الذي احتفظ بمناصب مهمة خلال العقد الذي تلا الانهيار في عام ١٩١٨.

بيـد ان هذه المناصب الفكرية سبق وان تعـرضت للاهتـزاز قـبل عـام ١٩١٤، وبعد عام ١٩١٨ واجـهـت حملات عنيـفـة من جميع الفئات السـيـاسـية. وعندما وقف لوكاش الى جانب القضية الثورية كان ذلك بمـثـابة التزام سياسي جاد متوافقٍ مع قناعاته الفلسفية التي كان يتلمس طريقـه نحـوها طيلة سنوات قـبل ان تغير الثـورة الروسـيـة مـعالم القارة الاوروبية.

لـقـد ظهـر لوكـاش اصـلاً على مسرح الأحـداث في وقت عمّ فـيـه الاعـتـقاد الشائع بأن الخيار الوحيد المفتوح امام الشخص الذي يرفض الميـتـافيزيقيا التقليدية والايمان الديني يكمن بين وضعية العلم التجريبي و «المذهب الحيوي» الذي نادى به فلاسفة لا عقلانيون. ومن هنا كان الافتتان بما حققه ديلثاي في حقل العلم العقلي Geisteswissens - chaft وهـو اصـطـلاح يـصـعـب ترجمتـه لكون المقطع الاول منه يحمل نبرة مـيـتـافـيـزيقية تترجم بصورة غير ملائمة «بالعقل» أو «الروح». ان ما كان يعنيه الاصطلاح Geisteswissenschaft هـو التطابق بين عـقل المفكر التأملي والعـقل العـام الذي تظهـر تجليـاته مبثوثة امامنا في التـاريخ. وبهذا المعنى فـان مذهب التأويل او التفسير من النمط الذي تقـدم به ديلثـاي يمكن اعـتـبـاره محاولة لاعطاء الفلسفة، مرة اخرى، مـركـز الصـدارة الذي شـغلتـه زمـان هيـجل (باسـتـثناء نظرية هيجل الروحـيـة في الوجـود التي رفـضـهـا ديلثاي بوصفه مخلصاً في هذا المقام لميراثه الكانطي الجـديد مـعـتبراً اياها نظرية اعـتـباطية وتأملية). والشيء الذي ميّز بين علم العـقل او الروح وعلم الطبيعة -Naturwissens chaft هو الطريقـة التي انتهجها كل من هذين العلمين بشكل لا يقل عن مـوضـوعيهما. فاذا كانت العلوم الطبيعية تعمل وفقاً للتمييز القاطع بـين المـوضـوع والـذات، الـعـقـل والمـادة، فـان «علم الروح» لا شك سيكون علماً تأمليـاً واسـتـبطانياً، وموضوعه سيكون العالم الذي خلقته الروح الانسـانية او العقل البشري، وقد رد هذا التمييز الى فيكو Vico وردت اليـه ايضـاً الفكرة المرتبطة به والتي قـوامـها انه يوجد أو يمكن

ان يوجـد علم خـاص بالعقل يكون مرآةً للروح وسجلاً لتطور الانسان في آن. وقـد قـام هيـجل بدمج هذه الافتراضـات الميتافيزيقية في صلب نـظام وخيـم، حـيث فـقـد هذا النظام سلطتـه عند الفترة المتأخـرة من القـرن التـاسع عشر بعـد أن تعـرض لنيران الهجوم من جانب المؤرخين الوضـعـيين واقـرانهم علماء الاجتماع وعلماء الانسان (الانثروبولوجيين). وعندمـا قـام الاحـيـاء الكانطي الجـديد في سبعينات القرن الثامن عشر باعـادة الاعـتـبـار للفلسـفـة فـانما كان ذلك على اساس من الفهم بأن الفـيلسـوف لن يضع الملامـة، بعـد ذلك التـاريخ، على العلماء لامـور استطاع ان يتـبصر بها. فالفلسفة اذن اصبحت مرادفة، واقعياً، لمنطق العلم وهو وضع مـشترك بين الكانطيين الجـدد والماركـسـيين الوضـعـيين امثال انجلز.

وبعد عام ١٩٥٥، ادى القلق المتـزايد حـول الانفـصال الراديكالي بين العلم والفلسـفة في ارقى معانيها Weltanschauung (اي كنظرة شـاملة الى الكون والعالم) الى اعادة الاهتمام بهيجل، وقد ساهم ديلثاي بقـوة في هذا الصـدد، فأعـد دراسـة نقدية في غاية العمق حول كتابات هيـجل الاولى. وبهذا العـمل أحـدث الشرخ النهـائي في ارهاصـاته او (بداياته) الوضـعـيـة الشخصية، وتوج في الوقت ذاته عملاً رائعاً يمكن القـول انه تركـز حـول فكرة واحدة: اعادة تشكيل الوحدة بين النظرية والـتـطـبـيـق، وبـين المـنـطـق والأخـلاق، وبـين الـتـجـريـبـي والاستشراقي Transcendental، تلك الوحـدة التي مزقها كانط شر تمزيق. ان دراسـة التاريخ تميط اللثام عن الطبيعة الاساسية للانسان كما هي كـائنة في التـجـربة الانسانية كلها، والمؤرخ دخل الى حياة الاجيال الـسـابقـة بمـعـايشـة افكارها وأعمارها في ذهنه هو. ان «علم الروح» و «فلسـفـة الحياة» كانا بمثابة مظهرين لعملية واحدة لا تعرف الكلل عن رؤية تتـخطى التـجـريبـيـة في النظر إلى الحـيـاة والتاريخ العالمي بكليته المتحركة.

ويمكن استنتاج الأثر الناجم عن فصل الكانطية الجديدة بين العقل

النظري والعقل العملي في لوكاش الشاب (وفي غيره) من خلال الفقرة الافتتاحية لـكتابه «نظرية الرواية» The Theory of the Novel حيث يقول:

«مباركة هي الأوقات عندما تكون السماوات طريقاً ترشد خطوطها الى السبيل التي ينبغي اتباعها، وتضيء نجومها الممرات التي يمكن سلوكها... ان العالم واسع، ومع ذلك فهو يشبه مقام المرء ذاته، فالنار المشتعلة في الروح مشتركة في جور مع النجوم... يقول نوفاليس Novalis حقاً ان الفلسفة هي الحنين، انها الرغبة في ان يكون المرء ببيته في كل مكان. من هنا فان الفلسفة، كشكل من اشكال الوجود Lebensform، هي دوماً دلالة على الانفصال او شرخ بين ما هو باطني وما هو ظاهري، وهي دلالة على التفاوت الجوهري بين الأنا والعالم ودلالة على انعدام التطابق بين الروح والفعل».

ان هذه الملاحظة العاطفية التي أبداها شاب يافع تثقف وتربى على افكار الرمزيين عند نهاية القرن، اظهرت واخفت، في الوقت نفسه، معضلة روحية حقيقية. وبعكس ديلثاي الذي نشأ في بيئة كالفينية ودرس اللاهوت البروتستانتي قبل توجهه الى الفلسفة، فان لوكاش لم تكن له خلفية دينية او صلة غريزية بجانب من الفلسفة المثالية الميتافيزيقية الالمانية، او التي سادت في القرن التاسع عشر، وهي فلسفة يمكن ان توصف بحق أنها مذهب علماني. لقد اصبح تعبيره عن يأسه الوجودي غير ممكن الا من خلال الغنائية التي غذاها هولدرلين- وهو شاعر صديق لهيجل، مات، لسوء الحظ، مجنونا. كانت الحقائق التي ينشدها لوكاش حتى عام ١٩١٧ لا تتناسب بطبيعتها مع شكل اكثر واقعية من اشكال التعبير. من هنا فان تبنّيه اللاحق للاسلوب التعليمي المصوغ على غرار اسلوب هيجل الحازم كان القصد منه اخفاء الترابط الكلي، بيد ان النقاد استطاعوا ان يدركوا الرباط بين لوكاش الشاب اليافع، ولوكاش الناضج المتمرس

في ميدان فائق الأهمية له ، هو ميدان علم الجمال. وقد سبق لأحد الذين راجعوا كتاب «الروح والأشكال» ان اظهر في العام ١٩١٢ أن لوكاش يعتبر، بصورة اساسية، كاتباً رمزياً؛ فقد كان يهدف في اسئلته الاولى حول التكنيك الشعري الى القيام بطرح فلسفة للفن يحدد فيها بدقة المسائل النهائية في الحياة.

وكان هذا الأسلوب شائعاً في الاوساط التي انتقل اليها. وقد كان يروج لذلك منذ زمن بعيد اتباع غوته الروحانيون الاكثر وعياً لانفسهم ، ومن اعظمهم توماس مان Thomas Mann . ان ما يحتاج هنا الى التأكيد هو ان لوكاش انتقل الى الهيجلية في هذه السنوات لنفس الأسباب التي دفعت ديلثاي للتخلي عن الكانطية الجديدة التي قادت العالم الاكاديمي الالماني قبل نشوب الحرب الاولى، والفارق الاساسي هو ان ديلثاي كان متعمقاً في ثقافة الطبقة الوسطى الالمانية البروتستانتية التي ظهرت في نهاية القرن التاسع عشر، بينما كان لوكاش يشعر بأنه بلا هدف روحي في وقت كانت فيه الحضارة البرجوازية، وهي الحضارة الوحيدة التي يفهمها ويقدرها، تمر في طور الانحلال. وبعد ان اظهر نفسه بمظهر الخليفة الماركسي لديلثاي- وهو أمر لم يدّعه ولكن أعماله تشهد على ذلك ـ غدا لوكاش وريثاً للمسائل المستعصية في فلسفة علم العقل والروح Geisteswissenschaft . كيف يمكن استخراج اليقينات الميتافيزيقية من دراسة التاريخ اذا كان البحث التاريخي ينبثق من الاعتراف بأن لكل ثقافة معاييرها الخاصة التي دخلت في عملية ادراك الواقع؟

وبالنسبة لديلثاي كان الجواب موجوداً في فعل الايمان، وهو ليس الايمان اللاهوتي الذي كان سائداً ايام شبابه، ولكنه الايمان بتلك الوجدانية الغامضة التي آمن بها كل من هردر، وغوته، وشلينغ، وشيلر ماخر وهمبولدت. لقد تركز علم العقل Geisteswissenschaft على القيام بعملية فهم او

استيعاب Verstehen للتجربة المعاشة يتخطى فيها المفكر الفرد المستوى السيكولوجي ويعيد صياغة المعنى الموضوعي لعالم الروح كما ظهر في حضارات قومية مختلفة بفنونها وعلومها وفلسفاتها ودياناتها المميزة.

ان هذه التجليات الموضوعية للروح التي تشكل بمجموعها العالم الانساني، كانت دائمة الحركة ولكنها مع ذلك تمثل عالماً يتخطى التاريخ ويعلو عليه، وهو عالم في متناول العقل التأملي. وصف لوكاش عام ١٩٦٢ وفقاً لهذا المنظور كتابه المنشور عام ١٩١٦ «نظرية الرواية» بأنه «نموذج لعلم العقل»، ومنذ ذلك الحين تبنى لوكاش نظرية ديلثاي في التفسير او التأويل. ان هذه الطريقة التي شرحها ديلثاي باختصار في مقال له يعود الى العام ١٩٥٥ تشكل محاولة لاحلال التفسير المنتظم مكان الطريقة السيكولوجية في فهم البنى الرمزية التي تواجه المؤرخ في مجابهة ابداعات العقل او الروح. ولكن حيث اكتفى ديلثاي بتقديم علم للنماذج Typology يشتمل على النظرات الى العالم، وهي نظرات متأصلة بالتحليل الاخير في بنى نفسية ثابتة، فإن لوكاش قد رجع قاطعاً الطريق كلها الى هيجل. لقد حدد ديلثاي ثلاثة أنواع او انماط ونماذج من التصورات-Weltans chauung: التصور الاول هو جمالي- تأملي (يعرف ايضا «بالمثالية الموضوعية») ، والثاني فعال تمثله «المثالية الذاتية» عند فيخته ، والثالث التصور الواقعي الطبيعي الذي يماثله في عصره النزعة الوضعية لدى اوغست كونت وهربرت وسبنسر. ان هذا التمييز هو تمييز كانطي وليس هيجلياً، لأنه قصد أن يصور نماذج دائمة للعقل البشري. وقد احيا لوكاش، بتجاوزه لهذا التمييز، الفكرة الهيجلية، عملية التنشيط الذاتي الكامنة في الحركة الجدلية للشخصية، في مقدمة كتاب «نظرية الرواية»، حيث نجد توضيحاً مسهبا لهذه النقطة يقول فيه:

«بالطبع، ثمة نسبية تاريخية وضعية، وهي تلك النسبية التي صهرها شبنغلر خلال سنوات الحرب بالذات مع النزعات المستمدة

من علم العقل، لكي يصل الى تأريخ حاسم لكل المقولات رافضاً الاعتراف بصحة القضايا التي تتجاوز التاريخ، سواء كانت قضايا جمالية او خلقية او منطقية. ان مؤلف نظرية الرواية Theorie des Romans لا يذهب بعيداً الى هذا الحد، بل انه كان يبحث عن الديالكتيك التاريخي الشامل للأدب- المتأصل في صلب المقولات الجمالية وفي صلب الاشكال الادبية- والذي سوف يميل نحو علاقات داخلية بين المقولات والتاريخ، اكثر جوهرية من تلك التي وجدها في هيجل. انه كان يحاول ان يدرك شيئاً ثابتاً وسط التغير او تحولاً داخلياً ضمن استمرارية الجوهر وديمومته.

ولعل تفسير لوكاش ارهاصاته الفكرية حقق بهذه الطريقة نقطة ابعد قابلة للنقاش، وهي ان هيجليته الاصلية قد استبق توقعها ديلثاي، لأنها استندت الى قول فيكو المأثور إن الرجال يمكنهم استيعاب ما صنعوه بانفسهم ليس الا . لقد استشهد ديلثاي بفيكو ضد ديكارت والطريقة الديكارتية بشكل عام، وبذلك احيا مبدأ في البحث مشتركاً بين هيجل وماركس (وباستثناء فارق مهم هو ان هيجل وفيكو والسكولاستينيين من قبلهما اعطوا فلسفة التاريخ وظيفة استعادية تنظر الى الأحداث بعد وقوعها Retrospective ، اي ان العقل يدرس المنطق الباطني للعملية التاريخية بعد ان تكون الواقعية قد حدثت). وبحسب وجهة نظر فيكو، وهو لا يزال متأصلاً في طقس عبادة القديم، فان منطق التاريخ يتجلى من خلال حركة دائرية من التقدم (السير الى الامام) والارتداد (الفعل وردة الفعل) Corso and Ricorso. اما بالنسبة لاتباع المذهب الديكارتي في القرن الثامن عشر وعلى رأسهم تورغو Turgot وكوندروسيه Condrocet فان التاريخ يرمز الى التقدم الخطي المضطرد نحو حالة من الكمال في هذه الدنيا. لقد قام هيجل بالتوفيق بين طريقة فيكو وعقيدة عصر التنوير. بيد انه في الوقت الذي يتخلى فيه عن الايمان بفكرة الحركة الدائرية، فانه يبقى مؤمنا بان الروح تبلغ حالة الوعي الذاتي في الفلسفة فقط

بعد ان تكون حقبة ما قد وصلت الى نهايتها. وكما قال هيغل في مقدمة «فلسفة الحق» فان بومة مينرفا تنطلق في طيرانها عند الغسق. او لنستشهد بالوصف الأوضح الذي اطلقه ماركس على طريقة هيغل واسلوبه: «الفيلسوف يأتي متأخراً، بعد ان تقع الواقعة». ان ما يميز بين الهيجليين الشبان في عام ١٨٤٠ وبين هيجل هو ايمانهم بان التاريخ يمكن ان يصنع بشكل واع وليس اعتباطاً (بالطبع لقد كان البشر دوماً يصنعون- بشكل من الاشكال - تاريخهم، مع انهم لا يدركون ذلك).

لم يكن ماركس المفكر الكبير الوحيد في زمانه الذي اختلف مع هيجل حول هذه المسألة، بيد ان الشرح الذي احدثه اكتسب اهمية عالمية، لأنه دمج النظرية بالتطبيق لحركة استهدفت تغيير العالم. وبعد استعادته لهذا البعد في تفكير ماركس، وهو بعد اهمله اتباع ماركس ولم يكد يكون معروفاً لدى الاشتراكية الاوروبية ونظرتها التطورية عام ١٩١٤، اتبع لوكاش منطقاً سبق له ان ردد ذكره في كتابه «اطروحات او موضوعات حول فيورباخ».

لماذا اذن كان لا بد من وقوع الحرب العالمية الأولى، وبتحديد اكثر، الثورة الروسية؟ كي يتسنى تحطيم سيادة الفلسفة العقلية التأملية؟ ان مقدمة كتاب «نظرية الرواية» التي ظهرت في طبعة عام ١٩٦٢ تشير الى هذه النقطة المثيرة بالقول: ان لوكاش كان خلال تلك السنوات «متأثراً بشكل خاص بجورج سوريل». ولقد لفت جورج سوريل (١٨٤٧-١٩٢٢) انتباه الجمهور بكتابه «تأملات في العنف» الذي ضمنه انتقاداته اللاذعة لضحالة البورجوازية الليبرالية التي جاءت ابان موجة الاستخفاف الشائعة بالتقدم المادي. هنا نصادف الغموض الخاص للمصطلح الالماني الذي يمكن ان يعني «العقل» او «الروح». فإذا اخذنا بالمعنى اللاحق للمصطلح، فالعقل لا يختلف عن الحقيقة المادية، وانما يسمو عليها.

وكان من المعروف لدى المثقفين الالمان قبل عام ١٩١٤ من ذوي

الميول المحافظة والرومانسية ان الكلمة الالمانية ثقافة او حضارة Kul-tur تختلف عن Civilization او «المدنية» السائدة في غرب اوروبا، باعطائها الروح صفة الاولوية في صنع التاريخ. بيد أن الروح كانت تأملية اكثر من كونها فاعلة. لذلك فان استخدام ديلثاي تاريخ العقل او الروح قد يصور دون شك (روح العصر) كما بدت في كل الآداب والعلوم. ولكن المؤرخ لا يستطيع ان ينقل الحقيقة كما بدت في عصره. ان التاريخ الفكري بامكانه- وهو يقوم بذلك فعلاً- صياغة التموضعات المختلفة للروح ابتداء من الوعي وحتى الاساليب والازياء المتغيرة في الفن، ولكنه عاجز عن تغيير الظروف المادية التي اوجدت ثقافة معينة «وروحها السائدة».

وبالنسبة لافتراضات ديلثاي التي تتعلق بمسار الأحداث منذ قيام عصر النهضة بتحرير العقل البشري من ظلمة اللاهوت، فان هذا التباعد او الانفصال بين التاريخ وكتابة التاريخ لا يشكل عقبة تذكر. فقد كان ديلثاي ليبرالياً إلى حدّ الايمان بأن التقدم كان حقيقياً، فالبشرية اخذت تعي بالتدريج وحدتها الأساسية، وقد عبرت عن وعيها الذاتي بادراكها المستمر للعملية التي تسمى التاريخ. «ان الوعي التاريخي يحطم آخر القيود، تلك التي لم تستطع الفلسفة والعلوم الطبيعية ابداً تحطيمها، وبذلك يصبح الإنسان حراً بشكل كامل الآن». فالتاريخ الروحي او الفكري، باعتباره التاريخ الجامع للروح الانسانية، يقدم الدليل على ان البشرية بلغت سن الرشد. ان النسبية التي يتضمنها هذا النوع من الوعي لم تصبح مشكلة للمفكرين الالمان الا بعد ان توارى ديلثاي عن مسرح الأحداث. ان الانماط التي صنفها للنظرات الى العالم اشبعت توقه الخاص الى اليقين: «بوسعنا ان نعرف ماهية الروح البشرية من خلال التاريخ فقط. ان هذا الوعي الذاتي التاريخي يسمح لنا بتكوين نظرية منهجية عن الانسان». وبناء على هذا الافتراض الهادىء فان النمط التأملي في التفكير لم يكن ملائماً للمؤرخ فحسب، بل إنه يؤكد صحة رأي الفيلسوف ايضاً. ان

«التاريخية» أوجدت تبريراً لنفسها عن طريق تعريتها البنى الملازمة للنفس البشرية، وقد انعكست صورة هذه البنى في تاريخ الفلسفة، حيث كانت أنماط التفكير الأساسية نفسها في حالة صراع داخلي. فثمة توحد بين هذه الطريقة وبين بصيرة هيجل، بيد أن مبدأ الصيرورة الهيجلي كان ناقصاً، ومن جهة أخرى كان ديلثاي يشارك هيجل في طمأنينته ونزعته الى السكينة او الهدوء Quietism فقد استشف او أدرك منطق هذه العملية وكان هذا كافياً بالنسبة اليه.

اما بالنسبة لافتراضات هيجل (الناتجة على منوال افلاطوني) فان الحركة الدائرية للعقل، عندما تقوم بخلق العالم اولاً ثم تصبح واعية لذاتها في الفلسفة، فانها تسمح بنمط واحد من التفكير هو النمط التأملي. ولننظر كيف يصفها هيجل في عام ١٨٠٧ بقوة لا مثيل لها واعتقاد جازم في الفقرة الختامية من كتابه «فينومينولوجية الروح»:

«ان الهدف، وهو المعرفة المطلقة أو معرفة الروح لذاتها كروح، يجد طريقه في تذكر الأشكال الروحية كما هي في حقيقتها، وكما تقوم بإتمام تنظيم مملكتها الروحية. ان المحافظة عليها، اذا ما نظر اليها من زاوية وجودها الحر الذي يظهر بشكل طارىء على صورة الامكان او الجواز، هي التاريخ، واذا ما نظر اليها من زاوية تنظيمها الفكري المدرك فهي العلم بالطرق التي تظهر فيها المعرفة. وكلاهما معاً، او التاريخ في فهمنا الفكري لهذا التاريخ، يؤلفان مرة واحدة التذكر للروح المطلقة وجلجلتها، دافع عرشها وحقيقته ويقينيته. وبدون ذلك فإنه فاقد الحياة موحش ومنبوذ فقط...

«كأس هذا العالم من الأرواح يطفو منها الزبد حاملاً الى الله لا نهايته».

هذا البيت من الشعر هو اقتباس من أبيات الشاعر شيلر الذائعة الصيت «من كأس الروح بأكملها تطفح اللانهاية امام ناظريه»، وهي الأبيات التي عالجها مؤرخو الفلسفة معتبرين أنها صياغة رومنطيقية

للموضوعية التي تتناولها محاورة افلاطون وعنوانها «طيماوس». وبينما نجد هيجل قد تصرف بعض الشيء في نص شيلر، فجاءت صياغته على النحو الآتي: «من كأس مملكة الروح هذه تطفح امامه لا نهائيته»، فانه حافظ على روح القول الوارد على لسان الشاعر: فالإله الذي يبدع عالماً من الأرواح المتناهية، هو إله غير كاف بالنسبة لذاته، ويقبع سر المثالية الالمانية في القناعة الراسخة والقائلة إن جوهر هذا الإله لا يمكن فهمه بواسطة الروح البشرية. لقد أدى هذا المعتقد الباطني غرضه خلال القرن التاسع عشر، ولكن، بينما استهوت الفنانين رسالته الافلاطونية، فهي قد اخفقت بحكم الضرورة في ان تقيم اتصالاً مع الباعث (الحافز) النقدي الناشىء عن انهيار النزعة الجمالية التأملية في العام ١٩١٤:

«لهذا السبب، فإن العصر الحاضر في «نظرية الرواية» لا يتسم طابعه بعبارات هيجلية، بل يوصف- لكي نستخدم صياغة فيخته- بأنه «عصر من الانحطاط الكلي». لكن هذه التشاؤمية المشوبة بالأخلاق نحو التاريخ لم تشرْ الى تراجع عام عن هيجل وتوجه صوب فيخته، بل كانت تمثل التوجه نحو حقن الديالكتيك الهيجلي للرواية بأفكار كيركغارد. لقد امتلك كيركغارد بالنسبة لمؤلف «نظرية الرواية» مغزى بارزاً، فقد قام خلال السنوات التي قضاها في هايدلبرغ عشية الحرب، بالعمل على دراسة تناول نقد كيركغارد لهيجل، لكنها لم تنجز ابداً. واذا كنا نذكر هذه الوقائع هنا، فليس مرد هذا اسباباً تتعلق بالسيرة الحياتية، بل ان الهدف هو التركيز على نزعة اتخذت اهمية فيما بعد في الفكر الالماني. ومن الصحيح ان التأثير المباشر الذي مارسه كيركغارد أدى الى قيام وجودية هيدغر وياسبرز، وبالتالي الى عداء مكشوف تقريباً نحو هيجل. لكن يجب علينا الا ننسى ان النهضة الهيجلية كانت في حد ذاتها تعمل بنشاط وقوة في محاولتها الرامية الى تقديم هيجل وكأنه قد وقف على مقربة من اللاعقلانية. هذه النزعة يمكن ملاحظتها سابقاً في دراسات ديلثاي عن هيجل الشاب

(لوكاش ١٩٢٢).

يختلف هذا الوصف الذاتي المميز اختلافاً بارز المعالم عن مقالة السيرة لذاتية وعنوانها«طريقي الى ماركس»Mein Weg zu Marx ، وهي المقالة التي اسهم بها لوكاش عام ١٩٣٣ في الدورية الشيوعية «الادب العالمي»(International Literature). فقد رأى القارىء هنالك ان لوكاش الشاب، بعد ان قرأ «البيان الشيوعي» وهو لما يزل تلميذاً في المدرسة الثانوية(الجيمنازيوم)، تأثر الى حد جعله يتصدى لقراءة كراريس ماركس السياسية. وليس هذه فحسب، بل ان يقرأ المجلد الاول من كتاب «رأس المال». وفي الوقت ذاته، فان اهتداءه الى الاشتراكية لم يترك اثراً في نظرته الاساسية لأسباب وصفها لوكاش عام ١٩٣٣ كما يلي:

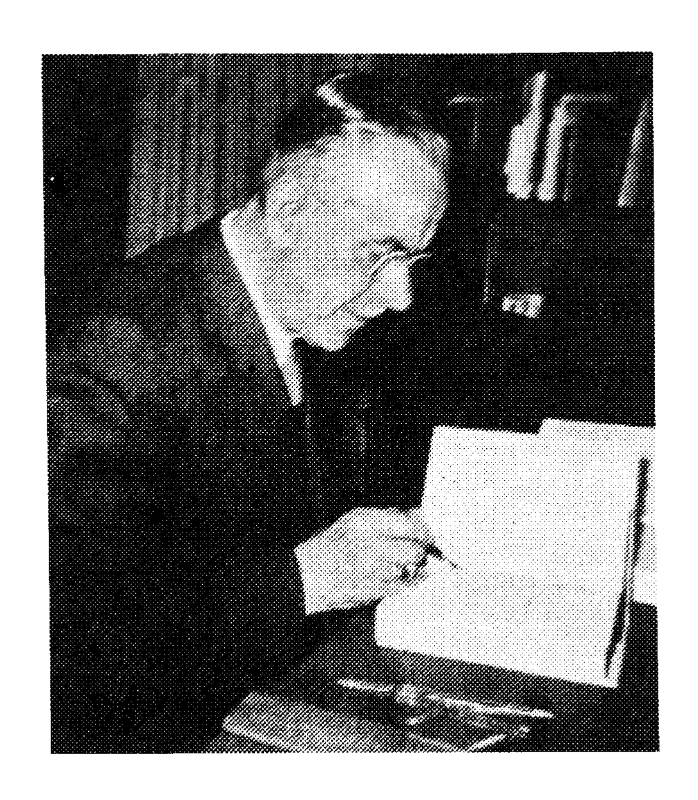
«وكما هو من الطبيعي لا غير، في حال مثقف بورجوازي، فان هذا التأثير انحصر في الاقتصاد ولا سيما في علم الاجتماع». اما الفلسفة المادية- ولم أقم حينذاك اي تمييز بين المادية الجدلية والمادية غير الجدلية- فقد اعتبرتها قديمة العهد كلياً بالنسبة الى نظرية المعرفة. والعقيدة الكانطية الجديدة في «محايثة الوعي او الوجدان» تطابقت خير تطابق مع موقعي الطبقي ونظرتي الى العالم حينذاك. فلم أعمد الى اخضاعها لأي ضرب من ضروب التفحص النقدي، وقبلتها دون اعتراض معتبراً اياها نقطة البداية لأي نوع من أنواع البحث في نظرية المعرفة. حقاً، لقد كانت لديّ تحفظات بشأن المثالية الذاتية المتطرفة (بالنسبة لكل من مدرسة ماربورغ الكانطية الجديدة وفلسفة ارنست ماخ)، وذلك لأنني لم أفقه كيف ان مسألة الواقع يمكن معالجتها ببساطة كمقولة محايثة من مقولات الوعي (الوجدان). لكن هذا الأمر لم يقدني الى نتائج مادية، بل قادني بالأحرى الى تلك المدارس الفلسفية التي حاولت ان تحل هذه المشكلة بطريقة نسبية لاعقلانية، حيث كانت تميل بين الحين والحين نحو الصوفية (فيندلباند وريكرت وسيميل وديلثاي). ان تأثير «سيميل»، الذي تتلمذت عليه آنذاك،

قد اتاح لي ان ادمج تلك العناصر من تفكير ماركس التي كنت استوعبتها خلال هذه الفترة دمجاً متكاملاً في مثل تلك النظرة الشاملة الى الكون والعالم».

وفي تفسيره على هذا النحو بأن لامبالاته حيال الفلسفة المادية كانت شيئاً طبيعياً لا غير بالنسبة لمثقف بورجوازي شاب ينتمي الى حقبة ما قبل ١٩١٤ لا بد وأن لوكاش قد حير تلك الفئة من بين قرائه الذين تذكروا انه في العام ١٩٢٣ (بعد انقضاء اربع سنوات على الدور الرئيسي الذي لعبه في الثورة المجرية المجهضة عام ١٩١٩) لم يكن على استعداد بعد لأن يأخذ «المادية الجدلية» بعين الجد. وربما اعترت البعض منهم الدهشة والعجب حين رأوا تلك الدرجة من السهولة بالنسبة لفتى هو سليل البورجوازية الرفيعة قبل عام ١٩١٤ يتقبل العقيدة الماركسية عن الصراع الطبقي، بينما هو في الوقت ذاته يقاوم التعاليم غير المؤذية نسبياً والمتضمنة في المادية الفلسفية. لكن علينا ان نتذكر ان لوكاش في العام ١٩٣٣ كان يخاطب جمهوراً اسيرا، وفضلاً عن ذلك فانه شعر بواجب يلزمه في دحض مثليته الفتية، بينما راح يؤكد انه حتى في ذلك الحين لم يكن يجهل من هو ماركس. إن كتاب جورج سيميل «فلسفة النقود» وكتابات ماكس فيبر عن البروتستانتية زودته بمثال عن «سوسيولوجية الأدب» (علم اجتماع الأدب)، حيث كانت العناصر الباهتة بحكم الضرورة والتي استقاها من ماركس لا تزال موجودة، وان لم تكد تكون قابلة للادراك حقاً. ان العناصر الماركسية (المأخوذة من ماركس) هي غير مدركة بالحس، حتى ان أشد اتباع لوكاش عناداً وتحمساً لم يتمكنوا أبداً من التعرف اليها. والحقيقة هي ان لوكاش خلال تلك السنوات السابقة للحرب العالمية الأولى كان موزّعاً بين كانطية لاسك الجديدة وبين هيجلية ديلثاي الجديدة وبين لاعقلانية كيركغارد الدينية وبين النزعة الجمالية للحلقة الملتفة حول جورج وغوندولف.

وبينما عكس تفسيره السياسي تأثير جورج سيميل، الذي كان

حـينذاك- على الصـعـيد الفلسفي- من المعجبين بهنري برغسون، فإن شـيئاً مـن هذا كله ليس ضـاراً بسـمـعـة لوكـاش، لكن المرء لا يمكنه تفـسير ذلك بعـبـارات لها صلة وثيقة بموضوع «موقعه الطبقي». وعليه فـمن الأقـرب الى الصدق والصحة ان نقول إن قلقه الروحي كان المرآة لمدنيةٍ هي حـينذاك على وشك التعرض لأولى ازماتها الكبرى.



توماس مان

الفصل الثالث

قـد يشعـر بعض القـراء لدى اطلاعهم على الفصل السابق باغراء يحدوهم الى الاسـتنتـاج بأن مؤلف «التاريخ والوعي الطبقي» كان منظّراً مـاركسـياً بارزاً، وأنه شخص مجري، لكنه بصورة عرضية فقط، تلقى تعليـمه الاساسي في حقل الفلسفة في المانيا قبل الحرب الاولى. ان هذا الانطبـاع ينبـغي تصـحـيـحـه بالعودة الى المصادر الأولية لتطور لوكاش السيـاسي والفلسـفي. لقـد بيّنا ان هذه العملية تتضمن تمييزاً مصطنعاً بين مـواضـيع وثيقة الصلة فيما بينها واهمها تراجع لوكاش التدريجي عن الجمالية بعد عام ١٩١٤ وانهماكـه في السـيـاسـة خلال العقد الممتد من ١٩١٩ ـ ١٩٢٩.

ان التاريخ الحاسم هو العام ١٩١٩ وذلك عندمـا اصـبـح شخصاً بارزاً يشـغل منصب «مـسـاعـد رئيس الدائرة الثـقـافـية» في الجمهورية الهنغـارية السـوفـيـاتيـة، والأهم من ذلك أنه اصبح شخصية قيادية في الحـزب الشـيـوعي المؤسس حـديثـاً. وبحكم منصـبـه الرسمي احتل، لوقت قـصير، مكانة هامـة في الجـبـهـة السيـاسـيـة. بيـد أن انغماسـه الأسـاسي في شـؤون الحـزب حـدث بعـيـداً عن أنظار الجمهور وحظي باهتمام أقل. عـلاوة على ذلك، فـان تطور لوكـاش الفكري قـبل العام ١٩١٩ لم تسلط عليـه الأضواء الا حديثاً وعلى يد منظر هنغاري مجهول يدعى ارفين تسابو او تشابو Ervin Szabo ،وهو سليل عائلة يهودية تنتمي للطبقة الوسطى ، التحق بجامعة فيينا ، (١٨٩٩ - ١٩٠٣) كطالب يدرس التـاريخ والفلسـفـة، وهناك تعرف على المواطنين الروس المنفـيين الى فـيينا، واصـبح مـاركسـيـاً، ولكنه تشـقف ايضـاً بكتابات برودون ونيـتـشـه ولافـروف وكربوتكين. وعند عودته الى بودابست عهد اليـه قـادة الحـزب الاشتراكي بمهمة تحرير كتابات مختارة لماركس وانجلز تقع في ٣ اجـزاء، ومنذ عام ١٩٠٥ اتخذ تشـابو مـوقفاً معارضاً لقيادة الحـزب الديمـقـراطي الهنغـاري شـبه البالية مهاجماً عاداتها البيروقراطية

ورضاها بالتطور البطيء، ومعارضاً موقفها السلبي تجاه المبادىء النقابية- الفوضوية التي راجت في فرنسا على يد قادة العمال الذين تصوروا قيام ثورة البروليتاريا على شكل اضراب عام. كانت النقابية الفوضوية مذهباً مثيراً، تتقرب الى كل من ماركس وبرودون وسوريل وباكونين في وقت واحد. وفي فرنسا كان لها اتباع بين الطبقة العاملة، وجرى تبنيها رسمياً من المنظمة النقابية الاساسية «الاتحاد العام للعمال Confederation general du travail»في ميثاقها «ميثاق اميان» Charte d'amiens في اكتوبر/ تشرين الاول ١٩٠٦. اما في هنغاريا، فإلى جانب معارضة الحزب الاشتراكي لها فقد وقفت النقابات ضدها، ولكنها كانت تنشط في صفوف الطلاب والمثقفين بصورة أساسية، ولما كان جلهم ينتمون الى طبقة الانتلجنسيا ومن اصل يهودي، فان ما بدا على شكل خلاف نظري قد تحول تدريجياً الى عداوات عنصرية، اضافة الى الارتياب الطبيعي الذي شعر به منظمو العمل الواقعيون تجاه المثقفين الثرثارين من الطبقة الوسطى. وقد

تفاقم هذا الكره المتبادل في عام ١٩١٨-١٩١٩ بسبب كون غالبية القيادة الجديدة للحزب الشيوعي الهنغاري من المثقفين، الذين القى الديمقراطيون الاجتماعيون عليهم مسؤولية فشل تجربة الحكم القصيرة وما أعقبها من اضطهاد دموي للاشتراكيين والشيوعيين على حد سواء على يد الثورة «البيضاء» المضادة. لم يكتب «لتشابو» الذي توفي في ايلول عام ١٩١٨ ان يرى تكراراً للمحاولة الفاشلة للاستيلاء على السلطة، كما فعل لينين، ولم يعرف بأنه منح عضوية فخرية في «اكاديمية موسكو الاشتراكية» وان مركزه كمنظر اول لليسار الهنغاري قد آل الى لوكاش.

انتحل نادي الطلاب الاشتراكي الذي أوجده عام ١٩٠٢ اسم «الطلاب الثوريين الاشتراكيين في بودابست» ، واعتبر لوكاش من بين اعضائه المؤسسين، وقام بعض من اتباع النادي السابقين ممن لم يغادروا هنغاريا، بالتردد على محاضرات تنظمها منظمة اقل تطرفاً

تسمى «حلقة غاليليو Galileo Circle » التي تأسست في خريف عام ١٩٠٨ للاهتمام بالمصالح الطلابية، ولإيجاد منتدى للنشاطات الثقافية داخل الجامعة. واكدت «الحلقة» في بيانها الافتتاحي: «انطلاقا من الوعي الكامل بالدور التاريخي للمثقفين... نعاهد على توحيد الطاقات الفكرية للطلاب الهنغاريين وتقويتها... لتمكينهم من أن يصبحوا مهيأين ومقاتلين مدركين اهمية تحرير هنغاريا اجتماعياً». ولتحقيق هذا الهدف شجعت «الحلقة» الحملات الديمقراطية المعادية للاكليركية، من النوع الذي يلقى التأييد الطبيعي من العناصر الليبرالية اليسارية، خاصة في بلد مثل هنغاريا، حيث كان النظام الحكومي القديم- بالرغم من شكله البرلماني- غير ديمقراطي على الاطلاق. ونظمت «الحلقة» ايضاً محاضرات وندوات حول الفلسفة وعلم الاجتماع والتاريخ وعلم الجمال. وكان من بين المحاضرين البارزين ادوارد برنشتاين ، والباحث الماركسي النمساوي ماكس آدلر Adler. لقد أوجدت الحلقة «بالرغم من استقطابها عدة مئات من التلاميذ فقط، مناخاً للتعبير عن الآراء بشكل جماهيري»، واعتبرت هذه الآراء حسب المقاييس المحلية، متطرفة ان لم تكن تخريبية تماماً. ويمكن القول إن معظم اتباعها من الليبراليين المتطرفين، بيد انهم اختلطوا بمجموعة فوضوية- نقابية صغيرة، أصبح تشابو منظرها الملهم، ولم تحظ اية مجموعة من المجموعتين بتشجيع الحزب الديمقراطي الاجتماعي الهنغاري، فقد كان منهمكاً بتنظيم العمال، ثم إن قادته وضعوا ثقتهم في تحليل كارك كاوتسكي الحتمي للماركسية، وقد دفع اشمئزاز تشابو من معتقد الديمقراطيين الاجتماعيين ورضاهم عن أنفسهم الى اعتناقه النزعة النقابية Syndicalism. أما الآخرون- ومن ضمنهم المنظر الشيوعي لا تزلو روداسي- فقد اختلفوا بشدة مع القيادة الرسمية الأمر الذي تسبب في طرد الصحافي الشاب جيولا الباري من الحزب، وقد سبق لالباري ان قام بعدة محاولات عصيان فاشلة (جرى اتخاذ قرار طرده في مؤتمر الاشتراكيين الدوليين الذي

عقد عام ١٩١٠ في كوبنهاغن).

وقد عارض قرار طرده كل من لينين وروزا لوكسمبرغ. وبالرغم من أن لوكاش لم يكن متورطاً بهذه المسائل السياسية البحتة، فقد بقي على صلة مع تشابو الذي كان يمثل بالنسبة اليه كل ما هو حي وقيم في التقليد الاشتراكي. وهذا ما يفسر اشاراته شبه الاعتذارية لسوريل في وقت لاحق، وهو مفكر استنار تشابو بكتاباته واعتبرها جزءاً من عدته الايديولوجية. من هنا أيضاً نستطيع ان نفهم كيف بدأت فكرة «الوعي» تأخذ دوراً مهماً في تفكيره، ويمكن استنتاج دلالات هذا المفهوم بالنسبة للمفكرين في بودابست من خلال الرسالة التي بعث بها اوسكار جاتشي الى الراديكالية النافذة، والتي قالت عند ظهورها في أول يناير/ كانون الثاني ١٩٠٠: «ينبغي علينا نحن المثقفين العمل على تحويل الوعي المنقوص الذي يعشش في نفوس الجماهير الى وعي متكامل حول العالم، وان نقوّض المجتمع القائم باسلحة الاخلاقية والعلم والفنون». اننا لا نلمس في هذا البيان شيئاً اشتراكياً او ماركسياً باستثناء التأكيد على الدور الأساسي للمثقفين في توضيح دور الوعي الجماهيري والتعبير عنه. كان جاتشي الذي يستعير أحياناً بعض المصطلحات النقابية، يؤمن بأن المسألة الاساسية في هنغاريا هي ملكية الاراضي، وهو إيمان معقول جداً شاركه فيه الديمقراطيون المعتدلون. لقد قام جاتشي، بوصفه اشتراكياً، بالتأثير في تشابو الذي قام بدوره بالتأثير في لوكاش، وتجدر الاشارة هنا الى ان تشابو اعتبر الاشتراكية، في مقالة له نشرتها مجلة « الزمن الجديد » Neue Zeit التي يرأسها كاوتسكي، متطابقة مع الحرية وبالتحديد مع ما دعاه «النظام العالمي الديمقراطي». لم يرفض تشابو، بحكم اخلاقيته الصارمة، اللعبة البرلمانية السياسية فحسب، بل رفض التسويات السياسية في حد ذاتها- وهذا النوع من الأخلاقية ينسجم، الى ان يتم الاستيلاء على السلطة، مع الحماسة الثورية للحركة النقابية، وبعد ذلك تتخذ مشكلة ابقاء الثورة «نقية» وغير فاسدة شكلاً آخر.

ولكن لنتوقف الآن قليلاً عند مجلة اوسكار جاتشي «القرن العشرون»"Huszadik Szazad" . في باديء الامر كانت هذه المجلة الشهرية تلقى دعماً من رجال الأعمال الأثرياء والمحامين، الا ان توق محررها الشديد للاشتراكية ادى الى وقوع الطلاق بينهما مما حمل جاتشي واصدقاءه إلى الميل اكثر نحو حركة العمال. وكان الهدف الأساسي من إصدار المجلة هو تشجيع المآرب الديمقراطية الليبرالية في بلد شديد المحافظة يحكمه الاقطاعيون والعسكر ورجال الدين. وبعد مرور سنة على تأسيسها اوجد محرروها «جمعية العلوم الاجتماعية» التي اصبحت من ساعتها منتدى للمساجلات الدائرة حول المزايا النسبية للنزعات الماركسية والنقابية وغيرها، مما يدفع الى القول ان الراديكاليين اكتشفوا الاشتراكية وعلم الاجتماع في وقت واحد. وقد كان جلهم من عائلات موسرة، وكان من الممكن ان يكونوا راضين كل الرضا عن الليبرالية فيما لو كان لها امل ضئيل بالنجاح في بلد مثل هنغاريا، حيث كانت الديمقراطية تعني الثورة بالتأكيد (لأنه ليس ثمة شك في أن جمهورية ديمقراطية سوف تجرد الاقطاعيين الذين يملكون ثلث اراضي هنغاريا من ممتلكاتهم ومن سيطرتهم على الحكومة والبرلمان). ومن هنا فان وضع هنغاريا هو أقرب الى وضع روسيا القيصرية منه الى المانيا او اوروبا الغربية. فالتحول الديمقراطي لا بد وان يكون مقبولاً من حيث الأساس من الطبقة الوسطى، بيد ان بعض المعتدلين من أبناء هذه الطبقة، والذين سبق لهم ان ساندوا هذه المغامرة، سرعان ما سحبوا تأييدهم، وعندما انسحبوا لم يكن امام جاتشي ورفاقه سوى خيار واحد، وهو أنهم اذا ارادوا كسب الجماهير الى جانبهم، فلا بد ان يوجهوا اهتمامهم نحو البروليتاريا الصناعية، ولكن ما الهدف من وراء ذلك؟

لقد كانوا يهدفون، حسب التعبير الماركسي، الى احداث «ثورة بورجوازية»، حتى وان كانت معتقداتهم الشخصية اشتراكية او نقابية، وهذا النوع من الغموض المألوف جداً في عصرنا، كان جديداً بالنسبة

الى المثقفين الهنغاريين في عام ١٩١٠ ، بالرغم من ان الراديكاليين الروس والبولنديين جاهدوا عشرات السنين في سبيل تلك الثورة. ان الحديث عن رفع مستوى وعي الجماهير الى مستوى الطليعة المثقفة سيكون مألوفاً لشخص مثل لينين وروزا لوكسمبورغ، ولهذا السبب بالتحديد لم يواجه لوكاش- الذي كان مثل تشابو «يكتب لمجلة القرن العشرين» - صعوبة تذكر بعد عام ١٩١٧ في الانتقال من جورج سوريل الى الاشتراكية الثورية التي نادت بها روزا لوكسمبورغ ومن ثم الى اللينينية.

وكان هناك شيء آخر، وهو ان الدور الاساسي للمثقفين ترجم نفسه بصورة تلقائية الى مذهب يقول إن الاصلاح الخلقي ينبغي ان يحل مكان الثورة السياسية، من هذا المنطلق وصف جاتشي مجلته الليبرالية بأنها «تعبير عن تركيبة روحية وخلقية جديدة». اما تشابو، مساعد رئيس التحرير في مجلة «القرن العشرين» ونائب رئيس «جمعية العلوم الاجتماعية»، فلم يكفّ عن التأكيد على أهمية الدوافع الخلقية الكامنة في الرسالة الاشتراكية الاصيلة. وخصص لوكاش مقالة عام ١٩٢٠ لمعالجة مشكلات الأخلاقية الشيوعية. وهذه المقالة كتبت بالالمانية ونشرتها مجلة «الشيوعية» Kommunismus لسان حال الأممية الشيوعية، والتي تولى تحريرها في فيينا. وقد حملت العنوان التالي: «الرسالة الخلقية للحزب الشيوعي» وكانت عبارة عن تتمة لمقال سابق وبخه عليه لينين لأنه دعا فيه الى مقاطعة الانتخابات النيابية. وقد وقف لينين في هذه المناسبة الى جانب قائد الحزب الهنغاري «بيلاكون» Bela Kun (اعدم فيها بعد بناء على أوامر ستالين في عام ١٩٣٩) في وجه لوكاش، اليساري المتطرف، الذي بقي يحتفظ حتى ببقايا ايمانه بالنقابية.

بيد ان الحادثة ينبغي ان لا تحظى باهتمامنا هنا، فالذي يعتبر مثيراً حقاً هو تعريف لوكاش لـِ «الرسالة الخلقية» للحزب الشيوعي. فقد كتب يقول في مقالته التي سبق ذكرها (وقد اعيد طبعها في «كتابات

حـول الايديولوجـيـة والسياسة»): ان «الحزب هو التعبير التنظيمي عن الارادة الثـورية البروليتارية».

ان هذه الصـيـاغة التي تتوافق مع طريقة روزا لوكسمبورغ في التعبير اكـثـر من توافـقـهـا مع طريقـة لينين تعـود الى الأيام السـابقة قبل عام ١٩١٤ عندمـا وضع لوكـاش ثقـتـه السـيـاسية في «القرارية» الفوضوية الـنقـابيـة التي نادى بها سـوريل وتشـابو. ان التـوجـه الأسـاسي الذي يتضمنه هذا النوع من التنظير كان متفقاً تماماً مع الاخلاقية التي تشربها في هايدلبرغ عندمـا كـان تلمـيذاً وصديقاً للمفكر لاسك، فاعتبار دور الوعي (الضـمير او الوجـدان) حاسماً، اي عدم اعتباره ظاهرة مصاحبة لـلـعـمـليـة التـاريخية الواقـعـيـة، كـان ايماناً مـشتركـاً بين جميع هؤلاء المفكرين.

انطلاقـاً من هذه الافتراضـات، اصـبح بوسع تشـابو ان يتحول بعد عام ١٩١٧ مـن النقـابيـة الى البلشـفـيـة وذلك فـور ان قـامت الثـورة الـروسـيـة بـمـنـح مجالس العمال، التي اخـذت تحل مكان المؤسـسـات الـبرلمانيـة البـورجـوازية، حق النظر في الأمـور. لم تكن سـيطرة حـزب لينين على السوفيات (التي كـان فـقـدانها يعني الوقـوع تحت سيطرة حـزب سـيـاسي آخـر) واضـحة للماركسيين في وسط اوروبا، ولكن بعد مـرور عـقـد من الزمن اعتنق خلاله لوكاش اللينينية وتخلى عن هرطقاته اللوكـسـمـبـورغـيـة، اصـبـحت هذه السيطرة اكثر وضوحاً. ولعله من الأهمـيـة بـمـكان ان يشـار هنا الى الاضطرابات الفكرية التي اعـقـبت الحرب، والتي ادت الى ظهور نوع جديد من النخبوية Elitism على المسرح اليسـاري السـيـاسي، ونعني بذلك حكم التكنوقراط. لم يبذل الحـزب الديمـقـراطي الاجتماعي او الاتحادات التي يسيطر عليها جهداً خـاصـاً لـتـنـظيم المهندسين الصناعـيين او العلماء او المخططين وباقي المـلاكـــات الادارية والموظفين من ذوي الرتب الـعـاليـة اصـحاب الياقات البيضـاء White Collar Workers.

وكـانت الحـرب قـد دفـعت بهؤلاء الاعـضـاء المنتـمين الى «الانتلجنسيا

الانتـاجية» حسب تسمية بعض الكتّاب لهم- صوب التطرف، وشكلوا في بداية عام ١٩١٧ ، بـعـد ان اثـارتهـم المراحـل الأولى مـن الثـورة الروسـيـة وقـبل تولي البـلاشـفـة السلطة، نقـابة خـاصـة بهم لتـحقيق هـدفـين: الأول حمـاية مـصـالحـهم في الشركـات، والثـاني مـسـاعـدة النشـاطات المعـادية للحـرب التي سـبقهم اليها بعض العمال النشيطين الـنـقـابيين والمنشـقين من الاشتراكـيين. وقـد ادى اهمال وتوبيخ القـادة النقـابيين والحـزب الديمقراطي الاجتماعي لهم إلى ان قام هؤلاء التقنيون المسيّسونPoliticized Technicians باختراع ايديولوجـيـة اشتراكية خاصة بهم عرفت فيما بعد باسم «اشتراكية المهندسين» Engineer Socialism . ويمكن القـول إن غـيولا هفيزي (وهو منظرهـم الأول) احيا مجدداً السان سيمونيةSaint Simonism، بالرغم من أنه لم يكن ينظر اليـهـا بالتأكـيـد بهذا المنظار. وحـسب رأي المؤرخ جـوزف لنجيل الشـيـوعي لاحـقـاً، فـان هفيزي وضع «خطة لاحداث ثورة عن طريق القـيام بعمل تخريبي متفق عليه يقوم به التقنيون والمهندسون الذين كان مـن المـقـرر ان يـقـومـوا بـالـدور الأسـاسي في عـمـلـيـة الـتـحـولات الاجـتـماعـيــة»، ورفـض هـفـيـزي نـظـريـة مـاركـس حـول فـائض القيمةSurplus Value؛ فـهـو يعـتـقـد أن الجزء الأساسي من فائض القـيـمـة يتأتى من المخترعـات الهندسـيـة والتقنية... اما العمال فكان عليهم ان يكونوا حلفاء مساعدين في معركة «المنتجين المبدعين».

وانطلق اليسـاريون المثـقـفـون، ممن تشـبعوا بالايمان التكنوقراطي، للعمل. وفي نهاية عام ١٩١٧ وطّدوا عـلاقاتهم مع منظمي النقابية في بودابست على حـسـاب الديمـقـراطيين الاجـتماعـيين والنقـابات شـبـه الرجـعـيـة التي يسـيطرون عليها. في هذه المرحلة انضم اليهم كل من الماركـسـيين المثـقـفين من «حلقـة غاليليو» وتشابو واتباعه من الطلاب، واشتراكـيـون بارزون مـعـادون للحزب من امثال ايلونا دوتشينسكا التي كـانت قـد وصلت آنذاك من سـويسرا تحمل كتابات ومنشورات دعائية اعطتها لها صديقة لينين انجيلكا بلابانوفا Balabanova ، وكـان

التحريض ضد الحرب بين مستخدمي المحلات الذين كانوا متعاطفين أصلاً مع الأفكار النقابية، عاملاً مهما في الأحداث المأساوية التي وقعت عام ١٩١٨-١٩١٩ عندما انهار الحكم القديم في هنغاريا تحت وطأة الهزيمة العسكرية في الخارج والاضطراب العام في الداخل. وعقب انهيار المملكة النمساوية الهنغارية في نوفمبر/ تشرين الثاني عام ١٩١٨، أصبح الطريق ممهداً امام تجربة جمهورية هنغاريا السوفياتية القصيرة. وبعد استقالة حكومة الكونت كاروليي Karolyi (التي ضمت اوسكار جاتشي) عن الراديكالية البورجوازية في ٢١ اذار عام ١٩١٩، أصبحت الطريق ممهدة امام الديمقراطيين الاجتماعيين لاقامة حكومة ائتلافية مع الشيوعيين الذين أطلق سراح قادتهم في اليوم ذاته، واصبحوا بعد مضي ٢٤ ساعة فقط مفوضي الشعبCommissars .

وكانت مساهمة لوكاش في هذه الأحداث الكبيرة مهمة. فبعد عودته الى بودابست قادماً من هايدلبرغ في عام ١٩١٧، حيث مكث فيها بين عامي ١٩١٥-١٩١٦ يعمل مراقباً للبريد، وهي مهنة يمكننا القول إنه كان ينظر اليها بروح ليبرالية، انضم الى عالم الاجتماع العتيد كارل مانهايمMannheim والى مدرسة الناقد الفني أرنولد هاوزرHauser في «المدرسة الحرة للعلوم الانسانية». وكان هذا مشروعاً يغذي التيار العام للراديكالية المثقفة، بيد أنه لم يكن يحمل طابعاً حزبياً سياسياً. اما موقف لوكاش خلال تلك الفترة فقد وصفه اصدقاؤه المقربون خير وصف حين قالوا انه موقف «اشتراكية خلقية تتصف بمسحة من تولستوي». ومن المؤكد انه لم ينضم الى الحزب الشيوعي فور تأسيسه في نهاية نوفمبر/ تشرين الثاني عام ١٩١٨ على اثر اصرار كون، الذي كان قد عاد حديثاً، على الانفصال رسمياً عن «الاشتراكيين» محدثاً بالنتيجة انشقاقاً- بمساعدة مستخدمي المحلات النقابيين والديمقراطيين الاجتماعيين المنشقين والفوضويين المثقفين واتباع هفيزي من جماعة «اشتراكية المهندسين» الذين اختير قائدهم

عضواً في اللجنة المركزية في ١٥ ديسمبر/ كانون الاول بالرغم من ميوله غير الماركسية.

وخلال هذا الشهر- التاريخ الدقيق غير مؤكد- انضم لوكاش، بعد تردد اظهره في البداية، الى الحزب الشيوعي، ولكنه لم يكن بين اعضاء اللجنة المركزية التي عينت نفسها، والتي سيطرت عليها مجموعة بيلا كونKun البلشفية بالاضافة الى اربعة اعضاء من الديمقراطيين الاجتماعيين من بينهم لاتشلو روداسRudas الذي ميز نفسه لسنوات عديدة بمعتقد لينيني- ستاليني جريء. والمهم هنا أنه خلال الفترة القصيرة الممتدة من شباط/ فبراير الى آذار/ مارس عام ١٩١٩- وعندما كان بيلا كونKun ورفاقه الحميمون في السجن - فان لوكاش (يساعده زاملي Zamely وجوزيف ريفاي Revai وأرنو يتلهايم وألك بولزارBolsar) لم يقوموا بادارة امور اللجنة المركزية السرية فحسب، التي سيطر عليها جهاز الحزب في ذلك الوقت، بل انهم وجهوها نحو مسار يساري متطرف وانضموا الى الآخرين للتحضير لانتفاضة ايار/ مايو المسلحة. ويبدو ان غياب بيلا كونKun الموقت وباقي القادة المدربين في موسكو قد اطلق تطلعات، وهي تطلعات لم تتحقق ابداً بسبب استقالة كاريولي المفاجئة وتسليمه السلطة فوراً للشيوعيين - وكان ينبغي للأحداث ان تبدأ على شكل اضراب عام وتنتهي بانتفاضة مسلحة وفترة قصيرة من الارهاب. ولم يكن الاندماج الاشتراكي- الشيوعي، الذي نظم على عجل، والذي مكن بيلا كون ومساعديه من تشكيل حكومة ائتلافية بسلام في ٢٢ آذار/ مارس عام ١٩٢٢ ، متفقاً مع ميول اولئك اليساريين المتطرفين الذين آمنوا بأن الاستيلاء على السلطة لا يتم إلا عن طريق العنف. بيد ان لوكاش رضخ للحزب واحتل منصب المفوض العام لشؤون الثقافة في الحكومة الجديدة ومنصباً اسمياً هو نائب الامين العام للحزب الديمقراطي الاجتماعي.

ان اهتمامنا ههنا بالحدث المفجع الذي لم يدم طويلاً(قيام جمهورية

هنغاريا السوفياتية) انها ينبع فقط من كونه زوّد لوكاش بترسانة من الأسلحة السياسية والنظرية في نضاله المقبل مع كتلة بيلا كون. ومن المهم هنا التأكيد على ان هذه المواجهة انتقلت الى مسألة «البورجوازية الديمقراطية»، وهي مسألة كانت مصدر ازعاج دائم للشيوعيين لا سيما في بلد متخلف كهنغاريا حيث كانت السيطرة للفلاحين. ونتيجة ذلك، لم يكن ممكناً للتحالف الاشتراكي الشيوعي ان ينتظر جدياً الحصول على اغلبية تشريعية، وكان التشاؤم القائم على اسس صحيحة في ما يتعلق بالنتائج المحتملة للانتخابات الشعبية من بين الأسباب التي دفعت الديمقراطيين الاجتماعيين الى التخلي، ببطء، في آذار/ مارس عام ١٩١٩ عن كاريولي والوقوف الى جانب الشيوعيين. واذا أردنا استخدام الصياغة اللينينية للموضوع فان قادتهم توصلوا الى رأي مفاده ان وقوع ثورة ديمقراطية بورجوازية في هنغاريا سوف يستلزم فترة انتقالية قصيرة من «ديكتاتورية البروليتاريا».

وبالرغم من ذلك كانت هناك مسألة ملحة وأهم، فقد ادى انهيار الملكية النمساوية- الهنغارية الى تعريض هنغاريا للتدخل العسكري من جانب رومانيا وتشيكوسلوفاكيا وبلاد الصرب- وجميعها تتلقى الدعم من الدول الغربية بشكل عام ومن فرنسا بشكل خاص، وهذه الدول لها مطالب تتعلق بالاراضي الواقعة في النصف الهنغاري من المملكة الثنائية. وذلك لأن الحكام الهنغاريين لم يكتفوا باستعباد الهنغاريين قروناً طويلة بل امتد استعبادهم الى الاقليات القومية المضطهدة ايضاً.

وقد جردت اتفاقية الهدنة، التي اضطر كاريولي الى توقيعها في تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩١٨، هنغاريا من قرابة نصف اراضيها السابقة. واجهز على الباقي الانذار النهائي الذي سلمه رئيس البعثة العسكرية الدولية الفرنسي في بودابست في ١٩ آذار/ مارس والذي يأمر فيه الحكومة بان تسحب قواتها خلف خطوط الحدود المعينة، وهدد بالتدخل العسكري في حالة عدم الالتزام بذلك، فألهب ذلك الطلب المشاعر القومية. وعندما رفض كاروليي الانذار النهائي وافرج

في الوقت نفسه عن قادة الشيوعيين المعتقلين، استطاع هؤلاء ان يتولوا السلطة خلال ٤٨ ساعة تدعمهم موجة من المشاعر الوطنية والشعبية الاصيلة . ووقف الزعيم الاشتراكي ساندور غارباي Garbai مخاطباً مجلس العمال في بودابست يوم ٢٠ آذار/ مارس بقوله: «ينبغي ان نسير باتجاه آخر لنأخذ من الشرق ما حرمنا اياه الغرب. يجب ان نركب موجات الأحداث الجديدة. ان جيش البروليتارية الروسية يتقدم بسرعة». بهذه الروح انطلقت الجمهورية الهنغارية السوفياتية التي لم تعمر طويلاً، لتدمج الاشتراكية بالقومية خلال خمسة شهور من وجودها، وعندما أطاح بها الجيش الابيض تحت قيادة الادميرال هورثي في شهر آب/ أوغسطس بمساعدة القوات الرومانية والبولندية، فاق حمام الدم الذي تلا ذلك ما سمح به الشيوعيون لانفسهم من حرية الارهاب خلال الفترة القصيرة من حكمهم.

وفي كلمات، روى احد الديمقراطيين الاجتماعيين البارزين المعروف بتواضعه الجم والذي كان وزيراً للحربية في حكومة كاريولي قبل ان يتولى قيادة الجيش الاحمر الهنغاري ما يلي:

«بعد ان انتهت الثورة، قامت العناصر المضادة بتصفية حساباتها مع ٢٣٤ شخصاً ذهبوا ضحية الارهاب الثوري ، وبالمقابل قتلت ٥٠٠٠ ثوري خلال عدة شهور.

لم تكن تلك خاتمة المطاف، فان حكم هورثي الذي أعدم ٥٠٠٠ رجل وامرأة قد زج في السجون ٧٥٠٠٠ شخص لعلاقتهم المزعومة بالتعاطف مع الشيوعيين وحمل اكثر من ١٠٠,٠٠٠ مواطن على الهجرة، وكانت غالبيتهم العظمى اما من المثقفين الليبراليين، او من يهود الطبقة الوسطى في المدن، الذين كانوا بمثابة العمود الفقري للحياة الديمقراطية، كائنة ما تكون، في هنغاريا قبل حكم الارهاب الابيض. وحدثت هجرة جماعية في صفوف الباحثين المشهورين والفنانين من الذين لم يصرحوا بآرائهم لمفوض الشؤون الثقافية . ويمكن استنتاج رأي الاشتراكيين في حلفائهم الشيوعيين من خلال ما

قاله احد قادتهم الاحياء:

«كانوا فلاسفة ومحبين للجمال اقتحموا عاصفة الثورة المعافاة... بيد أنه لم يكن بوسعهم تحمل القتال المستمر... وفي النهاية تراجعوا بحزن، الى وحول آرائهم ومعتقداتهم الفاترة التي لا تعرف قعراً. كانت المخاطر تحيط بهم من الخارج، ولكنهم تجمعوا في «البيت السوفياتي»، وبدأت النقاشات المرة التي لا تنتهي. كان هناك جيورجي لوكاش، الفيلسوف السابق من هايدلبرغ وجوزيف ريفاي موظف البنك السابق والمنظر في علم الجمال وبارفين سينكو، الكاتب المسرحي المتأثر بتولستوي الشاب وزوجة لوكاش الروسية ايلينا اندرفينا غرابنكو. وكان هناك ايضاً بعض الفكرانيين او الايديولوجيين من ذوي الافكار المشتتة. وانتشرت في الجو مقتطفات من هيجل وماركس وكيركغارد وفيخته وفيبر وجان بول وهولدرين ونوفاليس».

ان الحملة الناجحة التي قام بها لوكاش يشاركه توماس مان وشخصيات ادبية المانية بارزة على اثر اعتقاله في اكتوبر / تشرين الاول عام ١٩١٩ في فيينا، كانت بمثابة شهادة بالأهمية التي اكتسبها خلال الحقبة التي قضاها في هايدلبرغ. وعلى اثر الافراج عنه بعد اشهر قليلة من قيام الحملة، انغمس في المناقشات الكتلوية الدائرة بين اللاجئين الشيوعيين في فيينا، حيث قام الحزب الشيوعي الهنغاري المحظور بتأسيس مكتب له (وعبر مسار هذه المناقشات الداخلية خرج لوكاش بمذاهبه التي ضمنها كتابه «التاريخ والوعي الطبقي»). وتحدد خط لوكاش السياسي والنظري في العشرينات بفعل هذا النضال، الذي لم يكشف النقاب عن أهميته الا في العام ١٩٥٦، عندما سمح له «الانفراج» الهنغاري القصير، بان يطلع الجمهور على مدى تورطه فيه. وفي غضون تلك السنوات اصبح لوكاش حليفاً لجنو لاندلر، وهو قيادي بارز نجا من كارثة عام ١٩١٩ وكان ينافس بيلا كون على قيادة الحزب الشيوعي الهنغاري، وفي عام ١٩٢٨-١٩٢٩ التزم لوكاش ببرنامج العمل المسمى باطروحات بلوم Blum (بلوم هو

الاسم الحركي للوكاش داخل منظمة الحزب الشيوعي الهنغاري) حيث طور موقفاً سياسياً خاصاً. وبعد موت لاندلر في عام ١٩٢٨ وما تلا ذلك من رفض «لأطروحته» من القادة الهنغاريين القاطنين في موسكو ومن جانب الشيوعية الدولية نفسها، ابعد من عملية اتخاذ القرارات، واجبر- وكان هذا ضد رغبته- على ان يقصر نفسه على الفلسفة والنقد الأدبي.

«اطروحات بلوم»:

ان ما تقدمت به «اطروحات بلوم» الهرطقية هو خطة راديكالية- ديمقراطية تتمركز حول فكرة قوامها ان نظام حكم هورثي يمكن ان يستبدل به نظام ديمقراطي جمهوري فقط. من هذا المنطلق ينبغي ان تطرح جانباً فكرة «ديكتاتورية البروليتاريا» بالمفهوم البلشفي، لان لوكاش ولاندلر خططا لتحالف مع الديمقراطيين الاجتماعيين (الذين سمح لهم مرة اخرى بمزاولة نشاطاتهم ضمن حدود معينة). وبالرغم من ان «اطروحات بلوم» قد صيغت بلغة لينينية، فقد كانت محاولة ترمي للخروج باستراتيجية من اجل القيام بثورة ديمقراطية يمكن ان تقود في مراحلها الختامية، ولكن ليس بالضرورة، الى تحقيق الاشتراكية، شرط ان تلقى دعماً جماهيرياً حقيقياً لقراراتها ضد الملكية الخاصة. كان انحراف لوكاش «اليميني» في ذلك الوقت، الى حد ما، جزءاً من نضال كتلوي أوسع اقترن باسم نيكولاي بوخارين (١٨٨٠-١٩٣٨) الذي تحدى حينذاك انغماس ستالين في الارهاب الداخلي ومغامراته اليسارية في الخارج.

من هنا ينبغي ان لا يفوتنا فهم محاولة لوكاش الفاشلة في رد الاعتبار لبوخارين، احد ابرز ضحايا محاكمات موسكو عام ١٩٣٦، على اثر الخطاب الذي القاه خروتشوف عام ١٩٥٦ وشجب فيه ستالين. لقد حطمت «بوخارينيته» الشخصية عام ١٩٢٨- ١٩٢٩ مستقبله السياسي، بيد انه احتفظ بعضويته الحزبية وحقه بتفسير الماركسية اللينينية لصالح قرائه الالمان والهنغاريين شريطة ان لا يتدخل

بالامـور السـيـاسية. بيد انه لم يفعل شيئاً الا بعدة فترة «الانفراج» عام ١٩٥٦ فـتـشـجع على الاخـذ بالثأر او الانتـقـام من بيلا كون معلناً في الوقت ذاته أن سـحبه «لاطروحات بلوم» عام ١٩٢٩ انما حـدث لاسـباب تكتيكية، وقبل ان ندخل في تفاصيل بدعة لوكاش الشهيرة في عام ١٩٢٣ تجـدر الاشـارة الى ان اتجاه لوكاش العام خلال تلك السنين اصطدم بمـفـهـوم لينين للفلسـفة، ذلك لأنه عندما قام باستعادة البعد الهيـجلي في فكر ماركس فانه انتهك، عن غير قصد، تفهم لينين لمؤلف «انجلز» الديالكتـيكية المادية، بتأويله التصويري الساذج لدور الوعي، وفي الوقت نفسـه، فـانه سـعى للتـوفيق بين نظرة لينين النخبوية لدور الحـزب الشـيـوعي وبقـايا ايمانه الشـخصي بروزا لوكـسمبورغ والنقابية. ومن الناحـيـة الفلسـفـيـة، فـان نقـاده اللينينيين اعتبروه هيجلياً يسارياً وليس مـادياً، ومع ذلك فـانه اعطى «الوعي الثـوري» دوراً مـهماً يتـفق تماماً مع مفهوم لينين للسياسة.

ان الـفكرة الراديكاليـة التي نسـبت الى البروليـتـاريا (ومن الناحـيـة العـمليـة للحـزب الشـيـوعي بوصـفه طليعة هذه الحركة) والتي تختلف جـذرياً عن الفكرة السـائدة في المجـتـمع البـورجـوازي زودته بمـقياس لتـعـريف الايديولوجـيـا: لقـد عـزا «الوعي الزائف» لتـعـريف الطبـقـة الحـاكـمـة بمـفـردها، وفي الوقت نفـسـه نسب للطبقة الثورية الكادحة امـتـلاك «الوعي الحـقيقي»، وان كان هذا الوعي بدائياً ويتطلب ارشاداً وتوجـيهاً من جانب الحزب الشيوعي.

ان تعـبير الطليـعـة- وهو يعني ببسـاطة مـسألة فرض نسبة التقدم وخـوض المعـركـة في وقت يتم فـيـه اسـتـبـاق الظروف المرئيـة للحركة بكاملهـا- يخفي صـعـوبة هامة، وهي ان الحزب في الحقيقة، ليس اكثر الاقـسـام تقدماً في الجيش البروليتاري، وانما هو قوة «لا طبقية» فرضت نفـسـهـا على حـركـة عماليـة هشـة. لم يكن هذا بتـاتاً ما كان يفكر به مـاركس عندمـا نبـه العمال الى انهم لن يحقـقـوا شيئاً ما لم يكن عندهم وعي كـامل باهدافـهم النهـائيـة. وبالمنظور الماركسي فـان تحرير الطبقة

العـاملة هو مـسـؤولـيـة هذه الطـبـقـة وحـدها، وليس مـسؤولية النخبة الثـورية من المثـقـفين. ان الطبـقـة العـاملة تمتلك درجـات متفاوتة من الـوعـي، وعـلى الاشـتراكـيـين ان يعـملوا مع تلك التي تكون اكـثـرها تقـدمـاً، وهذا هو كل مـا في الامر. ان مفهوم النخبة التي عندها وعي خـاص بها هو مـفـهوم يرفضه ماركس، ومن الناحية العملية فان لينين لم يصغ الموضـوع بمثل هذا الوضوح.

لقـد ترك هذا الموضـوع للامنتمين أمثال لوكاش، الأمر الذي جعله ينفـر منه. وفـات العـديد من القياديين الشيوعيين في ذلك الحين معنى التـزامـهم. واكـثـر من ذلك، فـقـد كان بوسعهم، وهذا ما فعلوه، ان يشيروا الى ان لوكـاش كـان «هرطوقـاً» على الصـعيد الفلسفي، بمعنى انه كـان يسـارياً هيـجليـاً وليس مـادياً. ومع ذلك، وبالنسـبـة لفـهـمه السـياسي، فان مصدر احراجهم جاء من حقيقة ان نوع الماركسية التي ادّعـاها لنفسه لها نغمة نخبوية. ان صيغة لوكاش برفعها «الطليعة» الى مـصـاف الحـقـيقة التاريخية المستقلة، التي وحدها تضم الوعي الحقيقي لـلـثـورة الـلينينيـة قـد اصـبـحت غير قـابلة للاتفـاق مع تمجـيـد روزا لوكـمسبورغ الرومانسي للحركة الجماهيرية.

والامـر الـذي يـنطوي على مـفـارقـة هو ان تمجـيـد لوكـاش للدور التـاريخي للطبقة العاملة، التي في الحقيقة لم تعتبر بتعريفه طبقة ثورية، قـد مـهـد الطريق امـام الاكتشاف الستاليني، وقوامه ان الطبقة العاملة اصـبـحت طبـقـة مـضـادة للثـورة ينبـغي صـدها بالقوة. ان الدلالات الكاملة لهذه الأمور أصبحت ماثلة للعيان عام ١٩٥٦ ، حين وقـعت الانتـفـاضة في هنغاريا، وعندما برهن لوكاش- وهذه ليست اول مرة- عـلى تـذبـذبه، فـوقف الى جـانب الثـوار متردداً، منكراً بذلك مـعـاني نـخـبـويتـه الخـاصـة. مع ذلك لم يكن هذا نهاية الامـر، فـفي أواخـر السـتـينات وقع صـديق للوكـاش في مأزق- وهو اندراس هيـجـدوس Hegedus المعـاون السـابق لراكوسي ورئيس الوزراء من نيسان/ ابريل عام ١٩٥٥ الى تشرين الاول / اوكتوبر عام ١٩٥٦- عـلى اثـر

اصطدامه بقيادة الحزب التي تلت ستالين وراكوسي، فوضع افكاراً شخصية في غاية الهرطقة تمثل نوعاً جديداً من «النخبوية»: تكنوقراطية محضة تذكر بـِ «اشتراكية المهندسين» التي نادى بها هفيزي عام ١٩١٨-١٩١٩. ومن بين الأمور التي تقدم بها الأطروحات التالية:

١- ان السوسيولوجيا او علم الاجتماع- لا بل جميع المحاولات العلمية البحوثية- لا يمكن ان تكون خادمة لأي حزب او عقيدة سياسية، فالبحث المتواصل عن الحقيقة هو هدفها الوحيد.

٢- ان النزاعات بين الفئات التي تمثل اصحاب المصالح والنفوذ في المجتمع الاشتراكي ليست شرعية، ولكنها مفيدة، بشرط ان توجد اشكال دستورية لحلها. وعلى سبيل المثال فان الدور المناسب الذي تلعبه نقابة العمال هو حماية حقوق العمال.

٣- ان النظرية الماركسية تحتوي على عدد من الأساطير همها الوحيد تنبيه البروليتاريا واخضاعها لتأثير العمل الثوري. وعلى السلطة حينما تتماسك وتقوى، ان تجابه هذه الاساطير بالحقائق لئلا تتصلب وتصبح عقيدة جامدة، كما حصل لراكوسي.ولتحقيق هذا الهدف ينبغي اطلاق حرية العلوم الاجتماعية (علم الاجتماع بصورة خاصة) لانتقاد جميع مظاهر المجتمع.

ومن باب الاعتدال المستحسن، أكد هيجدس أن الديمقراطية اخذت تتحول إلى مشكلة حقيقية في ظل الاشتراكية، وفي حزيران/ يونيو عام ١٩٦٨ عندما بدا أن القوى الديمقراطية في تشيكوسلوفاكيا المجاورة على وشك احراز نصر سياسي، كتب هيجدس يقول:

«ان الحزب اللينيني خرج من النضال بتيارات اصلاحية وأحزاب ديمقراطية اجتماعية تؤيد الأخذ بروح التطور، كما خرج بمظهر الحزب القائد في الصراع من اجل اقامة حكم الطبقة العاملة. كان الهدف تحقيق سيطرة تضع حداً لحق الملكية الخاصة لرأس المال ولجميع تلك الاشكال المؤسسة للسلطة ونفوذ الرأسمالية المبنية على الملكية الخاصة، او التي أقيمت لهدف حمايتها بأي ثمن. ان أي شخص لا

يأخذ بالحسبان او لا يهمه هذا الدور الهام للحزب اللينيني بكل ما يترتب عليه من نتائج لن يستطيع ان يفهم شيئاً من الدروس المستخلصة من تاريخنا الحديث».

ان عملية خلق سلطة للطبقة العاملة أوجدت حالة جديدة، وهي ان الحزب الذي كان يناضل من اجل الحصول على السلطة اصبح يتمتع بالسلطة بما فيها من سلبيات وايجابيات (ان هذه الوظيفة الجديدة بالذات خلقت موقفاً صعباً لتلك الاحزاب. ونتيجة لخصوصيات الوضع التاريخي، فانها اصبحت منظمات قوية مؤهلة لقيادة الجماهير في هذه المرحلة الثانية فحسب). واتيحت الفرص لحل المهمات الجديدة بطرق مختلفة، بيد انه كان امراً لا بد من مواجهته: كان لا بد من اقامة وترسيخ نظام اداري جديد بشكل او بآخر، وبالتحديد نظام مدني، أي ان تعطى السلطة الحقيقية للهيئات الادارية المختلفة.

وفي السنوات التي اعقبت انتصار الثورة الاشتراكية مباشرة طرحت البدائل الثلاثة التالية:

البديل الاول: وقد شرحه تروتسكي الذي كان نصيراً لخلق دولة مونوليثية Monolithic على النمط العسكري (ولئلا يضلل احد، فقد كان تروتسكي في الثلاثينات من اكثر النقاد عنفاً في معارضته لهذا الحل، وهو أول من وضعه، بيد انه لم يوضع موضع التطبيق الفعلي الا في ظل قيادة ستالينية).

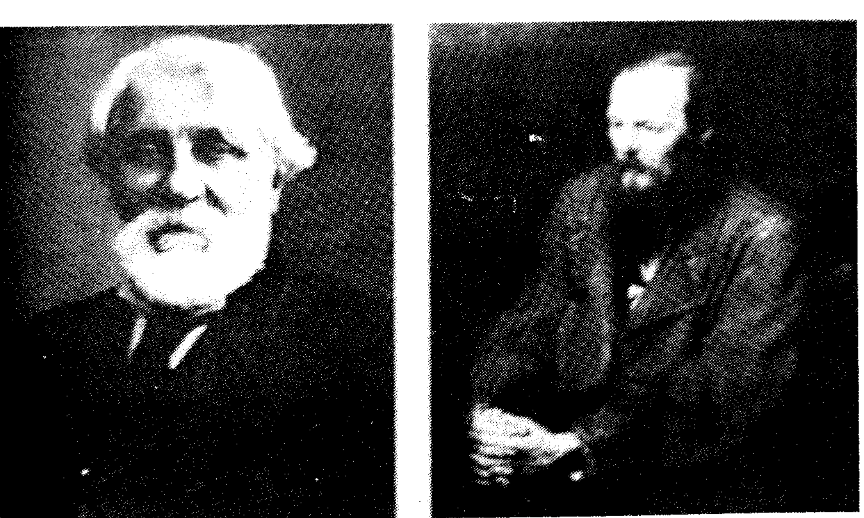
اما البديل الثاني، فقد أيده ممثلو ما يسمى المعارضة العمالية: كان مطلب هؤلاء انتخاب قادة النشاط الاقتصادي (ابتداء من المراقب وحتى المفوض العام) من قبل المستويات المختلفة التي يشرف عليها العمال، او بالأحرى من قبل نقاباتهم التي تمثلهم. كان هؤلاء يؤيدون اسلوب اللجان أو «القيادة الجماعية» في وجه مسؤولية القيادة الفردية.

وأجد نفسي في موضع بالغ الصعوبة عند تطرقي للبديل الثالث. ويبدو لي، الى حد ما، انه لم يظهر بشكل حاسم فيما اذا كان لينين قد ادرك الفارق- حتى ولو انه تحدث عنه بهذا الشكل- بين سلطة الادارة

وسلطة المجتمع. مع ذلك فانني من جهة اخرى، ابتعد عن الاعتقاد بان لينين كان «يرى كل شيء بصورة صحيحة».

ان صاحب السطور السابقة تفصله مسافة طويلة عن الايمان البسيط للجيل الاول من الشيوعيين الهنغاريين، فلنعد الآن الى الصيغة التي اسبغها لوكاش على هذا الايمان بعد أن انتقل من «اليسارية المتطرفة» الى اللينينية.





ثلاثة من كبار الروائيين الروس : تورغينيف وتولستوي وغوركي .

الفصل الرابع

تعرضنا في الفصول السابقة لبعض التيارات الرئيسية المتباينة التي أدى التقاؤها إلى جعل فيينا، لفترة وجيزة، العاصمة الثقافية لأوروبا الوسطى. وإذاما انهمكنا في معالجة موضوع لوكاش الأول والأساسي في النظرية الماركسية فإننا سوف ننحدر إلى الدوامة. ولعل من المفيد أن نتذكر هنا أن مدرسة التحليل النفساني (Psychoanalysis) ومدرسة الوضعية المنطقية (Logical Positivism) هما من مواليد فيينا، وأن لوكاش لم يتأثر بأي من المدرستين. وإذا كان فرويد قد لفت انتباهه في السنوات اللاحقة، فقد قصد من وراء ذلك أن ينعى له ما أسماه بـ «لا عقلانيته» ـ وهذا حكم لا يشاركه فيه الماركسيون النافذون من مدرسة فرانكفورت التي تشكلت في ثلاثينات القرن العشرين. أما بالنسبة للوضعية المنطقية فإن لوكاش المنتمي إلى هيجل، لم يجدها سوى حصيلة حتمية للكانطية الجديدة التي سبق له أن أنكرها قبل عام ١٩١٤. وبلغة التأريخ الفكري يبقى من المهم الإشارة إلى أن كتاب «التاريخ والوعي الطبقي» تصادف صدوره تقريباً مع كتاب لودفيج فيتجنشتاين Wittgenstein وعنوانه: «رسالة منطقية فلسفية» Tracatus (١٩٢٢). وفي كلتا الحالتين كانت شهرة المؤلف نتيجة لافتراقه الجذري عن المعتقد السائد في حقله الشخصي. ومع ذلك، نجد أن كليهما تخلى في السنين اللاحقة عن عمله الذي ألهب مخيلة معاصريه. ولكن التشابه هنا يتوقف. فبالرغم من أن كليهما شب في ظل مملكة أسرة هابسبورغ العفنة وتأثر بالتوترات الكامنة في حضارتها المتداعية، فمن الصعب أن يتخيل المرء شخصيتين أكثر اختلافاً من شخصية جورج لوكاش ولودفيج فيتجنشتاين.

وبالنسبة لكتاب «التاريخ والوعي الطبقي» فقد قيل إن سر بقائه الوثيق الصلة بالموضوع يعود فضله إلى الطريقة التي استرد فيها لوكاش البعد الهيجلي في فكر ماركس. إن النتيجة المدوية التي أحدثها

داخل الحـركـة الشيوعية الأوروبية مردها أمور أكثر بساطة. فالشيوعية الدوليـة كـانت قـد باشرت آنذاك المهـمـة الطويلة والشـاقة في «بلشفة» قطاعـاتها المخـتلفـة، أي تحـويل الجيش(الذي كان مزيجاً من معارضي الحـرب واشتراكـيين من ذوي الميـول النقـابية الفوضوية ويساريين) إلى لينينيين منضـبطين. ومن وجـهـة نظر خلفـاء لينين ـ الممـدد مشلولاً في الكرملين إثر إصـابته بنوبة قلبية ثانية في آذار/ مارس عام ١٩٢٣، أي قـبل عشرة شـهـور من مـوته الذي أنهى عذابه الصامت ـ ليس ثمة ما هو أقل إثارةً للسرور من الظهـور المفـاجىء لمدرسـة «غـبـية» شيوعية، يمـثلهـا منظرون من أمـثـال لوكـاش والفـيلسـوف الألماني كارل كورش Korsch والإيـطـالي المـاركسي انطونيـو غـرازيادي Graziadei. إن وابل الشـتـائم التي انهالت على لوكاش في الفترة الممتدة من ١٩٢١ ـ ١٩٢٤ يعـود بعـضـه إلى العـداوات الكتلوية، بيد أن المصدر الأساسي لموجـة الجنون تلك هو عـقلية الشيوعيين الروس الذين أصبحوا ينظرون إلى لينين وكأنه أيقـونة مـقدسة. إن أي انحراف عما يوصف الآن بخط الماركسـية اللينينية أصبح يشكل إهانة لعقيدتهم، ويبدو في الوقت ذاته شـبـحـاً مرعباً لهرطقات يصعب ضبطها وقد أخذت تنتشر بين صفوف الشـيوعيين ممن لم تتمّ بلشفتهم كما ينبغي. وأصبح النضال ضد لوكاش «على الجـبـهة الفلسفية» الشغل الشاغل للفلاسفة السوفيات أمثال: أ. ديبـوريـن وم. لـوبول وج. بامل ومـفسرين آخـرين لينينيين. وحـتى الـقـادة الـسـيـاسـيـون فـإنهم قـد دخلوا المعترك. وفي مـؤتمر الكومنترن الخـامس الذي عـقـد في موسكو في حزيران / تموز (يونيو/ يوليو) عام ١٩٢٤ صـار بوخـارين ـ الذي أصـبح بعـد وفاة لينين الناطق الرسمي باسم الحـزب الشـيـوعي السوفياتي حول جميع القضايا النظرية ـ يتأسف بشـدة، عبر مـلاحظة قصيرة، على الاتجاهات الحديثة في «الارتداد نحو الهيـجليـة القـديمة». أما زميله زيونفييـف، وهو ديماغوجي أحمق وتافه، لا تؤهله عـقليـتـه للدور الذي أنيط به، فـقـد صب جـام غـضبه على اليسـاريين المتطرفين الذين كـانوا مـثل «التطوريين» يستشهدون باسم

لينين المقدس، ويهزأون من «الأساتذة» من أمثال كورش ولوكاش وغرازيادي، ثم يعلنون بوقار أن انحراف هؤلاء لا يمكن التسامح إزاءه.

إن ما يجعل من القضية بكاملها أمراً مربكاً جداً هو أن لوكاش يبرهن في كتابه عن وجود علاقة، إلى حد ما، مصطنعة بين لينين وروزا لوكسمبورغ التي أصبحت قديسة ثورية إثر اغتيالها على يد الضباط الألمان عام ١٩١٩ بعد أن كانت حليفة سابقة للمناشفة، وكانت تتخذ أيضاً موقفاً نقدياً من المبادىء البلشفية وتطبيقاتها. وحتى عام ١٩٢٤ لم تكن «اللوكسمبورغية» قد أصبحت بدعة كبرى، وكذلك فإن «التروتسكية» لم تكن قد شقت طريقها بعد (مهما كان الأمر فإن لوكاش لم يظهر مطلقاً الحد الأدنى من التعاطف مع «تروتسكي») . بيد أن اتجاهاً يسارياً متطرفاً كان موجوداً بين الشيوعيين الغربيين في المجال النقابي ممن لم يهضموا الفكرة القائلة إن مجالس العمال وجدت للتصديق على مقررات الحزب ليس إلا. إن تطور لوكاش الفكري من نقابية «تشابو» الفوضوية عبر اشتراكية لوكسمبورغ الثورية وبعد ذلك إلى لينين، جعله مفكراً خطيراً، فاهدافه السياسية الواردة في كتابه الصادر عام ١٩٢٣ وما تضمنته من استشهادات وافرة بلينين، يمكن اعتبارها مرفوضة من وجهة النظر البلشفية السلطوية.

وبالمقارنة مع التهديد الناجم عن «الانحراف» السياسي فإن القضايا التي تضمنتها مقالات لوكاش النظرية، والتي لا يستوعبها سوى قلة من الناس، لا تعتبر مهمة، ناهيك عن مغالاته في انتقاد انجلز في معالجة بعض المفاهيم المنطقية والابستمولوجية (نظرية المعرفة).

وقد اصطدمت هذه النقطة المربكة اصطداماً مباشراً باللينينية كفلسفة بالقدر الذي كان فيه عمل لينين في هذا الحقل «المادية النقدية والتجريبية» Materialism and Empirocriticism يلزم أتباعه بمادية انجلز الديالكتيكية، وهذا هو تفسير «مؤسس الماركسية

الروسية» ج. ف. بليخانوف ١٨٥٦ ـ ١٩١٨ الذي كان لينين يكنّ له على الدوام الاحترام الكبير بحكم مركزه كمنظِّر. وكان كلاهما من الاتباع المتشددين لما يسمى الآن بالماركسية الأرثوذكسية، التي تعني توثيق أفكار ماركس وتنسيقها، كما فعل انجلز بعد وفاة زميله الأكبر.

لذلك فعندما قدم لوكاش في العام ١٩٢٣ تفسيراً أصيلاً للغاية يشكك فيه بفهم انجلز لكانط وهيجل (وبالتلميح لماركس) فإن غضب التقليديين ـ في وسط أوروبا وفي الاتحاد السوفياتي ـ تخطى كل الحدود. كذلك جن جنونهم بدرجة مماثلة من كارل كورش مؤلف «الماركسية والفلسفة» الذي كان ينظر إلى المادية بشكل عام والمادية الديالكتيكية بشكل خاص، على أنهامحاولة ساذجة للعودة إلى موقف ممهد للكانطية. أما بالنسبة لكل من لوكاش وكورش وأتباعهما فإنهم كانوا يعتبرون الماركسية فعلاً (وكما أكد إنجلز في مقالته المؤثرة عن لودفيغ فيورباخ عام ١٨٨٨) وريثة الفلسفة الألمانية الكلاسيكية. لهذا السبب بالذات كان الماركسيون مجبرين على تجنب الارتداد إلى التفكير «ما قبل الانتقادي» ـ أو «قبل الكانطي» . ولقد شعر لوكاش بضرورة تصحيح انجلز بالقدر الذي استسلم فيه انجلز لهذا الإغراء هنا وهناك

مطمئناً إلى معرفته بأنه استوعب كلياً معنى فلسفة كانط وهيجل خلال السنوات التي قضاها في هايدلبرغ قبل الحرب. وقد ضم كتاب «التاريخ والوعي الطبقي» عنواناً فرعياً «دراسات في الديالكتيكية الماركسية» ، وهو بحد ذاته يعتبر دليلاً كافياً على رغبة لوكاش في تجنب التفاعل مع «المالدية». بيد أن الهجوم التشهيري تخطى ذلك فعلاً، فلم يكتف لوكاش بالتشكيك في فهم انجلز لكانط وهيجل، بل تمادى إلى الحد الذي وصف فيه مادية عصر التنوير بأنها «الشكل الأيديولوجي للثورة البورجوازية».

ولكي نفهم لماذا كان لهذه الجملة، التي تبدو بريئة، وقع القنبلة على الشيوعيين الروس والأوروبيين، ينبغي على المرء أن يستوعب الصلات السياسية بين الثورتين الفرنسية والروسية. لقد ارتكزت نظرة

لينين الكليـة للعالم على استيعابه للمادية الفرنسية في القرن الثامن عشر، فكانت الماركسـية تبدو له وكأنها الشكل الجديد لهذه المادية. وفي بعض الأحيان ـ كما فعل ، على سبيل المثال ، في «الدفاتر الفلسفية»(١٩١٤ ـ ١٩١٦) التي طبعت لأول مرة في عام ١٩٣٢ وأعـيد طبعها في الجزء الثـامن والثـلاثين من «الأعمال الكاملة» ـ نجـده يمتدح منطق هيجل، الذي كـان قـد درسـه جـيـداً في ذلك الوقت. ومع ذلك فقد كان يبدو وكأنه لم يسـتـوعب مطلقـاً عـدم تجـانس طريقة هيجل الديالكتيكية مع المـذهب المادي، الذي ترعـرع هو عليـه. كـان كـانط يبـدو له بشكل خـاص، شـخصاً بغيضاً، أما معالجة انجلز غير الوافية لكانط في مقالة له عن فـيـورباخ، فقد أقنعته ـ شأن بليخانوف من قبله ـ أنه ينبغي أن لا يحمل كـانط وفيـخته على محمل الجد. أما هيجل الذي تلقى مراناً قـاسـيـاً في المدرسـة الكانطيـة الجديدة، فكان أكثر معرفة. إن ما فاته إدراكـه، هو أنه بدخـوله هذا المجـال قـد توصل، عن غير قـصـد، إلى جـوهر اللينينيـة كـفلسـفـة كـونية، وكان كانط يمثل بالنسبة للينينين، ولبـاقي الماركـسيين الروس من أتباعه، خطراً دائماً، لأن «لاادريته» فيما يتـعلق بوجـود عـالم حـقـيـقي مـستقل عن العقل يبدو أنها فتحت باباً خلفـيـاً «للإيمانية» أي الدين. فإذا لم يقم العقل بتصوير العالم كما هو على حقيقته، وإذا كان ثمة شيء لا يمكن معرفته ـ «شيء في حد ذاته» حسب التعبير الكانطي ـ فلا يمكن إذاً للميتافيزيقيين المثاليين أن يدّعوا أن العلم التجريبي هو خيال لابد منه. وإذا ما تم التسليم بهذا الأمر، أليس من المحـتـمل أن يعوذ النظام اللاهوتي للزحف ثانية؟ صحيح أن لينين عـدل من وجـهة نظره إلى الحد الذي يقر فيه بأن الوعي الإنساني لم يكن سلبيـاً، بيد أنه لم يطرح على الإطلاق جانباً النظرية التسجيلية أو النسـخـيـة في المعرفة التي التزم بها في السابق. وفوق ذلك راح يصر على الأهميـة القـصـوى للمادية الديالكـتـيكيـة كفلسفةللطبيعة. كان على الماركسـيـة أن تقدم تفسيراً شاملاً للكون ـ وإلا فكيف يمكنها الشروع في تبـوؤ مكانة الديانة الملهـمـة والميتافيزيقيا المثالية؟ لذلك عندما رفض

لوكاش الاعتراف بأن تكون للماركسية صلة بالعلوم الطبيعية، فإنه أزاح بذلك حجر الزاوية في البناء اللينيني. وعندما استشهد بأقوال معلمه ريكرت في أن الماركسيةهي أفلاطونية معكوسة، كان ذلك بمثابة وضع الأيدي المدنسة على تابوت العهد.

أما وصفه المادية بأنها «بورجوازية»، فقد كان من الواضح جداً أن كل يساري متطرف في أوروبا سوف يخرج من هذا الوصف بأكثر الاستنتاجات إثارة للمخاوف في ما يتعلق «بالهوية البروليتارية» للثورة الروسية.

وفي مقابل هذه المواضيع المتفجرة بدت تحفظات لوكاش حول فهم انجلز لكانط بريئة نسبياً، ولكن ليس بدون أثر، لأنها وردت على لسان فيلسوف متمرس وماركسي أيضاً. وفي عام ١٨٨٨ تبنى انجلز بالفعل موقفاً يتعذر الدفاع عنه. إن حماسه لدحض ما أسماه بـ«الحبكات الفلسفية» لهيوم وكانط المتعلقة بإدراك الحقيقة دفعه إلى اللجوء إلى «التجربة والمثابرة» كبرهان على أن المعرفة الشاملة للعالم الحقيقي ممكنة. أما لوكاش فقد لاحظ بطريقة معقولة جداً أن هذا خارج كلياً عن نطاق «ظواهرية» كانط، التي لم تشكك على أية حال بإمكانية التقدم اللامتناهي في اكتساب المعرفة العلمية. فلقد أكد كانط على أمر يختلف تماماً، وهو بالتحديد انه لا يمكن لأحد، حتى لمن استطاع أن يفهم كلياً جميع الظاهرات الطبيعية الموجودة في العقل، أن يحل المعضلة الكامنة في تفكير الإنسانية، وهي أن نظرته للعالم تتم بمساعدة جهاز عقلي يفرض أشكاله (المقولات) على المادة الأولية للتجربة. هنا كان يعود سوء الفهم إلى فشل إنجلز في متابعة هيجل في طريق يقود إلى الرجوع نحو العقلانية الطبيعية لليونان (اسبينوزا)، وهي عقلانية امتدحت العقل لقدرته على استيعاب طبيعته الحقيقية التجريبية.

فإذا استثنينا هذا الأمر، فإن الاختيار يكون بين «ظواهرية» كانط ووضعية العلوم الطبيعية والاجتماعية التي رفضت التمييز بين الظاهرة

ومفهوم الشيء كما يبدو للعقل المحض، أي بين مفهوم الأشياء التي تخصنا والأشياء في حد ذاتها. ومن المحتمل أن يتحول المرء إذا ما أعطي الخيار بين هذه وتلك، إلى «الواقعية الساذجة» التي نادى بها السكولاستيكيون، وهؤلاء يعتبرون المشكلة برمتها غير موجودة. وفي السنوات اللاحقة أخذ بعض الفلاسفة الكاثوليك يعاملون التومانية (فلسفة توما الأكويني اللاهوتية) والليننية كحليفين محتملين في وجه الهيجلية الوضعية والكانطية على حد سواء. ومع ذلك فإن السكولاستيكية الواقعية والديالكتيكية المادية أكدتا على وجود عالم موضوعي مستقل عن العقل. ومهما كان تقييم المرء لهذا المذهب، فإن أصله السامي يعود إلى أيام أرسطو. ولو كان اهتمام الفلاسفة السوفيات يقتصر على مسائل الإدراك، لما تسببت هرطقات لوكاش في أرقهم ليالي طويلة.

لاشك أن ذلك لم يكن كل ما في الأمر، فالمادية لها معنى مزدوج، وقد ينظر إليها بأنها تعني حقيقة العالم الخارجي، ولكن بالنسبة لإنجلز كان لها معنى آخر أيضاً هو أولوية «المادة» كجوهر مطلق في عملية تكوين الكون. بهذا المعنى لا تعود «المادية» نظرية للمعرفة، بل تصبح نظرية غيبية عن العالم. إنها تؤكد على أن المادة أو (الطبيعة) تسبق الروح أو أن الروح فيض أو انبثاق Emanation من المادة. ومثل هذه التأكيدات لا يمكن إثباتها أو دحضها. فقبولها يجد مخرجاً له إما في فعل الإيمان الديني أو في معاداة الدين. وعندما أعلن انجلز أنه تبنى مع ماركس «المادية» "كنقيض «لمثالية» هيجل فإن، ما عناه هو أنه لم يكن لديه ولدى ماركس نظرية تختلف عن نظرية هيجل في المعرفة، بيد أنهما اعتبرا «المادة» بمعنى ما، أهم من «الروح».

أما السؤال ما إذا كان قد سبق لماركس بالفعل أن قال شيئاً من هذا الكلام فهو مسألة ينبغي أن لا تحظى باهتمامنا هنا، بيد أن انجلز اعتنق بالتأكيد هذه النظرة، فيما لم يحملها لوكاش عام ١٩٢٣.

إن ما نادى به لوكاش في الأقسام الأساسية من كتابه «التاريخ

والوعي الطبقي» هو نظرية ديالكتيكية حقيقية تقوم باجتثاث الخلاف السخيف بين الماديين والروحانيين. ويمكن تلخيص وجهة نظره بالقول إن المادية والروحية هما أطروحة ونقيضها، وذلك لخلاف يعود إلى عدم القدرة على تخطي الانفصام بين الذات والموضوع. والحل لا يكون في إيثار الواحدة دون الأخرى، بل يتجاوز موضع الخلاف، وهذا يتم بالسير على خطى ماركس في معالجة التطبيق على أساس أنه الاتحاد المادي بين الفكر والواقع.

أما بالنسبة لمعاصري لوكاش الماركسيين فقد كان لوكاش بطرحه هذه المفاهيم يحيي في الوقت نفسه نمطاً من التفكير هو جزء لا يتجزأ من الفلسفة الألمانية الكلاسيكية. ومن الضرورة أن نكون واضحين حول دلالة هذا الأمر بالذات. فقد انقض نقاده على ما أسموه «هيجليته» وراحوا في الوقت نفسه يؤيدون الطريقة الهيجلية الكامنة في كتابات انجلز الأخيرة، ولا سيما كتابه «ديالكتيك الطبيعة» Dialec-tics of Nature، فثمة شيء من المواربة في وقفتهم كمدافعين عن العقيدة المادية؛ إذ لا يمكن للمثقفين منهم أن لا يكونوا على بينة من أن مفهوم الديالكتيك الطبيعي قد اقتبسه انجلز من كتاب «المنطق» للمثالي الأعظم هيجل. لقد أحيا انجلز، بعودته إلى هيجل، مشروع «فلسفة الطبيعة» الرومانطيقي.

إن السؤال ما إذا كان اتباع هذا النمط في التفكير يعني شيئاً بالنسبة للمفكر المادي، هو سؤال يختلف اللينينيون حوله، وهذا أمر معروف عنهم. وفي عصرنا الحاضر نجد أن المحنكين منهم يميلون إلى تحاشي الوقوع في محاولات بناء نظرة شاملة إلى الوجود. فمثل هذه المغامرة تعني العودة إلى الفكرة الهيجلية القائلة إن «الكينونة» و«الوعي» هما متطابقان في النهاية. وإذا كان الأمر كذلك، فمن المعقول أن يرد عنصر الوعي الذاتي إلى الطبيعة، ولكن بهذا المعنى نكون قد تخلينا عن المادية بالمعنى الضيق للكلمة. من هنا فإن أولئك النقاد (أياً كانوا) الذين هاجموا لوكاش بعنف عام ١٩٢٣ ـ ١٩٢٤

بسبب إدخاله مفاهيم مثالية إلى الماركسية هم دون مبالغة، متذبذبون وتافهون.

ومع ذلك فإن هذه الحالة لا تتطرق إلى جوهر الخلاف من الناحية النظرية. فبالرغم من أن كلا الطرفين كان يلجأ إلى حجج مأخوذة عن ماركس وهيجل، فقد كان هناك فارق كبير في فهمهم النسبي لمعاني هذا الميراث الفكري. فالفلاسفة السوفيات يعتبرون الماركسية نظرية «علمية اشتراكية» بالمعنى الذي أثبتته كلمة «علم» خلال الفترة الواقعة بين عام ١٨٨٠ وعام ١٩٢٠ على يد انجلز وكاوتسي والممثلين الآخرين للمعتقد الديمقراطي الاجتماعي: إنها طريقة نظرية تقوم على التمييز ـ المألوف لكل باحث علمي ـ بين العالم الحقيقي «للواقعة» الموضوعية وبين الأفكار «الذاتية» التي يحملها الأفراد حول الواقع الذي يواجههم ويحيط بهم. إن كل من نشأ على هذا التقليد يسلم بداهة بأن العلم يعترف بالتباعد الجذري بين الحقيقة الهشةالقاسية والمتماسكة وبين أحلام اليقظة التأملية. وليس في هذا المقام من فارق أساسي بين تلامذة انجلز الديمقراطيين الاجتماعيين وبين الماركسيين السوفيات نظراً لأن لينين انتقص من قدر كاوتسكي كمادي لا نفع منه. إن نشاط لينين كان يقتصر على السياسة، فلم يترك أثراً عميقاً باكتشافه المتأخر لهيجل ١٩١٦ ـ ١٩١٧ ولا باندفاعه الخاص لإعطاء التاريخ «دفعة» آنية في «علميته» الأساسية. كانت النظرية بالنسبة إليه تعني شيئاً والتطبيق شيئاً آخر، ولكي يكون التطبيق فعالاً كان لابد له أن يندرج تحت طائلة العمليات السببية التي من المفترض أن تعمل في الطبيعة والتاريخ على حد سواء.

إن ما عارضه لوكاش في عام ١٩٢٣ بالنسبة لهذا التباعد الميكانيكي بين موضوع التاريخ (الحزب) ومادته (الجماهير) هو الفكرة التي تقول بأن البروليتاريا، بوصفها الطبقة الثورية في أجلى مظاهرها Par excellence محتوم عليهاأن تحرر البشرية أثناء قيامها بعملية تحرير نفسها من نير الرأسمالية. وباستثناء استخدامه لمصطلح التشيؤ Refication

عوضاً عن الاستلاب Alienation، وهو مفهوم أصبح شائعاً في الذهن العام بعد مرور عقد من الزمن على انتشار كتابات ماركس، فإن لوكاش قد تحول بشكل جذري نحو الموقف نفسه الذي وقفه ماركس عام ١٨٤٤ ـ ١٨٤٥. لقد تجلت أصالة ماركس الشاب خلال تلك السنين بإيمانه، فقد كان يؤمن بأن مجرد ومضة من النقد الذاتي المتفحص كفيلة بأن تشعل الثورة التي تطمسها الظروف اللاإنسانية التي فرضت على حياة البروليتاريا الأولى. إن «النظرية» النقدية عندما تمكن المضطهدين من اكتساب وعي كافٍ بدورهم، فإنها تترجم نفسها إلى تطبيق ثوري وممارسة ثورية، وهي بذلك تستطيع أن تنشر رأيها التأملي (الفلسفي). لذلك أصبح للوعي دور يختلف كلياً عن الدور الذي خصصته له المدرسة الوضعيةالعلمية في أواخر القرن التاسع عشر. فقد تطور من مجرد كونه «عاكساً» لعملية مستمرة إلى مهمة «تحويل» الوضع التاريخي الكلي الذي كان مدفوناً فيه، وقد استطاع أن يفعل ذلك بسبب توافر ظروف معينة اكتسبت فيها الثورة «الفكرية» صفات القوة المادية.

افترق لوكاش عن الماركسية بعد أن أحدث تأثيراً في العودة إلى هذا الموقف من ماركس. وراح يضاعف من هجومه بأن رفض أن يقر بالنظرة «المادية» باعتبار الإدراك مرآة للعالم الخارجي Abbild، وبالتالي منفصلاً كلياً عن العقل البشري، وهو في جميع هذه الحالات يمكنه أن يدعي أنه كان مخلصاً لماركس وهيجل. إن مقولة الكلية «Totality» التي شغلت حيزاً هاماً من تفكيره شكلت جزءاً من الميراث المثالي الذي أدخله ماركس في نظريته. إن الاكتشاف القائل إن مؤلف «رأس المال» كان إنسانياً وإن دراسته الاقتصادية قد جسدت نقداً فلسفياً للمجتمع البورجوازي، لا يزال في حاجة إلى التصديق، الأمر الذي قوبل به لاحقاً عندما نشرت مخطوطته (١٩٣٩ ـ ١٩٤١). ولكن في ظل غياب دليل حسي استطاع لوكاش أن يرى بحدسه محاولة المدرسة الوضعية المتعمدة للتخفي وراء ماركس في

السنوات الأخيرة. إن كل هذه الأمور المشينة هي المسؤولة عن التوبيخ الشديد الذي لحق به عندما سمحت موسكو بذلك. إن ما يحتاج إلى الإيضاح هو الاستقبال المختلط الذي تلقى به قراؤه الغربيون أعماله، فقد كان يتوقع منهم أن يتعاطفوا مع هذا الهرطوق الشهير لأسباب أخرى.

وفي الواقع لم يتحد لوكاش الأرثوذكسية السوفياتية الناشئة فحسب، بل تحدى أيضاً أولئك الاشتراكيين الغربيين الذين حاولوا خلال عقدين متتاليين أن يوجدوا لماركس منزلة أكاديمية من خلال تقديم أعماله كمنشأة أو صياغة «متحررة من القيم» بعيدةكل البعد عن منشأ مؤلفها الهيجلي.

إن مبدأ وجوب إبقاء دراسة «الحقائق أو الوقائع» متميزة عن «الأحكام القيمية» هو مبدأ عزيز، ليس بالنسبة لعلماء الطبيعة فحسب، بل بالنسبة لعلماء الاجتماع أيضاً ـ على اختلاف نزعاتهم السياسية ـ والذين كانوا يتطلعون إلى التقدير المهني في محيط العالم الأكاديمي. إن الأساس الفلسفي لهذا الفصل الصارم بين «الحقائق» و«القيم» جاء من طرف المدرسة الكانطية الجديدة، التي كان لها أتباع متنفذون في صفوف الأحرار والاشتراكيين على حد سواء. ومن بين جموع علماء الاجتماع، كان فيبر في سنواته الأخيرة ينادي بتشاؤميته الرزينةأو الرواقية، ويرفض الانغماس في حركة إنهاض ديني أو خلقي. إن ما يكمن وراء هذا الموقف هو الاعتقاد بأنه ما لم يكن المرء يؤمن بالألوهية، فإنه لن يستطيع أن يتحمل معرفة حقيقة الحياة، وهذا يقود إلى القول إنه خير للمرء أن لا يتفوه بعموميات عن هذا العالم. وكان لمثل هذه العبارات ما يقابلها عند العلماء التجريبيين والمحللين الفرويديين، بيد أن الكانطيين الجدد حققوا غايتهم بتشجيع نوع من الرواقية أحال التأمل الميتافيزيقي إلى موطن تدريب فكري. كان من المفترض على الالتزام بالعلم أن يحمل معه تعهداً بالامتناع عن تصوير العالم بألوان تتفق مع مزاج الشاعر أو الفيلسوف المثالي البالي.

وكانوا يعتبرون أن من أسوأ الافتراضات التي يمكن لمفكر أن يبنيها ـ وهو ما فعله لوكاش ـ هو التأكيد على أن التقصير الذاتي في الإدراك البشري أو الحاجز الدائم بين البحث العلمي عن الحقائق والالتزام العملي «بالقيم» يمكن تخطيه بالعودة إلى فلسفة هيجل «السيئة السمعة». وعندما شدد على أن اللاعقلانية الظاهرة للوجود لم تكن، ببساطة، سوى مرض ثقافي، ونتيجة للتشيؤ الحاصل في ظل المجتمع البورجوازي، فإن هذا التأكيد دفع الاشتراكيين ومنهم كارل مانهايم ـ الهارب الشهير من بودابست، والذي بنى نظريته على أفكار كل من فيبر ولوكاش بالتساوي ـ إلى رفع أصواتهم محتجين على ذلك.

مع ذلك، فإن هذا الرفض، بالتحديد للثنائيةأو الازدواجية بين الواقعة والقيمة، هو الذي جعل للوكاش أهمية لدى جيل كامل من المثقفين في وسط أوروبا ممن تجاوزوا النظرة التفاؤلية التي سادت قبل عام ١٩١٤، ونفروا من اللاعقلانية الرومانطيقية لليمين والطوباوية الصوفية لأشباه الاشتراكيين من أمثال أرنست بلوخ Bloch. لقد زودهم لوكاش عام ١٩٢٣ بما عجز أي منظر آخر عن تقديمه، وهو تحليل ماركسي يلتزم بالحقائق، ولا يشجب التراث الهيجلي باسم «العلم». وحتى ظهور كتابه، كان هؤلاء المثقفون يعتبرون الشيوعية مجرد امتداد للثورة الروسية، التي تعتبر بلا شك حدثاً مهماً، ولكن لا يبدو أنها تعد بحل مشكلاتهم الخاصة، أي أنها كانت مجرد حركة سياسية ترتكز إلى دولة متخلفة نسبياً. إن ما فعله لوكاش هو أنه ادعى لها أهمية عالمية، وفي تفسيره للماركسية أشار إلى أن الثورة البروليتارية هي مفتاح لفك لغز التاريخ.

والأمر الذي جعل هذا الادعاء الكبير يبدو معقولاً يعود إلى ما هو أكثر من مجرد الظروف الطارئة التي أوجدت مناخاً عقلياً معيناً ساد جمهورية فايمار. فقد أصاب لوكاش مركز أعصاب الفلسفة الحديثةعندما هاجم الفلسفة العلمية (العلموية) Scientism والكانطية الجديدة على حد سواء. ولو كان محقاً لأصبح الإيمان

الوضعي بالعلم مجرد وهم بورجوازي فيما لو طبقناه على الكلية المادية المعروفة بالتاريخ. والواقع أن تأكيداً من هذا النوع يمكن أن يلقى أيضاً مؤازرة اليمين المتطرف، وهذا ما شاهدناه في السنوات التي قام فيها ازوالد شبنغلر بإحداثه تأثيراً على الطبقة الوسطى الألمانية. فكان كتابه «انحطاط الغرب» Decline of the West (١٩١٨ ـ ١٩٢٢) بمثابة تحضير لهذه الشريحة المهمة لمجيء الرايخ الثالث. ولو كان الشيوعيون والنمساويون أقل خضوعاً لموسكو لاستطاعوا أن يجدوا في عمل لوكاش رداً فعالاً على شبنغلر وهيدجر الذي كان كتابه «الكينونة والزمان» Sein und Zeit مفسدة لعقول جيل كامل من الطلاب الجامعيين. ولو أن لوكاش تمتع بشخصية قوية تدعم موقفه عوضاً عن التزامه بالسكوت، ومن ثم تنكره لآرائه الأولى فيما بعد، فلربما استطاع أن يبني سداً في وجه الفيضان المتدفق من اللاعقلانية.

هذا لا يعني أن المذهب الوارد في كتاب «التاريخ والوعي الطبقي» هو مذهب محصن ضد النقد. إن رسالته السياسية ـ المأخوذة عن روزا لوكسمبورغ ومن ثم عن لينين ـ تجاهلت الظرف الحاسم الذي سوف تواجهه «الطبقة البروليتارية الثورية»، بالمعنى الذي فهمه ماركس، في المرحلة الأولى من التطور الاجتماعي، ولكن برغم عدم كفاءة لوكاش كمنظر سياسي، فقد رفع النقاش إلى مستوى أصبحت فيه الماركسية الهيجلية تؤخذ بجد من عدد كبير من المفكرين في أوروبا. إن ما واجهوه هنا هو تراثهم الثقافي الخاص خالصاً من شوائبه المثالية، ومطعماً براديكالية تجعله منافساً جدياً لاجتذاب الانتلجنسيا التي جنحت مؤخراً بسبب انحلال الليبرالية وتعفن الإيمان الديني. وبالعكس لم تستطع المادية السوفياتية أن تزعزع من قناعة الألمان المتعلمين بأن الروس لا يفهمون من الفلسفة شيئاً وبأنهم متخلفون خمسين سنة إلى الوراء.

ولكي نتفهم حقيقة ما كان يجري خلال تلك السنين ـ ليس بالنسبة للوكاش فحسب وإنما بالنسبة لحضارة بأكملها كانت على وشك

الانهيار إلى حضيض العدمية الثقافية والسياسية - يتحتم علينا أن نباشر معالجة الفلسفة الخلقية. عندئذٍ سوف نواجه لوكاش المتأخر ونحن في حالة استعداد (لا سيما لوكاش بوصفه مؤلف كتاب «تدمير العقل» من بين كتب أخرى)، وهو أسوأ كتبه إطلاقاً، ومع هذا فلا ينبغي إهماله».

إن مقدمة كتاب «التاريخ والوعي الطبقي» عام ١٩٦٧ لا تساعد إجمالاً في إلقاء الضوء على هذا الموضوع. وكما يخبرنا لوكاش عن الكتاب بقوله إنه:

«قد يمثل أعمق المحاولات في حينه لتحقيق المظهر الثوري من ماركس عبر تجديد ديالكتيك هيجل وطريقته والمضي بهما قدماً. إن ما جعل توقيت الفكرة صائباً هو الظهور المتزامن داخل الفلسفة البورجوازية لتيارات تسعى لإحياء هيجل. ولكن هذه التيارات أو النزعات من ناحية أخرى لم تنطلق من منطلق قطيعة هيجل الفلسفية مع كانط، وهي من جهة أخرى وقعت تحت تأثير ديلثاي فقامت بإنشاء جسور نظرية بين الديالكتيك الهيجلي واللاعقلانية المعاصرة».

وتلي هذه الفقرة معالجة قصيرة ومستخفَّة لكتاب كارل لوفيث Lowith «من هيجل إلى نيتشه» ، حيث يرسم لوفيث صورة كل من ماركس وكيركغارد باعتبارهما «ظاهرتين متوازيتين انبثقتا نتيجة انحلال الهيجلية». من كل هذا، فليس بوسع القارىء على الأغلب أن يستنتج عناصر تكوين أصالة لوكاش عام ١٩٢٣. والجواب عن ذلك هو أنه وضع نظرية في التاريخ كانت ترمي إلى حل مشكلة أخلاقية: علاقة النظرية بالتطبيق.

ونجد في فلسفة كانط - كما فسرها الكانطيون الجدد الذين ترعرع لوكاش بينهم - انفصال الفلسفة الأخلاقية كلياً عن الإدراك النظري لعالم المرئيات (الظواهري). فلا يمكن استنتاج ما هو إلزامي أو واجب خلقياً عن طريق التفكير الاستدلالي المجرد، لأن العالم المادي إذا تيسر فهمه عن طريق الاستعانة بالمنطق العلمي، فإن هذا الفهم لا

يتحقق بالنسبة للعالم الخلقي.

إن الطبيعة (كما نادى بذلك كانط) تسلك قوانين سببية ثابتة، بينما تكون حياة الفرد الخلقية خاضعة للتقرير الذاتي. فالقرارات الخلقية يتم التوصل إليها أو اتخاذها عندما يتشاور المرء مع ضميره حيث تتلقى الأقوال - واسمى مثال عليها هو «الأمر المطلق للواجب» Categorical Imperative المنوط بالمرء تجاه إخوانه من البشر - تصديقها النهائي من عالم يتخطى الظواهر وليس في متناول الفهم.

يستنتج مما سبق أنه لا يمكن أن توجد نظرية في الأخلاق، بمعنى الإدراك الصحيح للتدرج الموضوعي في القيم، حيث ترسى دعائم هذا التدرج في طبيعة الواقع. إن القرارات العملية (الأخلاقية السياسية) لا يمكن استنتاجها من أية نظرية حول العالم - سواء كانت نظرية (خطأ أم صواب) صحيحة أم مغلوطة. فالحرية لا تنتمي إلى عالم المرئيات، وبالتالي فهي ليست مرتبطة به في علاقة سببية. فليس بوسع الأخلاقية أن تدلنا على ما يتوجب علينا فعله. من هنا كان الوازع النهائي للأخلاقية الكانطية هو «المثل الأعلى» - ذلك الذي ينبغي أن يوجد، ولكنه غير موجود.

إن هيجل برفضه هذه النتيجة - بعد أن وصل بها فيخته إلى نهايتها المتطرفة، بحيث جعلها تبدو متناقضة، وقضى بذلك على فعاليتها من الناحية العملية - أثر في العودة إلى وجهة النظر الأرسطوطاليسية في أساسها. وهنا، مرة أخرى، ممارسة تقوم على إدراك الحقائق المطلقة المتعلقة بالإنسان والعالم.

الأخلاق و«السياسة» عند هيجل يلوذان بفلسفته عن الروح، وهي فلسفة تضع حداً لا يصعب اختراقه بين «ما هو كائن وبين ما يجب أن يكون». لقد احتفظ ماركس حين جعل «هيجل يقف على رجليه» بهذا المنحى بالرغم من أنه استغنى عن ميتافيزيقيا هيجل. لذلك فإن الماركسي الذي عاد عام ١٩٢٣ إلى فلسفة ماركس هو بغنى عن تمييز الكانطيين الجدد الجامد بين الواقعة والقيمة، وبين العلم والأخلاق،

وبين النظرية والتطبيق (الممارسة). لقد تولى التاريخ الاهتمام بكل هذه الأمور، لأن فهم التاريخ على أساس أنه من صنع الإنسان يكشف خبايا الوجود الإنساني الأعمق (حسب تعبير معاصري لوكاش الوجوديين). إن مثل هذه الفلسفة، بشرحها الوضع الإنساني على هذا النحو، قد وصفت على نحو مماثل الأخلاق الملائمة أو المناسبة للإنسان.

كل هذه الأمور كانت واردة بشكل ضمني - وإلى حد ما بشكل صريح - في كتاب «التاريخ والوعي الطبقي». فقد كانت بمثابة التحدي للأخلاقية الكانطية واللاأخلاقية النيتشوية على حد سواء. وعلى هذا الأساس فقط ينبغي أن ينظر إليها نظرة جدية، وهو فعلاً ما حدث بعد مرور عقد من الزمن على يد الماركسيين الجدد (فيما يسمى بمدرسة فرانكفورت) الذين التفوا حول «مجلة البحث الاجتماعي» Zeitschrift fuer Soziale Forschung، وأهمهم ماكس هوركهيمر وتيودور أدورنو والتر بنجامين وهربرت ماركوز. أما الأثر المباشر الذي أوجدته هذه المدرسة فهو إحداث انشقاق في صفوف النخبةالمثقفة الماركسية في شرق أوروبا ووسطها. ولو كان لوكاش على حق، لترتب على ذلك أن يعامل التراث المثالي الألماني بروح مختلفة جداً عن الروح التي عولج بها، لا سيما في مقالة انجلز المؤيدة لفيورباخ.

أما بالنسبة للشيوعيين فقد كان من السهل جداً رفض الأخلاقية الكانطية التي غدت فلسفة لتلاميذ أدوارد برنشتاين التصحيحيين أو التحريفيين Revisionists في صفوف الديمقراطيين الاجتماعيين، ولم يكن من السهل الاستغناء عن التطورية «المادية» التي كانت مثيلتها الروسية قد أجازها لينين يوم أقر كتابات بليخانوف. ولكن بشكل إجمالي كان من المستحيل على اللينينيين حقاً أن يحذوا حذو لوكاش في اضطلاعه بالتراث الهيجلي كله. فهو يرى أنه في نقطة التلاقي بين علم السياسة والأخلاق يكون جوهر الإنسان على انسجام مع وجوده.

وإذا ما استخدمنا اصطلاحاً هيجلياً وقلنا إن مقولة «الذات المتطابقة مع الموضوع» تحقق نفسها في العملية التاريخية من خلال التغلب على الاستلاب (التشيؤ كما يحلو للوكاش تسميته) أو المفروض على البشر بفعل الظروف المادية التي فرضوها على أنفسهم، فإن الثورة البروليتارية هي الفعل الذي يجعل هذه العملية «تعود إلى رشدها»، وبالتالي تقترب من نهاية فعلية لكي يتلوها مجتمع شيوعي خال من الطبقات، يعمل على «تحقيق الفلسفة» (وهو مصطلح مشترك بين لوكاش وصديقه الهرطوقي كارل كورش).

ولم تكن هذه نهاية الموضوع. فتأكيد لوكاش على إمكانية وجود نظرة متميزة تستطيع استشفاف منطق التاريخ قد لمح دون ريب إلى أن النتائج الفلسفية مستقلة عن النتائج المتاحة للعلماء التجريبيين في حقلي علم الاجتماع والاقتصاد، ولدى المنظرين السياسيين. إن هذا النوع من الحجج، عندما يستخدم للدفاع عن الماركسية في وجه نقادها ممن لا يدركون لسذاجتهم طبيعة موقفهم الشخصي المشروط اجتماعياً، سوف يؤدي وظيفة جدلية مفيدة. ومن وجهة نظر الحزب، فإن الخطر الكامن في ذلك كان يفصح عن نفسه في تلك المناسبات التي كان يشعر فيها لوكاش بأنه حر في أن يعلن أن حقيقة الموقف التاريخي هي كيت وكيت. وليس بالأمر المهم أن تكون خطاباته منذ عام ١٩٢٠ فصاعداً قد جاءت متناقضة مع الأرثوذكسية السوفياتية، كوقوفه إلى جانب ستالين ضد تروتسكي أو مع موسكو ضد بكين عام ١٩٦٣. لقد أظهرت أقواله الهرطوقية بوضوح يوم وقوع الثورة في المجر عام ١٩٥٦، وهو أمر مبدئي بالنسبة له على أية حال، أنه يجوز التأكيد على أن الحزب (حتى لو كان هذا الحزب هو الحزب السوفييتي) يمكن أن يكون على خطأ. وبالنسبة لأولئك الذين نشأوا في بيئة غربية، فإن شعور رجل لاهوتي بارز بأنه حر في تصحيح هيئة الكهنوت قد لا يبدو أمراً غير مألوف. أما في بيئة يسودها جو الجدل البيزنطي كما كان الحال في موسكو القيصرية ـ البابوية، حيث كانت

السلطة السياسية لقرون طويلة هي التي تفرض القوانين، فإن مثل هذه الادعاءات غير مسموح بها. وعندما أصبحت اللينينية عقيدة رسميةفإن أي خروج عن الأرثوذكسية كان يؤدي تلقائياً إلى الخروج من صفوف المخلصين. إن الملابسات التي وقع فيها لوكاش فضلاً عن ارتداداته المفاجئة dramatic هو الثمن الذي دفعه لقاء مشاركته الدائمة في حركة كان قادتها ينظرون إليه بريبة ظاهرة. ومع أنه كان بعض الأحيان يقاضيهم كأن يعلن ـ بعد مرور ٤٠ سنة على وقوع الحادثة ـ عن احتقاره لهم وعن الأهمية التكتيكية المحضة لانتقاداته الذاتية وإذلاله لنفسه، إلا أنه إجمالاً كان يؤمن بعقائد يعاملهابازدراء تستحقه في كتابه «التاريخ والوعي الطبقي» الذي يعتبر من ألمع كتبه وأبعدها تأثيراً. كانت فلسفته هي بيت القصيد، وقد أدى ارتداده عنها إلى فقدانه عنصراً من عناصر التراث الهيجلي، الذي كانت خسارته التاريخية تفصح عن نفسها من خلال عمله اللاحق كناقد للأدب.

الفصل الخامس

إن أي ماركسي يولي أدنى اهتمام للمعضلات الفلسفية لابد وأن ينطلق من النظرة القائلة بتمحور التاريخ حول الذات الإنسانية ، تلك النظرة التي ورثها كل من ماركس وانجلز عن «كانط» في عصر التنوير. يقف الإنسان في وسط عالم المجتمع الذي خلقه هو (أي الإنسان)، ويضم هذا «العالم» مجال الفن الذي يعكس بعداً معيناً من أبعاد النفس البشرية. وإذا كان الكاتب المتكلم عنه مديناً لعلم الجماليات عند هيجل، فإنه سوف يسعى لربط المدرسة الهيجلية بتراث المثالية الألمانية من جهة، وبالحركة الرومنطيقية من جهة أخرى. ويتساءل مستغرباً كيف مهّد كتاب «كانط» في «نقد ملكة الحكم» الطريق لكتاب شيلر «الرسائل الجمالية»، التي بدورها لم تؤثر في هيجل الشاب فحسب، بل أيضاً في صديقه القديم وعدوه فيما بعد، شيلينج Schelling فيلسوف الرومنطيقية الألمانية. وإذا كان هذا الماركسي، مثل لوكاش، يعتبر المثالية الموضوعية لهيجل خطوة نحو المذهب الطبيعي لدى فيورباخ وانجلز، فإنه سوف ينظر إلى مذهب «المثالية الموضوعية» عند كانط وشيلر بمثابة انحراف أو زيغ كان هيجل متحرراً منه لحسن الحظ، وكانت علة هذا المنحى في بعض النواحي قريبة من الرومنطيقيين، بينما جسّد كانط المذهب العقلاني لعصر التنوير الألماني في أنقى مظاهره وأشدها تصلباً. وهناك صعوبة أخرى، وهي أن كانط الذي غادر مسرح الحياة في العام ١٨٠٤ ، كان فعلاً غير متأثر بالردة المحافظة والمناهضة للثورة الفرنسية ، التي امتدحها هيجل على مضض. وبدت مثالية كانط في نظر ماركس كتحويل أستاذي نموذجي لمذهب الفعالية الثورية الفرنسية إلى تأمل ألماني، ولكن في الأقل لم يكن ثمة شك بالتزامه «بمثُل» روسو والثورة الفرنسية عامة. وكانت حماسة هيجل لروسو أشد تكتماً، وعكست موافقته المتحفظة على نابوليون (التي شاطر فيها غوته) قبولاً مذعناً بالحكم الاستبدادي

المتنور الذي حل محل التجربة الديمقراطية التي اضطلع بها اليعاقبة. وثمة شيء في موقف هيجل تجاه نابوليون يربطه بالإعجاب العلني الذي أعرب عنه لوكاش تجاه ستالين: الربان الذي قاوم العاصفة حتى في اضطراره لذبح نصف ملاحي السفينة ومعظم ضباطه. ولطالما جذب الحكم الاستبدادي المتنور المفكرين الألمان. ومن هذه الناحية في الأقل يقف لوكاش وسط تقليد راسخ الأركان في النظرة السلبية التأملية التي تحلت بها البورجوازية الألمانية المثقفة في فترة ما قبل ١٩١٤.

إن هذه الاعتبارات ليست طارئة على لب موضوعنا ولو نظرياً، لأن الاستقلالية الذاتية للإنسان، كمواطن وكبنّاء لعالمه هو، هي الفكرة الرئيسية لعلم الأخلاق عند كانط مثلما هي في علم جمالياته. وثمة خط من التفكير يمتد من «نقد ملكة الحكم» عبر كتابات فيخته الشاب وشيلر وصولاً إلى وجهة نظر ماركس الشاب. وإذا كان الإنسان مقياس كل الأشياء ـ وهذه هي الفكرة الرئيسية في جماليات كانط ـ فإن أي نظام سياسي لا يحترم الاستقلالية الذاتية للإنسان هو نظام يتعرض للإدانة. وانطلاقاً من هذا الافتراض فليس هناك سوى خطوة قصيرة لبلوغ يعقوبية فيخته في باكر عمره، وهو بمثابة الأمر المألوف في التاريخ الفكري الألماني بأن راديكالية فيخته القصيرة الأجل قد تم إحياؤها على يد أتباع هيجل، أولئك الذين يعرفون بالهيجليين الشباب أو الهيجليين اليساريين. وإنه، لأمر مألوف أن هؤلاء المفكرين، الذين ضموا بين صفوفهم ماركس الشاب، كانوا في حالة تمرد ضد الجانب المحافظ والتأملي من فكر هيجل. غير أن هذا الجانب بالضبط من فلسفة هيجل هو الذي تتفتح زهوره في كتابه «علم الجمال».

لذلك، فإن طريقة فهم لوكاش تفرض عليه عائقاً محدداً بقدر ما هو عاجز عن أن يدفع إلى النهاية التضمنات الكاملة لما يسمى وجهة نظر ماركس البروميثية: التزامه بالمذهب ـ الفيورباخي في

جوهره ـ القائل إن الإنسان المتحرر، المستقل ذاتياً والحر، هو في آن معاً، الفرضية المسبقة للفلسفة والغاية الحقيقية لكل النشاط الاجتماعي... الإنسان هو الذات في عالم من الأشياء، وكل ما يدل على قوته الخلاقة يعتبر خطوة نحو تقرير المصير التام الذي يدعوه ماركس الحرية. ويكمن موطن الضعف لدى المذهب المثالي «الذاتي» انطلاقاً من وجهة النظر الماركسية، في معالجة هذا التحرر كمجرد أمنية، بينما أظهر هيجل أن تحرر الإنسان يحدث في التاريخ. إن ما هو حقيقي في نهاية المطاف (الحرية الإنسانية) يعود إلى مجراه عبر عملية ضرورية من الصراع والتناقض الذاتي. غير أن هذا (الحقن) بنمط من الحتمية المنطقية، لم يقم إلا بإزاحة كابح الأخلاقية الكانطية، وهي أخلاقية في تنازع أبدي مع الوضع البائس للعالم الواقعي. فهي لم تضعف ما كان مركزياً لكل أشكال المثالية الألمانية ـ الاقتناع بأن البشرية متجهة نحو فرض الشكل والمضمون على عالم هو من صنعها اللاواعي. فالإنسان يبذل الحد الأقصى لإمكانياته، وبينما يتفاعل حتماً، وهو في ميدان العمل، مع بيئة مادية محددة، فهو حر على نحو أصيل في مجال الفن. إن الدلالة النهائية للإبداع الفني هي انطولوجية. فالفن يكشف الطبيعة الحقيقية للإنسان ككائن نوعي.

ولا يمكن لدارس مؤلفات لوكاش في علم الجمال أن يغيب عنه أن نظرية التمحور حول الذات الإنسانية هذه، يمكن اتخاذها معياراً للحكم على جميع الأعمال الفنية. وتنطوي المقولة الكلية الجامعة، التي هي مقولة مركزية للماركسية عامة، على أهمية خاصة بالنسبة إلى لوكاش لأنها تمكنه من ربط الإبداعات الفردية بأنماط أو أنواع تتطابق مع مراحل تاريخية معينة في التحرر التدريجي للإنسان من قيوده المفروضة ذاتياً. ويتم تحليل «التشيؤ» (اعتبار الأشياء المجردة أشباه مادية) أو «التمدي» في كتاب «التاريخ والوعي الطبقي» ضمن جزء أساسي من عمل يركز على فلسفة للتاريخ ورثها لوكاش عن فيورباخ وماركس، ولكنه ورثها أيضاً عن الفلاسفة الكبار للمثالية الألمانية:

كانط، وفيخته وهيجل.

وتتمثل صلة هذا الجانب من الموضوع في أنها تفرض على مفسر كتب لوكاش نهجاً متعارضاً كلياً مع توقعات قراء بلغوا هذا الموضوع عبر تراجم لمؤلفه في النقد الأدبي. وقد تم تأليف الكثير من هذا العمل أثناء الحقبة الستالينية وهو بذلك يشمل كمية لا بأس بها مما لا يمكن وصفه إلا بأنه من سقط المتاع. والنموذج المناسب هنا هو ما تقدمه مجموعة المقالات الصادرة في عام ١٩٥٠ في تراجم انكليزية بعنوان «دراسات في الواقعية الأوروبية». ومعظم كتاباته المجموعة في هذا المجلد هي من التفاهة بحيث لا تستخف بالنقد فحسب، ولكن بالعرض البسيط. فهذه المقالات التي كتبت في أواخر الثلاثينات ـ عندما كان لوكاش يعيش في موسكو كلاجىء آتٍ من ألمانيا دون أن يقابل وجوده هناك بالارتياح، ونشرت في مجلات مختلفة مكرسة للدعاية بين المتعاطفين معه ـ لا تجذب انتباه أي شخص مهتم على نحو جدي بالأدب الفرنسي أو الروسي: الموضوعين اللذين اختيرا بعدئذ بهدف تطوير التعاون الفرنسي ـ السوفياتي على كل صعيد. ويمكن قياس المستوى الفكري لهذا الخليط من الإعلان الاستهلاكي بأن الناقدين الروسيين الكبيرين في القرن التاسع عشر: فيساريون بلينسكي (١٨١١ ـ ١٨٤٨) والكسندر هرتزن (١٨١٢ ـ ١٨٧٠) «هما السبّاقان للمنهج الذي تتوج باسمي لينين وستالين». وثمة بالمثل مقالة تافهة حول علم الجمال لهيجل، نشرت للمرة الأولى في هنغاريا في عام ١٩٥١ وأعيد طبعها لاحقاً في المجلد العاشر من الأعمال الكاملة، لا تمتدح كتاب ستالين «لمطلع عهد جديد» حول علم اللغة فحسب (وهو كتاب يعتبره لوكاش نقطة تحول في الفلسفة)، بل تتضمن هذا النص: «إن النقد الحاد الذي أخضع له كل من لينين وستالين والعبقرية التي طبقا بها مبادىء الماركسية على عصر الامبريالية والحروب العالمية والثورة البروليتارية، هما وحدهما جعلا من الممكن المضي في التطوير اللاحق للماركسية في ميدان علم الجمال».

وثمة شيء أكثر من ذلك بهذا المعنى في هذه المقالة ـ مناقشة استعلائية للتراث الهيجلي في حقل الفن ـ ويصدر المجلد كله في هذه الطبعة الألمانية الغربية بمقدمة (بودابست، أيلول/ سبتمبر ١٩٥٢) تمجد مرة أخرى مآثر لينين وستالين الفلسفية، ولا سيما جولة ستالين في نظرية اللغة.

وإنصافاً للوكاش ـ الذي كان يعيش حينذاك في ظل أشد الأنظمة وحشية وهمجية، التي لم ينج من بلائها إلا بشق الأنفس ـ لن يقال أي شيء آخر عن هذه الممارسات البغيضة في النظامية الحزبية. كل من يقرأ مقدمات لوكاش لمقالاته الكاملة حول الواقعيين الروس (مؤرخة «بودابست ، شباط/ فبراير ١٩٤٦» و«بودابست ، أيلول / سبتمبر ١٩٥١») ، ومن ثم ينتقل إلى مقدمة ١٩٦٤ في الطبعة الألمانية الغربية للأعمال الكاملة Werke يمكن أن يحكم بنفسه على ما إذا كان مسوغاً له أن يورد في الختام بعض التعليقات الاعتذارية حول «تراجعات تكتيكية سابقة إبان مناظرات ١٩٤٤ ـ ١٩٥٠» ، مع هذه الملاحظة الهزيلة: إذا أضفت الآن إلى الدراسات القديمة حول الأدب السوفياتي دراسة جديدة متعلقة بمغزى ظاهرة سولجنتسين، فليس ذلك، ببساطة، إلا استمرارية غير متقطعة لنشاطي الماضي في هذا الحقل». إن ما كانت تنطوي عليه «مناظرات ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠» ـ التي حدثت في أوج موجة تطهير من أشد تطهيرات الحقبة الستالينية دموية، هذه المرة في هنغاريا ـ يمكن استنتاجه من مقالة حول هذا الموضوع بقلم جوزيف رفاي المغالي في ستالينيته ـ وهو تلميذ لوكاش، ثم أصبح فيما بعد عدوه الألد. بالنسبة لرفاي «كان صمت لوكاش حول الأدب السوفياتي أثناء الأربعينات في هنغاريا بالغ الدلالة». ألم يقم أثناء الثلاثينات بنقد كل من «الانحطاط البورجوازي» وحركة التأليف السوفياتية؟ أو لم يدل ذلك على أنه «كان يقف على أرضية الواقعية البورجوازية الكلاسيكية؟» إنها لتهمة خطيرة بالفعل، خاصة وأنها استعادة لانحرافات لوكاش السابقة.

إن مجرد سرد هذه الأحداث يكفي للتخلص من مفهوم استحالة فصل عمل لوكاش كناقد أدبي ـ أو بالأحرى كعالم اجتماع في الأدب ـ عن التزاماته السياسية والفلسفية. ولا يمكن جعل مفهوم للفصل كهذا أكثر معقولية على أساس أن نقاده الستالينيين والجدانوفيين Zhdanovists سعوا بين الحين والآخر لاكتشاف آثار الجمالية حتى في أقواله البالغة الاستقامة إبان الثلاثينات. هكذا استنتج «رفاي» عدم حماسة لوكاش للأدب السوفياتي واعتقاد هذا الأخير بأنه ليس من الضروري أن يكون الكاتب شيوعياً لكي يصف الواقع بصدق: «إن هذه النزعة نحو الموضوعانية Objectivism يمكن أن نجدها مع الأسف في مجمل أعمال الرفيق لوكاش». غير أن العلة الحقيقية تكمن، في رأي رفاي، في مكان آخر: لم يتغلب لوكاش أبداً على توقه الملح لنوع من التقدمية، السياسية والفلسفية والفنية، التي كانت ديمقراطية دون كونها اشتراكية. وبتعبير آخر، لم يتغلب أبداً على الهرطقة المرعبة لأطروحاته المعروفة باسمه الحركي «اطروحات بلوم Blum» (بالرغم من أن ذلك لم يتضح على نحو جلي إلى أن أثارها لوكاش علانية خلال أحداث ١٩٥٦)، عندما حاول أن يخرج الشيوعيين الهنغاريين من ازدرائهم العصبوي للتقليد الديمقراطي:

«ما هو مصدر هذه المفاهيم؟ إن الرفيق لوكاش (في انخراطه) بالنضال المناهض للفاشية قد نسي النضال المناهض للرأسمالية ـ ليس خلال السنوات الخمس الأخيرة فحسب، بل قبل ذلك بكثير. وفي كفاحه ضد الانحطاط الامبريالي حاول مجابهة الفاشية بالأشكال الثورية ـ الشعبية العامية القديمة للديمقراطية البورجوازية وتقاليدها، مسبغاً عليها بشكل عام، الطابع المثالي والميثولوجي. ونجدها متأصلة بعمق في النظرية الأدبية للرفيق لوكاش، التي تجابه أدب الانحطاط الامبريالي وأيديولوجية الفاشية بالواقعية البورجوازية الكبرى، حيث تكمن على نحو خفي فكرة العودة إلى «ديمقراطية العامة» كنظام يملك صبغة ثابتة.

ومما يثير الاستغراب وجود شيء من الصحة في هذا الاتهام، مع أنه بحاجة إلى صياغته في لغة أقل عصبوية. وإن ما دعاه إسحق دويتشر ذات مرة «قصة حب لوكاش الفكرية» مع توماس مان يضيء تعاطفاً مثيراً للفضول في موقف لوكاش تجاه تلك الثقافة البورجوازية التي كان هو نفسه نتاجها. ولكن، مرة أخرى، لا يمكن فصل هذا الجانب من الموضوع عن التطور الشخصي والسياسي للوكاش منذ أواسط العشرينات.

وما أن هدأت العاصفة حول كتاب «التاريخ والوعي الطبقي» حتى ابتدأ لوكاش يظهر بهيئة ماركسي - لينيني مستقيم إلى حد ما، وقد استطاع أن يتخطى انحرافاته الواضحة. وأعقبت دراسة تقديرية للينين (١٩٢٤) مراجعة نقدية حذرة لمؤلف بوخارين حول المادية التاريخية (١٩٢٥) ، ومقالتان نقديتان مسهبتان وعلميتان حول لاسال (١٩٢٥) وموسى هس (١٩٢٦) ، كتبت بالألمانية، ونشرت في المجلة ذات السمعة الطيبة جداً «أرشيف من أجل تاريخ الاشتراكية» (وهي مجلة أكاديمية أسست قبل ١٩١٤ لصالح البحاثة الاشتراكيين) ، وهي للأسف غير مترجمة. كشفت هذه الكتابات عن معرفة شاملة للتاريخ الاشتراكي، وتقيدت بشكل دقيق بوجهة النظر الماركسية، وشملت قليلاً من المفاهيم التي يمكن اعتبارها في موسكو، مهما جرى التوسع في تفسيرها، بمثابة مفاهيم هدامة، بالرغم من أن العرض الجاف نوعاً ما لبوخارين في علم الاجتماع للمبتدئين كان يستحق بعض النقد المبرر. والمقالة الأكثر متعة، وهي عن موسى هس، جديرة بالاهتمام، حتى في أيامنا هذه، لدفاعها عن «الواقعية» الهيجلية في مناهضة «طوباوية» فيخته المثالية، وقد يمكن اعتبارها ضمن هذا النطاق معركة دفاعية في انسحاب لوكاش البطيء من الموقع المكشوف الذي كان يشغله قبل ثلاث سنوات. فقد لفتت انتباه القارىء فيما لفتته إلى لك الهيجلي المشوق، أوغست فون شيزكوفسكي، واستهانت بنقد فيورباخ لهيجل، وشرحت إخفاق هس في إكمال علم أخلاق اشتراكي

وافٍ، وذلك انطلاقاً من اعـتناقـه لانتروبولوجـيـا فـيورباخ الوجدانية. وبالإجمال فإن هذه المقـالة من أشد كتابات لوكاش أصالة ونفاذاً، وهي على الإطلاق أعظم قـيـمـة من العـديد من أقواله التالية حول المواضيع الفلسـفـيـة. وهي، مثل مقالته السابقة عن «لاسال» تتكشف عن قدرة إقناع منطقـيـة وتهتم في موضوع مفقود للأسف في بعض جولاته النقدية اللاحـقـة والأكثر شهرة، وهي التي كان ينبغي عدم نشرها أساساً، بل ترجمتـهـا. كـان لوكاش حينذاك في الأربعين من عمره وفي أوج طاقاته ككاتب، كـان سيـد أسلوب مصقول، وواضح المعالم، ولم يكن حكم عليـه بعـد أن يؤدي المهـمة الموحشة في إنتاج كتابة مبتذلة لجمهور قراء شبـه أميين. إن العصر الذهبي لجمهورية فايمار قصيرة العمر لم يتزامن مـصـادفـة مع فترة هدوء نسـبي داخل الحركة الشيوعية المشرذمة، محلياً ودوليـاً. فـقـد كـانت فرصة مؤاتية لمنظر من طراز لوكاش استوعب أن الماركسـيـة لا يمكنهـا فـرض وجـودها على العالم الأكاديمي، والثقافة الدقـيـقـة، غير أن وقـوع الحـزب الشيوعي الألماني فيما بعد في هستيرية مـغـاليـة في اليسـارية ـ وهي نقل للنزاعات الحزبية الروسية المحلية إلى أوروبا الوسطى ـ قـد دمـر هذه البـدايات الواعـدة، وقاد في النهاية إلى اعـتـلاء هتلر سدة السلطة، على ركام الليبرالية والديمقراطية الاشتراكية والشـيوعية على حد سواء.

أمـام هذه الخلفـية، اكتسبت محاولة لوكاش التي لم تكل خلال هذه السنوات والتي أعـقـبـتـهـا، لتـجنيد توماس مان إلى جانب «التقدم»، دلالـة ازدادت بروزاً إبَّـان كـارثة ١٩٣٣ . وبـعـكس الذين نصـبـوا أنفـسـهـم وعاظاً وكانوا يشكلون القيادة الفعلية للحزب الشيوعي الألماني ـ هذا عـدا مـسـتـشاريهم «النظريين» الذين خرجوا بمعظمهم من مقاهٍ «فـينوية» (نسبـة إلى مـدينة فـيـينا)، وكانوا يعيشون في عالم أحلام من صنع خـيـالهم ـ امـتلك لوكاش فهماً عميقاً للتاريخ والثقافة الألمانيتين. لقـد أدرك ـ وذلك سـيـضـحـي من أفكاره الرئيـسـيـة الثابتة ـ أن حركة التنوير الألمانيـة للقـرن الثـامن عشر قـد هزمـتها حركة رجعية مضادة،

وأن النظرة الأساسية لأغلبية المثقفين الألمان هي نظرة لا ديمقراطية بشكل كلي، وأن اللاعقلانية هي خطر حقيقي ماثل للعيان، لا ينذر بانحطاط ثقافي فحسب، بل بكارثة وطنية. وكان مدركاً بشكل مماثل - وهذه حقيقة أخرى ميزته عن منظرين للحزب الشيوعي الألماني والأممية الثانية أشباه الأميين - بأن الاتجاه الرئيسي للثقافة الوطنية مرتبط بمطامح الديمقراطية والحركة العمالية. وكانت الأمة الأكثر رجعية في أوروبا - أمة تكوّن وعيها الوطني لذاتها في حرب مناهضة للثورة الفرنسية - تحتل أفضل موقع استراتيجي وأكثر المناطق دينامية وأعلاها تصنيعاً في القارة الأوروبية. وألهبت هزيمة ١٩١٨ العسكرية صدور طبقات السكان كافة - بمن فيها العمال، الذين كانوا ساندوا الحرب باكثريتهم الساحقة، وان لم يوافقوا على الاهداف الامبريالية للغزو. وكانت المانيا، بالمقارنة مع جاراتها الاوروبيات، عملاقاً صناعياً، وقد تصبح مرة اخرى عملاقاً عسكرياً. وكانت المدارس والجامعات معاقل للايديولوجية السائدة التي هي مركب من الرومنطيقية الرجعية والروح العسكرية العدوانية، وعبادة القوة، والحقد اللاعقلاني لأي شيء غربي، ليبرالي، انساني، كوزموبوليتاني أو «يهودي». وبينما كان افراد الهيئة التعليمية في فرنسا من القمة الى القاعدة ينتمون في سوادهم الى اليسار، شكل المدرسون في المانيا جند الصدام للقومية والرعية. وبدا ذلك واضحاً تمام الوضوح لكل ذي عينين. لقد مثّل ذلك لعقود طويلة التذمر الدائم لديمقراطيين بورجوازيين جديرين بالاحترام امثال هينريش مان وهو شقيق توماس مان و«غربي» مولع بالثقافة الفرنسية بحماسة متوقدة ،وهو أمر شاع في اوساط الفئات اليهودية الصغيرة العديدة، ولكن الكبيرة التأثير التي كانت تمثل في العشرينات ما تبقى من الليبرالية الالمانية، وذلك بعد ان ارتد معظم جندها الى معسكر القوميين، وكان ذلك واضحاً للديمقراطيين الاشتراكيين وهو ما يفسّر جزئياً التشبث البائس الذي تمسكوا من خلاله ببناء الجمهورية المنهارة التي اقاموها في العام ١٩١٨.

والواقع انهم قاموا بعمل اخرق - وفقدوا مع مرور الوقت سيطرتهم على الأقلية من العمال والمثقفين الجذريين- لم يبطل تصورهم بأنهم جاثمون على فوهة بركان، ولم تكن جمهورية فايمار فاقدة الشعبية فحسب (لم يكن بإمكانها بعد العام ١٩٢٠ الاعتماد على اكثرية برلمانية موثوقة)، بل ان مجرد وجودها كان يستثير غضباً عارماً في صفوف القوات المسلحة، ومعظم الطلاب، واغلبية الهيئات التعليمية في المدارس والجامعات، وأكثرية الفلاحين والعدد الأكبر من الطبقة المتوسطة الريفية. ولم يحظ الركنان التوأمان لائتلاف فايمار الاصلي- الاشتراكية الديمقراطية والكنيسة الكاثوليكية- بأية مكانة في أعين الجيش، وطبقة ملاّك الاراضي الارستقراطية او الطبقة البروتستانتية العليا. ولم يكن لدى الاشتراكيين الديمقراطيين سوى النقابات ليلجأوا اليها، وأما الكاثوليك- كما اظهر ذلك انتصار هتلر السهل في ١٩٣٣- فبدوا على أهبة الاستعداد للتخلي عن السفينة الغارقة والالتفاف حول نظام سلطوي.

وفي ظل هذه الظروف، كانت ثمة مبررات سليمة قصيرة الأجل وطويلته، وذلك لمحاولة تقريب الاشتراكية من طبقة متوسطة قد نسيت أنها تبرأت من التزامها بالانسانية الليبرالية والمثل الديمقراطية للعام ١٩٤٨، ولم يجاف الحقيقة اعداء لوكاش الستالينيون الذين اتهموه في الاعوام اللاحقة بمحاولة احياء تراث الثورة الفرنسية، غير ان النقطة التي فاتتهم هي انه في المانيا وجدت كل الدواعي من اجل محاولة تبرير التزام بالماركسية بشكل الانسانية الراديكالية التي مثلها سابقاً كتّاب امثال جورج بوخنر، وهاينريخ هايني، ونيقولاوس لبناو او الأرستقراطي الليبرالي بلاتن- وهو كاتب مفضل لدى لوكاش، وقد ابرزت الساحة الالمانية في فترة ماضية ١٨٣٠ - ١٨٤٨ تقدماً راديكالياً مفاجئاً على صعيد الفكر وارتفاعاً إنسانياً مذهلاً في الشعر. وبدون الذهاب بعيداً في تقديم البرهان بلا مبرر، يمكن تبيان ارتباط هذه التيارات بالعصر الشهير للفلسفة والأدب والفن الالماني

الكلاسيكي: عصر غوته، وهيجل، وبيتهوفن. وفي محاولته ضم توماس مان للتقليد الانساني، لم يكن لوكاش يقوم بمناورة دعائية وحسب، بل كان يحاول تثبيت ماركس وانجلز ككتاب من الطراز الاول في الادب الالماني، ولم ينجح اسلافه الاشتراكيون الديمقراطيون المنتمون الى الخط نفسه- وبشكل خاص كاتب سيرة ماركس والناقد الادبي فرانز مهرينغ (١٨٤٦-١٩١٩) في حمل عدد غير ضئيل من الطبقة الوسطى الليبرالية على اعتناق القضية الاشتراكية. وتعمد لوكاش استئناف العمل حيث توقف مهرينغ، ولكونه فيلسوفاً مدرباً، لم تراوده أية اوهام حول الاهمية المزعومة «للبنية الفوقية الايديولوجية». كان لا بد من خوض المعركة الحاسمة على صعيد الخيار الواعي بين التيارين الرئيسيين داخل الثقافة الالمانية: تيار العقلانية والانسانية من جهة، وتيار اللاعقلانية والهمجية من جهة اخرى. وبتعبير سياسي، كان لا بد من تحويل الانتلجنسيا. ولكن لم يكن ممكناً تحقيق ذلك بالدعاية لصمّ الآذان المعارضة. كان ينبغي وجود تحويل اصيل حقيقي، ينطلق من وعي هدف مشترك: احياء تقليد المانيا الكلاسيكي قبل ان يغمرها الطوفان الرومنطيقي، والنتيجة النهائية المفجعة لهذه الأخيرة: «همجية العصور القديمة» من قبل نيتشه وذريته الفاشية.

وليس من سوء حظ لوكاش- ان نجاح هذه العملية اعتمد على ظروف لا سيطرة له عليها، ويأتي في مقدمتها ذهنية الشيوعيين الالمان والنمساويين والهنغاريين. ومنذ ١٩٣٠ فصاعداً خرجت نوبة جديدة من التعصب الفئوي بالمذهب القائل ان العالم عامة، والمانيا خاصة، قد دخلا عصر ما قبل الثورة، تدعمهم في مذهبهم هذا اقوال من ستالين. غير ان الذين شجعوه في الواقع المتعصبون المتجانسون الذين ظهروا «كملهمين» نظريين للحركات الشيوعية المختلفة في اوروبا الوسطى. وعزز هذا الهراء الفارغ الاكتشاف الساطع بأن الديمقراطية الاشتراكية والفاشية «توأمان»- وهذا ضرب من الحماقة كان عمل على

نشرها زينوفييف في ١٩٢٤ قبل ان يتبناها ستالين واتباعه، حيث لا احد منهم يحمل عبء الالمام غير الضروري باحوال العالم خارج حدود الاتحاد السوفياتي. ومن ضمن هذا «التحول الى اليسار» (الذي انطوى ايضاً على تجربة غريبة مع «الادب البروليتاري» في روسيا) جهز الحزب الشيوعي الالماني نفسه بمجلة ادبية اسمها «المنعطف اليساري» التي اصبح لوكاش مساهماً فيها عام ١٩٣١ ، بعد ان قضى سنة في موسكو في (١٩٣٠-١٩٣١) وتخلص من بقايا ذاته ما قبل الستالينية. وتشكل مساهماته في مجلة Die Linkskurve ومجلات شيوعية المانية اخرى في ١٩٣١- ١٩٣٣ مادة رديئة جداً للقراء . انها نتاج انسان اجرى لمخه نوعاً من العملية الجراحية غير المؤلمة، فأزال جزءاً من دماغه وأبدل به شعارات من الدعاويين في موسكو، ومثل هذه النوعية من المقالات النقدية لم تنتزع الاعجاب لدى احد ما لم يكن مسبقاً عضواً حزبياً مخلصاً. وليس غريباً، والحالة هذه، ان كلتا محاولتيه، السابقة واللاحقة، في سبيل تجنيد توماس مان وغيره من المؤلفين الألمان البارزين لتأييد القضية «التقدمية» قد اعتبرتا من قبل المستفيدين البعيدي النظر مجرد مناورات تكتيكية، فاثبات ان ماركس وانجلز يندرجان ضمن التقليد نفسه لكل من كانط وفيخته وهيجل شيء، وتأكيد ان هذا التقليد قد ورثه ككل «الكاتب الثوري البروليتاري الناطق باسم طبقته» كما وصفه لوكاش (١٩٣٢) شيء مختلف كلياً. وشكّل شجب لوكاش في الوقت نفسه لآية محاولة، تبغي التمييز بين الفن والدعاية كمحاولة «تروتسكية»، خروجاً ملحوظاً على مقاييسه السابقة (اذا ما تكلمنا باعتدال). كان مهرينغ يجيز لنفسه بين الفينة والأخرى ابداء تعليق صريح حول عدم تأييد العهود الثورية للنمط الجماعي للادراك؛ اذ انها تستلزم الالتزام العملي والاهمال الواعي للتفكير المنهجي. وكتب لوكاش في -Die Links kurve في عام ١٩٣٢ هادراً بالطريقة الستالينية الفضلى: «لدينا هنا بشكل جنيني النظرية الادبية للتروتسكية»- حيث ان تروتسكي كان

قد قال ما معناه، انه في حين ستوجد ثقافة اشتراكية ضمن مجتمع مقبل، فليس هناك ما يسمى أدباً «بروليتارياً» في مقابل كتابة «بورجوازية». وكان هذا القول يعتبر هرطقة في موسكو في ١٩٣٢ ولكن بعد سنوات قليلة اضحى وجهة النظر الستالينية الرسمية - وعندئذ غيّر لوكاش وجهته فوراً وتخلى عن مفهوم الادب البروليتاري وأبدل به مفهوم «الواقعية الاشتراكية» الذي كان ستالين قد جعله رسمياً حينذاك (وفقاً لنصيحة مكسيم غوركي).

وقبل الدخول في هذا الجانب الكئيب من الموضوع، لا يزال هناك شيء لا بد من قوله عن قصة حب لوكاش الفكرية مع توماس مان. ويعود ذلك إلى ما قبل عهده المزدهر في هنغاريا سنة ١٩١٤. وقد بقيت هذه القصة بشكل لافت للنظر حيةّ بعد اقامته الطويلة في موسكو (١٩٣٣-١٩٤٤) وظهرت الى السطح مرة اخرى خلال انطلاق ما بعد ستالينيته في أعقاب ١٩٥٣. لقد كانت بالفعل امراً ثابتاً منذ أيامه الأولى كناقد.

لقد حدث أول لقاء بين لوكاش ومان في ١٩٠٩، واتخذ شكل عرض لرواية مان « السمو الملكي » (وهي مترجمة الى الانجليزية كملحق لمجلد صادر عام ١٩٦٤ بعنوان «مقالات عن توماس مان»). والموضوع الأكثر جوهرية في هذه المجموعة هو «البحث عن الانسان البورجوازي» وكان قد كتبه في عام ١٩٤٥ تكريماً في عيد ميلاد مان السبعين، وفي محاولة (ولنستشهد بملاحظات لوكاش التمهيدية اللاحقة («بودابست، كانون الثاني (يناير) ١٩٦٣»): «لتوضيح موقف مان المعقد بشكل جدلي ازاء الطبقة المتوسطة، التي تشكل، حسب رأيي، المصدر الاساسي الاجتماعي وبالتالي الشخصي لحياته كلها»: ترجمة مضللة لتعبير «البورجوازية» Buergertum، وهو مفهوم ميت يرتبط من بعيد بالبورجوازية، ولكنه يختلف ايضاً عن التعبير الأكثر شيوعاً. والالمان المنتمون الى هذه الشريحة- التي أوجدت ثقافة متمايزة في القرن السادس عشر، وذلك قبل أن تقهرها كارثة الحروب الدينية

ونشوء الحكم الاستبدادي- كانوا يعتبرون انفسهم دائماً اصحاب اسلوب معين في الحياة مرتبط بقيم لا يملكها النبلاء ولا عامة الشعب. وضمن هذه السياق فان المصطلح Bildung (بمعنى الثقافة والتهذيب والتأديب) الذي لا يمكن ترجمته كلية لا يعني «الثقافة»، بل بالأحرى يحمل معنى مشابهاً للنضج الفكري والاخلاقي. فالـ Bildung تحقق هدفها عندما تصل الى نقطة حيث ان الفرد- يتألف عالم المواطنينBuerger من افراد، وهو مفهوم لا يعني شيئاً البتة لملاّك الاراضي الارستقراطيين أو البروليتاريا- ليس متمكنا من الاعتماد على نفسه اقتصادياً فحسب، بل اكتسب ايضاً حيازة راسخة من القيم التي تشكل اسلوب حياة الـ Buerger . ويوجد النقاء الحقيقي لهذه القيم في الثقافة الفايمارية الكلاسيكية المرتبطة بالاسماء السحرية لغوته وشيلر، غير أنها تشمل أيضاً شعر نقادهم وخصومهم الرومنطيقيين وفلسفتهم: هاردنبورغ- نوفاليس، فريدريك شليغل، تيكو شاميسو، أي.ت.أ. هوفمن، جان باول وآخرين، وأي شخص ليس ملماً بهذا العالم الأدبي الفلسفي يعرف بأنه ungebildet (غير مثقف ومصقول التربية)؛ وبذلك لا يستحق ان يسمى Buer-ger. وبالرغم من انه قد يكون حائزاً على المكانة الاجتماعية الاقتصادية المستلزمة، لا يعني ذلك انه ينبغي على المواطن Buerger ان يكون صاحب ملكية، بالرغم من ان Bildung und Besitz (الثقافة والملكية) يترافقان كلاسيكياً. وكان من شأن شخصيات افراد اسرة فورسايت في رواية غالز ورثي ان يجري اعتبارهم بمثابة افراد محظوظين على نحو استثنائي من الطبقة الكبرى من المواطنين سكان المدن أو طبقة النبلاء. ولأجل غاية عملية، فغالباً ما يكون الـ Buerger موظفاً مدنياً، استاذاً جامعياً، أو رجل دين أو أحد أفراد المهن الحرة. وما يميزه عن البورجوازي الصغير، وحتى بدرجة اكبر عن الناس العاديين، إنما هو أسلوب حياته الذي بدوره يتركز على «قيم مثالية» بالاضافة الى القيم المادية الاكثر شيوعاً.

ومن البـدهي ان ذلك كله وجـد ويجد له نظيراً في مكان آخـر. ومـا يجعل المؤثرات الأعلى للثـقـافـة الالمانيـة في القرون الثلاثة الماضية فريدة هو كـونها قـد زودت على وجـــه الحصر تقـريبـاً بقـضايا الـ -Buer gertum. ولم تـكـن الحـالـة هذه بالتأكـيـد قـائمـة في بلدان اوروبيـة اخـرى. فـلا الادب الاليـصـاباتي ولا الثـقـافة الفرنسية للعصر الكبير يمكن وصـفـهما كبورجوازيين، بينما Kulturو Buerger مصطلحان مـتـداخـلان ومترابطان. وبالقـدر الذي امـتلكت فيه المانيا التي نهضت من ركام حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨-١٦٤٨) ثقـافـة ، فإنها كانت ثقافة الـ Buergertum. وان المأثرة الجـوهرية لهذه الثقافة أنها كانت مـتأثرة بالبـورجـوازية من البـداية حتى النهاية (بالرغم من وجود بعض الانصـار الارسـتـقـراطيين للحـركـة الرومنطيـقـيـة مـثل هاينريخ فـون كلايستKleist)، وحـتـى جماعـة المعـجبين بالقـرون الوسطى، التي خربت الادب الالماني بين ١٨٢٠ - ١٨٥٠ كـانـت بـورجـوازية: فـالارسـتـقـراطية المؤيدة للبلاط كانت تفضل الى حد بعيد فرنسا القرن الثـامن عشر على القـرون الوسطى الجـرمـانيـة. والنبـيل الالماني الوحيد لتلك الفترة الذي يسـتـحق ان يعتبر شاعراً كبيراً- اوغست فون بلاتن- كـان بيرونيـاً وليبراليـاً سـيـاسـيـاً. وتوافق اسلوبه النيـوكـلاسيكي، ولو بطريقـة اقل تأثيراً، مع اسلوب بوشكين وثقـافـة الطبـقـة العليـا لروسيا القـرن التـاسع عشر، وهو مجتـمع كـان فيه المرء نبيلاً أو عامياً، وليس مطلقاً Buerger بالمعنى الالماني.

كـان تومـاس مـان آخـر مـثل كـبير لهذه الطبـقـة والثـقـافة الالمانية الفـريدة، ولا عجب ان يعتني لوكاش الذي بالمناسبة يظهر بمظهر غير محبب في رواية مـان الشهيرة «الجبل السحري» ١٩٢٤ وذلك كـالارهابي جيروزيت نافتا Naphta ، بشـخـصـيـة مشـؤومة تجمع بين الايمان بالكنيـسـة الكاثوليكيـة والايمان بالثـورة البروليـتـارية. وجاء موقف مان الوطني المتحمس خلال حرب ١٩١٤-١٩١٨ كضربة للوكـاش، كما سـبب له نفوراً. غير ان ذلك لم يدم طويلاً، فان ما جمعهما اساساً كان

التراث الذي وصفه لوكاش- وذلك في اعتراف شهير بالذنب جرى إعلانه في موسكو بعد سنوات لاحقة- «ميولي نحو العداء الرومنطيقي للرأسمالية»: وهو دوران تكتيكي حول المعنى يهدف الى تجنب اي ذكر لنيتشه. اما فيما يتعلق بالمذهب الاخلاقي الشخصي، فقد كان لوكاش قبل ١٩١٤ وجودياً ورعاً منغمساً في الصوفيين الالمان، وفي كيركغارد ودوستوفيسكي ، واذا حكمنا عبر مقالته لعام ١٩٠٩ لم تكن سخرية مان الرومنطيقية محببة كلياً للوكاش، فبينما عزا الى مؤلف رواية «آل بودنبروك» («عائلة بودنبروك») «شعوراً بالانسلاخ عن المجتمع النباتي الطبيعي والتوق اليه»، اقترح ايضاً بأن هذه السخرية «تنبع من عدم الادراك المأساوي- الهزلي لأنواع التوق المتعددة هذه، ومن المآسي المضحكة للانفصال والانعزال التي تحدث عندما يحتك توق بالحياة». وفي الوقت نفسه، كان لوكاش واعياً حتى حينذاك الوضع الاجتماعي الذي هو في اساس تصور مان التهكمي لِلـ Buergertum وعالمه: «ثمة في كتابته ذلك الحس المتلاشي الآن المتمثل في الجلال والبورجوازي النبيل، ذلك الجلال النابع من الحركة البطيئة للثورة الراسخة».

واذا ما علمنا ان لوكاش قد وصل فيما بعد الى الماركسية عبر «فلسفة الحياة التي قال بها ديلثاي Dilthey وسيميل Simmel» ، كان من المحتم عليه ان ينقب في مؤلفات مان بحثاً عن دليل على الاستياء من الطريقة البورجوازية للحياة. تمحورت كتابات مان الأولى حول ما دعاه لوكاش لاحقاً «معضلة طونيو كروغر - Tonio Krog -er» أي علاقة الفن بالحياة- وهو موضوع رواية مان القصيرة والشهيرة التي أثرت في لوكاش بينما كان لا يزال تلميذاً في المدرسة، في حين ان لوكاش البالغ قد اتخذ موقفاً انطلاقاً من ارضية مختلفة كلياً، المظهر الكانطي (او الفاوستي) للفرد المحول العالم الذي تخلى عن النمط التأملي للوجود. وفي الوقت نفسه قاده انهماكه الدائم

بـنظرية علم الاخـلاق الى تعـريف مـدلول عـمل مـان بأسلوب تجاوز الاختـزاليـة السـاذجـة لطريقـة الفـهم السوسيولوجي. ومان نفسه وفر وسائل ردم الهوة باختتام مهنة حياته الطويلة بالـ Bildungsro-man(روايـة الـتـكـويـن الـثـقـافي والـنفسي) التي حملت العنوان المثير «دكتور فاوستوسDoctor Faustus »: وأي عـرض لتهكمه الذاتي الشـهير، مـا دامت عـلاقـتـه لغـوته قـد اصـبـحت آنذاك رمـزاً انتقادياً مألوفـاً. وتوصل لوكـاش، الذي كـان قـد ناقش الموضـوعـية الفاوستية الرئيـسية مطولاً في دراساته عن غوته، في عام ١٩٤٥ الى استنتاج ان مـان هو خليفة غوته الشرعي:

«ان مـا يقـدم لنا في أعمال تومـاس مـان انما هو المانيـا البورجوازية (بالاضـافـة الى النشـوء والطرق السـابقة). ويقدم لنا من ذلك القضايا الداخليـة، وبينما تنحـو ديالكتـيكيـاً منحى امـامـياً، فهي لا تستدعي منظوراً مـسـتقبلياً طوباوياً نحو الواقع الحالي، وليس هناك اعمال واقعية شـهـيرة قـليلة مـصـوغـة بهذا الشكل، وسأذكـر فـقط روايات فـيلهلم مايستر Wilhelm Meister لغـوته. ومهما كان مان قريباً من غوته، فانه هنا نقيضه المحوري».

ومع هذا الثناء بمناسبة عيد الميلاد سبق نشرDoctor Faustusفي اواخر ١٩٤٧: ذلك العـمل الرائع الذي أكـملت فيه الرواية التثقيفية المتناميةBildungsroman مـسـارها المحـتم تاريخيـاً بدءاً من التـفاؤل المقـيـد لغـوته الناضج الى الاذعـان الفلسـفي لتـومـاس مـان، مواصلاً العـمل على الفكرة الرئيسية لفاوست في منفاه الكاليفورني المريح خلال الحرب العالمية الثانية. وفي عام ١٩٤٨ في مـقـالـة تحـمل عنواناً ذا مـغـزى: «مأسـاة الفن الحديث» اصبح لوكاش اخيراً عميق التمكّن في هذا الجـانب من الموضـوع، وبعـد المقـارنة المحـتـومة وبالأحرى المتبدلة انذاك («ان منظور تومـاس مان العام يحدث بشكل مثير على نحو متواز مـع تـطـور غـوتـه»)، مـضى لوكـاش لكي يسـتـخلص العبرة الاخيرة الملائمة:

«وهكذا فان فترات القضاء والقدر في المجتمع البورجوازي تحدد الطريق الخلاق لأشهر كتّاب المانيا البورجوازيين، وتنتهي مأساة «فاوست» لغوته بمشاهد في «السماء» وهي شيء ملموس حقيقي لأنها تنبع من امل طوباوي في تجدد الانسان وتحرره انطلاقاً من أسس اقتصادية ومبادىء أخلاقية، اما «فاوست» مان، فإنه مأساوي في جوه العام لأن هذه الأسس على وجه الضبط قد تقوضت وتحطمت».

ويمكن مقابلة هذا الحكم التافه بتقديم مان نفسه فكرته الرئيسية:

«ان التعاقد مع الشيطان اغراء الماني قديم، ولا بد لرواية المانية مستوحاة من آلام السنوات القليلة الماضية من أن تأخذ هذه الدلالة المرعبة موضوعاً لها. وحتى في حالة الروح الشخصية لفاوست، «فالروح الشريرة» هي شيء زائف في كبرى قصائدنا... لنبتعد عن التفكير بأن المانيا قد التصقت باستمرار بالشيطان... لنوقف كل هذا الكلام حول نهاية التاريخ الالماني من الآن فصاعداً! ليست المانيا مطابقة للفترة التاريخية القصيرة والمشؤومة التي تحمّل اسم هتلر».

لقد اعتمد توماس مان الوطني الالماني على تفهّم حدسّي لشعبه مما ينسف أدوات لوكاش السوسيولوجية.

ويضحي التباين اكثر جدارة بالاهتمام حيث بدت أخيراً أرضه مشتركة سياسياً، فتوماس مان الذي كان قد اصبح بعد الحرب نصيراً حازماً للديمقراطية الليبرالية- ومواطناً اميركياً، والذي ذهب الى حد التعبير عن بعض النفور عند التفكير بأن عليه زيارة المانيا مجدداً- برز «معادياً للفاشية» بقدر معاداة لوكاش، وان يكن بالمعنى الغربي للتعبير، وقد ناقش مان ملاحظات لوكاش حول مأساة الـ Buer-gertum الالمانية. وبالفعل استخدم احياناً لغة مماثلة تقريباً. غير ان المفهوم القائل بأن ما ألمّ بالمانيا كان بكل بساطة فشل التجربة الوجيزة مع الديمقراطية الليبرالية في ١٨٤٨ استوقفه كمفهوم ساذج بشكل لافت للنظر؛ اذ ان توماس مان كان يعرف مواطنيه جيداً في هذا المجال، وهكذا استشهد على سبيل الاستحسان بهرمان هسه Hesse

ان الالمان «يصعب التعامل معهم كأمة سياسية- اريد التبرؤ منهم كلياً». اما المفهوم القائل بأن «التعاقد مع الشيطان» له جذور تمتد الى ما قبل العصر الحديث- فماذا يمكن لهذا النوع من الكلام ان يعني للوكاش، وهو الذي توقف البعد الديني بالنسبة اليه عن امتلاك أية دلالة؟ ولا بد لقارى دراساته عن الأدب الالماني من أن تستوقفه تلك اللامبالاة تجاه اي شيء سابق للقرن الثامن عشر. ويبدو أن ما جرى خلال حركة الاصلاح الديني- غير التمرد الفلاحي الوجيز عام ١٦٢٥، الذي خصص له لوكاش، مقتفياً اثر انجلز، عناية مكثفة- انه لم يطرق وعيه. وكان من شأنه ان يأتي بعمل افضل لو استعان بمخطوطات ماركس حول الموضوع: خاصة المقطع الذي يقابل فيه ماركس بين سيباستيان فرانك القائل بوحدة الوجود و «الاصلاحيين الجمهوريين السويسريين» وبين الرجل الذي دعاه «لوثر المتعصب على نحو احمق والمؤمن بالشيطان».

ويضيف معلناً بين هلالين: «انه مبتذل»، وعندئذ استطاع لوكاش ادراك ان الكارثة الحقيقية التي اصابت المانيا في تلك الأيام ليست فشل تمرد الفلاحين ذوي القدر المشؤوم، بل هزيمة ما اصطلح على تسميته المؤرخون المعاصرون «الاصلاح الجذري».

وسواء أكان لوكاش يناقش هيغل، او غوته، أو توماس مان، او الرومنطيقيين او نيتشه، فهو يقيم بشكل ثابت تمييزاً مطلقاً بين العقل واللاعقل، ويركز «غوته وعصره»- وهو مجلد متمم للمقالات عن توماس مان- على الأطروحة القائلة إن حركة التنوير للقرن الثامن عشر بلغت أوجها في الثقافة الفايمارية. وكل قول بأن ممثلها البارز الرئيسي كان يضمر شكوكاً ازاء قيم الانسانية والعقلانية يصرف النظر عنه كجزء «من أسطورة غوته الرجعي»، وهي هرطقة «تنبع من النقيضة الميكانيكية بين العقل والشعور، وبذلك تصل الى اللاعقلانية المزعومة للأدب الالماني. . .». وأقصى ما يمكن ان يقربه لوكاش هو أنه حتى المؤلفون الكلاسيكيون تخطوا بين الحين والآخر حدود المنطق

الصـارم باتجاه- الديالكتيك! «ان التسمية السائدة لحركة التنوير الألمانية باللاعـقـلانيـة هي غالباً تقدم باتجاه الديالكتيك: محاولة لتجاوز المنطق (الصـوري) الشكلي الذي هيـمن حـتى ذلك الوقت». امـا فـيها يتعلق بالرومنطيـقـيين، فـانهم (مـا عدا استثناءات فردية، امثال هايني الذي كـان في مـوقع اليـسار السياسي) مدانون بالجملة كلاعقلانيين وللهادين لتلك الفلسفة الحيـاتيـة (لبنسفيلوسوفي) وهي التي كان لوكاش الشاب ممثـلاً بارزاً لها. والمسألة الحـاسمة هي التزام الكاتب بالقضية المتمثلة في الثـورة الفـرنسـيـة. وخـلافاً لكل الدلائل يضع لوكاش غوته من ضمن اولئك الألمان الذين اصروا- بوجـه عـام وبالرغم من ارتدادات عـرضية تـدعـو لـلأسـف- على رأيهم في ذلك النزاع الكبير. وهكذا يتـوصل الى اسـتنتـاجـات تتـعـارض بوضوح مع تلك التي استخلصها توماس مان الذي (كما يلاحظ بأسى) يؤدي واجـبـه نحـو النظرة السـائدة؛ اذ يرى مان في انسانية شيلر الثورية شيئاً فرنسياً، بينما يعتبر انسانية غوته المانية على نحـو نمـوذجي. انه خطأ المؤسـسـة الاكـاديمـية التي رسخت على امـتداد قرن من الزمن «الأسطورة الرجعية»:

«تجـنـي الأسطورة حـصـاداً أغنى في تطور غـوته اللاحق ابتـداء من انسـلاخـه عن الحـيـاة العامة، وتصل، عبر كرهه للثورة الفرنسية، الى غـوته الذي هو من بين المـثلين الرئيـسـيين لفلسـفـة الحـياة اللاعقلية الحديثة Lebensphilosophie والأب الروحي لشـوبنهـور ونيـتشه، بالاضـافـة الى كـونه المؤسس الأدبي للواقـعـيـة المضـادة المؤسلبة. وهذه الأسـطـورة الـتـاريخـيـة مـنتشرة ومـؤثرة بشكل لا يسـتطيع المرء انكار تأثيراتها في الكتّاب التـقدميين والمعادين للفاشية».

ولكن مـاذا ينبـغي على المرء ان يفكر إزاء ثقـافـة سـهلت لفـلاسـفة أمـثـال شـوبـنـهـور ونيـتـشـه تحـديد نظرتها الى الحـيـاة لمدة قـرن من الزمن؟حـتى ولو سلمنا (وهو امـر ليس على اي حـال بالوضـوح الذي يعـتـقـده لوكـاش) ان «الاسطورة الرجـعـيـة» لا أسـاس لها في الواقع، فكيف يمكن تفـسير نجاحها المدمر؟ لا يجيب لوكاش عن هذا السؤال

الا بتعابير سياسية: لم تمر المانيا بثورة بورجوازية في عام ١٩٤٨ ولا بثورة بروليتارية في عام ١٩١٨، من هنا فان الخلفية الاجتماعية المولدة لمآسيها التاريخية- هيمنة الـ (المواطن اللامثقف غير المستنير عدو التقدم) على المدينة الصغيرة مع عبادته المستسلمة للسلطة- لم يتم تحديها مطلقاً بشكل فعال، غير ان امة تفوتها بانتظام شتى الفرص التي يقدمها التاريخ تبدو وكأنها حالة غريبة، بل ربما لا أمل فيها، وذلك بأية حال انطلاقاً من وجهة نظر «الانسانية الثورية». ليس بمقدور لوكاش أن يحمل نفسه كلياً على استخلاص هذا الاستنتاج، بالرغم من انه امر لا مفر منه وفق افتراضاته الهيجلية.

وليس هو مقنعاً تماماً في تناوله لذلك الكلاسيكي الآخر في الثقافة الفايمارية، فردريك شيلر، الذي كرس لعلم الأخلاق بعض الدراسات المثيرة للاهتمام، ولا يمكن لأحد ان يستنتج من ملاحظات لوكاش حول الموضوع ان شيلر في ١٧٩٣ اعتقد ان الثورة الفرنسية «لم تزج من جديد ذلك الشعب التاعس فقط، بل جزءاً هاماً من اوروبا وقرناً بأكمله ، في البربرية والعبودية » . ولا يمكن الاستنتاج بأن نظرة شيلر الى السياسة (كنظرة غوته) قد مثلت الجوهر الخالص للكلاسيكية الفايمارية : ازدواج القيم الارستقراطية والبورجوازية . ان عالم الاجتماع الماركسي لوكاش يتعامى على نحو مثير عن أكثر الأوضاع الاجتماعية وضوحاً عندما تتدخل مع تصوراته المسبقة.

ويقدم علم اخلاق شيلر بالمثل مشكلة . فلوكاش ورث كره ماركس « لمثاليّة » كانط الأخلاقية التي قدمت بالمقابل مبادىء متحررة من المادة في وقائع الوجود الفجة . وشعر لحسن الحظ بقدرته على إبانة ان تحدر شيلر الفكري من كانط لم يمنعه من تجاوز الحدود الضيقة لنظرية كانط الناقصة في الفن ، مستبقاً بذلك بعض جوانب « المثالية الموضوعية » لدى هيجل، التي كان لها في الأقل بديل واقعي وان يكن منطوياً على التعمية والألغاز : المسار الذاتي لفعالية التطور العقلي في التاريخ . ومع ذلك ، وكما أشير آنفاً ، كانت هذه المثالية

الموضوعية بالذات هي التي تشكل اساس تفكير شيلنغ الشاب ، ليصبح فيما بعد اللاعقلاني الرئيسي بين فلاسفة المانيا والمصدر الرئيسي للحركة الرومنطيقية بأكملها لجهة الناحية الفلسفية . وإضافة لذلك فإنه يشهد على صعوبة رسم خط دقيق بين الحركتين الكلاسيكية والرومنطيقية الالمانيتين والتطور الفكري لماركس الشاب . هل كان مؤلف « المخطوطات الباريسية »، ١٨٤٤ الذائعة الصيت يتبع تقليد شيلر أو اقتداء النقاد الرومنطيقيين؟ ، فهذا الاخير عندما رسم مخططاً لرؤيته الشهيرة شكل حياة إنسانية، يتطابق فيها الوجود والجوهر ، ويتمازج العمل واللهو ، وتعلن نهاية « الاغتراب أو الاستلاب ».

دعنا نحاول ان نعين بدقة المصدر النظري للصعوبة . يقف لوكاش كما رأينا، الى جانب العقلانية وضد الرومنطيقية ، وضمن التقليد العقلاني يؤيد هيجل وغوته ضد كانط وشيلر . لقد أكد هيجل ان العالم لا يدرك إلا بالعقل . ويشكل ذلك في التعبير الفلسفي « المثالية الموضوعية » مقابل لا ادرية كانط وخلفائه ، ومع ذلك فإنه سبق في بعض النقاط علم الاخلاق لدى هيجل . وكان تعريف هيجل للجمال بأنه « المظهر الحسي للفكرة » متوافقاً مع تصور شيلر اكثر من توافقه مع طريقة الفهم الأكثر تجريبية لدى غوته، الذي تجنب بالرغم من افلاطونيته الجديدة الحدسية ، التأمل الميتافيزيقي . ويمثل الفن بالنسبة الى هيجل منحى للمعرفة « الحسية » بالمطلق، عالم الجوهر المحجب بالمادة ، وقد سبق لهذا الجانب الناسخ على منوال افلاطون Platonizing side ان اجتذب لوكاش الشاب واغراه على التخلي عن السأم الرومنطيقي أو التبرم بالعالم أيام كان على مقاعد الدراسة : اذا كانت الحقيقة عن العالم ممكنة الادراك ، فليس ثمة داع لتعذيب النفس باللاعقلانية الدينية وفقاً للنمط الكيركجاردي . وكان لوكاش الناضج ، بعد ان اضحى ماركسياً ـ لينينياً، لا يزال يؤكد اننا نعرف العالم « كما هو »، غير ان البعد الذي يمكن ادراكه قد تقلص الى العالم التاريخي للانسان . وهذا العالم من صنع الانسان يمكن ادراكه

بالعـقل فقط، وتقع بعده الطبيعة، وهي ميدان العلوم الخاص. لقد تم التـخـلي عـن الفلسـفـة التأمليـة. غير أن علم الجمال لدى هيـجل - وكـذلك نظرية لوكـاش في الفن استطرادا، بقدر ما يظل هيجلياً - هو مـيتـافـيـزيقي من البـداية الى النهـاية. وتعريف الجمال «المظهر الحسي للفكرة» هو بمثابة اعلان حول الطبيعة للواقع.

لا يظهـر هذا البـعـد من تفكير هيـجل في كتابات لوكاش النقدية، حيث يكتـفي بمـعـالجـة المفـهـوم الهيجلي «للعالم العيني» المحسوس أو الملـمـوس؛ وحـدة الـعـام والخـاص. مـن هـنـا كـان اهتمامـه بما هو نـمـوذجي، لأن النمـوذج هو على وجـه الضـبط هذا التـمـثيل لما هو عـمـومـي (انسـاني) في مـا هو خـاص وتاريخي ومن خـلالهما. وعندمـا يتناول لوكـاش طبـيـعـة النوع الفني مـثل عـلاقة الرواية بالدراما، يعود المنهج الى الحـيـاة، لأنه عندئذ قدر على ابانة ان الاشخاص النموذجيين (النماذج) يمـتلكون مـدلولاً عـالميـاً بقـدر مـا يجسـدون امكانية تاريخية للطبـيـعـة البشرية. وانه لأمـر اخـرق من وجـهة نظر لوكاش ان يكون الرومنطيـقـيون الكبار - خاصة شيلينغ و.أ.و. شليغل - السباقين في صيـاغـة نظرية النماذج، وان يكون واقـعيو القرن التاسع عشر الروس (الذين يعـدون من بين ابطاله) فـتنوا فـيما يتـصل بذلك بتقصي الدلالة العالمية لدون كيشوت وهاملت وفـاوست وشـخصيات رئيسية اخرى في الأدب الأوروبي. ومـع ذلـك، يـمـكن تفـسير هذا الحـدث باقتراح ان «المثـاليـة الموضـوعية» لدى شيلينغ الاب لم تلطخ لا عقلانيته الدينية في اعـوامـه اللاحقة. وتنبع الصعوبة الحقيقية بالنسبة الى لوكاش (النظري) كـمـنـظر لعلم الجمال - كـتـمـيـيـز له عن كـونه ممارسـاً لتـاريخ الفن السـوسـيولوجي - من الايمان الميـتـافـيـزيقي المشترك لهيجل وشيلينغ: الايمان بأن الفن يفضي الى عـالم من الكينونة هو فوق متناول الحواس.

وعندمـا يقـال ان بعض هذا الايمان يبدو في أساس تلك المقاطع من كـتـابات لوكـاش، حـيث يستوعب بعمق ظاهرة الابداع الفني، فهذا القـول هـو بالضرورة مجازفـة في مـوضـوع خطير، لأن تصريحاً من هـذا

النوع لا يقـبل البرهان .إن مـا يسـتحقه ومهما يكن الأمر جديراً ، فإن اعـتـقاد المؤلف الحالي ان لوكاش قد احتفظ ببقية من الميتافيزيقيا المثالية بينما أخـفق كليـاً في دمجهـا ضمن ادائه النقدي ، امر لا بد من التأكيد عليه .

الفصل السادس

لقد بلغنا الآن المرحلة التي لم تعد تحتاج معها الاهمية الحاسمة لفلسفة هيجل بالنسبة الى العمل الناضج للوكاش في علم الأخلاق إلى الاثبات بتعابير عامة، بل يمكن توضيحها بالتفصيل. ومع الأسف فإن الأمثلة الساطعة حقاً من هذا النوع توجد بأغلبيتها في كتابات لم تترجم الى الانكليزية. والعكس صحيح ايضاً ؛ فمن بين دراسات لوكاش الادبية التي وصلت الى الجمهور الانكلو ـ اميركي دراسات تتميز بفقدان المضمون النظري. والحالة الكلاسيكية هي كتابه «الرواية التاريخية » الذي نشر اصلاً باللغة الروسية في ١٩٣٧، وترجم الى الانكليزية بعد خمسة وعشرين عاماً، واعتبر فوراً عملاًرائعاًمن قبل نقاد ادبيين سروا باكتشافهم ان ماركسيا قد قرأ فعلاً مجمل ادب القرن التاسع عشر البورجوازي. وفي خضم حماستهم فاتهم تماماً ان الكتاب يتناول الرواية من ناحية تاريخية خالصة ـ بله ـ تاريخية Historical؛ فالفيلسوف الذي يعد في أحسن أحواله من بين منظري الأدب الرئيسيين غائب، حيث يخلي مكانه لعالم اجتماع ليقنع قرّاءه الروس حول الخلفية الثقافية للأدب الاوروبي الغربي. اما المقالات التي جمعت اصلاً في مجلد نشر في برلين الشرقية ١٩٥٦، بعنوان («مساهمات في تاريخ علم الجمال »)وأعيد طبعها، كالمجلد العاشر من الاعمال الكاملة Werke، فهي موضوع آخر يحوي بعضه في الاقل مواضيع نظرية على نحو اصيل. وبتعبير اخر، انها مقالات مهمة، بينما «الرواية التاريخية » تافهة من الاساس حتى في النواحي التي لا يفسدها الابتذال الواعي. وتقع المقالات في كتاب «غوته وعصره » في مكان ما بين الاثنين. وقد الف الفصل الذي يتناول المراسلات بين شيلر وغوته في ١٩٣٤، عندما كان لوكاش استقر في موسكو، ولكنه ما زال قادراً على التعبير بلغة تفي بالموضوع الذي تعالجه. وتقع مقالة «نظرية شيلر في الأدب الحديث » ١٩٥٣ دون هذا المستوى ،بيد انها

تـنـجـح في اثـارة بـعـض النقـاط الهامـة حـول علم الجمال لدى كـانط وهيـجل. والجـدير بالملاحظة ان لوكـاش في العام ١٩٣٥، لم يكن تخلّ بعـد عن مـثـالية «التاريخ والوعي الطبقي»، وتحفل هذه المقالة بمقاطع تكرر بعض المفـاهيم الاسـاسية لعمل ١٩٦٣ وان يكن بمستوى فكري واسـلوبي ادنى، ومـوشـاة بهراء سـوسـيـولوجي من النمط الذي جـعله مألوفـا فـيها بعد تلميذ لوكاش لوسيان غولدمان، وعلى سبيل المثال:

«ان لمفـهـوم المثل الأعلى في الفلسـفـة المثـاليـة كنقيض مقابل الواقع الاجـتماعي التـجـريبي جـذورا اجتماعية. والحالة التي هي اساسية لكل الفـعـاليـة الانسـانية والتي تشكل الصفة المميزة للعمل الانساني، أي ان الهدف يوجـد في العـقل قـبل تحـقـقـه المادي، تتـخـذ شكلاً خاصاً في المـجـتـمـع الرأسمالي، فـسـمـتـه الحـاسـمـة هي التناقض بين الانتـاج الاجـتماعي، والحـيـازة الخـاصـة... ويمنح ديالكتـيك خـداع الذات البطولي والضروري لنشـوء المجـتـمع الرأسمالي دفعاً جديداً لهذه العلاقة بين الهدف وتحـقـقـه، بين المتطلبـات الانسـانيـة من الواقع الاجتماعي، والحـيازة الخاصة...».

يبـدو اننا دخلنا في الروتين المضـجـر المألوف «للواقعية الاشتراكية»، التي لا مـهرب منها للضحية السيئة الحظ. ولكن اقلب الصفحة، تجد ان لوكـاش ١٩٣٥ مـا زال يواصل مـعـركة دفاعية مرسومة بعناية تحت عين مراقبيه الستالينيين اليقظة.

«غـير ان هـذا الـنـفـي لـلـمـثـل الأعلى البـورجـوازي عن اسـسـه الاجتماعية... لا يعني ان مسألة هذا المثل بأكملها ليست سوى قضية كـاذبة مـقـتصرة على الطبـقـة البـورجـوازية دون سـواها. ففي المجتمع البـورجـوازي يتـخـذ ديالكتـيك (الظاهرة) والجـوهر (الماهيـة) اشكالاً خـاصـة تمامـاً. ولا يتـوقف الواقع الموضـوعي لهذه العلاقة الديالكتيكية عـلى الـوجـود في الـطبـقـة والمجـتـمع مع توقف مظاهرها الخـاصـة في المجتـمع الرأسمالي. وثمـة ايضاً وراء مفهوم المثل الاعلى في علم الجمال البـورجـوازي مـسألة المتطلبات الفنية لشكل خارجي يعبر عن المضمون

بأسلوب مباشر ملموس. وتظل هذه المسألة بحاجة الى حل حتى بعد زوال الاقتصاد الرأسمالي وانعكاسه الايديولوجي في عقول البشر، ولا يمكن تحويلها الى شيء محدد وبين بذاته (بدهي) على نحو فوري ».

يشتهر القراء الغربيون بمعاناتهم في إقناع انفسهم أن هذه الجعجعة المرعبة قد تخفي في الواقع فكرة جلية، لكن نزلاء معسكر سجن يشمل أرجاء الدولة كلها مضطرون للتقيد بأنظمة وقوانين وقائية مجهولة في أمكنة أخرى.

ومهما يكن من أمر لوكاش الذي كان يخاطب مثقفين روسيين مدربين على القراءةبين السطور، فإن كان ديالكتيك الظاهرة والماهية يظل موجوداً في ظل الاشتراكية، فليس ذلك إلا طريقة اخرى للقول إن المعضلات الاساسية للوجود الانساني ما زالت تنتظر حلاً - وعلى وجه الضبط لأن ما يدعوه في المقطع نفسه : «المعضلات الزائفة المربكة في ميدان الايديولوجية » قد زال نهائياً.

وما يمكن ان يخدم به لوكاش علم الجمال في ظروف مختلفة يمكن استنتاجه من تلك المقاطع في الدراسة الرائعة «في عالم الجمال عند شيلر» عام ١٩٤٥ ، حيث يسهب بعض الشيء في التعارض بين نظريتي كانط وهيجل في الفن. وما قام به فعلاً يمكن معاينته في التقديم «للأعمال الكاملة » Werke ، حيث يبلغ القارىء ان علم الجمال «المادي» - في اعقاب انحلال مدرسة هيجل بعد ١٩٤٨ قد - بلغ اوجه مع ن. ج. شيرنيشيفسكي، ذلك المشارك في تأسيس الحركة الشعبية Populism الجدير بالاحترام، ورغم انه ليس بالمفكر المبدع الى حد كبير، ويتبع ذلك إعلان يستحق الاستشهاد به.

«لينين وستالين وحدهما، والحزب البلشفي الذي أسساه وقاداه، كانوا وما زالوا يملكون القدرة على كنس ما يسمى النظريات التحريفية في شتى ميادين الماركسية... وأمكن علم الجمال الماركسي ان يثبت نفسه خلال هذه الفترة فقط.. لأنه خلال هذه الفترة وحدها تم جمع كتابات ماركس وانجلز الجمالية، وعندها فقط برزت للعيان

الـوحـدة المنـسـقـة لـعلم الجمال الماركسي. وهذه الفترة الحـاسـمـة هي مـوضوع محاضرتي في الأكاديمية الهنغارية للعلوم بمناسبة مناقشة مؤلف ستالين حول علم اللغة. . . يحلل مؤلف ستالين المسائل الحاسمة لعلم الجمال طريقة عصر لينين وستالين في تاريخ علم الجمال ».

ورأي لوكـاش الفـعلي حـول الموضوع واضح تماماً من مقالته المسهبة عن شيرنيشـيـفسكي، في المجلد نفسه، حيث يلحظ بشكل عابر ان شيرنيشـيـفسكي، في ملحـوظاته حـول شكسـبير، يخطىء فهم الشكل الادبي للتراجـيـديا. هذا في ما يتعلق «بالمثل الأكبر للمدرسة الجديدة» التي اسسها في فيورباخ.

غـير ان مـفـهـوم لوكـاش الغـريب لما هو جـائز لمنظر تنظيم يدعي العـصـمـة والعلم بكل شيء ـ وليس عـبـثـاً ان توماس مان قد رسم له صـورة اليـسـوعي ـ لا يهمنا. دعنابالأحـرى ندرس «الرواية التـاريخيـة» قـبـل ان نـنـصرف الى الموضـوع ذي الصلة الوثيـقـة لآرائه السـيـاسـيـة الفلسـفـيـة في أوج عـهـد سـتـالين «هيجل الشاب »١٩٤٨ و «تخريب العـقل » ١٩٥٣. وهذا لحـسن الحظ مـتـوافـر لنا دون ان نتجشم عناء شـجـاعته الأخلاقية أو فقدانها. . . لقد ارتدى لوكاش أقنعة كثيرة أثناء حـيـاتـه ومـثـل ادوار خـداع ومجاملة وتحـقير ذات لافـتـة للنظر حـتى بالنسـبـةالى مـقاييس بيئته المختارة، ولكن عبر ذلك كله لم يذهب بعيداً أو طويلاً عن هدفـه الأول : نظرية علم جمال تقـدم الى العـالم الجديد للاشتراكـيـة الأوروبية الشرقية ما قدمته المثالية الألمانية بشكل خاص الى العـالم البـورجـوازي، وان لم يصـبح ـ خـلافـاً للأسطورة التي نسـجـهـا المعـجـبون به ـ «ماركس علم الجمال »، فيمكن القول انه في الاقل قدم الى موضوعه المفضل ما قدمه ديلثاي Dilthey الى كـانط وهيجل : لقـد نظم منهـجـيـاً هيكلاً من الافكار كـان في مـا مـضى غير مألوف وثورياً، جـاعـلاً اياه بذلك مـلائماً للاستهلاك الاكاديمي. وليس ذلك انجـازاً تافـهـاً، خـاصـة اذا اخـذنا بالاعـتـبـار انه في الفترات السـوداء والمشحـونة بالاضطراب لا بد من توافـر توجـيـه سكولاستي (سكولاتي

أو مدرساني) Scholastic لرفع القادمين الجدد الى مستوى يمكنهم من فهم واستيعاب الثقافة التي ورثوها. واذا ما ثبت في النهاية ان لوكاش قد انقذ بعض بقايا الحضارة التي اضحت خراباً ودماراً بعد ١٩١٤، فإن خطايا لا مبالاته وجريمته سوف يحكم عليها دون شك بتساهل من قبل المؤرخ.

وانطلاقاً من هذا المنظور، تعتبر «الرواية التاريخية» انجازاً جديراً بالاحترام، مع انها تكاد لا تؤلف عملاً عبقرياً كما اعتبرت لدى ظهورها باللغة الانكليزية. فالكتاب ذو الأسلوب العادي الذي يتوجه بوضوح الى جمهور متوسط الثقافة، يحتوي على بعض الأفكار المهمة حول الفوارق الأساسية، بين الملحمة والدراما (وهو انشغال قديم للكاتب، يعود الى أيام ما قبل ١٩١٤) وحول مشكلة الشكل عامة، وذلك عندما يقارن بدراسة نظرية اصلية فقط، مثل : Zur Asthetik Schillers تبدو له جودته الضئيلة جلية. ومرة اخرى لا بد من تحذير القارىء من عدم الحكم على لوكاش من خلال كراسة دعاية سياسية شبه شعبية الفت في أوج التطهير الستاليني الكبير، أرثوذكسية الطابع على نحو متعمد، وموجهة الى جمهور كان من الضروري ابلاغه ان هيجل عاش في عصر الثورة الفرنسية. وليس الخطأ خطأ لوكاش في ان يجد القراء البريطانيون والاميركيون من السهل مشاركته في حماسته المفرطة نوعا ما لولتر سكوت (شاعر وروائي اسكتلندي ١٧٧١ ـ ١٨٣٢) وفينيمور كوبر (روائي أميركي ١٧٨٥ـ ١٨٨١) اكثر من مشاركة آرائه حول كانط وهيجل وشلينغ. وبطريقة مماثلة، ليس خطأ ان النظرية الجمالية (التي ينبغي ان تكون فلسفية من اجل ان تستحق التقرير) غير مميزة بوضوح في العالم الناطق بالانكليزية عن النقد الأدبي، حيث ان هذا الأخير يستخدم بالضرورة مفاهيم مسلماً بها. «فالنظرية الهيجلية في الأدب» فلسفية بمعنى مختلف كلياً عن مدلول هذا التعبير في ثقافة تجريبية.

من هنا تنبع ضرورة الاطلاع على كتابات لوكاش النظرية بغية

اكتشاف ما يجعله على جانب من الأهمية. و«الرواية الأدبية» لا تقع ضمن هذاالنطاق. فهي تدور حول شرح لمفاهيم جمالية ترتدي أهمية الاستنتاج الفلسفي فيما وراءها، غير ان المبادىء غير جلية، وبالنسبة الى أي شخص يعرف ما هي قدرة لوكاش في أحسن أحواله، فإنه يعتبر الكتاب مملاً الى ابعد حد.

ومن جهة اخرى، فإنه ليس مشوهاً على شاكلة الحماسة السجالية التي الهمت مجموعة المقالات المنشورة في ١٩٦٣ بعنوان «معنى الواقعية المعاصرة». وألف أصلاً في خريف ١٩٥٥ بشكل ملحوظات لمحاضرة، حيث ان لوكاش لم يكديجمع هذا الإنتاج السيء الطالع حتى داهمه شجب خروتشوف لستالين، وانتفاضة ١٩٥٦ الهنغارية ومشاركة لوكاش القصيرة في حكومة ناجي. وما ان اصبح قادراً على كتابة تقديم لطبعة ١٩٦٧ الهنغارية، حتى انتهى الى استنتاج، بالرغم من ضرورة عدم التغاضي عن «انجازات ستالين الايجابية»، هو أنه لا بد من «اخضاع دوغمائية ستالين ودوغمائية العهد الستاليني، لأشد النقد قساوة». وتوج هذا الحكم باشارة مقتضبة الى روزا لوكسمبورغ (ربما ليست هذه اكثر الطرق لباقة) في تذكير القارىء انه كانت فيما مضى فترة لم ينفق فيها الكتاب الماركسيون وقتهم يدافعون عن الطغاة. والمقالات نفسها ستالينية النغمة والمحتوى كلياً الى حد ان ناقداً اميركياً بارزاً يحمل آراء يسارية لا يرقى اليها الشك تساءل بصوت عال: ما اذا كانت هذه المقالات قد اعدت بغية حملها على محمل الجد. ولسوء الحظ لا يمكن الشك في ان لوكاش كان يتبع خطاً فكرياً مألوفاً لديه قبل ان ينحدر الى المستوى الجدانوفي.

اذا كان الكتاب ينطوي على فكرة رئيسية مشتركة، فإنما هو عداؤه المذهبي لكل اشكال العصرانية أو الحداثة Modernism وهي مقولة جعلها لوكاش تشتمل على علم النفس الفرويدي، الموسيقى اللانغمية (النشاز) ومؤلفات جويس، وبروست وبيكيت وكافكا. وكل ما عاينه عند هؤلاء الكتاب ما اسماه «الذاتية»، وهي على ما

يفترض تؤلف صفة مميزة «لتجربة المفكر البورجوازي المعاصر». ولا معنى لهذه الصفة الملتصقة بهم حتى في المصطلحات السوسيولوجية، لأن جمهور كتاب كهؤلاء - في الشرق والغرب على حد سواء - لم يعد بورجوازياً. ان المعضلات التي يواجهها جميع المفكرين المعاصرين هي معضلات نظام (مبقرط) سواء أكانوا مديري شركات أم مخططين سياسيين - ايمانا بقدرتهم على جعله نظاماً ناصحاً، شرط ان يلزم المواطنون الهدوء ولا يتدخلوا في جهازه الآلي، ويكتفوا بالاستمتاع الشخصي. ولو ان لوكاش في العام ١٩٥٥ - الذي كتب هذه الدراسات، ما زال قادراً على تطبيق تحليل ماركسي على الواقع المحيط به، لاكتشف ان «الاغتراب» ليس مقتصراً على المجتمع الغربي، وان العملية (العلموية) الوضعية لها نظيرها الستاليني. غير انه في هذه الحالة كان انكر التمييز المانوي بين «الاشتراكية» (التي يفترض انها تحققت في دول أوروبا الشرقية) و «الامبريالية»، وباختصار، للتخلي عن العقيدة السياسية التي اصبح معتقاً متطوعاً لها. ولم يكن هذا الأمر وارداً - ليس في الخمسينات على أية حال. لقد شكل كتاب «معنى الواقعية المعاصرة» تمريناً مجرداً وخالصاً في مساجلات الحرب الباردة.

وحتى في تلك الأيام كان من الخطأ إنكار ذكاء لوكاش وقدرته على التكيف مع الاوضاع الجديدة. وتأكد له في ١٩٥٥ ان «الحداثة لا تقود الى تدمير الاشكال الادبية فحسب، بل الى موت أدب كهذا»، واوضح هذه الموضوعة بالاشارة الى التعبيرية والسوريالية بشكل عام، والى جوريس، وكافكا، ومحدثين آخرين، بشكل خاص. وعندما باشر في ١٩٥٤ بكتابة مقدمة جديدة للطبعة الالمانية الغربية «للرواية التاريخية» (أعيدطبعها في المجلد السادس في الطبعة الالمانية الغربية من الاعمال الكاملة) كان لديه الوقت الكافي لإنعام النظر في الامور. وكان ايضاً حرر نفسه نوعاً ما من القيود التي لم تضف لسنين طويلة على كتاباته مجرد مظهر جمود فكري، بل تبلد شعور كلياً ازاء عملية الإبداع الأدبي. فكتب مرة اخرى لجمهور مثقف، مستعيداً اسلوبه

الأول على نحو كاف ليعتق نفسه من هذا المقطع التالي :

«ان التعارض بين رواية القرن الثامن عشر ورواية القرن التاسع عشر يبدو للعيان فوراً، غير ان هذا التناقض لا ينطبق ـ وبتحفظ شديد فقط ـ على سويفت (كاتب ايرلندي ١٩٤٥ـ١٩٦٧)، ومعه لا ينعدم التعبير الواعي عن الوضع الاجتماعي ـ التاريخي فحسب، بل يتم إهماله صورياً. ثمة مرحلة انسانية بأكملها يجابه فيها الانسان صراعاتها الأكثر شمولاً. هذا ما يطلق عليه الآن اسم «الوضع البشري» ، غير ان ذلك يتغاضى عن حقيقة كون سويفت، برغم كل شيء، لا يتناول إنساناً من هذا الطراز، بل يتناول مصيره في مجتمع تاريخيا. وتنكشف عبقرية سويفت الفريدة في ان نظرته عن المجتمع تشمل عهداً بأكمله من اللاإنسانية تبعث فيه الحركة كنظير الفرد النمساوي (البوهيمي ـ الالماني ـ اليهودي) خلال المرحلة الأخيرة من حكم الامبراطور فرنسيس جوزيف (امبراطور النمسا ١٨٣٠ـ١٩١٦). من هنا فإن علمه الذي يمكن تفسيره ـ شكلياً فقط ـ كالوضع البشري، يرتدي مصداقية عميقة مرهقة، بعكس اؤلئك الذين يركزون بدون هذا النمط من الخلفية التاريخية، وبدون اساس كهذا ومنظور من هذا النوع على كينونة الوجود الانساني المجردة ـ وبالتالي يخطئون فهمها على نحو مجرد ـ فيبلغون بشكل لا يخطىء الفراغ التام، العدم. وقد يزين هذا العدم نفسه بحلي وجودية أو غيرها، لكنه يظل على سبيل المقارنة بكافكا، عدماً فارغاً ».

ان مقارنة بين هذا المقطع والفصل المتعلق بالموضوع في «معنى الواقعية المعاصرة »، حيث نسب لوكاش الى كافكا بأدب (بعد ان تمت مقابلته بشكل سلبي كـ «بورجوازي عصراني » ازاء «البورجوازي الواقعي » توماس مان) القيام بتصوير «الصفة الشيطانية لعالم الرأسمالية الحديثة ». هذه المقارنة توحي لنا بأن لوكاش قد طرح خلال ١٩٦٤ بعض اغلاله المفروضة ذاتياً، وهو انجاز مدهش في عمر يناهز الثمانين. وانصافاً للحقيقة لا بد ان نضيف انه حتى مجموعة

مقالات ١٩٥٥ قد اشتملت على بعض الآراء المتصفة بحدة الملاحظة التي تذكرنا بأسلوبه الأسبق، مثلاً:

«ووحدها الرؤيا «النبوية» أوالدراسة اللاحقة لفترة مكتملة، يمكنها استيعاب الوحدة التي تشكل اساس التناقضات الحادة. مع ذلك، قد يخطىء المرء في فهم دور القدرة على رؤية الأشياء في الأدب، اذا ما تمت مماثلة الفهم «النبوئي» بنفاذ البصيرة السياسية الصائبة، واذا ما كانت بصيرة كهذه هي المعيار، لما امكن وجود دراسة ناجحة للنماذج الشخصية في ادب القرن التاسع عشر؛ اذ ان كتاب ذلك العصر الكبار بالذات ـ بلزاك وستاندال وديكنز وتولستوي ـ هم الذين اخطأوا الى أبعد حد في نظرتهم الى ما سيكون عليه المستقبل».

وتقطع مقاطع كهذا جنباً الى جنب مع تمارين سجالية مستواها ادق مما يمكن لصحافي كفؤ مثل اهرنبورغ أن ينتجه، مثلاً:

«استشهدت، آنفاً، بملاحظة آدورنو Adorno لجهة ان الموسيقى الحديثة قد فقدت أصالة القلق Angst . ان هذا المثل، وامثلة مشابهة، يمكن اعتبارها، اذا ما تم تفسيرها، اعترافاً بالتراجع في الحرب الباردة، وذلك مع تكشف وجهات نظر جديدة للسلم. فالعصرانية، القائمة على العدمية، تفقد تلك القدرة الايحائية التي استنبطت الخطط لتغليف العدم بموضوعية كاذبة، وهكذا مع تعميق حدة أزمة العصرانية، تزداد الواقعية النقدية اهمية».

واضحى هذا النمو من المحاكاة التهتكية الذاتية جزءاً اساسيا (١٩٥٥) من الاسلوب المألوف للوكاش الى حد ان المدافعين عنه بدأوا يقنطون منه. وكم كان ارتياحهم عظيماً عندما برز الى الوجود بعد عقد من الزمن «كوجودي» فلسفي في كل حقل بما فيه حقول العصرانية الادبية والفنية. واظهرت المقدمات الجديدة المتخلفة التي اعيدطبعها في «الاعمال» الالمانية الغربية ليونة لافتة للنظر في الاسلوب، مما يعزى بدون شك الى العمر والأمن والطمأنينة جزئياً،

ولـكـنهـا تعكس ايضـاً المناخ الفكري الجـديد في اوروبا الوسطى :إنه مناخ ليس غـريبـاً كليـاً عن تذكـر «المرحلة النهـائيـة لحكم فـرنسـيس جـوزيـف». ان نـظامـاً سلطويـاً ـ مـغـايراً لنظام توتاليـتـاري بشكل اسـاسي، حـيث انه نظام ديناميكي وإرهابي في الوقت نفسه ـ لا يطلب شـيئاً من فـلاسـفـة اكـثـر من الحـد الادنى من التعقل. وطالما انهم لا يتـدخلون في شـؤون الدولة، فـهـم احـرار (ضمن حدود معقولة) لقول مـا يـريـدون. وهـكذا في ظل مـيترنيخ وفي ظل فـرنسـيس جـوزيف، اللذين حكـما فـيينا، بلغ لوكاش والثقافة التي يمثلها مدار اكتمال دائرة النضج.

الفصل السابع

انه لأمر معروف في ميدان الفن ان فترات مزدهرة معينة ليست بأي شكل من الأشكال متوافقة مع التطور العام للمجتمع وبالتالي مع اساسه المادي وهيكل تنظيمه، اذا جاز التعبير، كالاغريق، مثلا بالمقارنة مع المحدثين أو شكسبير. وفي حالة اشكال فنية معينة مثل الشكل الكلاسيكي المحمي، فمن المعترف به انه لم يكن انتاجها ممكناً في شكلها الكلاسيكي العالمي، حالما بدأ الانتاج الفني ذاته. من هنا فإن اشكالاً هامة معينة ضمن العالم الفني لا يمكن انتاجها إلا عند مرحلة بدائية من تطور الفن فقط. واذا كان ذلك ينطبق على العلاقة المتبادلةبين الأنماط المختلفة حتى دائرة الفن، فإن الأمر اقل غرابة ان تكون هذه هي حالة علاقة الميدان الفني بأكمله بالتطور العام للمجتمع (كارل ماركس، نقد الاقتصاد السياسي، ص٣٠).

ان ملاحظة كملاحظة ماركس المذكورة آنفاً تكشف الكثير عن الأصل الهيجلي لافكاره. وواضح ان ماركس احياناً تصور امكانية انتهاء الفن في عالم معقلن تماماً، وهو توقع لم ينظر اليه بحماسة، وهكذا ففي المقطع الذي ذكرناه يتابع قائلاً :

«ان الفن الاغريقي يفترض مسبقاً الميثولوجيا الاغريقية. . . لم يكن ممكناًللميثولوجيا المصرية ان تصبح اساساً أو قاعدة للفن الاغريقي، ولكن كان لا بد من وجود ميثولوجية ، أو ناسخة للميثولوجيا mythologizingمع الطبيعة ،مما يتطلب من الفنان التحلي بخيال مستقل عن الميثولوجيا ».

ان ماركس الذي تربى على «فينومينولوجيا الروح » لهيجل لم يكد يكون قادراً على التوصل الى اي استنتاج آخر. ويصعب تصور حالة عقلية أكثر رزانة على نحو عميق في قبولها لقدرها ومصيرها وأشد بعداً عن البلاهة للواقعية الاشتراكية.

وبينما التمس بعض الماركسيين المعاصرين، كالكاتب النمساوي ارنست فيشر، ملاذاً في المفهوم القائل إن الإبداع الفني يحفظ عنصراً من السحر البدائي الذي يتعذراستئصاله ويضمن له البقاء، فقد تعثر لوكاش في عمله الناضج نتيجةتاريخيته الراديكالية. إن موقفاً كهذا عندما يدفع الى حده الاقصى الذي قاده اليه لوكاش، فإنه يجعل من المستحيل التسليم بسداد أي شيء يمكن وصفه ـ وفقاً لعبارته شبه الازدرائية ـ «الوضع البشري». ومع ذلك فبدون مفهوم من هذا القبيل في خلفيته الفكرية، فإن المنظر الذي ينطلق من هيجل لا بد له ان يتصور الامكانية المكفهرة التي قد تلهى بها ماركس، أو يفترض خيالأمستقلاً من الميثولوجيا. فالصفحات البالغ عددها ٧٢٠ صفحة من رائعة لوكاش ذات المجلدين الصادرة عام ١٩٦٣ - Die Eigenart des Asthetischen «من ماهية الجمالي» تمثل محاولته لحسم المسألة التي انتابته كهاجس طوال حياته.

قبل محاولة الدخول الى الموضوع، نحن ملزمون بمعالجة عملين سابقين للوكاش، حيث كتب ونشر كل منهما في اوج عصر ستالين: «هيجل الشاب» Der Junge Hegel ولكنه لم ينشر حتى ١٩٤٨)، و«تدمير العقل» ١٩٥٣، وقد أعيد طبعهما على صورة المجلدين ٨و٩ من الطبعة الالمانية الغربية لأعماله الكاملة، وهما متيسران لكل من يهمه اكتشاف أي إسهام قدمه مؤلفهما الممتاز آنذاك الى الجزء الأساسي من الأدب (يبدو التعبير ملائماً على نحو لافت للنظر) الذي انتج في اوروبا الشرقية خلال ما اصبح يعرف رسمياً بـ «عصر عبادة الشخصية». وترتدي كتابات لوكاش في هذه الفترة، والحالة هذه، فتنة رهيبة محددة، اما في ما يتعلق بالباقي فيمكن دراسته من قبل خبراء النقد في النوع الأدبي كتمارين بارزة في فن الانحدار التدريجي. وليس ثمة حاجة الى ان يستوقفنا كتاب «هيجل الشاب» طويلاً. ففرضيته المركزية ـ بأن هيجل الشاب لم يمر بمرحلة دينية ـ قد تم إغفالها بتهذيب حتى من قبل نقاد مؤيدين عادة للوكاش.

اما بالنسبة الى البقية فلا يسهم الكتاب بشيء في الموضوع الذي لم يطرقه في السابق وبلغة اكثر جدارة بالثقافة.

ان كتاب «تدمير العقل»، وهو مجلد من ٧٥٠ صفحة، يعالج بطريقة سجالية تاريخ الفلسفة الالمانية من شلينغ الى هيدغر وياسبرز ويضم قسماً حول «علم الاجتماع الالماني في الفترة الامبريالية»، وقسماً حول الداروينية الاجتماعية، وتزينه مقدمة مسهبة يبحث فيها «الشعب الذي انبت البريخت دورو وتوماس مونزر وغوته وكارل ماركس» عن عتق نفسه من التراث المخجل للاعقلانية ، وهو ميراث بلغ ذروته في الأعمال الجنونية الإجرامية التي ارتكبها الرايخ الثالث. ولقد بذلت محاولات لإيجاد بعض الجدارة في هذا التمرين السجالي الضخم، انطلاقا من ان التاريخ الالماني قد اتسم بكوارث متتالية، وان النكبة النهائية قد توسطها جزئياً في الأقل تيارات تفكير رجعي مارست فعاليتها منذ ما يسمى بـ «حرب التحرير» ضد نابوليون في ١٩١٣ . ولنضع جانباً واقع ان هذا الموضوع قد شكل أمراً مألوفاً في الصحافة الراديكالية منذ ثلاثينات القرن التاسع عشر (لقد اثير اساساً للمرة الأولى من قبل لودفيغ بورني وهاينريخ هايني، وكلاهما مفكران يهوديان عاشا منفيين باختيارهما في باريس)، فإن لوكاش ينسف موقفه بتبني موضوعية انجلز لجهة ان التطور القومي لألمانيا قد وقع فيه الاضطراب على نحو لا يقاوم نتيجة فشل التمرد الفلاحي عام ١٥٢٥ ، مترافقاً مع بدءمرحلة الاصلاح البروتستانتي . لأنه اذا كان الأمر كذلك، فلا بد من الاستنتاج أن التطور اللاحق، قبل عهد بسمارك وبعده، قد كان محتماً. ويصبح هذاالاستنتاج اخيراً لا مفر منه، من ضمن التفسير الخاص «للرواية التاريخية» الذي يشارك فيه لوكاش انجلز (ولكن ليس ماركس)، بالرغم من أنه يلفت الانتباه إلى أن انجلز قد حاول في السبعينات من القرن التاسع عشر تجنب هذاالتفسير باقتراح ان الطبقة العاملة سوف تقوم بالثورة الديمقراطية التي فاتت المانيا بطريقة أو اخرى في عصرها البورجوازي (كان

مـاركس أقل تفـاؤلاً). امـا بالنسبة الى البقية، فلا بد لمؤلف كتاب مثل «تدمير العقل» ـ وذلك من اجل تحقيق هدفه التعليمي ـ من الاستغناء عن نوع المسـاوىء السـياسية التي كانت لا تزال تشكل إبان تأليفه جزءاً من الكتاب.

ثمـة دافع يحفـزنا الى التـوقف عند هذا الحـد، غير انه يسـتحيل مع الأسف رسم خط فـاصل تعسـفي بين هذا الانتـاج وبين لوكـاش ذي المجلدين حـول علم الجمال. وبالرغم من دافعه السياسي ولغته المتسمة باللغـو المتكرر، يبـقى ان «تدمير العـقل» يتـضمن جوهراً نظرياً، تنبع مـن هنا ضرورة استـيعـابها. وكما البـحث حـول هيـجل، كـان هذا السـجـال ضـد خلفـاء شلينغ، بين اشـيـاء اخـرى، تمريناً، فيما صار لـوكـاش يـعـتبره آنذاك شـغله الشـاغل: الدفـاع عن «المادية» مـعنى الانسـانيـة الطبيعية لماركس الشاب (التي هي تطوير القرن الثامن عشر الـفـرنـسي). بل هو يشير بالأحـرى الى نظرية المعـرفـة النسـخـيـة أو التسجيلية التي توصل لوكاش لمشاطرة لينين فيها.

وبلغـة تقنية، فإنها شكل من الواقعية المعرفية الابستمولوجية (نظرية المعـرفـة). وما تؤكد عليه هو ان الفكر البشري يصف عالما «موضوعياً مـسـتـقـلاً عن العـقل»، وليس عالماً يؤلفه جهازنا العقلي. علاوة على ذلـك، يـؤكـد هـذا المـذهـب ان اي خـروج عن هذه النظرة يقـود الى «الذاتيـة» وفي نهاية المطاف الى الجنون الفكري أو السـياسي. وفرضت هذه النقطة بالقـوة بإشارة خاصة الى دفاتر لينين الفلسفية حول هيجل، وبذلك اتيح للوكـاش تقويض الثائر المتآمر من اولئك النقاد الشيوعيين الذين هاجموه قبل ثلاثين سنة.

ثمـة تعـارض بالفـعل، بين الفكر ومـوضـوعه، وفقاً للوكاش، غير انه مجرد تعـرض نسـبي، ويمكن التـغلب عليه بمساعدة منطق هيجل الجـدلي أو الديالكتيكي. وهو بالدقة هنا ان كل شيء معرض للخطر؛ إذ إن اللاعـقـلانيـة تجـد مـصـدرها النهـائى في فشل لسد الهاوية التي تفـصـل الواقــع عن صــورتها (صورة طبق الأصل) Abblid . ان

المرآتيـة الذهنيـة تجزم بها اللاعـقـلانيـة، ومـايصـبح في النهـاية مصدراً للخجل الجماعي ـ هو الانفصال الجذري للتفكير عن الكينونة Being لأنه في كل مـرحلة من مـراحل التطور البشري توجـد مـعـضـلات نظرية تسـبب الغـازاً منطقـيـة تفسر، يستنتج الشخص اللاعقلاني منها ان الطبـيـعـة الحـقـيـقية للكينونة تبقى مغلقة كلياً أمام التفكير القياسي وغير الحـدسي، بينما في حـال امـتلاكه إدراكاً محكماً للديالكتيك الهيجلي في المظهـر والواقع، سـوف يرى ان المعـضلة ليست غير قابلة للتفسير. ان الحـقـيـقة حول العالم (من حيث المبدأ على اية حال) يمكن الوصول اليـهـا عبر العـقل. ولكن اذا كـان الأمـر على هذا النحـو، لماذا يوجـد هناك شيء كـاللاعـقـلانيـة اطلاقـاً، ولماذا يكون لها في بعض الأحـيان قوةلا تربك المفكرين الأفراد فحسب، بل ثقافات بأكملها ؟ لأن مهمة الـنـفـاذ عـلى نـحـوأعـمق باسـتـمـرار (وفـقـاً للوكـاش)، الى بنيـة لا تواجـهـهـاحـواجـز نظرية فـحسب بل وعملية ايضاً. ان المجتمع يمزقه الصراع، والوضع الطبقي Klassenlage لمفكر (أو مـدرسـة) يحدد القـرار لصـالح العـقـلانيـة. وأولئك الذين ينفـرون من تبصرات معينة لعـدم قـدرتهم على تقـبل الحقيقة، سوف يميلون الى الاعتقاد بأن الفكر عـاجـز عـامـة. وبوجـيـز العـبـارة، ان الصراع بين العـقـلانية، يرتبط بالصراع الطبقي.

ما علاقة كل ذلك بعلم الجمال ؟ بالنسبة الى لوكاش كل شيء يدور حـول مـعـرفـة حـقـيـقية مركزية واحدة : ان الواقعية في الفن (كما في الفلسفة) تصف العالم، بمعنى انها ـ مهما كانت معقدة تلك التوسطات الشكليـة المسـتـخـدمـة في العلمانيـة ـ فإنها تؤهل البشر لإدراك حقيقتهم الصـحـيحة. ان الطبيعة التصويرية، بقدر ما هي بعيدة من ان تكون افـضـل وسـيـلـة لذلك، لا تعكس إلا المظهـر السطحي. ومن جـهـة اخـرى، فـالعصرانية «الذاتية» تطابق المثالية الذاتية في الفلسفة أو أسوأ من ذلك، تأتي مطابقـة لذريتـهـا اللاشرعية : الحدسية الرومنطيقية. انه الـتـلازم الفني لذلك السـقـوط التـدريجي في اليأس الذي تـتـسم محطاته

بأسماء شلينغ وكيركجارد ونيتشه ودوستويفسكي.

«ان شلينغ هو، موضوعياً، السابق المباشر لتصور كيركجارد، عن الديالكتيك، أو بالأحرى لانكار كيركجارد أن الديالكتيك يشكل أداة لمعرفة الواقع... »ومن الاهمية انه في «النطق الفلسفي» العملي لشلينغ الشاب يشغل القياس أو المماثلة Analogy حيزا هاماً ، لذلك فالمرحلة الأولى غير المحددة بعد اللاعقلانية، تصبح النمط المنهجي لكل المراحل اللاحقة . ويمثل المنطق الشكلي دائماً على العلاقة المتبادلة الداخلية، المبدأ المنظم الصوري لكل لا عقلانية تصبو الى ما هو أبعد من تحويل صورة العالم بأكملها الى تيار فاقد الشكل والصورة، يدرك بالحدس الخالص. وهكذا يحدد منهج شلينغ أسلوب طرح المسألة لدى شوبنهور، وفيما بعد لدى نيتشه، ومن ذلك الحين فصاعداً في علم النفس الوصفي لديلثاي في «فهم المضمون » الفينومينولوجي وفي (علم وجود) انطولوجية الوجودية... الخ.

والآن ليس ذلك بالنسبة الى لوكاش مجرد مسألة فلسفية ـ كما ستكون بالنسبة الى الهيجلي العادي الذي بمقدوره قبول هذا النقد للمدرسةالرومنطيقية، انطلاقاً من ادراكه ان اللاعقلانية مثلت انحرافاً يؤسف له من جانب مفكرين لم يستوعبوا تماماً، لسبب أو لآخر، مقصد المنطلق الهيجلي. ان ما يؤكده لوكاش هنا ،وفي مكان آخر، هو ان شلينغ وخلفاءه التزموا بموقف «ارستقراطي » يحتفظ بالقدرة على فهم الحقيقة، لنخبة نصبت نفسها بنفسها، لأنه بينما تجزم العقلانية أو بأية حال تلمح الى ذلك، بأنا المستقلة، يطرح اللاعقلانيون صيغة «مبرجزة ـ معلمنة » للايمان الديني : فالشخص المختار بإمكانه وحده ادراك الالوهية. وهذا الاعتقاد، الذي صاغه سابقاً «فرانز بادر » Bader ورومنطيقيون المان آخرون مبكرون، اصبح فيما بعد عقيدة كيركجارد وخلفائه، وعقيدة نيتشه في نهاية المطاف، الذي زود انتليجنسيا «العصر الامبريالي » بأيديولوجيا امتدت في آخر الأمر الى الطبقة الوسطى وعززت نضالها النشط على نحو

متزايد ضد الاشتراكية.

ان لوكاش ماركسي بما يكفي لتأكيد ان المحصلة الكارثية النهائية لـ «تدمير العقل» هذا احدثته قوى سياسية مجذرة في الظروف الفعلية للتاريخ الالماني منذ الثورة الفرنسية. ولكن بما ان وعي المشاركين عند كل نقطة تحول حاسمة ١٨٤٨، ١٨٧١، ١٩١٨، ١٩٣٧، يبدو العامل الحاسم في انتصار اللاعقل، يواجه القارىء ما يظهر في النهاية كتناقض بسيط - غير ديالكتيكي تماماً. اثرت ازمة الثقافة البورجوازية، من جهة، على المجتمع الاوروبي ككل، ومن جهة اخرى، تفردت المانيا بتوليد الايديولوجية اللاعقلانية التي سيطرت على حياة البلاد الفكرية، وأدت الى فظائع الرايخ الثالث. وهكذا بدا كأن القضية الالمانية كانت فعلاً قضية فريدة؛ ففي حين انه ينبغي وفقاً للالتزامات الشيوعية المألوفة حول «الرأسمالية المتأخرة» ان تصبح اوروبا بأكملها فاشية، ظلت مقاطعة واسعة من القارة منيعة. ان لوكاش يعزو هذا الوضع الى التأثيرات المتلكئة للثورة الفرنسية (تكاد بريطانيا لا تقع ضمن هذه الصورة). ولكن اذا كانت الديمقراطية البورجوازية قد مارست كل هذا التأثير والتجديد على اوروبا الغربية الى حد ان تراثها الروحي قد وفر بعد ١٥٠ عاماً القوة الدافعة لحركة المقاومة المناهضة للفاشية - كما حصل فعلاً - عندئذ يبدو انه لا مفر من استنتاج ان محن المانيا اللاحقة تعود الى رفضها الثورةالفرنسية، مما يشكل الان موقفاً يمكن الدفاع عنه، غير انه يبطل من الاساس علم الاجتماع غير البارع وغير المقنع كلياً للصراع الطبقي عند لوكاش ابان ما يدعوه «عصر الامبريالية»؛ اذ ان الصراع الطبقي كان عالمياً، في حين كان الرايخ الثالث بلا عقلانيته المتطرفة ظاهرة فريدة. ان ما يعنيه لوكاش في الواقع - رغم انه لا يبدو مدركاً لذلك كون الحركة الرومنطيقية قد دمرت اية امكانية امتلكتها المانيا القرن التاسع عشر لتصبح امة في المعنى الغربي، وهذه هي التي تلاقي دعماً في تحليله للحياة الفكرية في المانيا. غير انه لم يمتلك الجرأة الكافية ليعلن

بوضـوح ان العـامل الحـاسم كـان الوعي القومي. لكن ماركس لم يتردد في اعـلان ذلك، وفي اكـثـر من مـرة بالفـعل، عند مناقـشـتـه التاريخ الالماني، اوضح هذه النقطة حـرفـيـاً. غير ان لوكاش ليس مثل ماركس على الاطلاق - وهي حـقيقة من السخف لومه عليها.

ينبـغي اذن الحكم على «تدمير العـقل» بأنه عـمل فاشل بسبب عدم تحـقـيقه الهدف الذي وضعه مؤلفه. ان دفاع لوكاش عن التراث الهيجلي ضـد شلينغ ونتـاجـه اللاعـقـلاني، يشكل مـوضـوعـاً هامـاً ومشروعاً. وتشـمل الفـصـول الاستهلاكية المكرسة لهذا الموضوع بعض الملحوظات المحكمـة حـول تاريخ حـركـةالتنوير ونمـو وعي تاريخي اصـيل، كان توصل الى فهمه على نحو غامض كل من فيكو Vico وهردر Herd-er قبل ان يصـوغ هيجل فلسفة تاريخية. غير ان دفاع لوكاش عن هذا الارث ضـد الحـاطّين من شأنه هو دفاع مجردمن الفعالية الحقيقية نتيجة تاريخيـتـه المتنوعـة الخـاصـة. ويلتـزم لوكـاش بوصـفـه فـيلسـوفاً بالمبدأ العـقـلاني الاسـاسي لجـهة كون التوصل الى استنتاجات صحيحة حول العـالم يقع ضـمن نطاق سلطان العـقل. امـا بوصفه تفكيراً مادياً، فإنه يعـتبر ان من واجـبـه تذكير القـارىء من وقت لآخـر بما يسـمـيـه مرة «الاشتراط الاجـتماعي للعـقلانية، واللاعقلانية». فتكون النتيجةتشويه نظرية مـسـتـعصية. اذا اعتبرت العقلانية، وجهة نظراية طبقة ثورية او في الاقل مـعـارضة للوضع الراهن (البورجوازية في القرنين السابع عشر والثـامن عشر، والبروليـتـاريا في القـرن التاسع عشر) عندئذ يسقط كلياً الـتمايز بين النظريةوالايديولوجـيـة. إذن لماذا ينبـغي افتراض ان «طبـقـة صاعدة» فقط يمكنها حمل نظرة واقعية للعالم؟ ان كون نظام اجتماعي قـد وضع في مـوقف دفـاعي - لا يحول دون امكانية تبصر أو استبصار مـتـحـرر من الوهم حـول طبـيـعـة المسـار التـاريخية. في الواقع، كان مـاركس وانجلز يشـيـدان على نحو دائم ببلزاك - وهو كاثوليكي وملكي وبالتـالي رجـعي - وذلك لوصـفه الدقيق للمجتمع البورجوازي، ويؤيد لوكـاش (في «الرواية التـاريخية» وفي غيرها) هذا الحكم بحذافيره. وهو

لا يتعب جراء طبعه في ذهن القارىء صورة عن عمق بصيرة بلزاك النفاذة فيما يسميه هو نفسه «ضرورة المسار التاريخي » ، وهي صيغة لم تكن لتجذب بلزاك كثيراًوهو الذي لم يكن فيلسوفاً قد ناصب العداء الى حد بعيد الاشتراكيين السان سيمونيين الذين كانت لهم مفاهيم كهذه. ويبدو اذن، ان كونك تنتمي الى الجهة الخاطئة سياسياً لا يجعل رؤيتك بعيدة عن الوضوح (بطل لوكاش الآخر في «الرواية التاريخية » هو المحافظ والتر سكوت).

مع ذلك عندما يصل في «تدمير العقل » الى الرومنطيقيين الألمان، يتبنى لوكاش اسلوب الداعية الحزبي الذي لا يمكن ان يرى خصومه إلا كأدوات واعية أو لا واعية «للرجعية ». ويصبح الارتباك الناتج مع نيتشه مؤلماً للمشاهدة، واعتبار نيتشه «عالم نفس في الثقافة، عالم جمال وعالم اخلاق » يفهم فقط بوصفه «الممثل الأروع والألمع لهذا الوعي الذاتي للانحطاط ». وعمله بأكمله «سجال دائم ضد الماركسية، والاشتراكية، بالرغم من عدم قراءته لسطر واحد من كتابات ماركس وانجلز، وتمتع بإدراك توقعي... لما ستحتاج اليه انتليجنسيا عصر الأمبريالية... وأي نوع من الأسئلة سوف يفي بمطالبها ورغبتها ». من هنا تأثيره المؤسف على كتاب تقدميين امثال هينريج وتوماس مان وبرنارد شو حتى ان ماركسياً عميقاً مثل فرانز مهرينغ Franz Mehring خدع الى حد القول ان نيتشه، بالنسبة الى بعض المفكرين المنتمين الى الطبقة الوسطى، قد يمثل مرحلة انتقالية مفيدة نحو الاشتراكية. ولا يتوصل لوكاش مطلقاً الى استيعاب المفهوم القائل ان التأثير المدمر لنيتشه على جيل من الالمان بأكمله يمكن ان يردلانحلال الايمان البروتستانتي. يبدو ان البعد الديني غير موجود بالنسبة اليه، هكذا بكل بساطة.

وليس هذا الجهل الفريد «مسألة عرضية »، كما يقول في أحد تعابيره المفضلة في المجلة الشهرية الأدبية البودابستية «نيوغت » (الغرب) التي تبدي تمسكاً شديداً بالشكلية وعندما شرع بعد ذلك

بالابتعـاد عما اسماه «الذاتيـة» فإنه قام بذلك باسم الميتافيزيقيا، حيث ان تحـوله نحـو الافـلاطونيـة المحـدثةحـوالي ١٩١٠ قـد اقنعه أنه لا بد للأعمال الغنيـة، بغـية ثباتها وبقائها، من ان تعكس تسلسلاً «موضوعياً» للقـيم. وهذا النمط من «المثـاليـة الموضـوعية» ـ وهي خطوة تمهيدية نحـو اعـتناقـه اللاحق لفلسـفـة هيـجل ـ تتعارض بالتأكيد مع المذهب الحـيوي الرومنطيقي، ولكنه كان بالمثل بعيداً عن تاريخيته الراديكالية في أعـوامـه اللاحـقـة. ولا يمكن الدفـاع عن مـوقف فكري كهذا إلا اذا اعتمـد على شيء مماثل مما اسـماه فلاسفة أفلاطونيون Platonizing «حدس الماهية». اما ما تبقى، فليس له أية دلالة لفهم التاريخ ، وهو انهماك لوكـاش الرئيس بوصـفـه مـاركسياً ينسج على منوال هيجل. لقد رأينا سـابقـاً ان الاشتراكـيـة في البـداية اخـفـقت في إشـباع رغباته تماماً لأنهالم تسـتـجب لنزعـاته الميـتـافـيـزيقـية. وفي الواقع فقد ورط لوكاش نفـسـه في ١٩١٠ بهذه الملاحظة الخطيرة «يبـدو ان الاشتراكية تفتقر الى تلك القـوة الدينية القادرة على امتلاك روح الانسان بأكملها، كما كانت الحـالة مع المسـيـحـيـة البدائية». وامتدت هناك طريق طويلة بين هذا التـعـبير وبين مـسـاجـلات الخمسينات الصاخبة. وفي الفترة الفاصلة، كـانت «القـوة الدينيـة» التي سـعى وراءها عـبثاً قد استحوذت عليه ، وهو مبرر اضـافي لتغاضيه عن مدلولها المتواتر.

وعند هذا الحـد يمكننا ترك «تدمير العـقل» للمـصير القاسي الذي ينتظر أي عـمل لم يكن لمؤلفـه الشـجـاعـة ليفعل ما يعتقد انه صواب، ونختتم عرضنا بالقاء نظرة مختصرة على علم الجمال.

الفصـــــل الثـــــامن

تناولنا بكل رئيسي الكتـابات النقـدية والسـجالية التي هدف لوكاش مـن ورائهـا الى تمـهـيـد الـطريق امـام عـرض ايجابي ومنهـجي ومنتظم لتنظيره. واذا مـا تركنا التـسلسل الزمني جـانباً (الكرونولوجيا) ـ تعيين التـواريخ الدقـيـقـة للأحـداث وترتيـبـهـا وفـقاً لتسلسلها الزمني ـ فإن هـذاالـتـغـيير في العـرض يبـدو مبرراً كـافـيـاً لتناول كـتـاب «مـاهيـة الجمالي» Die Eigenart des Asthetisten بشكل منفـصل عندما ظهـر هذا العـمل في ١٩٦٣ في مجلدين ضـخـمين (حين كـان يتـبعهما دراسـة في علم الاخـلاق لم تكن خـرجت الى الوجـود مع حلول عـام ١٩٦٩). كـان لوكـاش في الثـامنة والسبعين من عمره ومصمماً بوضوح على تتـويج حـياته ببحث مكثف حول نظرية الفن. وجاء النمط الأدبي الهادىء والرزين الذي اخـتـاره لوكـاش للمناسـبـة مـتعارضاً بجلاء مع كـتاباته في الخمسينات، ومعلناً بالتالي تبدلاً في المناخ الفكري بالاضافة الى بـلـوغ لـوكـاش مـكننة كـلاسـيكيـة ضـمن نطاق عـمله ، وحـول حـقـيـقـــة ظرفـية تؤكدها الاستشهادات المتكررة من غوته حين اضحى اسلوبه الجليل مـلائماً لشرح المبـادىء الجمالـيـة المسـتـمـدة بأغلبيتها من كـلاسـيكيـة الثقافة الفايمارية. واصر لوكاش على تذكير قرائه بأن غوته وهـيـجل كـانا مـتـعـاصرين، وان هيـجل (في ضـوء اقـواله هو حـول الموضـوع) يدين الى حـد بعـيـد لأعمال غـوته. غير انه لم يقدم من قبل عـلـم الجمال الهـيـجلي في مـفـردات قـائمـة على اسـاس الكلاسـيكيـة الـفـايمارية، وفي عـام ١٩٦٣ قـام بـذلـك عـلى الـوجـه الأكـمـل ـ اسـتـشـهـادات متكررة من ماركس ـ وعلاوة على ذلك ارتدادات عـرضية مـوجزة نحو اللينينية.

ان ايـة نظرة الى بحث لوكـاش الشـهير حـول علم الجمال لا بد ان تـنـطـلـق من الإقـرار الصريح بأنه يقع ضـمن تراث اوروبا الوسطى.

ونادراً مـا يستـشـهـد لوكاش بكتاب غير ألمان، حتى ولو صادف انهم مـاركسيون أو هيجليون. وقد يصفح المرء عن نفسه حين يفترض، ان لوكـاش لم يسـبق له ان سـمع بـِ كـولينغوود. ان اشارات عابرة قليلة الى كـريسـتـوفـر كـودويل تستنفد موضوع علم الجمال الماركسي في العالم الناطق بالانكليـزية، وحـتى ضـمن نطاق ثقافته يظهر انتقائياً على نحو مـثير للدهشـة. مـثـلاً، في تجـاهله الكلي لمنشـورات معهد فرانكفورت للبـحـوث الاجـتـماعـيـة، وعدم التلفظ بكلمة واحدة حول كتاب ارنولد هاوزر Hauser «التـاريخ الاجـتـماعي للفن» ، وهوعـمل عـالم بارز، ويتـفق عـلاوة على ذلك انه مـاركسي، غير انه لا يشاطر لوكاش وجهة نظره السياسية، وبالتالي تجاهله. وينطبق الشيء نفسه على الناقد الأدبي الشهير هانس ماير Hans Mayer ، وهـو مـاركـسي ، ولـكنه ليس لينينيـاً، ومن ثم لا يصح ذكـره. صحيح انه لا هاوزر ولا ماير يدعي كـونه فـيلسـوفـاً. من جـهـة أخـرى فإن ماركـــسيةلوكاش المتصــفة بطابع هيجلي Hegelianized هي اثر استثنائي جداً وليس بأية حال العـرض الموثوق للمـوضـوع الذي توصل المعجبون به والمنحازون بعض الشيء الى مـعـاينتـه فـيـه. ان عـرضـه لعلم الجمال عند هيـجل يفـوته باســـتـمـرار إدراك مـا شكل بالنسـبـة الى هيجل فكرته الرئيســـية المركـزية، أي وحـدة الفن والفلسـفةوالدين التي لا تنفصم عراها. ولا يتـوافق بالطبع مـفـهـوم الفن بوصـفـه كـشـفـاً أو وحـيـاً للحـقـيـقـة الفـوقـحـسية(ما فوق الحســـية) مع المادية التاريخية. وتكرس مقاطع واسـعـة مـن مجلـد لـوكـاش الأول لـدحـض الـفلســـفـة المتـعـاليـة الاستشراقية Transcendentalismبـأي شكل أو مظهـر. غير ان نهج غـوته وهيـجل الذي يرفع الفن بشكل ضـمني الى مـرتبة الكشف (الـوحـي) قـد سـدد ضربـة الى الـلاهـوت ، وهـو واقع كـان كل من الـرجـلـين يـدركـه تمامـاً. ومـا برز لاحـقـاً عند مـاركس وانجلز ككره واضح لكل من كـانط وشـيلر، مرفقاً بتفصيل لافت للنظر لشعر غوته وفلسـفـة هيـجل، كـان النتيجة المنطقية لكون هيجل وغوته في طريقهما

الشـديدة الاختـلاف، قـد استوعبا سراً فلسفة ينوزا التي لم يكن يؤتى على ذكـرها آنذاك تقـريبـاً. ان ناقـداًلمعرفة لوكا الواسعة لا بد ان يدرك انتهاءاته الثقـافـية. واذا كان يتجاهل هذا الجانب من الموضوع فلا يأتي بـصـورة جـازمـة على ذكـر سـبـينوزا إلا من خـلال الصلة مع الماديين الفـرنسـيين للقـرن التـالي، ويمكن للمرء التخمين بأن أي خروج على عصر التنوير يبـدو كإغـواء للارتداد الى المثـاليـة المتـعـاقـبة لفترةشبابه.
وهـكذا يحرم نفسـه فـرصـة تحـرير علم الجمال الماركسي من النفـعـيين (مـذهب المنفـعـة) التي لا بد ان تلازم الموضوع على نحو مؤكد، اذا ما تم استـبـعاد البعد الميتافيزيقي. ومن ثم هناك الموضوع الغريب لعلاقة غـوته بشـيلينغ؛ اذ يتـفق المؤرخـون الأدبيـون غير المقـيدين بخط حزبي سـيـاسي ان كره غوته لنيوتن وتأييده للنظرة «العضوية »الى العالم، كانا دون ريب مـوقـفين غير كـلاسيكيين. فـغـوته الشـاب اعـتبر سـابقـاً لـلـرومـنـطـيـقـيـة : وكـانـت لغـوته البـالغ صـلات بـــــشلينغ، منشىء (فلـــسفة الطبيعة Naturphilosophie) الرومـانطيقية.
ولا يـتـوافـق أي شيء مـن ذلـك مـع الـصـورة المبـسطة التي رسـمـهـا لوكـاش، حـيث تطرح الفلسـفـة الهـيـجلـيـة و «الكلاسيكية الفايمارية» مـقـابل اللاعـقـلانيـة والحـركـة الرومنطيـقية. ان بحث غوته الفلسفي الأوحـد صـاغ مـا وصفه منذ ١٨١٢ «اساس وجوده ككل» أي معاينة الـلـه في الطبـيـعـة والطبـيـعـة في الله. لم يكن هذا النمط من المذهب الاسـبـينوزي في وحـدة الوجـود ارثوذكـسـيـاً بأكـثـر من وجـهـة النظر الـلاهـوتـيـة، غير أنه لم يكن «مـادياً» ايضـاً. بما ان لوكـاش ليس في وسـعـه الاسـتـغناء عن غـوته، فهو يلزم الصمت حول هذه النقطة من الموضـوع. وبالمثل لا يدلي برأي حـول تشـاؤمية هيجل لجهة مصيرالفن في عـالم تجـعله الفلسـفـة ويحيله العلم شـفـافـاً : وهو مـصـدر اقوال مـاركس المذكـورة سابقاً حول هذا الموضوع.
مع ذلك، اذا عـدكـتـاب «ماهية الجمالي» عملاً هاماً، فليس ذلك بـسـبـب إسـهـابـه المطول، بل لأنه يحفظ بشكل هامشي بعض عناصر

طريقة فهم مميزة تم تفصيلها من جانب لوكاش قبل ثلاثين عاماً في مقال حول ف. ت. فيشر الهيجلي الالماني في اواسط القرن التاسع عشر. ان ما يهم لوكاش فعلاً هومسألة تفسير العملية الخلاقة لما يسميه «الانعكاس» أو «التمرئي». من هنا يصبح ما يطرحه، تاريخاً للفن ونظرية لعلم الجمال في آن واحد، حيث تمتلك الفكرة الرئيسية لهذه الاخيرة نمطاً معيناً في الاستجابة للعالم الذي يختلف بطريقة ما عن سلسلة العمليات الموازية التي تصادف في الحياة اليومية في ميدان العمل (المنفعة)، وفي العلوم، وفي السحر، وفي الدين. وهذه كلها بالنسبة الى لوكاش انماط مختلفة لعلاقة اولية بين الانسان وبيئته التي يسميها «الانعكاس». ان خصوصيةEigenart علم الجمال تكمن في حقيقة كون البشر قد طوروا، في مرحلة محددة مشروطة مادياً من التاريخ البشري، قدرة لتفسير العالم بمصطلحات لم تعد مجرد مصطلحات عملية أو سحرية (حيث ان السحر البدائي نفسه يؤلف وجهاً من وجوه الممارسة العملية اليومية)... وبخلاف الدين، الذين يصنفه مع العمل والسحر كجمع بلا وسيط في جوهره بين النظرية والممارسة، فان الفن يشابه، وبالنسبة الى لوكاش، العلم والفلسفة، من حيث ان الفنان وجمهوره قد تحرروا من ضغط الضرورةالعملية الفجة. ومن جهة اخرى، فهومغطى بملاحظة ان الفن ـ بعكس العلم الذي يلغي التشبيه البدائي ـ يشاطر الدين ميلاً نحو تفسير الواقع «الموضوعي» بصورة مستعارة من الشخصية البشرية. ولذا يطالعنا الارتياب الشهير بأمر الفن الكائن في الفلسفة الاغريقية من هيراقليطس فصاعداً.

«يعتبر هؤلاء الفلاسفة المبدأ الجمالي ـ ليس بدون سبب ـ مبدأ تشبيهياً، وذلك لأنهم قد ينظرون الى تجسيم الدين أو الأسطورة ... الخ، كعدوهم الرئيسي، لوصم ميدان الفن ـ على نحو جائر تماماً ـ كحليف وأداة للخرافة التجسمية. وتكمن صعوبة اقامة استقلال ذاتي على غرار الاستقلال الذي حققته الفلسفة والعلم في حقيقة ان

المبدأ الجمالي . . . لا يمتلك حقاً طابعاً تشبيهياً أو تجسيمياً » .

وما دام التجسيم يشكل بعبع لوكاش الرئيسي كلما انكب على دراسة السحر أو الدين، فإنه ليس واضحاً للوهلة الاولى لماذا يحتج ضد الحيف في معالجة الفن كحليف للخرافة. يمكن تعليل ذلك في تفسيره الخاص للمبدأ الهيجلي - الماركسي الذي يلخصه غوردن تشايلد Gordon Child - وهو من يستشهد به لوكاش بشكل متكرر - بالعبارة المألوفة: «الانسان يصنع نفسه ». فالفن، بكلمة اخرى، جزء من اضفاء الطابع الانساني، وهي فكرة اشار اليها هيجل أولاً بشكل غامض في كتاب «فينومينولوجيا الروح» وصاغها ماركس فيما بعد، (صياغة) اكثر مادية، في «المخطوطات الباريسية ١٨٤٤ » . ويشرع لوكاش ابتداء من هذا المنطلق المأمون الجانب بالانتقال الى التأكيد المشكوك فيه، أن نمط الادراك الجمالي يبرز الى الوجود كجزء من المسار حيث يحول الانسان عالمه نفسه عبر عمله (الجسدي والعقلي). إن الفن انعتاق من الممارسة اليومية، مماثل، لنشوء النموذج العلمي «للانعكاس » وان يكن انعكاساً يحتفظ بالنمط التجسيمي للإدراك الحسي. وحده العلم هو الذي يشكل انقطاعاً جذرياً عن التجسيم. ويعتبر لوكاش نفسه في هذه المسألة، في انسجام مع غوته، الذي يستشهد بقوله «ان الانسان لا يدرك كم هو تجسيمي ». وفي الوقت نفسه يقوده تصميمه على انقاذ المبدأ الجمالي من اللاعقلانية الى تمييز لافت للنظر بين انواع مختلفة من التجسيم.

«انه لمن صميم (النمط) الجمالي اعتبار الصورة طبق الاصل عن الواقع انعكاساً، في حين يعزو السحر والدين الواقع الموضوعي الى نظامهما الانعكاسي ويطلبان الايمان به. ويقود ذلك في التطور اللاحق الى الاختلاف الحاسم من حيث ان الانعكاس الجمالي يشكل بنفسه نظاماً مغلقاً (عمل الفن)، بينما يضم كل انعكاس سحري أو ديني بالنسبة الى حقيقة متعاقبة (منزهة).

فكل انعكاس، من جهة، هو تمثيل لشيء واقعي . وفي حالة

الفن، طبيعة الانسان الجوهرية ووحدة البشرية من جهة اخرى، لا يمثل السحر والدين أي شيء واقعي، بالرغم من انهما «يعكسان» شيئاً ما. واخيراً، «يتأكد تماثل الحقيقة والجمال» مع اشارة صريحة الى «كيتس» Keats باعتباره تماثلاً يؤلف ماهيةالادراك الجمالي المباشر والنقي. غير ان التجربة المعاشة (أو الشعور الذاتي) (Erlebnis) لا تستطيع ان تعرف بالحدس عالماً قائماً بذاته من الأفكار أو الماهيات، كما هي الحال ضمن نسق أو منظومة من «المثالية الموضوعية». وثمة خاصية لا يمكن اختزالها للميدان الجمالي القائم في نهاية المطاف في الادراك التأملي للحقيقة ـ الجمال، غير ان هذه ليست كيانات حقيقية. ومن جهة اخرى فإنها ليست مجرد كلمات أو تسميات لمشاعرنا. ما هي إذن ؟ يبدو ان الجواب هو : انعكاسات لحقيقة داخلية لا يماثلها شيء خارجي، (فليفهم من يستطيع الفهم).

ولكن لا ينبغي، بأية حال، اعطاء الانطباع بأن لوكاش مهتم في المقام الأول بمحاكاة الخلود أو بوصف الاحاسيس الشاعرية. تبرز هذه الجوانب من الموضوع من وقت لآخر ـ وهي تناقش في ايجاز بلغة تعبر عن عاطفة اصيلة ـ غير ان معظم عمله ينهمك في تحليل الفن كفعالية اجتماعية تنشأ تدريجياً من رحم السحر البدائي. ومن ثم يتكشف عنه، محاكاة، رقص شعبي، أو تصورات خيالية شعائرية أو دينية، وذلك قبل بلوغ مرحلة الادراك الجمالي الاصيل في النهاية. تكرس مئات الصفحات لمسائل تتعلق في الواقع بالانثروبولوجيا، وبعد ذلك فقط يطلع القارىءعلى قضايا جمالية. حتى عندما يطرق مسائل الأسلوب «والانسجام المتزامن» أو شعر فرلين، يعود لوكاش باستمرار الى خط فكري يمثله كل من ارسطو وفيكو وهيجل وماركس، ولا نبالغ اذا قلنا ان معضلته بأكملها، بوصفه منظراً، تتركز على معنى مصطلحي «انعكاس» و «تمثيل» representation ان طابع المحاكاة في الفن يمثل العالم «كما هو»، ولكن على نحو تجسيمي، وبالتالي بنمط يظهر وهمياً من وجهة نظر علمية. ويحل

الصراع بمعونة ديالكتيك هيجل؛ فالمحاكاة « تعكس » الكينونة - في ذاتها - للعالم بربط ملامحها (An-sich-sein) الى الحاجات النوعية النامية والمشروطة اجتماعياً للانسان. وهكذا، لإعطاء مثل بارز، ليس التناسب الجمالي (يعرف ايضاً بالجمال الكلاسيكي) «التمثيل الحقيقي لعلاقات جوهرية قائمة في الواقع الموضوعي فحسب، بل هو ايضاً حاجة اساسية للوجود البشري ». واضافة الى تعزيز رفض الذاتية الرومانسية وفرعها البورجوازي المتأخر، الحداثة (المنحطة)، فهذه الصيغة تؤهل لوكاش لتأكيد «موضوعية » التمثيل المتسم بالمحاكاة في المعنى الفلسفي : ليس بالمبدأ التجسيمي الأساسي للانعكاس الجمالي «أي عنصر مشترك مع مجرد الذاتية ». وعلى نحو منطقي كاف، يوافق لوكاش على نهج ارسطو في «كتاب الأخلاق لـ نيقوماخوس » - Nicomachean Ethics حيث الأخلاقية (الفضيلة) في ترابط وثيق مع التناسب. «يثبت في النهاية ان المحور المنهجي لعلم الأخلاق هو معضلة من معضلات التناسب الصحيح ».

وتعرف الفضيلة نفسها وفقاً للمصطلح الارسطي الافراد والتفريط كوسط بين الحدود القصوى، مما لا يعني انها تمثل مجرد «معدل وسط جامد ». وما تدل عليه (المركزانية) في هذا السياق إنما هو تأدية المرء واجباته !

انه لمن السذاجة الاجابة بأن الاتساق هنا هو مجرد استعارة. انه اكثر من ذلك بكثير، وحيث ان الجمال مقولة مركزية للحياة والفن، فإن ارتباطاً كهذا من المحتوم ان يرسخ وجوده. وليس من الممكن، لا في الحياة ولا في الفن، تأسيس الجمال بالاستنادلقيم جمالية أو اخلاقية ذات طبيعة عابرة أو نسبية . لا بد للجمال من ان يقرر البنية الجوهريةللانسان. واذا لم يكن انبثاق هذا التقرير متعالياً (كما هي الحال عند افلاطون، واذا لم يكن محض اشعاع مستعارٍ متعالٍ من عالم آخر فيعني التركيب عندئذ تناغماً لهذه العلاقات الدنيوية المتأصلة في الانسان، المتصلة به بفضل انسانيته. . . والمبدأ الملائم في نهاية المطاف

هو مبدأ التناسب . . . وبذلك تتجاوز المسألة قضايا ذات شكل مجرد وتلامس العلاقة المتبادلة والاساسية بين علم الاخلاق وعلم الجمال .

ان الجمال وفقاً للوكاش (كما بالنسبة الى تشرنيشيفسكي) هو «حالة خاصة ضمن علم الجمال، وشكل فريد للتأمل الجمالي وتكوينه، محتمل فقط في ظل ظروف اجتماعية ـ تاريخية ملائمة للغاية ». واما الأنموذج فهو، بالطبع، العصور القديمة الكلاسيكية، بالرغم من ان ذلك ليس معلناً على نحو مسهب. ويرفض لوكاش في الوقت نفسه السمة الخاصة للكلاسيكية الفايمارية المتمثلة بمعادلة شيلر بين الفن واللهو، ويعترض لوكاش على عبارة شيلر الشهيرة «يلهو الانسان فقط عندما يكون انسانياًحقاً، وهو انساني حقاً فقط عندما يلهو »، من زاوية ان هذه الصيغة ـ وان تكن «انسانية على نحو عميق » ـ تتجاهل الدور المؤنس للعمل وتقود بذلك الى فصل صارم للفن عن ميدان العمل. ويؤيد قوله هذا باستشهاد من ماركس («لا يمكن للعمل أن يصبح لهواً كمايشاء له فورييه »). غير انه لا يبدو انه يحقق ذلك إذا كانت الحال كما هي عليه، من هنا ليس بالمستطاع دمج المجال الفني بنجاح ضمن مسار الحياة اليومية، حيث تحتفظ صورة شيلر عن جنة عدن، بالرغم من طوباويتها، بفعاليتها كنقد ضمني «للوضع البشري» ، وهو تعبير ليس مستحباً لدى لوكاش كثيراً (كما مر معنا).

ولا بد اخيراً من القيام بمحاولة لتوضيح مكانة مفاهيم لوكاش النظرية. لم يكن بالمستطاع محاولة ذلك من قبل، لأنه كان سيعني إصدار حكم مسبق على أهمية محاولة لوكاش في دمج علم الجمال الهيجلي بعلم الاجتماع الماركسي. وبما ان الخطوط العريضة لمناقشته قد تم رسمها، فمن الممكن تكوين استنتاج لجهة نجاح المشروع أو فشله. ويمكن لحسن الحظ القيام بذلك دون التورط فيما يعرف بـ «تقدير » الاعمال الفردية للفن. إن أي شخص ليس مؤرخاً فنياً أو ناقداً ادبياً ويغامر في طرق هذا الموضوع لا بد له من ان يمتلك درجة غير عادية من الثقة بالنفس. وفي هذا المجال على الاقل تستحق محاولة

لوكاش نيل الاطراء، بالرغم من ايمانه بالمبادىء العامة التي يتقيد بها؛ فهو يعلن نفسه بصراحة غير كفء، على سبيل المثال، لإعطاء حكم على قيمة اعمال معينة ، وينبغي ان نسأل ما الذي يميز بالتحديد استخدامه مصطلحاً مثل «التمثل » representation عن المعنى العادي له. لا يمكن ايجاد الجواب إلا بتقصي علم الجمال لدى هيجل، لأنه عند هذه النقطة يعني ان التزام لوكاش بالماركسية غير ذي صلة بالموضوع. وفيما يتعلق بتبني ماركس وانجلز لأية مفاهيم حول طبيعة التجربة الجمالية فإن مقاييسها مشتقة من غوته وهيجل اللذين شاطرهما ايضاً التبجيل الالماني التقليدي للاغريق وشكسبير، المقرون بكره بارز للأسلوب الكلاسيكي في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

وينبغي ان تلغي هذه الحقيقة وحدها مفهوم كون «الكلاسيكية الفايمارية » كانت تتقاسم الشيء الكثير مع ما كان يعرف آنئذ بالأسلوب الكلاسيكي في اوروبا الغربية. بالرغم من ذلك كله فإن لوكاش مصمم على اقامة حاجزصارم بين غوته ـ شيلر وبين نقادهما الرومانسيين، فما يسميه «المثاليةالموضوعية » ـ أي «الاعتقاد بأن روح الانسان في مجال الفن «الى الطريق القويم » باسترجاع البعد الميتافيزيقي للروح العالمية ـ هو اعتقاد موجود عند غوته وعند هيجل.

ماذا يتضمن ذلك بالنسبة لنظرية في الفن ؟ في النظرة التجريبية العادية، يختزن عقل الفنان صوراً مأخوذة من الطبيعة أو المجتمع، ثم ترتب هذه الصور بالتوافق مع ميله الفردي أو ذوقه. اما حسب الافتراض الكلاسيكي، فإن هذا التنظيم أو الترتيب للصور ـ المرتبة طبق الاصل المنسوجة عن محيط خارجي (طبيعي أو اجتماعي) ـ لا تقدم نتائج دائمة إلا اذا «عكست »التركيب الموضوعي للواقع. لذلك فإن الفنان لا «يبدع » بالمعنى الدقيق ؛ إنه يصور، ويظل ذلك صحيحاً حتى ولو سلم ان الفن ليس مجرد ديكور. لأن ما يصور هو قائم أولاً، مع انه قد يبذل جهدمعين في استخلاص ما هو حقيقي مما

هـو محض ظاهري. غير ان مـا هو قـائم ليس من الضروري ان يكون «واقـعـاً» ،ويـوضـح لوكـاش، مـقـتـفـيـاً اثر هيـجل، ان التمايز بين المظهـروالواقع المألوف في العلم والممارسـة اليـومـيـة العـامية، غير ملائم فـيما يخص الفن، حـيث يسـقط الانسـان كينونته «الداخلية» على هيئة شيء يوصف عـادة كـ «شكل ذي مـغزى». ان هذا الشيء ليس مجرد مظهـر خـارجي «ذاتي» أو ضرب من الوهم، لانه يصف (يعكس وفقاً لمصطلحـاته) عـالماً مـوضـوعـيـاً مـوجـوداً يشترك فـيـه الفنان مع اناس آخـرين، وفي النهـاية مع البشرية ككل؛ من هنا تأتي قـدرتنا على فـهم اسلافـنـا. فـالـفن باعـتـبـاره «الذات والموضـوع المتطابقين» للعـمليـة الجماليـةيفـصل الوعي الذاتي للنوع البشري. لهذا السـبب يكون الخيال الـفـني مـنـتـجـاً دون ان يكون بالضرورة نزوياً؛ فما يولده ليس عـالماً خـاصـاً، بـل كـل مـنظم مجذر في نهاية المطاف في التـجـربة الجماعـيـة للبشرية. بهذا المعنى «يعكس» الفن حـقـيـقـة، غير ان هذه الحـقـيـقة ليست حـقـيـقـة «وقـائع»، وليـست حقيقة مجرد «مشاعر». الفن هو الـصـورة المـرآة طـبق الاصل لعـالم «مـوضـوعي» من القـيم، أو بلغـة اخرى، انه يعلن الحقيقة عن العالم.

والآن، اذا سلم المرء بذلك،فليس من السـهل مـعاينة كيف يمكن ان يفـوته مـا يصـفـه لوكـاش بـِ «المثالية الموضوعية» (لتمييزها عن «المثالية الذاتيـة» لكانط وأتبـاعـه). ان كلا من هيجل وماركس، بشكل عام، يتـعـاطى نظرية للمـعـرفـة تعـود في النهـاية الى أرسطو، وهي بالتـالي «واقـعـيـة»، بمـعنى أنها تفترض عالماً «حقيقياً» يمكن للعقل ادراكه. وتـصلح طريقـة الفـهم هذه بما فـيـه الكفـاية كـحل وسط بين المثـاليـة الافـلاطونيـة وأسلوب الاسـمـيـة الفـجـة التي تعـالج المفـاهيم المنطقية كـمـجـرد اعـلان تقليـدي منكرة اية حـقـيقة «للكليات» المتضمنة في التـجـربة، وهي تبطل ايضاً الظاهرانية الكانطية التي تترك رواسب غير مـفـسرة ـ الشيء في ذاته ـ thing in itself في مكان مـا على الحافة الخـارجيـة لعـالم الظواهر التي ينشئها العقل البشري. ولكن عندما تثار

مسـألة علم الجمال، لا تقـدم هذه التمايزات مـا يكفي لمسـاعـدة منظر يعـتبر «الواقـعـيـة» و «المادية» شـيئاً واحـداً. لنفترض اننا جميعاً نوافق على كـون الادراك النافـذ الصحيح لطبيعة الواقع يقع ضمن قدرة العقل الحـرة. فمن السهل ان نتبين لماذا يثلج مثل هذا الاعتقاد صدر عالم اذا كـان بالفعل قادراً على الاحتفاظ به طويلاً. ولكن كيف يدعم مثل هذا الاعـتـقـاد فـيلسـوف ملتـزم بما يطلق عليـه لوكاش (مقتفياً في ذلك اثر انـجـلز بدلاًمن مـاركس) مـذهـب «المادية» ؟ ان واقع العـالم الخـارجي القائم في الذهن ليس مجال تساؤل. ان ما يهم علم الجمال هو بالأحرى وضع التـجـربة، مـهما كـانت «حـقيقية». إنه يمكن تسميتها «مادية» فـقط، بمـعنى كونها مرتبطة بحياة كائنات بشرية حية وحقيقية. وفي ما يـتـعـدى هذه النقطة، يتـوقف مـصطلح «المادي» عن الدلالة على أي شيء ضـمن نطاق نظرية الفن. فاذا ما قلنا ان الانسان يدرك نفسه عبر التـجـربة الجماليـة، لا نقـول شـيئاً يتنافى مع«المثاليةالموضوعية» بالمعنى الهيـجلي؛ اذ ان هذا النمط للفـهم الذاتي يمـر، في النهاية، عبر النفس البشرية.

ان لـوكـاش، عندمـا يصف أو يحلل عـمليـةالخلق الفني، لا يتردد في الإقـرار بـكـل ذلـك. ويبين بمنتـهى الوضـوح ان العـمل الفني يحول الـتـجـربـة المـباشرة الى عـالم فـريـد خـاص بـه ، أي عـالم الـقـيـمـة الجماليـة. ويصبح التمايز في هذا المجال بين الفكر والعواطف فاقداً معناه تمـامـاً كالتمايز بين الذات والموضوع. يسعى الفن لتمثيل التجربة البشرية في عـملية لا متناهية من فعاليات خلق الشكل وخلق القيم التي تكون مـعـاً مـيـدان عـلم الجمال. ومع انه يصر على وصف هذه الأعمال بأنها «انعكاسـيـة» أكـثـر مما هي «خـلاقـة»، فلا ينكر لوكاش استقلاليتها الـذاتـيـة ولا عـالميـتـهـا، بالرغم من انها تحـدث بالضرورة عبر العـقـل المحـدود للفنان الفـرد. ويساعد هذا الاخير على خلق ما وصفه هيجلي بريطاني مـعـاصر بـ «عـالم شـامل وسـار»، حـيث تحضر العاطفة ليس كـمـلاحظة مـضـافة، بل كعنصر متمم. ليس العالم واقعاً مجرداً. وهو

بالتأكـيـد ليس تخيـلاً. انه مـصنوع من الاحـسـاس والخيـال، غير انه مـوضـوعي وأكثر حقيقية من الواقع لأنه يمتلك قيمة فعلية.

هذه هي ايضـاً وجـهة النظر التي يعتنقها لوكاش. واذا كان لا يستطيع الإفـصاح عنها بلغة تلائم الموضوع، فذلك عائد، على ما يفترض، الى التـزامـه بمـفـردات، لم تكن مـعدة لوصف أي شيء إلا عالم «الواقع» بالمعنى العلمي للتـعـبير. وبالرغم من انه يؤكـد حـرفـياً ان هذه ليست هـي المـشكلة في مـيـدان الفن، يخفق لوكـاش في نقل المعنى الكامل لما يبـغـيه، وذلك دون شك لأن المصطلحات الوحيدةالملائمة لهذه الفكرة الرئيـسـيـة قـد استولى عليها قبله هيجل وهي تشكل بالتالي اغراء دائماً للاسـتسلام الى النظرة الكلية لـ «المثالية الموضوعية».

لا يعني ذلك انه لا يمكن ان توجـد نظرية مـاركسية في علم الجمال، بل إن مجرد طريقـة الفـهم المذهبـيـة المرتبطة باسم جـورج لوكاش لا تفـسح المجـال لجـواب غير غـامض عن السـؤال حـول كـيـفية اتصال نظرية كـهـذه بسلفـهـا الهيـجلي. وما يصح عن علم الجمال ينطبق على عـمل لوكاش عامة، لقد وضع مجموعة هائلة من الكتابات التي يمكن اعـتـبـارها صيغة متصفة بالطابع الهيجلي للماركسية أو استمرارية لعمل ديلثاي في التاريخ العقلي أو الذهني (Geistesgeschichte)، مع النقل من الدور الذاتي النشـاط الواعي الى تفـتـح عـمليـة مجذرة في نهاية المطاف في ديالكتـيك القـوى المنتـجـة المادية والعـلاقـات الاجـتماعية. ويمكن اعـتـبار الالتباس الذي يتخلل أعماله اللاحقة كدليل على أنه، بـغـض النظر عن الظواهر التي تبـدو نقـيض ذلك، لم يتـخل أبداً عن افتراضـات ايام شـبـابه العـاملة بوحي من تعـاليم افـلاطون. وبقدر ما تلزم صـيـغـة هيـجل لـ «المثـاليـةالموضـوعـيـة» الفيلسوف بالإقرار بأن الإبداعـات البشرية تمر عبر فـعـالية عقل الإنسان، فإن اختيار لوكاش علم الجمال كمجاله الخاص، لم يكن كأي حقل آخر، له حظ وافر من النجـاح. فـعلم الجمال يشكل مـيـداناً يخضع فـيه الانقسام الصارم بين الـعـالم الـداخـلي والخـارجـي، وبـين الـعـقـل والعـاطفـة، وبين الواقع

والقيمة، الى ديالكتيك الواقع والمظهر.

وأياًكانت الزاوية التي ينظر من خلالها، فإن مركزية الفن في عمل جورج لوكاش تشهد على التزام يضعه ضمن نطاق ميراث المثالية الألماني. ومايشكل لب هذه الحركة قد أعلنه بوضوح ناقد شهادته ليست بحاجة الى شرعية سياسية.

«ثمة وحدة أساسية في الأدب الألماني ككل، وذلك منذ حوالي أواسط القرن الثامن عشر حتى وفاة غوته. وهي خلق فن جديد يختلف عن فن القرن السابع عشر الفرنسي. انها محاولة من اجل فلسفة جديدة ليست مسيحية ارثوذكسية ولا تستند الى حركة التنويرفي القرن الثامن عشر. تشدد هذه النظرية الجديدة على كلية قوى الإنسان، ليس العقل وحده، بل بالأحرى الحدس «الحدس العقلي» والمخيلة. انها إحياء للأفلاطونية المستحدثة، ومذهب في وحدة الوجود (أيا كانت تنازلاتها للارثوذكسية)؛ أحادية توصلت الى توحد بين الله والعالم وبين الروح والجسد، وبين الذات والموضوع. وكان الداعون لهذه الافكار واعين دوماً لخطورة هذه الآراء وصعوبتها، التي كانت تظهر لهم مراراً بمثابة مثل غائبة فحسب. من هنا كان «التعرف اللامتناهي» لدى الرومانسيين الألمان، والتشديد على التطور، على الفن كتلمس للطريق نحو المثال الأعلى».

ولقد اصبح لوكاش الشاب، لهذا التقليد الميتافيزيقي وريثاً، وهذه الحقيقة الظرفية وحدها تضفي انساناً دائماً حتى على كتاباته الأقل شهرة.

فهرس الأعلام

ادورنو، ثيودور (مدرسة فرانكفورت) Adorno, Theodor.

بنجامين، فالتر (مدرسة فرانكفورت) Benjamin, Walter.

برغسون، هنري (١٨٥٩-١٩٤١) Bergson, Henri: فيلسوف فرنسي، من ابرز ممثلي الحدسية في تاريخ الفلسفة المعاصرة، شغل منصب استاذ في الكوليج دي فرانس منذ ١٩٠٠، وسيطر طيلة عقود على الفلسفة الحاضرة. من اهم ممثلي فلسفة الحياة والقائلين بالدفع الحيوي.

بلوخ، ارنست - ١٨٨٥ Bloch, Ernst: فيلسوف الماني ماركسي. كان استاذاً في لايبزيغ، ثم انتقل الى جامعة توبنغن (المانيا الغربية). يسعى في تفكيره الفلسفي الى عمل موسوعي يضم محتويات الأمل في التاريخ الحضاري. أهم مؤلفاته: مبدأ الأمل (١٩٥٤-١٩٥٧).

تشرنيشيفسكي، نيقولاي (١٨٢٨ - ١٨٨٩) Chernyshevsky (Co-founder of Russian Popularism): مفكر وناقد روسي انضم الى المنادين بالاشتراكية الديمقراطية. اعتقلته السلطات القيصرية وحكمت عليه بالاشغال الشاقة والنفي الى سيبيريا. تزعم الحركة الديمقراطية الثورية عام ١٨٦٠ في سبيل قيام ثورة فلاحية. له كتابات في علم الجمال ينتقد فيها النظرة المثالية. من أهم مؤلفاته: «دراسات عن عنصر غوغول في الأدب الروسي» ١٨٥٥، و «المبدأ الانثروبولوجي في الفلسفة» ١٨٦٦، و«طبيعة المعرفة الانسانية» ١٨٨٥، وله روايتان: «ما العمل؟» و«برولوغ» ١٨٦٧ - ١٩٦٩.

كوهن، هرمان (1918-1842) Cohen, Hermann: اشترك مع باول ناتورب في تأسيس مدرسة ماربورغ الجديدة. أصدر عام ١٨٧١ كتابه الشهير «نظرية كانط في الخبرة».

ديلثي (ديلثاي) فيلهلم (Dilthey, Wilhelm 1911-1833) فيلسوف الماني، شغل منصب الاستاذية في برلين منذ١٨٨٢، وسعى

الى تأسيس «علم تجريبي للظاهرات العقلية» من اجل ادراك المسارات العقلية التاريخية بواسطة الفهم. رائد في حقل «نقد العقل التاريخي» وممثل لفلسفة الحياة.

فيورباخ، لودفيغ (١٨٠٤-١٨٧٢) Feuerbach, Ludwig فيلسوف الماني اشتهر بنقده لهيجل واللاهوت المسيحي. اعتنق المادية بين ممثلي اليسار الهيجلي. يعتبر الحس هو الحقيقي بالذات. من مؤلفاته «جوهر المسيحية» و«مبادىء فلسفة المستقبل».

هيجل، جورج فردريك فيلهلم (١٧٧٠-١٨٣١) Hegl George Friedrich Wilhelm فيلسوف مثالي الماني يمثل ذروة الفكر المثالي في الفلسفة الحديثة: وهو من اصحاب المذاهب الفلسفية الشاملة. يعتبر مصدراً لاتجاهين اساسيين هما الوجودية والماركسية.

هيدغر، مارتن Heidegger, Martin: فيلسوف الماني معاصر، مولود ١٨٨٩ في سيكرش بمقاطعة بادن. تتلمذ بجامعة بادن على هسرل واحتل مكانة في الأستاذية بجامعة فرايبورغ.

هوركهايمر، ماكس (مدرسة فرانكفورت) Horkheimer, Max.

هوسرل، أدموند (١٨٥٩-١٩٣٨) Husserl, Edmund: مؤسس الفينومينولوجيا أو علم الظاهرات. حاول تأسيس الفلسفة على أنها «علم صارم» قبلي. ضد التجريبية والسيكولوجية.

كاوتسكي، (١٨٥٤-١٩٣٨)، Kautsky, Karl: مفكر اشتراكي نمساوي الماني، لعب دوراً رئيسياً في صياغة «برنامج إرفورت» واشترك في تأسيس الحزب الاشتراكي الديمقراطي. عارض لينين والبلاشفة مثلما عارض الذين نادوا بتصليح الماركسية وعقائدها.

كيركجارد، سورن (١٨١٣-١٨٥٥) Kierkegard, Soren: فيلسوف ولاهوتي دانماركي، يعتبر من مؤسسي الفلسفة الوجودية المسيحية، ومن أوائل الداعين الى تركيز الفلسفة على السؤال عن الوجود الانساني.

كولاكوفسكي، لتشك (١٩٢٧) Kolakowski, Leszek فيلسوف

مـاركـسي بـولوني الأصل، يقـيم في اوروبا الغـربيـة الآن. له كـتـابات عـديدة، منهـا «الماركـسـيـة ومـا وراءها». لعب دوراً رئيسياً في احداث اكـتوبر ١٩٥٦. طرد من الحزب الشيوعي البولوني عام ١٩٦٦.

لا شك، اميل (١٨٧٥-١٩١٥) Lask,Emile: فـيلسوف تتلمذ على فيـنـدلـبانـد وقـام بـالـتـدريس في هايدلبرغ منذ ١٩١٠، وسـعى الى اعـادةتأسيس الميتافيزيقيا من خلال نظريته عن مقولات المقولات.

لوفيث، كارل (١٨٩٧-١٩٧١) Lowith, Karl: استاذ للفلسفة في جـامـعـة هايدلبرغ، اشتغل بالدراسات في حقل الفلسفة الحديثة وانتقد هايدغـر. اشـهـر مـؤلفـاته: «من هيـغل الى نيـتشه» و«فلسفة نيتشه في العودة الأبدية».

لوكـسمبورغ، روزا (١٩١٩-١٨٧٠) Luxemburg, Rosa مفكرة ومناضلة المانيـة ثورية. قـائدة بارزة من قائدات الحركة العمالية العالمية. اشـتركـت في ثورة نوفـمبر ١٩١٨، ثم قـبض عليـهـا أعـداء الثـورة في كـانون الثاني ١٩١٩ فعذبوها وقتلوها.

ماخ، ارنست (١٨٣٨-١٩١٦) Mach, Ernst: فـيلسـوف وعالم فيزياء نمساوي الاصل، عمل استاذاً في فيينا ١٨٩٧-١٩٠١. يرى منشأ العلم وهدفـه في ارضاء الحاجات الحياتية الضرورية.

مـان، تـومـاس، كـاتـب وروائي الماني. نال جـائزة نوبل للآداب عـام ١٩٢٩. هاجـر من المانيـا بعد مجيء النازيين واقام بالقرب من زيوريخ حتـى ١٩٣٨، عـندمـا انتـقل الى اميركـا. اشـهـر مـؤلفـاته: «الجبل السـحـري» رواية ١٩٢٤ و«آل بودنبروك» ١٩٠١ و«الموت في البندقـيـة» ١٩١٢.

مانهايم، كارل: ١٨٩٣-١٩٤٨ Mannheim, Karl: عالم اجتماع ولـد في بودابست وتوفي في لندن. من تلامـذة مـاكس فـيبر. اسـتـاذ في (علم اجتماع المعرفة).

مـاركوزي، هربرت، (مدرسة فرانكفورت) Marcuse , Herbert

ناتورب، باول (١٨٣٤-١٩٢٤) Natorp, Paul فـيلسوف الماني

ومرب اجتماعي من تلامذة هرمان كوهن البارزين في مدرسة ماربورغ.

نوفاليس (١٧٧٢ـ١٨٠١): هو الاسم المستعار لفردريك فون هاردنبرغ، شاعر رومنطيقي الماني موهوب جداً. اشتهر بأناشيده الدينية «ترانيم الى الليل».

بليخانوف، جورج (١٨٥٦ـ١٩١٨) Plekhanov, G.: أحد منظري الماركسية البارزين ومن أعظم شارحيها. تعاون مع لينين على اصدر صحيفة «الشرارة» (ايسكرا). ثم انضم الى المنشفيك بعد المؤتمر الثاني للحركة الدولية (الأممية). من أشهر مؤلفاته: «دور الفرد في التاريخ» و«تطور النظرة الأحادية الجانب الى التاريخ» بالاضافة الى «دراسات في تاريخ المادية» و«الفن والحياة الاجتماعية».

ريكرت، هاينريخ (١٨٦٣ـ١٩٣٦) Rickert, Heinrich فيلسوف الماني كان استاذاً للفلسفة في جامعة هايدلبرغ منذ ١٩١٦ واشترك مع فندلباند في تأسيس مدرسة الكانطية الجديدة التي انطلقت من تعاليم كانط وفيخته. وتعرف المدرسة هذه بمدرسة الجنوب الغربي (هايدلبرغ).

شلايرماخر (١٨٥٨ـ١٩١٨) Schleiermacher: فيلسوف الماني ولاهوتي بروتستانتي. سعى الى التوفيق بين النظريات الاجتماعية الحديثة والمعتقدات الدينية الانجيلية. اشهر مؤلفاته كتاب «في الدين».

سيميل، جورج (١٨٥٨ـ١٩١٨) Simmel, George: فيلسوف وعالم اجتماع درس في جامعة ستراسبورغ، منذ ١٩١٤. قال بنظرية براغماتية عن الحقيقة قبل وليام جيمس. ينتمي الى القائلين بفلسفة الحياة. له مؤلفات عديدة منها «فلسفة النقود» وغيرها.

سوريل، جورج (١٨٤٧ـ١٩٢٢) Sorel, George: كاتب فرنسي ومفكر تأثر بتعاليم فيكو وبرغسون. انتقد الحضارة الحديثة وشدد على الطابع الثوري للاشتراكية. أهم مؤلفاته «أوهام التقدم» و «خواطر في العنف» ١٩٠٨.

شبنغلر ، أوزوالد، (١٨٨٠-١٩٣٦) Spengler , Oswald: فيلسوف حضاري، اشتهر من خلال مؤلفه الرئيسي (انهيار الغرب) (١٩١٨). نظر الى تاريخ العالم من زاوية حضارات متعددة واعتبر الحضارات بمثابة كائنات عضوية لها دورة حياتية محددة.

فيبر، ماركس (١٨٦٤-١٩٢٠) Weber, Max: مفكر اقتصادي سياسي وعالم اجتماع ورجل سياسة، مؤسس علم الاجتماع الديني سعى لرفع العلوم الاجتماعية الى مرتبة العلوم الدقيقة وأنعم النظر في المنهجية التي اعتبرها وصفية بحتة.

فندلباند، فيلهلم (١٨٤٨-١٩١٥) Windelband, Wilhelm: فيلسوف الماني، شغل الاستاذية في هايدلبرغ منذ ١٩٠٣. مؤرخ للفلسفة انطلق من نقدية كانط لكي يضع اسس المدرسة الكانطية الجديدة في الجنوب الغربي من المانيا.

زيتا، فيكتور Zitta, Victor: مفكر واستاذ للنظرية السياسية. يوغوسلافي المولد. درس في هنغاريا واستمع الى محاضرات لوكاش في ربيع ١٩٤٧ عن «منشأ التفكير الجدلي عند هيجل». يقيم في الولايات المتحدة حالياً.

قائمة المصطلحات

صورة طبق الأصل Abbild (mirror-image)

لا أدري Agnostic

المعنى Bedeutung

«البورجوازية المثقفة» (بورجوازية الثقافة) Bildungsburgertum

«بلوم» Blum هو الاسم الحزبي (الحركي) الذي حمله لوكاش داخل المنظمة الشيوعية الهنغارية الممنوعة. والاطروحات المسماة اطروحات بلوم هي برنامج عمل يرجع الى ١٩٢٨-١٩٢٩.

التفكير المفاهيمي Conceptual Thinking

الفهم على مستوى المعنى (الفهم التأويلي)
deutendes Verstehen (on the level of meaning)
النخبوية Elitism
الاغتراب، الاستلاب Entfremdung, Alienation
نظرية المعرفة Erkenntnistheorie (theory of cognition)
الفابية Fabianism (الاشتراكية): نسبة الى جماعة الفابيين (برناردشو وسيدني ويب وكير هاردي) التي تأسست في بريطانيا عام ١٨٨٤ ونادت بالاشتراكية التدريجية التي يتم تحقيقها بالطرق البرلمانية. ابتعدت عن الماركسية وكان لها تأثير على حزب العمال البريطاني.
وقائع - حقائق Facts (Matters - of - fact)
«نهاية القرن» Fin - de - Siecle
مدرسة فرانكفورت Frankfurt school (للبحوث الاجتماعية): مدرسة فلسفية نقدية تميل الى علم الاجتماع، في جامعة فرانكفورت. اشتهر منها ادورنو وهوركهايمر وبنجامين وهابرماس، بالاضافة الى هربرت ماركوزي.
حلقة غاليليو Galileo Circle
علم العقل Geisteswissenschaft أو الروح، ويقال له ايضاً علم الثقافة أو علم التاريخ. منذ منتصف القرن التاسع عشر تطلق هذه التسمية على مجموعة العلوم التي تعنى بالبحث في ابداعات العقل الانساني، مثل العلم والفن والدين والاقتصاد والقانون.
جدلية التاريخ، وديالكتيك التاريخ Geshichtsdialektik
البورجوازية العليا Haupte Bourgeoisie
مدرسة هايدلبرغ Heidelberg school (أو مدرسة بان في جنوب غربي المانيا): احدى المدرستين الرئيسيتين في الكانطية الجديدة. تزعمها فيندلباند وريكرت في جامعة هايدلبرغ.

Hermeneutics (Hermeneutik)
فن التأويل والتفسير ـ الأصل اليوناني لهذه اللفظة يعني «فن التأويل» و «فن الترجمة» والايضاح والتفسير، نسبة الى «هرمس» الذي كان وسيطاً في الاساطير الاغريقية بين الآلهة والبشر. ابتدأ هذا التفسير في حقل علوم اللغة من أجل توضيح الآثار الادبية الكلاسيكية. كان ديلثاي في طليعة الذين ادركوا أهمية هذا الفهم التأويلي. ويطلق هايدغر على فينومينولوجية الوجود الانساني في كتابه «الوجود والزمن» تسمية «الهرمنويتيك»

الفهم التأويلي Hermeneutic understanding

الكل Holism

الوعي الطبقي Klassenbewusstsein

صورة الحياة (صورة حياتية) Lebensform

فلسفة الحياة Lebensphilosophie (على غرار فلسفة الوجود)، حيث تؤلف «الحياة» المقولة الرئيسية للتفلسف والنظر الفلسفي.

مدرسة ماربورغ Marburg school (انظر هرمان كوهن، باول ناثورب):
مدرسة من مدارس الكانطية الجديدة في جامعة ماربورغ، المانيا.

عناصر Momente (elements)

يعيش من جديد، يحيا الخبرة مجدداً Nacherleben (relive)

علم الطبيعة: Naturwissenschaft. استخدم هذا المصطلح منذ القرن الثامن عشر للدلالة على مجموعة العلوم التي تعنى بالبحث الموجه صوب الطبيعة. ولقد سمي الباحثون في الطبيعة قبل ذلك بالفلاسفة الطبيعيين.

الفينومينولوجيا ـ الظاهرية ـ علم الظاهرات Phenomenology

«براكسيس» = الممارسة، التطبيق العملي (مقابل Praxis)
النظرية = Theorie

المنتجون الخلاقون(الـذكاء المنتج) Creative Producers
(Produktionsintelligenz)

السيكولوجية Psychologism
التشاؤمية الرزينة Stoical Pessimism
النزعة الذاتية Subjectivism
النقابية Syndicalism
الشيء في ذاتـــه Thing-in-itself
أحكام قيمية Value Judgements
الطليعة Vanguard
التشيؤ Verdinglichung
الفهم Verstehen
النظرة الشاملة الى الكون والعالم Weltanschauung

مؤلفات لوكاش المترجمة الى الانكليزية :

1 - History and Class Consciousness, (1923)

التاريخ والوعي الطبقي، (ظهرت الترجمة الانكليزية عام ١٩٧١).

2 - The Soul and the Forms (1910)

الروح والأشكال، (ظهرت الترجمة الانكليزية عام ١٩٧١).

3 - The Theory of the Novel (1920)

نظرية الرواية ، (ظهرت الترجمة الانكليزية عام ١٩٧١).

بعض الدراسات عن لوكاش

1 - Bahr, Emhard and Kunzer, Ruth G. , George Lukacs.

2 - Parkinson, George H. , George Lukas (1970).

الفهـرست العـام

(١) ارنستو غيفارا

(٢) جورج اورويل

(٣) جورج لوكاش

ماهر الكيالي

- من مواليد الرملة / فلسطين ١٩٤٨.
- بكالوريوس في الاقتصاد والاحصاء من الجامعة الأردنية عمان - ١٩٧٠.
- ماجستير في إدارة الأعمال (MBA) جامعة وسكاونسن - الأمريكية عام ١٩٧٣.
- التحق منذ العام ١٩٧٣ بالمؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت التي أسسها شقيقه الدكتور عبد الوهاب الكيالي.
- أسس دار الفارس للنشر والتوزيع في عمان في العام ١٩٨٨.
- انتخب عام ١٩٨٣ أميناً عاماً مساعداً في اتحاد الناشرين العرب وأعيد انتخابه في العام ١٩٨٨ والعام ١٩٩٣.
- عضو مؤسس في اتحاد الناشرين الأردنيين.
- الاعمال المترجمة وجميعها صادرة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر :

● اليهودي اللايهودي (طبعتان).
● غيفارا (خمس طبعات) .
● ما هو التاريخ؟ (طبعتان).
● الماركسية وحرب العصابات.
● لوكاش.
● اورويل.
● عن طريق الخداع.

كتب من اعداده :

● المتنبي - قصائد مختارة (طبعتان).
● ١٠٠ كتاب عن حرب اكتوبر بالاشتراك مع ماجد نعمة.
● ساهم في موسوعة السياسة والموسوعة العسكرية.